البلاغة النبويّة

د. محمد رجب البيومى



الدار المصرية اللبنانية

البلاغة النبوية

الدار المصرية اللبنانية
16 عبد الخالق ثروت تليفون: 23910250
فاكس: 3909618٢ ـ ص.ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www.almasriah.com

رقم الإيداع : 1597 / 2008
الترقيم الدولى : 2 - 336 - 427 - 977

الطبعة الثانيةوالطبعة الأولى للدار المصرية اللبنانية
المحرم: ١٤٢٩ هـ ـ يناير 2008 م

البلاغة النبوية

الدكتور محمد رجب البيومى

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتـــويات

* * *

مقـــدمـة

منذ زمن بعيد .. وأنا أبحث فى المكتبة العربية عن كتاب يخص : بيان محمد ﷺ بدراسة تحليلية مفصلة فلا أجد ؛ إذ إن كتاب الله الخالد قد شغل جمهور النقاد وأئمة البلاغيين فى القديم والحـديث بدراسـة إعجـازه ؛ فأطـالوا القـول كـما يـشاءون .. مستعرضين ما يعـن لهم من أبواب الإعجاز ومناحيه ، ولم يشحذ أحد هـؤلاء همتـه ليخص البيان النبوى بدراسة تحليلية ، فى كتاب خـاص تظهـر روائـع إبداعـه ﷺ ، وتوضح سمات أسلوبه ، ومع كثرة ما كتـب عـن تـاريخ محمـد ﷺ مـن المجلـدات الواسعة شرقًا وغربًا ، وقديمًا وحديثًا ، قل أن تجد من أفرد فـصلاً خاصًّـا فى مؤلفـه الكبير يتعرض فيه إلى البيان النبوى فى تدفق وإسـهاب ، إلا مـا كـان مـن إشـارات عابرة تنبئ عن أنه أفصح العرب ، وقد نشأ فى قريش وتربـى فى بنـى سـعد ؛ فـرزق بلاغة وبيانًا ، وأوتى جوامع الكلم ؛ فإذا تجـاوز الكاتـب ذلـك ، فـإلى أمثلـة نبويـة مشتهرة من نحو قوله عليه الصلاة والسلام : « رفقًا أنجـشة بـالقوارير » ، « إيـاكم وخضراء الدمن » ، « هدنة على دخن » ، حتى البلغـاء مـن أمثـال (الجـاحظ وأبـى هلال وابن الأثير) قد اقتضبوا القول اقتضابًا فى سرعة طائرة دون أن يطيلوا القـول الشارح فى دقة واستقصاء، وسنلم بهذه القضية فى فصل من الفـصول التاليـة . أمـا (الشريف الرضى) فقد خص المجازات النبوية بكتابٍ خاص ؛ فسدَّ مـسدًّا لم يـسده أحد قبله أو بعده . ولكن المجازات ليست إلا بابًا واحدًا من أبواب البيان النبـوى . ولذلك ظلت الحاجة داعية إلى تأليف كتاب شارح ، يفصل الحديث عن بيان خـاتم الأنبياء .

ثم أذن لى أن أتقدم برسالة الدكتوراه إلى كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر ، فأخذت أستعرض كثيرًا من الموضوعات الأدبية التى تدعو الحاجة إلى بحثها ، وكان « موضوع البيان النبوى » أسرع هذه الموضوعات إلى نفسى ، وأشدها سيطرة على تفكيرى ، فكنت أحاول أن أبتعد عنه ؛ لما أعلم من تعدد مناحيه وصعوبة مرتقاه ، وافتقاره كل الافتقار إلى كتاب عملاق ليستطيع أن يستشف اللباب الخالص من هذا التراث الحفيل ، وأن يتبين الأسرار الدفينة فى أدب رفيع كان أروع ما أوحت به البشرية الإنسانية من بيان . ولكن الموضوع يلح علىّ إلحاحًا ، ويتسرب إلى منافذ إحساسى وشعاب تفكيرى تسربًا يجبرنى على بحثه ، فقلت فى نفسى : لتضع أنت اللبنة الأولى فى هذا الصرح الشاهق ؛ فلعل أديبًا كبيرًا يفكر فيما كتبت ، فيحاول أن يقيم الصرح ، وحسبك أن وجهت إليه الأنظار وذلك جهد ما تستطيع.

ثم بدا لى أن أضع خطة البحث ؛ فتذكرت أن أستاذًا جامعيًّا قد تعرض قريبًا إلى رسائل الدكتوراه العلمية بجامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية بنقد هادف ، فأعلن أن كثيرًا منها لا يبرز المجهود الذاتى فى روعة الابتكار ، وحسن الاختيار ، وطرافة البحث ، وظهور الشخصية ، وإضافة أشياء جديدة مهمة إلى الموضوع المعالج ، إنما هى صفحات تزدحم وتتكاثر ، وجلها نقول محشودة ، وأقوال مرصودة . والبحث الجامعى فى رأى الناقد لا ينبغى أن يقف عند الحشد المتزاحم ، بل لابد من الإضافات الجديدة والبعد عن المطروق الذلول ، وعن الاهتمام بالكم العددى اهتمامًا يجعل الميزان الحديدى أحد مرجحات التقدير فى الحجم الثقيل ، كما أن موضوع البحث يجب أن يرتكز على نقطة واحدة لا على عدة نقاط ، فالرسالة الجامعية التى تبحث عن عصر أدبى ، بما يموج فيه من مذاهب وشخصيات وأفكار ، ليست رسالة جامعية مقبولة لدى الناقد ، مهما تعددت صفحاتها ، إنما هى ملخصات تسرد فى تتابع . والرسالة الجامعية المقبولة لديه هى التى تثير الغبار عن نقطة واحدة مجهولة ؛ فتسلط عليها الضوء حتى تتضح . أقول :

لقد ذكرت ما قاله الناقد الجامعى حين بدا لى أن أضع خطة البحث ، فوقع فى نفسى أطيب موقع ، وصممت على أن أبحث نقطة : (البيان النبوى) وحدها ، متجنبًا الحشود والفضول ، هادفًا إلى الغرض من أقرب طريق ، نائيًا عن المكرر المعاد ، فإذا تطلبه المقام فى بعض الفصول فإلمامة موجزة تشير إليه أولى من الإسهاب المطيل .

لقد بدأت الرسالة بفصل يبدد « ما حيك حول السنة النبوية » ، من شبهات دفع إليها الجهل عند قوم ، والغرض عن آخرين ، والإرجاف بالسنة المطهرة قديم عريق فى تاريخ الإسلام ، ولكن هذا العصر قد ابتدع من الشبه ما لا تكفى فيه الإحالة على ما كتب المتقدمون ، فعمدت إلى إحقاق الحق مظهرًا دخائل من لبسوا الباطل بالحق من ذوى الاستشراق ، ومشيرًا إلى من تأثر بهم من صادقى النية فى علمائنا ، وكنت مع ما ألزمت به نفسى من الإيجاز المقنع حريصًا على ألا أترك فى صدر القارئ المنصف شبهة تتردد . وهذا الفصل الأول لابد منه فى رسالة تتعرض إلى تحليل البيان النبوى ؛ لتقف أقدامنا على أرض صلبة لا تصيبها زلازل الشك ببعض الصدوع .

ثم ثنيت بفصل يتحدث عن « الطابع الأدبى للبيان النبوى » ؛ لأجعل من تحقق هذا الطابع دليلاً على صحة النص المحمدى ؛ إذ إن علماء الحديث قد أطالوا القول فى السند ، ثم فى المتن من ناحية المضمون . وتركوا الحديث عن طابعه الأدبى بخصائصه المميزة ، وهو فى الحقيقة أحد موازين التقدير والترجيح ، وقد مهدت بذلك للرد على من يرون من العلماء عدم الاستشهاد بالحديث النبوى لغة ونحوًا ؛ مفندًا آراءهم بما قال بعض الأفذاذ فى ذلك ، وبما تهيأ لى من الرأى مستندًا إلى ما جمعته من الحجج الصحيحة . متعجبًا أن يكون نثر الأعراب موضع استشهاد لدى علماء اللغة والنحو ، ثم لا يكون حديث أفصح الخلق أهلاً لذلك عند بعض المتزمتين .

وجاء الفصل الثالث ليتحدث عن « العامل الرئيسى فى تكوين بيان محمد ﷺ » ، جازمًا بأن ما يذكر كثيرًا بصدد ذلك من نشأته فى قريش ورضاعه فى بنى سعد ، إنما كان أقل العوامل فى بيانه النبوى ، إنما العامل الأول هو فطرته القوية التى طبعه الله عليها منذ اختاره للدعوة، والله أعلم حيث يجعل رسالته. هذه الفطرة السليمة التى دفعته إلى التفكير فى آثام الجاهلية ونزواتها ، ثم إلى التألم مما انحدرت إليه الإنسانية من موبقات ، مع الظمأ اللاهب إلى معرفة الحقائق الصحية عن خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والموت والحياة . كل ذلك كان مبعث أسئلة عويصة تتردد قبل البعثة فى نفس صاحب هذه الفطرة القوية المتطلعة ، ثم اختصه الله بالقرآن ؛ فأجاب عن أسئلته وهداه الطريق الأقوم ، فكان أستاذه الموجه دون نزاع . يصدر عنه فى تفكيره ويستهديه فى خطبه ورسائله وأحاديثه . وأنعم بما صدر عنه وبما استهداه !

وكان لابد من الحديث عن محمد الخطيب فى فصل رابع ، يشرح « سمات خطابته ﷺ » فيعرض بالتمثيل والشرح إلى ما اتسمت به من الإيجاز وقوة الإقناع ، ووضوح العبارة مع التزام الصدق والوقوف على أسرار النفوس ، ومطاوى الأفئدة لدى المستمعين ؛ ليأتى القائل بما يجذب ويروع . وقد تعود كثير من مؤرخى الأدب العربى أن يتحدثوا عن محمد الخطيب ، حديث الملخصات المدرسية . إذ يكتبون صفات مقتضبة مرقمة تنطبق على خطب محمد ﷺ كما تنطبق على خطب علىّ كرم الله وجهه . ولكنى جعلت التشريح الأدبى للنصوص النبوية رائدى فى التشخيص والتعليل . وأعتقد أنى أتيت فى ذلك ببعض ما يقال .

أما « موقف الرسول من الشعر والشعراء » ، فكان مجال فصل خامس ، يبسط هذه القضية موضحًا ما أحيط بها من لغط كثير ، وكاشفًا قدر الطاقة ما تجمع من غيم يتراكم على الأجيال ؛ إذ ينقل اللاحق عن السابق دون تمحيص . وقد خالفت الجمهرة الغالبة من الأدباء ؛ حين أجمعت كثرتهم الكاثرة على أن أفصح عربى خلقه الله كان لا يقيم وزن الشعر فى الإنشاد ، بل يبدل كلمة مكان كلمة حتى لا يتوهم

متوهم أنه ينشئ الشعر ، والفرق بين الإنشاد والإنشاء هو ما عولت عليه فى إحقاق الرأى ، وقد صدرت فيما ذهبت إليه عن اجتهاد وبحث ، فإذا أخطأت فحسبى أن اجتهدت .

ثم تحدثت فى الفصل السادس عن « رسائل محمد ﷺ ونصوص معاهداته » ؛ فجعلت من سماتها الدقة الموجزة ، ومراعاة مقتضى الحال فى التزام الواقع والبعد عن المجاز ما أمكن ؛ حذرًا من اختلاف الفهم عند التفسير والتأويل ، وضربت الأمثلة المتعددة لذلك بما تُنوقل عنه فى رسائله ومعاهداته ﷺ ، مبددًا شبهة من ظن بها بعض الجفاف ، إذ إنها فى احترازها اللبق قد صادفت مقتضى الحال ، ولو مالت إلى الرونق البلاغى لفتحت باب اللجاج عند تطبيق النص الملتزم . وهذا ما تحاشاه أبلغ الفصحاء .

وجاء الفصل السابع ليتحدث عن « الأقصوصة فى أدب الرسول » ، فاخترت منها بعض ما روته كتب السنة المطهرة ، موضحًا خصائصه الأدبية من الاعتماد على الوحدة الفنية ، وانتقاء اللفظ الموحى مع الاستشارة الآخذة ، والتشويق الجاذب ، مبينًا كيف اعتمد الرسول على المناجاة فى بعض أقاصيصه ، وعلى الحوار فى بعضها الآخر ، ومصورًا قدرته على رسم الحادثة ، وتلوين الشخصية فى إطارها الخاص لتبلغ مبلغًا من السامعين .

ثم انتقلت إلى الحديث فى الفصل الثامن عن « صور القيامة فى أدب محمد » ، فأوضحت كيف كان القرآن أول كتاب فى العربية رسم هذه المشاهد فى قوة وتأثير . وكيف صدر عنه محمد فيما تحدث به من مشاهد الآخرة ، فلون مواقف الصراط والميزان والحساب والجنة والنار تلوينًا أخاذًا ترسمه المبدعون من بعده شرقًا وغربًا . وأفضت فى ذكر الأمثلة الدالة والشواهد الشارحة .

وكان حديثى فى الفصل التاسع عن « تأثير حديث المعراج فى الأدب العالمى شرقيه وغربيه » ، امتدادًا للحديث السابق من بعض وجوهه ، لأن بعض مشاهد المعراج تشبه بعض مشاهد القيامة ، وتقترب منها اقترابًا قويًا . ولكن الفصل

التاسع قد اختص « بقضية التأثير النبوى فى بعض الآثار الأوروبية والفارسية » فضلاً عن الأدب العربى ، وتوضيح ذلك مما يتحتم فى رسالة تبحث عن بيان محمد عليه الصلاة والسلام .

ثم جاء الحديث فى الفصل العاشر عن « محمد الداعية » ، فحددت المقصود من الداعى فارقًا بينه وبين الخطيب ، وقد أفضت فى تشريح ما اعتمد عليه الداعية الأعظم فى أسلوبه الإرشادى ، من التكرار المعنوى ، ومن لباقة العرض للموضوع الواحد فى صور مختلفة ، من استثارة الوجدان الإنسانى بتقديم ما يمتعه ويقنعه ويرضيه .

أما الفصل الحادى عشر فقد قصرته على الحديث عن « محمد رائد الابتهال فى الأدب العربى » ، فاستعرضت نماذج مختلفة لأدعيته النبوية ، مفصلاً أهدافها وشارحًا خصائصها ، ثم مشيرًا إلى ضرورة الاعتناء بها لدى مؤرخى الأدب العربى؛ باعتبارها فنًّا جديدًا قد احتذاه أساطين البلغاء من أمثال (على وزين العابدين وجعفر الصادق والحسن البصرى) إلى أساطين الصوفية وأئمة الوعظ على مر العصور ، دون أن يجد هذا الفن الرائع من يخصه بالبحث فى كتاب مستوعب كبعض الأغراض الهابطة من خمريات وهجاء ونقائض ، تلك التى أتخمت بها المؤلفات إتخامًا حتى أملت وأضجرت . وغيرها من الأدب الرائع تحت الأطباق دفين طريح . ولا أجد حرجًا من القول بأنى اعتمدت على نفسى وحدها فى الحديث عن الأقصوصة النبوية ، وعن مشاهد القيامة ، وعن محمد الداعية وعن رائد فن الابتهال ؛ إذ لم أجد من الكتّاب من سبق له بعض القول فى ذلك ، ولن أقول هذا تزيدًا ، بل أشير إلى أن هذه الأبواب الجديدة بذور تغرس حديثًا فى الأرض ، وتتطلب المعاودة والمراجعة ككل جديد .

ويجىء الفصل الثانى عشر – وهو ذو أهمية كبيرة فى البحث – ليتكلم عن «سمات البيان النبوى» ، فيشرح خصائص الأدب المحمدى مقسمًا عناصر أسلوبه إلى أفكار وصور وتعبير ، ثم ليتحدث عن كل عنصر بما يبرز دقائقه مع التمثيل والتدليل ، وإذا كان تقسيم الأسلوب إلى عناصر ثلاثة مسألة اصطلاحية معاصرة ؛ إذ إنه لا يمنع أن تكون الصورة جزءًا من الفكر فى كثير من الأساليب ، كما أن التعبير يلتصق بالفكرة التصاقًا تامًّا بحيث لا تبرز فى البيان الأدبى عن غير طريقة .

أقول : إذا كان هذا التقسيم مسألة اصطلاحية ؛ فقد راعيتها على ما يوجه إليها من بعض الاعتراض ؛ لأنها مع ذلك كله أقرب طريق إلى التحليل الصادق والتشريح الواضح ؛ بحيث تعطى القارئ صورة أمينة لما يريد الكاتب أن يقوله عن كل نص أدبى يتعرض له ، وقد اتسع المجال فى هذا الفصل للحديث عن أمور بيانية تندرج فى الصورة الفنية ، فأوضحت المراد من التشبيه فى البلاغة المعاصرة ، وبينت الصورة الجزئية ، والصورة الكلية ومنزلتهما فى الأسلوب البيانى ، كما أوضحت المراد من الموسيقى الخفية النثرية على نحو ما أسفرت عنه الدراسات المعاصرة ، كل ذلك فى ظلال الاستشهاد بالحديث النبوى ، وفى ظلال الحديث عن التعبير النبوى ، رأيت الموضوع يتسع للقول المحدد عن الغرابة فى الألفاظ ، مفصلاً كيف استعملها الرسول فى بعض مخاطباته للأعراب من القبائل النازحة ، كما بينت ما يورثه التكلف البديعى فى القول من ثقل وجفاف ، موضحًا موقف البيان المحمدى من السجع ، ومستشهدًا بآراء النقاد فى ذلك . مما أرجو معه أن تكون سمات الأدب النبوى قد برزت بوضوح لا لبس فيه .

هذا .. ومجال القول فى هذا الفصل بالذات شاسع فياح ، ولكن التحديد أجدر.

أما الفصل الثالث عشر فقد اختص بإيضاح « رسالة الأدب كما حققها نبى الإسلام » ، وقد بدأته بالإشارة إلى أن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل، وقد كان تعبير رسول الله كخواطره الشريفة فى أرفع درجات الجمال ، فهو بهذا الاعتبار أديب لا محالة .

ورأيت أن أشير إلى التقاء الأدب الرفيع بالدين حين يصدر الأديب عن مثل رائعةٍ ومبادئ نبيلة ، مبينًا كيف سما محمد برسالة الأدب سموًّا لا يتطاول ، ومفصلاً نصيبه ﷺ من تحرير الأفكار وإنارة العقول ؛ مما يساعد على إبداع أدب عاقل متحرر، ولم أر بدًّا من الإلمام بقضية الفن للفن كما تتردد بين الحين والحين ، لأرى مدى ما تنتهى إليه فى ظلال الحديث عن أديب كبير كنبى الإسلام ، ثم استشهدت بفقرات جميلة للأستاذ (درينى خشبة) عقدها فى الموازنة بين أثر الأدب النبوى فى إصلاح العالم ، وأثر كبار أدباء أوروبا فى كل لغة وموطن . وهو قول لم يصدر عن حماسة المؤمن قدر ما صدر عن بحث المنقب الهادف ، وقضاء العادل المنصف .

وكنت أتمنى أن أعرف موقف الرسول من النصوص الأدبية فى عصره ، وما سبقه من أدب الجاهلين ، وحين أعوزنى ذلك عقدت الفصل الرابع عشر لأتحدث عن « تفسير النبى ﷺ للقرآن » على أنه فى بعض وجوهه نص بيانى . فضربت الأمثلة الوافية لما كشف به النبى عليه الصلاة والسلام عن بعض المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق ؛ ولما فسر به النبى كلام الله فى سياق إرشادى يمهد للمعانى القرآنية ، ويكشف عن مدلولها ، ثم لما جاء فيه التفسير المحمدى إجابة عن سؤال ، أو مراعاة لواقع حال . ولم ألجأ إلى كتب التفسير المشتهرة فى ذلك ؛ بل لجأت إلى النصوص النبوية فى كتب الحديث ، وهى بحمد الله ذات حيز كبير .

أما الفصل الخامس عشر فقد جعلت عنوانه « بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث » متلمسًا ما يقال فى الاختلاف الشاسع بين الأسلوب المعجز والأسلوب المبدع . ليكون هذا الباب فى لبابه ردًّا على من يزعمون من ذوى الاستشراق أن

القرآن من تأليف محمد . إذ ما بين الأسلوبين من الاختلاف لا يشير أدنى إشـارة إلى تأييد هذه الفرية الخبيثة . وقد تعمدت تعمـدًا أن أكثـر الاستـشهاد والنقـل فى هـذا الفصل بالذات عن كبار الكتّاب والباحثين ، لأجد من أقوالهم ما يزيد الموضوع قوة وتأييدًا . وقد قلت بصدد ذلك : أن الكاتـب ضـعيف بنفـسه ، قـوى بتأييـد غـيره وموافقته . فإذا استعنت فى هذا المقام الدقيق بآراء ذوى العقول القوية ؛ فقد آويـت إلى ركن شديد .

ويجىء الفصل السادس عشر – وهو الفصل الأخير – خاصًّا بما تحدث به كبار النقاد فى القديم والحديث عن « البيان المحمدى » فاستعرضت أهم ما قال الجـاحظ والشريف وابن الأثير محللاً مناقشًا ، ومكتفيًا بهم عن غيرهم فى القديم ، ثم عمدت إلى ثلاثة من قادة المعاصرين فى الأدب العربى وهم : الرافعـى والعقـاد والزيـات ، فأوجزت بعض اللباب مما سجلوه عن البيان النبوى . وقد تحدث هـؤلاء جميعًـا بـما شرّح سمات الأدب النبوى تشريحًا يضاف إلى ما خصصت به الفـصل الثـانى عـشر من تحليل ؛ فيزيده قوة وتأكيدًا ، كما يبين كيف وقفت هذه العقـول الكبـيرة موقـف المأخوذ بأدب النبوة المسحور بطابعه الفريد ، وهـو تبيـين يؤيـده الـشاهد ويدعمـه الدليل .

أما المراجع ، فقد تعددت وتنوعـت ، وسأشـير إلى أهمهـا فى خاتمـة البحـث . ولكنى أخص بالذكر مرجعًا حافلاً هو كتاب : « التاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول » وقد كتبه مؤلفه المعاصر فى خمسة أجزاء كبار ، تحوى ما فى أصول الحديث الخمسة الصحاح وهى : صحيح البخارى ، وصـحيح مـسلم ، وسـنن أبـى داود ، وجـامع الترمـذى ، والمجتبـى للنـسائى ، ثـم رتبـه وفـق الأبـواب مـن عبـادات ومعاملات وآداب وسير ومكارم أخلاق ومغاز وابتهال ورقـائق ... وهلـم جـرًّا ، فيسر لى طريق البحث إذ إنه عرض ما فى الكتـب الـصحاح عرضًـا سـهلاً ذلـولاً ؛ يقرب المراد من أيسر طريق ، وقد قرظه كبار العلماء المعـاصرين كالأسـاتذة : محمـد بخيت ، وعبد المجيد اللبان ، ويوسف الدجّوى ، وعبد الوهاب النجـار ، وحبيـب

الله الشقنيطى ، بما لا مزيد عليه فوق تزكية الأستاذ محمد مصطفى المراغى إياه ، وقد قرأته جميعه مرات كثيرة فوجدته أهلاً لكل تزكية ، واعتمدت عليه فى أكثر ما رويت من الأخبار عن رسول الله . أما « هداية البارى إلى ترتيب أحاديث البخارى » بجزئيه الكبيرين ، فقد أكثرت من النقل عنه دون الأصل ؛ لأنه رتب الأحاديث النبوية – مستقاة من صحيح البخارى – وفق الحروف الأبجدية ، فكان ذلك مما يسهل العثور على النص النبوى دون عناء . وجزى الله أنصار السنة بما أسلفوه ، وأنزلهم أرفع المنازل يوم يقوم الأشهاد .

هذا .. وأرانى بعد ما بذلت جهدى المحدود فى هذه الرسالة المتواضعة ، مضطرًّا إلى أن أختم مقدمة البحث بما ختم به الأستاذ (مصطفى الرافعى) حديثه عن البلاغة النبوية إذ قال :

« على أننا إن كنا قد عجزنا ، ووعدنا الكلام أكثر مما أنجزنا ، فلا ضير أن نصف النجم فى سراه ، وإن لم نستقر فى ذراه ، ونستدل بما رأينا منه ، وإن لم ننفذ فيما واراه ، وإذا خطر الفكر الضئيل فى مثل هذه الحقيقة السامية ، فقل إنها خطرة ضيف، وإذا اجتمع للقلم سواء فى تلك السماء العالية ، فقل إنما هى سحابة صيف ، ولعمر الله كيف نضرب بالغاية على تلك البلاغة التى لا تحد ، وكيف نمضى بعد أن كلّ حد الفكر ، ووقفنا عند هذا الحد »[(١)] .

على أنى أزيد على قول الأستاذ الرافعى ، أن أدعوَ الله بهذه الآية الكريمة :
﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[(٢)] .

* * *

(١) « إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص ٣٧٨ .
(٢) سورة البقرة : ٢٨٦ .

النص النبوى ثابت مكين

لم تخل الأحاديث النبوية الكريمة من شبهات ظالمة ، تحيق بها بين الحين والحين، إذ يرجف بها قوم لم يبلغوا من أصالة العلم حدًّا يقف بهم موقف المطمئن الواثق ، فيسرعون إلى تسطير ما تهجس به نفوسهم دون تريث ، ولكن الراسخين فى العلم من ذوى البصر الثاقب بتاريخ الحديث والمحدثين ، كانوا ولا يزالون يؤدون حق الله فى تمحيص الحقائق ، وإزالة الأراجيف ، فما يهتف شاك بقول مخطئ حتى تجد السنة المطهرة أنصارها الغير من قوم علموا الحق فأذاعوه ، ورأوا الباطل فناوءوه ، ومن الطبيعى فى تاريخ العلم أن تنشأ بعض الشكوك حول بعض مقرراته، وهى مما لا تضيق بها صدور قوم يعلمون أن الشك طريق اليقين ، وأن من حق المتشكك أن يفصح عن خباياه ، ليجد الدواء الناجع فى شفائه ، فإذا عرف الحقيقة وأشاح عنها متعسفًا غير منصف ، فلا علينا منه ، وحسب المنصفين أن يطمئنوا إلى معتقدهم الصحيح .

وقد كان الخوارج وبعض غلاة الرافضة ممن أباحوا لأنفسهم تجريح بعض الصحابة ، ووراء ذلك تجريح ما يروونه من بعض الأحاديث ، ثم قام بعض رءوس الاعتزال يجاهرون بالشك فى حجية السنة ، بأدلة يرونها موضع السداد والتوفيق ، ولكن الله قد قيض للسنة من يدحض أدلة الاعتزال ، حيث فسح الإمام الشافعى فى الأم[1] مجالاً واسعًا لعرض آراء الناقدين ، والإتيان على بنيانها من القواعد ، وقد

(١) الجزء السابع من كتاب « جامع بيان العلم » ، ص ٢٥٠ .

سبق ذلك مساق الجدل فى حوار هادف يرد الحق إلى نصابه ، ثم مضت العصور وما تزال حجج الإمام الشافعى فى أدلتها الملزمة ، وإفحامها الملجم موضع القبول والإعجاب ، ممن لا يعتقدون الرأى عن هوى مريب .

أما ما افتراه الزنادقة والملاحدة حول السنة المطهرة ، فما أسرع أن تبدد ظلامه فى ضياء الحقائق ! وكان صدوره من ذوى الريب مدعاة للنفور منه بادئ ذى بدء ، إذ هناك فرق بعيد بين أن يرجف بالسنة معتزلى ، شبه عليه وجه الحق وهو بعد صادق السريرة عظيم الإخلاص ، جهير الحجة ، وبين أن يرجف بها زنديق يلحد فى آيات الله ، ويتعمد مواطن الريب ، لينسج من وهيها المتآكل ستارًا يضل البصائر الكليلة ، ويرضى النفوس العليلة ، لذلك .. كانت الأسماع تنأى عن مفتريات الزنادقة الكاذبة عن الحديث وغيره من أصول التشريع ، وإن كان ذلك لم يمنع علماء الإسلام من تفنيد شبهاتهم الواهية من أقرب طريق .

وإذا كان لكل عصر شكوكه وأوهامه ، فإن المعركة لا تزال قائمة ، إذ دلف إلى الميدان فريق من المستشرقين تسلحوا بسعة الاطلاع ، وادعوا أصالة المنهج فى التبويب والتحرير ، وعكفوا على المخطوطات المجفوة ينشرون مهملها ، ويفسرون نصوصها ، ثم خدعوا بعض الناس لدينا ، وأكثرهم قد تتلمذ عليهم فى بلادهم ، ولم تكن لديه دراسة إسلامية بصيرة قبل الاتصال بهم ، فحين قرأ بحوثهم المغرضة، وقر فى نفسه أنها آية من الآيات فى سلامة المنهج وصحة الاستقراء ، ودقة الاستنباط، ثم وفد إلينا مع رفاقه ليبشروا بآراء أساتذتهم ، وفيهم من أصاخ إلى الحق من علمائنا بعد النقاش والتصويب فبان لديه الزيف ، ومن مضى فى غلوائه ، فظل يردد ما نقل ، ثم ترجمت إلينا نصوص هؤلاء ، فقرأ طلاب العلم دوائر معارفهم الإسلامية ، ونصوص مؤلفاتهم الدينية ، وقد مزجت السم بالدسم ، فكان واجبًا أن تنشب المعركة من جديد ، لاسيما أن الأحاديث النبوية قد ظفرت من افتراء الاستشراق بأوفى نصيب .

وإذا كانت دائرة المعارف الإسلامية قد ترجمت إلى العربية تحت عناية وزارتى التربية والثقافة ، فأتيح لها أن تصل إلى كل مكتبة عربية فى المدارس والكليات والمجامع العلمية ، فإن مما يفاجأ القارئ أن يجد بها فى مادة الحديث هذه الأسطر المريبة :

« لا يمكن أن تعد الكثرة الغالبة من الأحاديث وصفًا تاريخيًّا صحيحًا لسنة النبى ، بل هى على عكس ذلك تمثل آراء اعتنقها بعض أصحاب النفوذ فى القرون الأولى بعد وفاة محمد ، ونسبت إليه فقط .. » .

والحق أن سياسة الاستشراق التبشيرية كانت من البراعة بحيث استطاعت أن تخفى نياتها المرضية فى هذه الناحية المهمة ، متذرعة بما يوجد فى بعض الكتب الدينية من الأحاديث الموضوعة . فاستقت منها مادتها الخصبة للدلالة على ما تزعم ، متطرقة من بابها الهين إلى الطعن فى جل ما ورد ، مع أن المبتدئين فى علم السنة يعرفون أن أئمة الحديث قد أسهبوا القول فى الموضوعات من الأحاديث ، ولم يتركوا أثرًا نبويًّا إلا حكموا عليه وأبانوا درجته ، وتعرفوا سلسلة رواته وحقيقة متنه ، ثم بحثوا عن الوضع الكاذب ومتى بدأ . أبدأ فى عهد الخلافة الراشدة ، أم فى عهد الأمويين ومن وليهم ؟ ثم ما مبررات هذا الاختلاق ، أهى الخلافات السياسية بين الأمويين والخوارج والشيعة ، إذ ينتصر كل فريق بما يروج من المفتريات ، أم الزندقة المتأصلة فى نفوس قوم آمنت ألسنتهم وكفرت قلوبهم ، فهبوا يهدمون الإسلام ، أم يحاولون بما يختلقون من أكاذيب تنسب لصاحب الدعوة المطهرة ، أم العصبية القاتلة للجنس والقبيلة واللغة والموطن ، أم القصص والمواعظ التى قام بها أناس لا يرجون لله وقارًا ، فاستهووا العامة بغرائب الأقوال عن الجنة والعرش والملائكة وخلق الكون وتواريخ السابقين معزوة إلى رسول الله ، أم الخلافات الفقهية والكلامية التى جعلت ضعاف النفوس يؤيدون أقوالهم بالمخترع الزائف ، دون تقوى أو خشية ، أم الجهل الشائن بالدين يدفع فريقًا من الزهاد والعباد إلى

اختلاق أحاديث الترغيب والترهيب ؛ ظنًّا منهم أنها تميل بالنفوس إلى الخير عن الشر ، وتجتذب الغافلين إلى الاستغفار والتسبيح ، أم التطفل المباهى بالمعرفة لدى نفر يفتخرون بعلو الإسناد وغريب الحديث[1] .

أجل .. عرف المبتدئون فى دراسة الحديث كل ذلك ، كما عرفوا أن جهودًا جبارة بذلت من كبار العلماء لمقاومة الوضع والتوثيق من الأحاديث ، فنقدوا الرواة ودرسوا تاريخهم عن الثقات ، ليعلموا الصادق من الكاذب ، ثم وضعوا قواعد عامة لتقسيم الحديث وتمييزه، من صحيح وحسن وضعيف ، ومن مرسل ومنقطع، وشاذ ومنكر ، ثم ذكروا علامات كثيرة للوضع فى السند والمتن ملئت بها الأسفار . حتى أصبح لدينا علم خاص يعرف بمصطلح الحديث . كما أفردوا كتبًا خاصة بالأحاديث الموضوعة مثل « اللآلئ المصنوعة من الأحاديث الموضوعة » ، و« تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث » ، و« كشف الخفاء ومزيل الإلباس ، عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس » لأئمة من كبار المحدثين فى الإسلام ، وإذا كانت سنة الله تقضى أن يعترف بالحق نفر من أعدائه ، فإن بعض الذين تحدثوا عن التاريخ الإسلامى من المستشرقين قد بالغوا فى الثناء على يقظة الفكر الإسلامى فى تتبع الرواة ، وفحص الإسناد لدى المحدثين ، وعدوا ذلك أدق منهج علمى ينبغى أن ينتقل من الحديث إلى التاريخ . يقولون ذلك فى معرض الكلام عن التاريخ الإسلامى ، ثم يلجم الغرض كثيرًا منهم ، فلا يعترفون به فى معرض الكلام عن الحديث النبوى .

« ونحن نعلم أن المستشرق المجرى اليهودى الكبير (جولد زيهر) من أكبر علماء الاستشراق سعة اطلاع ، وطول صبر على التنقيب فى علوم الدين ، وغزارة مادة ، إذ إن كتبه الثلاثة عن الشريعة والعقيدة فى الإسلام ، وعن مذاهب التفسير

(١) « السنة .. ومكانتها فى التشريع » من ص ٧٦ إلى ٨٨ .

الإسلامى ، وعما سماه بدراسات إسلامية تنبئ عن إلمام واسع وبحث ملحف دءوب ، وتنقيب جاهد فى مطاوى المخطوطات والمطبوعات . ولكن آفة الرأى الهوى لديه فى جل ما كتب ، فهو مثلاً فى : باب السنة النبوية – لا يتتبع النصوص ليستخرج منها القول الصائب ، ولكنه يفترض – أولاً – الحكم المغرض افتراضًا ، ثم يذهب متلمسًا ما يسنده من مبتور الروايات ومختلق الظنون ، فيأتى بكلام يظنه البعيد عن الدراسات الإسلامية سالكًا منهجًا قويمًا من البحث – وما أكثر هؤلاء من مدعى الكتابة والتأليف – أما البصير بتاريخ ثقافته وأصول دينه ، فيضرب كفًّا بكف ، حين يجد هذا الداهية الخطير فى كتابه دراسات إسلامية – مثلاً – يقف أمام بعض النصوص التى تحرم كتابة الحديث مع ما يقابلها من النصوص التى تبيح الكتابة ، فلا يوازن بينهما بما يعرفه أهل العلم ، وبما سنشير إلى بعضه عن قريب ، بل يلجأ إلى الافتراض المتخيل ، ويجزم فى جرأة عجيبة بأن هناك حزبين متناضلين اتخذا من تعارض الأحاديث سلاحًا يذود كل منهما به عن رأيه ، فأهل الرأى وقد زعم أنهم اعتمدوا فى وضع فروع الشريعة على عقولهم ، وأهملوا حديث رسول الله ، كان من حججهم أن الحديث لم يكتب دهرًا طويلاً فغابت معالمه ، وتشتت أمره ، وأيدوا رأيهم بأخبار اختلقوها تثبت أنه لم يكتب ، أما أهل الحديث ممن يعتمدون على النص النبوى فلم يقفوا واجمين فى زعمه بل فعلوا فعلتهم ، واختلقوا الأخبار تأييدًا لقولهم ، فنسبوا إلى الرسول أحاديث فى إباحة الكتابة » .

أرأيت إلى المعركة كما يتصورها (جولد زيهر) .. لقد أراح نفسه من مشقة الموازنة بين النصوص المتعارضة بتخيل مغرض ، يثبت أن الفريقين من أعلام الرأى وأئمة المحدثين كذابون واضعون ، كل فريق يختلق من الأحاديث ما يسير مع وجهته ، وكأن الاختلاق عمل مشروع يستبيحه كل فقيه دون تحرج . وقد كان الباحث الأستاذ (يوسف العش) قوى الحجة حين نقل كلام (زيهر) السابق فى

بحثه الخاص بنشأة تدوين العلم فى الإسلام ، ثم أجهز عليه بما ينسفه نسفًا من واقع التاريخ التشريعى حيث قال [١] بعد أن أشار إلى الاختلاف فى تدوين الحديث.

« ولعل هذا الاختلاف مما دعا (جولد زيهر) إلى القول بأن العلماء انقسموا إلى طائفتين متخاصمتين فى شأن جواز الكتابة أو عدمها ، على أنه لم يصب حين قال : إن من ادعى عدم جواز الكتابة هم أهل الرأى ، وأن مخالفيهم هم من أهل الحديث، فالخلاف لم يكن بين هاتين الفئتين ، لأن من أهل الرأى من امتنع عن الكتابة (كعيسى بن يونس وحماد بن زيد وعبد الله بن إدريس ، وسفيان الثورى) وبينهم من أقراها (كحماد بن مسلمة وزائدة بن قدامة ويحيى بن اليمان) ومن المحدثين من كره الكتابة (كابن علية وهشيم بن بشير وعاصم بن ضمرة) .. وغيرهم ، ومنهم من أجازها (كبقى الكلاعى وعكرمة بن عمار ومالك بن أنس) . وغيرهم » .

لقد كان على (جولد زيهر) أن يدرس رجال الرأى ورجال الحديث قبل أن يأتى بمزعمه الخاطئ ، ولكنه يفترضه افتراضًا ليصل إلى الغاية التى انتهى إليها حين ذكر فى كتابه المشار إليه ما ترجمته نصًّا :

« إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الدينى والسياسى والاجتماعى للإسلام ، فى القرنين : الأول والثانى ، وإنه ليس صحيحًا ما يقال من أنه وثيقة الإسلام فى عهده الأول عهد الطفولة ، ولكنه أثر من جهود الإسلام فى عصر النضوج » [٢] .

ثم أفاض فى تعداد الموجبات لوضع الحديث ؛ ليتخذ منها الدليل على أن القسم الأكبر من الحديث النبوى كان نتيجة للتطور فقط ، وما جاء به من أسباب الوضع لم يكن خافيًا على المبتدئين فى دراسة علم الحديث ، ولكنه ألح عليه

---

(١) « مجلة الثقافة » ، ص ١٠٩٧ من السنة السابعة .

(٢) ترجمة الدكتور (على حسن عبد القادر) ص ١٢٧ من كتابه : «نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى» .

ليستأصل به أصلاً ثابتًا من أصول التشريع ، فهل جاءه أن محاولة ذلك الاستئصال قد منيت بالخذلان أمام ما ثبت عن الرواة الثقات والحفظة العدول ، لقد أحسن الدكتور (على حسن عبد القادر) حين أعقب كلام (زيهر) برأى صريح لزميله المستشرق (فينك) يرد به على أمثال هذه الأراجيف ، إذ يقول فى صراحة واضحة:

« وإذا لم يستطع النقاد المسلمون – لأسباب داخلية وخارجية – أن يميزوا كل الأجزاء غير الصحيحة من الحديث ، فإنه ليس من الحق أن نسلبهم كل الثقة ، ذلك.. أن الحديث الإسلامى يحتوى على أساس صحيح ، والرأى القائل بأن الحديث ليس إلا من وضع أهل القرنين : الأول والثانى ، وأنه لا يدل إلا على ما صوَّرته الأجيال الإسلامية لعصر الرسول وأصحابه ، هذا الرأى يجهل كل الجهل ما لشخصية الرسول من تأثير كبير فى المسلمين ، والجهود التى تحاول إبطال آثار الرسول التاريخية فى السنة والحديث ، إنما جاءت من فهم تاريخى مادى ، وهذا الفهم لا يريد أيضًا أن يتبين ما فى القرآن من أمور إلهية اعتقادية ، ويرى أن ذلك إنما يستقصى من آلاف الصور والمثل والتأثيرات المختلفة ، والاختلاط بالشعوب الأخرى ، وغير ذلك مما يؤدى فى آخر الأمر إلى أن يكون تراث الإسلام مختلف الأشكال والألوان لا يصور رابطة متماسكة[(١)] .

لقد وضع الأستاذ (فينك) يده على موضع الداء لدى (جولد زيهر) وشيعته حين أعلن أنهم يقتصرون على الفهم المادى وحده ، تاركين كل أثر إلهى أو نبوى يغذى العنصر الروحى فى الإسلام ، بل يحاولون أن يجعلوا تراث الإسلام وليد أجيال متعاقبة تختلط فيها الشعوب والثقافات اختلاطًا ينشئ النصوص والعقائد إنشاء تأثيريًّا لا صلة له فى أكثره بمحمد عليه الصلاة والسلام .

---

(١) ص ١٣١ ، المرجع السابق .

ولنا أن نبحث عن السبب الأصيل الذى نشأت عنه هذه البلبلة الدائرة حول الحديث النبوى فى أذهان بعض الكاتبين ، فنعلن أن خطأ بعض من كتبوا تاريخ التشريع الإسلامى قد قوى هذه البلبلة . فقد تعاونت بعض الأقلام على تسجيل فكرة مهمة فى تاريخ التشريع تقول : إن تدوين الحديث النبوى قد نشأ أول ما نشأ فى القرن الثانى من الهجرة ؛ إذ إن عصر الرسول وصحابته ومن وليهم فى القرن الأول قد مرّ دون أن تقيد الأحاديث فى الصحف ؛ فلما جاء عصر التدوين كان كثيرًا مما رددته الألسن مدعاة الشك والنظر ، وقد ساعد على تأكيد هذه الفكرة ما يرويه بعض الرواة من أحاديث نبوية تأمر بمنع التدوين ، ولنا الآن أن نميط اللثام عن حقيقة هذه الفكرة ؛ لنرى أنها لم تكن لتستقر على أساس صحيح .

إن الذين كتبوا تاريخ التشريع الإسلامى يعلنون أن (عمر بن عبد العزيز) كان أول من أشار بجمع الحديث ، وقد صدع بأمره الإمام (محمد بن شهاب الزهرى) (١٢٤ هـ) فكان أول من دون الحديث فى كتب خاصة غير مبوبة ، ثم شاع التدوين بعد ذلك فى الجيل التالى ؛ فنشط (ابن جريح) (١٥٠) و(ابن إسحاق) (١٥١) و(الربيع بن صبيح) (١٦٠) و(مالك) (١٧٩) وغيرهم إلى أن جاء القرن الثالث فظهرت الكتب الصحاح الذائعة ، مستندة إلى ما تطلبه التقدم الفكرى من اتخاذ مناهج خاصة بكل محدث ، كأن يقتصر البخارى ومسلم على الحديث الصحيح ، فينحو منحاهما من أراد ، أو يجانبهما من يرى له منهجًا آخر من المحدثين ، إلى آخر ما نعلمه من تاريخ الحديث ، هذا ما يعلنه مؤرخو الحديث ، وقد فهم منه الفاهمون أن السنة لم تدون من قبل عهد (عمر بن عبد العزيز) ، وساد هذا الفهم حتى أصبح لدى كثير من المثقفين حقيقة بدهية لا تقبل الاختلاف ، فأتاح للمرجفين أن يتساءلوا فى عجب كيف حفظت الألسنة وحدها أحاديث الرسول فى مدى مائة وثلاثين عامًا أو تزيد .. ثم استضافت أحاديث تدل على منع الكتابة ، فأكدت مدعاة الشك فيما ترده الألسنة وحدها ، وأمامنا الآن ننظر فى شيئين

مهمين، ننظر فى الأحاديث الدائرة حول كتابة الحديث إثباتًا ومنعًا كما ننظر فى مقدرة الألسنة على الاحتفاظ بالنص النبوى دون وهن يظن ، وعسى أن نطمئن بعد ذلك إلى رأى متين .

أما الأحاديث الدائرة حول كتابة السنة إثباتًا ومنعًا فلنبدأ منها بما يستدلون منه على المنع ، ومنه [١] :

(أ) ما روى من قول رسول الله : « لا تكتبوا عنى شيئًا سوى القرآن ، فمن كتب عنى سوى القرآن فليمحه » . وكان من هذا أن (زيد بن ثابت) دخل على (معاوية) فسأله عن حديث وأراد أن يكتبه ، فقال زيد : إن رسول الله ﷺ أمرنا ألا نكتب شيئًا من حديثه فمحاه [٢] .

(ب) روى الإمام الحافظ (عبد الرازق بن همام الصنعائى) المتوفى سنة ٣١١ فى مصنفه أن (عمر بن الخطاب) أراد أن يكتب السنن، وأشار عليه الصحابة بذلك حين استفتاهم ، ولكنه طفق يستخير الله شهرًا . ثم أصبح يومًا وقد عزم الله له فقال : إنى أريد أن أكتب السنن ، وإنى تذكرت قومًا كانوا قبلكم كتبوا كتبًا ، فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإنى والله لا أشوب كتاب الله بشىء أبدًا[٣] .

(جـ) كان (أبو سعيد الخدرى) يستأذن فى أن يكتب عنه ما يحدث به عن رسول الله، فيأبى ويقول : « أتريدون أن تجعلوها مصاحف ؟ إن نبيكم كان يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا كما كنا نحفظ ، وفى رواية أخرى أنه قال : أردتم أن تجعلوه قرآنًا ، لا ، لا ، ولكن خذوا عنا كما أخذنا عن رسول الله ﷺ[٤] .

---

(١) « تاريخ الفقه الإسلامى » للدكتور (محمد يوسف موسى) ، ص ١٧١ .

(٢) « جامع بيان العلم وفضله » ، ج ١ : ٦٣.

(٣) « جامع بيان العلم» ، ج ١ : ٦٤.

(٤) المصدر السابق ، ج ١ : ٦٤.

(د) روت عائشة عن أبيها أنه جمع الحديث عن رسول الله ﷺ فكان ما عنده خمسمائة حديث ، فبات ليلة يتقلب كثيرًا ، قالت : فغمني ، فقلت : أتتقلب لشكوى أو لشيء بلغك ؟ فلما أصبح ، قال : أي بنية ، هلمي الأحاديث التي عندك ، فجئته بها ، فدعا بنار فحرقها ، فقلت : لم أحرقتها ؟ قال : خشيت أن أموت وهي عندي فيكون فيها أحاديث عن رجل ائتمنته ووثقت به ، ولم يكن كما حدثني ، فأكون قد نقلت ذاك[١] .

هذه نصوص دالة على منع التدوين ، وقد أجاب عنها بعض المحدثين : بأن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباس الحديث[٢] ، أو بأن النهي خاص بكتّاب الوحي المتلو مثل (زيد بن ثابت) [٣] كيلا يخلطوا القرآن بغيره ، أو أن النهي لمن أمن عليه النسيان ووثق بحفظه[٤] ، وهي إجابات تصلح ردًّا على مثل (زيد بن ثابت) إذ كان من كتاب الوحي ، وكذلك من على شاكلته من الكتاب ، أما أنا فلم أر فيما سبق الاستشهاد به عن (أبي بكر وعمر وسعيد الخدري) ما يدل على نهي الرسول عن كتابة الحديث ، بل ما يدل على غير ذلك ، إذ إن أبا بكر وعمر قد جمعا الأحاديث فعلاً ، ثم بدا لهما أن يرجعا عن التدوين لأسباب ذاتية ، ولو كانا يعلمان وجود نص نبوي في منع الجمع ما قاما بكتابة حديث واحد ، وما كان هناك مجال لاستشارة الصحابة ، وإذ ذاك لا يؤخذ امتناعهما عن التدوين مأخذ النهي المحرم من رسول الله ، بل مأخذ الاحتراز الشخصي من رجلين يتحفظان فلا يجزمان بصحة ما لديهما من الأحاديث ، فأين دليل المنع في موقفيهما هذين حتى نعتبرهما حجة نبوية ؟ . أما (أبو سعيد الخدري) فليس فيما روينا عنه ما يدل على نهي الرسول ، وإنما استأذن الرجل في الكتابة عنه فأبى ، وقال : أتريدون أن تجعلوها مصاحف . إن نبيكم كان يحدثنا فنحفظ ، فاحفظوا كما كنا نحفظ .

(١) « تذكرة الحفاظ » ، ج ١ : ٥.

(٢) « تدريب الراوي » ، ١٥١.

(٣) « مقدمة ابن الصلاح » ، ١٧١.

(٤) المصدر السابق .

هذا رأيه ومنحاه فحسب ، فكيف يؤخذ منه ما يدل على تحريم نبوى لكتابة الحديث ؟ أظن أننا بهذه المناقشة الهادئة قد أوضحنا حقيقة ما نسب إلى الرسول من أقوال تشير إلى منع التدوين فى عصره ، ولنا أن ننتقل بعد إلى أدلة المثبتين .

إن الذين يقولون بوقوع التدوين فى الصحف فى عصر السنة الأولى : يستدلون بأدلة متعددة لعل أهمها ما يأتى :

١- أمر رسول الله ﷺ بكتابة خطبته يوم فتح مكة ، لرجل من اليمن ، كما جاء فى باب كتاب العلم من صحيح البخارى .

٢- روى البخارى فى هذا الباب عن أبى هريرة قوله : ما من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثًا عنه منى ، إلا ما كان من (عبد الله بن عمرو) فإنه كان يكتب ولا أكتب[1] .

٣- أن (عبد الله بن عمرو) كان يسمى صحيفة أحاديثه بالصادقة ، ويقول عنها : «ما كتبت فيها إلا ما سمعت أذناى من رسول الله ﷺ » ويتحدث عنها مجاهد فيقول : رأيت عند (عبد الله بن عمرو) كتابًا فسألته ما هذا ؟ قال : هذه الصادقة ، فيها ما سمعت من رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه أحد[2] .

٤- فى صحيح البخارى أن النبى ﷺ أمر بعد هجرته إلى المدينة - بإحصاء المسلمين وبكتابة أحكام الزكاة ، وما يجب من المال وما مقداره ، فكتب ذلك فى صحيفتين ، وبقيتا محفوظتين عند (أبى بكر الصديق وأبى بكر عمرو ابن حزم) [3] .

فإذا أضيف إلى ذلك كله وجود بعض الصحائف لدى الصحابة مدونًا بها حديث رسول الله كان ذلك دليلاً عمليًّا على إباحة الكتابة ، فمن ذلك كتاب (أسماء

(١ ، ٢) « تاريخ الفقه الإسلامى » ، ص ١٧٣ .

(٣) « تاريخ الفقه الإسلامى » ، ص ١٧٣ .

بنت عميس) (توفيت سنة ٣٨) وكانت قد هاجرت مع زوجها (جعفر بن أبى طالب) إلى الحبشة وتزوجت أبا بكر بعد موته ، وقد جمعت فى هذا الكتاب بعض أقوال الرسول . ومنه كتاب (سعد بن عبادة) (١٥ هـ) ، ومنه صحيفة (عبد الله ابن عمرو) المعروفة بالصادقة (٦٥ هـ) ، ثم صحيفة (سمرة بن جندب) ، وصحيفة (جابر بن عبد الله) (٦٨ هـ) ، وقد روى قتادة ما فى هذه الصحيفة ، هذا غير صحف الشيعة التى تسجل بعض ما كتبه أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومهما كان موقف أهل السنة منها فهى فى منزلة الاعتماد من المنصفين من علماء الشيعة[١] ، وللدكتور (على حسن عبد القادر) استنتاج جيد ، فقد قال بصدد الحديث عن السند والمتن فى كتابه « نظرة عامة فى الفقه » .

والمتن فى الأصل يطلق على الأصل المكتوب ، قال لبيد :

وجلا السيول على الطلول كأنها زبر تقد متونها أقلامها

وفى اختيار المحدثين للفظ المتن ما يمكن أن نستنتج منه عدم صحة ما هو معروف من أن الحديث لم يكن مكتوبًا ، ولكنه كان مبنيًّا على الرواية الشفوية ، والدكتور لم يفطن إلى هذا الاستنتاج إلا بعد تعدد الروايات القائلة بوجود صحف نبوية لدى نفر من الصحابة والتابعين ، ولا تزال ترفدنا بما يقوى هذه الوجهة ، فقد عثر الدكتور (محمد حميد الله الحيدر أبادى) على صحيفة (همام بن منبه) من أعلام التابعين كما رواها عن أبى هريرة[٢] ، مما دعا العلامة مناظرًا (حسن الكيلانى) رئيس القسم الدينى بالجامعة العثمانية فى حيدرأباد أن يجزم فى كتابه «تدوين الحديث» بأنه إذا جمعت هذه الصحف والمجاميع وما احتوت عليه من الأحاديث ، كونت العدد الأكبر مما جمع بعد ذلك فى الجوامع والمساند والسنن فى القرن الثالث[٣] .

(١) « نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى » ، ص ١١٨ .
(٢) « السنة قبل التدوين » ، ص ٣٥٦ .
(٣) « البخارى » للدكتور (الحسينى هاشم) ، ص ١٤ .

ولنا بعد هذه الحقائق أن نجزم ، بأن ما فهم من كتب تاريخ التشريع بأن التدوين للحديث كان أول ما كان بعد تفكير (عمر بن عبد العزيز) ، إنما يدل على بدء التدوين الشامل الذى يهدف إلى الاستقصاء .

ولا يدل على أن كتابة الحديث فى صحف شخصية لأفراد من أعلام الصحابة والتابعين كانت محرمة ، حتى فكر فى الأمر (عمر بن عبد العزيز) . ومتى تأكد ذلك فقد لزم أن تخفت أصوات القائلين بأن المدة الطويلة بين رحيل رسول الله وابتداء (ابن شهاب الزهرى) بالتدوين كانت مدعاة نسيان أو تزيد كما يحلو لمهاجمى السنة أن يتشدقوا بين الحين والحين ، على أننا حين أسهبنا فى ذلك لم نغفل قوة الذاكرة لدى العرب فى صدر الإسلام ، فلها هنا بعض الحديث .

لقد وعدنا فيما قبل أن ننظر فى مقدرة الألسنة على الاحتفاظ بالنص النبوى دون وهن ، وهى مسألة أشبعها المحدثون تحليلاً وإفاضة ، فأجمعوا على أن أمية العرب قد وجهتهم إلى الاهتمام بالحفظ ؛ فقويت الذاكرة لديهم قوة خارقة كما ضربوا لذلك بعض الأمثلة من المشاهد الملموس ، فالأعمى أقوى حفظًا من البصير؛ إذ جعل كل اعتماده على الحفظ ، أما البصير فإن ركونه إلى الكتاب مما يضعف ذاكرته عن غيره ، وقد ساعد العرب على تقوية ملكة الحفظ لديهم طبيعة جوهم وبساطة معيشتهم وسعة خبرتهم بأساليب لسانهم وطرق بيانهم ، فإذا أضيف إلى ذلك شدة تعلق الصحابة بآثار رسول الله ، كان انتباههم إلى استيفاء أحاديثه أقوى وأشد ، ومن علم أن (أبا زرعة وأحمد بن حنبل والبخارى) كانوا يحفظون آلاف الأحاديث بأسانيدها لا يستكثر أن يحفظ (أبو هريرة وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وعائشة) أكثر مما سمعوه عن رسول الله دون إسناد . فإذا وجدت الصحف المكتوبة وأسعفت الحافظة القوية ، وتفرغ الملأ الكثير برواية الحديث فلن يهى منه مر السنين كما يدعون . على أننا نعرض هذا النص الحاسم على الذين يستكثرون ورود الآلاف من الأحاديث عن رسول الله ويرجفون بروايتها مهولين .

قال (أبو زرعة الرازى) فى جواب من قال له : أليس يقال : حديث النبى ﷺ أربعة آلاف حديث قال : ومن قال إذًا غير زنديق ؟ ومن يُحصى حديث رسول الله ﷺ ؟ لقد قبض ﷺ عن مائة ألف وأربعة عشر ألفًا من الصحابة ممن روى عنه ومن سمع منه ، وهم أهل المدينة وأهل مكة ومن بينهما من الأعراب ، ومن شهد معه حجة الوداع ، كلٌّ من رآه وسمع منه بعرفة ، وقال (الرافعى) : قبض رسول الله والمسلمون ستون ألفًا ، ثلاثون ألفًا بالمدينة ، وثلاثون ألفًا فى قبائل العرب[1] ، .. نقلُ هذين النصين لنقول : إنه على افتراض كون المسلمين ستين ألفًا فقط عند وفاة رسول الله ، وجلهم قد حدثه وسمعه وروى عنه ، أفيكون ما لدينا من حديثه عنهم من الكثرة بحيث نظن به الظنون دون تدليل » .

إن ما أرجفت به الأقلام المسلمة فى هذا العصر حول السنة المطهرة يرجع إلى أن كتب مصطلح الحديث من الدقة والصعوبة بحيث لا يفهمها جمهرة المثقفين ، فظلت محصورة بين نفر من المتخصصين لم يقوموا بواجبهم الأكمل فى تبسيطها وتوضيحها ، تمشيًا مع روح الزمن ومقتضياته . ولو أن جمهور المثقفين عرفوا حقيقة مصطلح الحديث لقدروا الجهد الجهيد الذى بذله علماء الإسلام فى حماية السنة ، والحرص على صدقها المتأكد ، ونحن الآن نرى أعقد المسائل والنظريات فى علوم الطبيعة والكيمياء ، تكتب لمن لم يتخصص فى دراستها كتابة مبسطة ، تنأى عن المصطلحات العلمية ، وتهدف إلى تبسيط الفكرة العامة ؟ أفيجوز لنا بعد ذلك أن ندعى أن مصطلح الحديث وقف على المتخصصين دون أن نبذل جهدًا يسيرًا فى عرض حقائقه وتقريبها للقارئ العام . ونحن نرى بعض المجلات والكتب تحيطنا بالشكوك الزائفة عن السنة ورجالها ، ثم نتركها غير مبالين .

على أن المسألة بعدُ ليست مسألة القارئ العام ، فلدينا كتاب أفذاذ لا شك فى طهارة نياتهم وسلامة اعتقادهم قد تأثروا بأقوال الاستشراق ، ولهم مع ذلك جهد ممتاز فى تدوين السيرة المحمدية وتاريخ العلوم الإسلامية ، ولن أضرب المثل

(١) « تدريب الراوى » ، ص ٢٠٦ .

بالكاتب الكبير الدكتور (محمد حسين هيكل) حين ذكر فى « حياة محمد » ما لا نسلمه له عن مقدار ما عده البخارى صحيحًا من الأحاديث[1] ، فالدكتور هيكل رحمه الله – وإن كان فى طليعة كتاب السيرة النبوية والمدافع عن صاحبها أحر دفاع وأقواه – لم يدرس مصطلح الحديث على أهميته لكتاب السيرة النبوية ، ولكنى أضرب المثل بأستاذنا العالم الكبير الدكتور (أحمد أمين) إذ إن ثقافته العلمية بالأزهر ودار القضاء الشرعى قد أوقفته على دقائق هذا العلم وخفاياه ، ولكنه قرأ كثيرًا فى كتب الاستشراق فتأثر – ككل قارئ – بما عده صحيحًا من أقوالهم ، وحين تفرغ لتاريخ العلوم الإسلامية كان مقاله عن حديث رسول الله مدعاة نظر طويل ، وقد أبلى الدكتور (مصطفى السباعى) رحمه الله بلاءً طيبًا فى مناقشة أقواله ، وكان الأستاذ (أحمد أمين) من سعة الصدر وكمال الإنصاف بحيث اعترف أن نقد الدكتور (السباعى) نقد علمى صحيح[2] . وكان أهم ما اتجه إليه (السباعى) فى نقده ما حكاه الأستاذ عن وضع طائفة من الأحاديث وعدالة بعض الرواة من الصحابة والتابعين ، والأحاديث المعتمدة عن (أبى حنيفة) واختلاف العلماء فى الجرح والتعديل ، وقد قال صاحب « فجر الإسلام » ص ٢٦٦ « وقد وضع العلماء للجرح والتعديل قواعد ليس هنا محل ذكرها ، ولكنهم – والحق يقال – عنوا بنقد الإسناد أكثر مما عنوا بنقد المتن ، فقل أن تظفر منهم بنقد من ناحية أن ما نسب إلى النبى ﷺ لا يتفق والظروف التى قيلت فيه ، أو أن الحوادث التاريخية الثابتة تناقضه، أو أن عبارة الحديث نوع من التعبير الفلسفى يخالف المألوف فى تعبير النبى أو أن الحديث أشبه فى شروطه وقيوده بمتون الفقه ، وهكذا ، ولم نظفر منهم فى هذا الباب بعشر معشار ما عنوا به من جرح الرجال وتعديلهم » .

(١) « حياة محمد » ، ط ثانية ، ص ٥٠ .

(٢) « السنة ومكانتها فى التشريع الإسلامى » ، ص ١٧٨.

وحديث الدكتور (أحمد أمين) عن العناية بالإسناد أكثر من المتن ، وجد النقد المقنع من رجال العلم ، فمنهم من بيّن أن العناية بالمتن كانت محل الاعتبار مثل العناية بالسند سواء بسواء ، لأن أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع فى السند من اشتهار الراوى بالكذب ، أو اعترفوا مؤخرًا بتعمد الوضع أو ادعائه رؤية شيخ لا تثبت رؤيته لاختلاف الزمان والمكان ، أو انتمائه إلى فرقة مغرضة تخدم أهواءها بالتزيد والانتحال ، نقول إن أئمة الحديث كما ذكروا علامات الوضع فى الإسناد ذكروا علامات الوضع فى المتن ، كأن يكون التعبير فى الحديث ركيكًا لا يتصور صدوره من أفصح البلغاء ، أو أن يكون المعنى فاسدًا يخالف ما تعرفه البدائه الواضحة ، فلا يجوز أن يقوله نبى مرسل كان مضرب المثل فى الحكمة والسداد ، أو أن يخالف الحديث نصًّا صريحًا من نصوص القرآن ، بحيث لا يقبل التأويل أو يتضمن أمرًا جهيرًا من شأنه أن تتوافر الدواعى إلى نقله ، ثم لا يرويه إلا شخص واحد ، أو أن يخالف الحقائق المشتهرة المعروفة فى عصر النبوة . كل هذه وأمثالها علامات يعرف بها الحديث الموضوع ، وقد أسهب علماء السنة فى بسطها وضرب الأمثلة عليها مما لاكته الألسنة من الموضوعات ، فالقول بأن الاهتمام بالسند قد تحيف الاهتمام بالمتن مما لا ينهض على أساس قويم ، وأكبر الظن أن أستاذنا الدكتور (أحمد أمين) قد وجد الحديث يستفيض عن تاريخ الرواة ومنزلتهم فى ميزان الجرح والتعديل ، فظن ذلك مزيد اهتمام بناحية دون ناحية ، مع أن طبيعة البحث فى الإسناد هى التى تحتم الخوض فى تاريخ الرجال ؛ فإذا كان لدينا حديث واحد نقل عن أربعة من الرواة مثلاً ، فإن الكلام عن كل راوٍ منهم يتطلب بعض البسط ؛ فإذا تحدث علماء السند عن أربعتهم جميعًا فإن حديثهم بلا شك يكون أضعاف كلامهم عن المتن المروى ، وليس ذلك تحيفًا للمتن ، إذ هو مما يتضح فيه الرأى دون فحص متصل فى الإسناد المتسلسل .. هذا وجه الحق فيما ردّده المستشرقون عن مغالطة ،

وحكاه الأستاذ (أحمد أمين) عن إخلاص لم يتحر أسبابه تحريًا دقيقًا . وقد تأكدت نظرية الاهتمام بالسند أكثر من المتن تأكدًا أصيلاً لدى كثير من المثقفين ؛ إذ فاتهم ما ألمحنا إليه من أن طبيعة الإسناد المتسلسل تقتضى هذه التوسعة والإسهاب دون أن تتحيف المتن فى شىء ، فليس لدينا عدد من الأوراق يلزمنا أن نقسمه نصفين بالتساوى ؛ لنملأ بالنصف الأول حديثنا عن المتن ونشغل بالنصف الثانى حديثنا عن السند . وإنما لدينا فى الإسناد رجال كثيرون رووا متنًا واحدًا قد لا يتجاوز السطر . وحامت الريبة حول المتن ، فوجب البحث المتشعب فى رجال الإسناد . إن تأكد نظرية الاهتمام بالسند أكثر من المتن ، قد وجدت مكانها لدى الكثيرين حتى ممن شرعوا أقلامهم لمعارضة الأستاذ (أحمد أمين) فإن زميله الناقد الأستاذ (عبد الوهاب حمودة) حين أراد نقد رأيه فى الاهتمام بالسند أكثر من المتن ، لم يوضح أعباء الإسناد ، كما ألمحنا إليها من قبل ، ولكنه وافق صاحب « فجر الإسلام » على قوله ، ومضى يلتمس التبرير لما كان من إجحاف بالمتن فقال :

« إن علماء الحديث لما رأوا أن الاطلاع على ما فى الإسناد من علة على ما ينبغى يعسر على غيرهم بخلاف الاطلاع على ما فى المتن من علة ، فإنه سهل المدرك سرفوا جل عنايتهم إلى بيان ما يتعلق بالإسناد ليكفوا غيرهم مؤونة لك ، لذلك .. نرى كتب العلل تتعرض لذكر ما وقع فى الحديث من الاضطراب من جهة الإسناد ، وقلما تتعرض لذكر ما وقع فيه الاضطراب من جهة المتن ؛ لأن النقد المتعلق بالإسناد دقيق غامض لا يدركه إلا أفراد من أئمة الحديث ، هذا إلى أن علم الحديث كالتاريخ من العلوم النقلية التى يلزم أن تكون صحة النقل هى أول ما يطلب توافره فيها ، أما ناحية الدراية فلا يكون لها المنزلة الأولى مهما كانت أهميتها ، وإلا انقلبت العلوم النقلية علومًا عقلية » [١] .

---

(١) « لواء الإسلام » : السنة الخامسة ص ١٠٦ عن مقال الأستاذ حمودة .

وكلام الأستاذ (حمودة) محل اعتراض كبير ؛ إذ إننا الآن لا نعتد التاريخ علمًا نقليًّا ، حتى يقاس به الحديث . ولو أصاب الأستاذ مقطع الحق ، لذكر أن المتن قد أصاب موضع الاهتمام ، وليست المسألة مما يقدر بالكم دون الكيف . وليت شعرى إذا لم يكن المتن موضع الاهتمام ، ففيم اختلاف الفقهاء أمام النص الواحد . لا شك فى أنهم قد حللوا النص تحليلاً وئيدًا مشبعًا ، وذهبوا يقلبونه على عدة احتمالاته ، وما كان بحثهم عن السند إلا طريقًا لتثبيت المتن . وذلك فى لبابه لا يدل على الاهتمام بشىء أكثر من شىء كما نراه .

إن طبقات المحدثين – وما أكثرهم – على تناسل العصور لم يملوا التأليف فى علوم الحديث رواية ودراية ، حتى بلغت الموسوعات النبوية مبلغًا يفوق الحصر مع نشاط حركة النقد والتجريح والتعديل ، وكان هذا قد أضاف إلى الأحاديث النبوية الصحيحة ثقة تامة لدى المتمكنين ، كما أبان عن زيف الأحاديث الموضوعة وضلال من تبوؤوا مقاعدهم فى النار بالافتراء على رسول الله . وما زخرت المكتبة الإسلامية بهذا الحشد الكبير من كتب السنة إلا لتدل بأصدق منطق وأخلصه على أن الأحاديث الصحيحة من ثبوتها الراسخ وصحتها المتوافرة فى حرز مكين . وأن على الذين يرجفون بالسنة المطهرة أن يتعلموا قراءة مصطلح الحديث ؛ فهم فى غيهم يعمهون .

* * *

طابع الحديث الصحيح ،
يدل عليه ، ويحتم الاستشهاد به

إذا كنت لا تجد شخصين يتفقان تمام الاتفاق فى الصورة الخلقية التى تنطبع فى العين بمجرد الرؤية – فإنك لا تجد كذلك أديبين يتفقان تمام الاتفاق فى آثارهما الأدبية ، ومهما كان بينهما من التشابه والاقتراب فهو تشابه المختلفين اللذين يتفقان فى بعض السمات ، ويختلفان فى البعض الآخر ، وإذا جاء التقارب المتشابه قليلاً أو كثيرًا بين أديبين متوسطى المكانة ، فإنه لا يجوز أن ترى أديبًا كبيرًا يقارب أديبًا كبيرًا فى سماته الأسلوبية ، إلا إذا كان أحدهما يحتذى صاحبه عن عمد . ويقتفيه عن قصد؛ وإذ ذاك لا يصح أن يقترن به اقتران المتماثلين ، بل يذكر معه كما يذكر التلميذ مع الأستاذ ، فوجود الشخصية الأدبية المتميزة دليل واضح على أصالة الأسلوب القوى ، ولكل من اشتهر بالبيان عن جدارة سمته المنفردة وطريقته الواضحة شاعرًا كان أم خطيبًا أم قصاصًا ، حتى لتستطيع أن تعرف بعض آثاره إذا جاءتك غفلاً من إمضائه ، مادمت قد أدمنت قراءته عن بصر ، وتتبعت جولاته الأدبية فيما سطر من آثار .

وقد اشتهر لدى النقاد فى عصرنا الحاضر أن الأسلوب هو الرجل ، ومعنى هذه العبارة : أن كل أسلوب أدبى يحمل طابع صاحبه ، فهو وليد فكره ووحى عاطفته ، وإذا كانت الأفكار تدل على معدن الأديب الذهنى واطلاعه الثقافى قوة وضعفًا ، فإن العاطفة تمد الأسلوب بما يشى بآمال الكاتب وأحلامه ، وما يرسم خلجات وجدانه وهمسات مشاعره . حتى ليجىء أثره الأدبى صورة صادقة من نفسه ، وإذ ذاك يكون الأسلوب هو الرجل دون نزاع .

نسوق هذه المقدمة الواضحة لنريح أنفسنا ممن يزعمون أن بعض الآثار الأدبية قبل عهود التدوين كانت مظنة التغيير والتبديل والحذف والإثبات . فإذا كان ذلك صحيحًا فى بعض وجوهه ، فإن السمات الخاصة للأديب تكون حينئذ أداة التفريق بين الصحيح والموضوع شعرًا أو نثرًا ، وآية ذلك : أنك تقرأ ديوانًا خاصًّا بشاعر جاهلى (كعنترة) فإذا كنت ممن درسوا أسلوب عنترة دراسة لا تغفل طريقة التعبير العامة فى العصر الجاهلى ، والخاصة فى أسلوب الشاعر ، مضافًا إليها ما تعلم من حقائق ثابتة عن طبيعة البيئة ، وتاريخها وأحداثها وما يمكن أن توحى به من أفكار أدبية وصور خيالية ، واتجاهات نفسية ، إذا كنت ممن درسوا عنترة هذه الدراسة ، فإنك تستطيع أن تبين الصحيح من المنحول فى شعره ، ولك أن تصدر حكمك الخاص على قصائد الشاعر فى ظل ما ثبت لديك من قوله الأصيل ، فإذا قال لك قائل بعد ذلك : إن ديوان عنترة يجمع الأصيل والدخيل ، وإن الحكم على الشاعر بما سطره الرواة فى ديوانه لا يحمل عناصر الصدق الصحيح ، إذا قال لك ذلك ، فاعلم أن القائل قد طعن فى غير مطعن ؛ إذ أغفل المقرر المعلوم من سمات الشخصية الأدبية التى تتحدد بوضوح فى الإنتاج الأدبى فتثبت الصحيح ، وتنفى الدخيل .

إن ما نقوله فى عنترة ، نقوله فيما نقل إلينا من النص الأدبى لمحمد ﷺ – وله المثل الأعلى إذا قيس ببشر سواه – فإن بعض رجال اللغة والنحو قد آثروا عدم الاستشهاد بحديثه ، حيث جاز لديهم أن يتصرف الراوى فى اللفظ دون المعنى ، ولو كان هؤلاء نقدة أدب وبيان ما قالوا ذلك ؛ لأن رجال النقد الأدبى يعرفون طابع كل أديب ، ولا يحتاجون فى الحكم على آثاره لسلسلة الرواة ومجموعة الأسانيد كما يفعل رجال الحديث ، بل إن الحديث يصح لدى بعض علمائه ، ويقف منه الأدباء موقفًا مخالفًا ؛ لأنه فى رأيهم لا يحمل الطابع العام كما يعرفونه من سمات محمد البيانية . وسنقف بعد حين لدى حجج المعترضين من رجال النحو واللغة

لنكر عليها بالسلاح العلمى الذى لا يسمح لشبهة ما أن تظل غائمة دون تبديد ، إنما نريد أن نقول الآن : إن دواعى سلامة النص المحمدى كثيرة موفورة ، وهى من القوة والإقناع بحيث لا تحتاج إلى لجاج طويل .

وإذا استطاع بعض الحواريين المخلصين من أتباع (بركليس وديموستين وشيشر) أن ينقلوا خطبهم النثرية الطويلة عن احتفاء ، فإنك لا تجد حواريين أخلص من صحابة محمد وأوُدَّائه ، فكانوا فى مجلسه ينصتون وكأن على رءوسهم الطير ؛ ارتقابًا لكلمة توجه أو خطبة تقال أو حديث يروى ، وكان الشاهد منهم يبلغ الغائب ما فاته من قول الرسول عملاً بقوله : « نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها إلى من لم يسمعها » (1) . وإذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه تبركًا، ويتزاحمون على شعرات رأسه احتفاظًا ببعض آثاره حتى صارت محبتهم له موضع العجب من المشركين ، وحتى قال (أبو سفيان) فى غيظ :

ما رأيت أحدًا من الناس يحب أحدًا كحب أصحاب محمد محمدًا (2) ..

« إذا كانوا يتهالكون على ماء وضوئه وشعرات رأسه ؛ فهم على حديثه أحرص ، وبالانتباه إلى حروفه وكلماته أكلف وأشوق ، ولم تأت لنا هذه الثروة النبوية الضخمة إلاّ عن احتفاء وهيام .

وقد كان رسول الله يعلم أنه ينطق ليبلغ الشاهد الغائب ، فكان لا يسرع القول فى عجلة ، بل يلقى حديثه متهملاً وئيدًا ؛ وقالت عائشة رضى الله عنها : ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصْل يحفظه من جلس إليه » وفى رواية أخرى : كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عدّه العاد لأحصاه (3) .

---

(1) مصدرها ص ٣٢ .

(2) « محمد المثل الكامل » ، ص ٣٩٦.

(3) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٢٤٨.

قال (أبو هالة) فى وصفه : كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة، ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة ، طويل السكوت يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بجوامع الكلم فصلاً لا فضول فيه ولا تقصير ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها (١) .

فالرجل الذى يكون من سماته التفكير المتصل ، والسكوت الطويل ، وعدم الكلام فى غير حاجة ، جدير أن تنتبه له الأسماع إذا قال ، وإذا كان الإيجاز طابع حديثه – إلا لدى بعض المقتضيات المهمة – فإن كلامه أسرع إلى الحفظ ، لاسيما إذا كان لا يسرد سردًا بل يتكلم بكلام فصل يحفظه من جلس إليه كما قالت عائشة ، وإذا كنا نعلم أنه كان عليه الصلاة والسلام حلو المنطق حسن الترتيل بعيدًا عن التكلف والتمتمة والفأفأة وتعقيد الصوت ، فهو يرسل القول متقن الأداء ، محكم الضبط مشبع اللفظ مساوقًا لطبيعة اللغة . إذا كنا نعلم ذلك عنه فلن نترقب لحديثه غير الحفظ والترديد . وبخاصة إذا كان فى ملأ أمى يعتمد على الحافظة ، ويتفاخر بقوة الذاكرة ، وأى قول يباهى بحفظه الصحابى الصادق أعظم من آيات القرآن وأحاديث الرسول .

ولئن كان بعض علماء اللغة والنحو يخافون تبديل لفظ بلفظ محتجين بجواز ذلك ، فقد فاتهم أن الكثرة الكاثرة من الأئمة لا يجيزون « وأن من أجاز من هؤلاء فقد أراد التجويز العقلى الذى لا ينافى وقوع نقيضه ؛ فلذلك تراهم يتحرون فى الضبط ويتشددون »(٢) ولسنا نصدر القول دون بينة ؛ فلدينا الأحاديث الصحاح تنطق بتحرز الراوى واحتراسه ، بحيث لو ظن أن كلمة شابهت كلمة فإنه يذكر الكلمتين معًا خروجًا من التبعة ، وفيما يلى أمثلة قليلة من حشد كثير :

(١) « المثل الكامل » ، ص ١٤ .

(٢) « إعجاز القرآن » للرافعى ، ص ٣٥٩.

١- عن عمران بن حصين[١] : « كلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته ، الإمام راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته»، قال الراوى : وحسبت أن قال والرجل راع فى مال أبيه ومسئول عن رعيته .

٢- عن أبى كبشة الأنمارى عن النبى ﷺ قال : « ثلاثة أقسم عليهم : ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة فصبر عليها إلا زاده الله عزًّا ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح عليه باب فقر أو كلمة نحوها »[٢] .

٣- عن أبى جهيم رضي الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « لو يعلم المار بين يدى المصلى ماذا عليه ، لكان أن يقف أربعين ، خيرًا له من أن يمر بين يديه » . قال أبو النضر (أحد الرواة) : لا أدرى ، قال أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة[٣] .

٤- عن قبيصة بن مخارق الهلالى قال : تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله أسأله فيها فقال : أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال : يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ... إلى أن قال : ورحل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا من قومه : لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا أوْ قال : سدادًا من عيش[٤] .

٥- عن أبى موسى رضي الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المدحة ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل[٥] .

٦- عن عبد الله رضي الله عنه قال : خط النبى ﷺ خطًّا مربعًا ، وخط خطًّا فى الوسط . وقال: هذا الإنسان ، وهذا أجله محيط به ، أو قد أحاط به[٦] .

(١) « هداية البارى إلى ترتيب البخارى » ، ج ٢ ، ص ٨.
(٢) « التاج » ، ج١ ص ٥٠.
(٣) « التاج » ، ج١ ص ١٧٧.
(٤) « التاج » ، ج ٢ ص ٣٤.
(٥) « التاج » ، ج١ ص ٥٠.
(٦) « التاج » ، ج ٥ ص ١٧٩.

هذه أحاديث ستة لم أتعمد اختيارها فى بحث دائب ، وإنما تواردت على العين فى نظرات عابرة . فرأيت أن أستشهد بها ؛ لأعلن أن مبدأ الرواية بالمعنى لو كان ذائعًا قبل عصر التدوين ما حرص الراوى على أن يذكر ما اشتبه عليه ، بل لاكتفى بما يبلغ المراد من أحد اللفظين ، وفى رأيى : أن الذين ذهبوا إلى جواز الرواية بالمعنى ، قد لبس عليهم الأمر حين وجدوا اختلافًا يسيرًا فى روايتين للحديث الواحد ، فتوهموا أن الأصل الذى قاله الرسول واحد ، وأن اختلاف الألفاظ من الرواة ، وهو وهم فى أكثره ؛ لأننا نعلم أن الرسول كان يكرر أحاديثه لصحابته فى جلساته المتعاقبة ليسمع من لم يكن سمع ، وقد يبدل بعض الألفاظ فى مجلس سابق ببعضها الآخر فى مجلس تال : ثم يروى من سمع المجلسين كما سمع ، فتختلف الروايتان فى الألفاظ ، ويظن بعض الناس أن الحديث قد روى بمعناه ، ولكن تكرار القول من الرسول يفسر هذا التغيير فى النص – فى أكثر أحواله – ولنا أن نضرب على ذلك بعض الأمثلة بما يلى :

١– عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذى يمسك نفسه عند الغضب[١] . مع رواية عبد الله بن مسعود : أن رسول الله ﷺ سأل : ما تعدون الصرعة ؟ قلنا : الذى لا يصرعه الرجال ، قال: ليس بذلك ، ولكنه الذى يملك نفسه عند الغضب .

٢– عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ : لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثًا ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب[٢] . مع رواية عبد الله بن الزبير أن النبى ﷺ كان يقول : لو أن ابن آدم أعطى واديًا ملآن من ذهب أحب إليه ثانيًا ولو أعطى ثانيًا أحب إليه ثالثًا ولا يسد جوف ابن آدم إلا التراب[٣] .

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٨.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ص ٤٩.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ص ١٧١.

٣- عن أبى موسى رضي الله عنه قال : سمع النبى ﷺ رجلاً يثنى على رجل ويطريه فى المدحة ، فقال : أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل[(١)] . مع رواية أبى بكر رضى الله عنه قال : ذكر رجل عند النبى ﷺ فأثنى عليه رجل خيرًا ، فقال النبى ﷺ : ويحك ، قطعت عنق صاحبك ؛ يقوله مرارًا .

٤- عن أنس رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قال : وما رياض الجنة ؟ قال : حلق الذكر[(٢)] مع رواية أبى هريرة عن النبى ﷺ : إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قلت يا رسول الله : وما رياض الجنة ؟ قال : المساجد[(٣)] .

٥- عن البراء رضي الله عنه قال : أهدى النبى ﷺ ثوب حرير ، فجعلنا نلمسه ونتعجب منه، قال النبى ﷺ : أتعجبون من هذا ؟ قلنا : نعم ، قال : مناديل سعد بن معاذ فى الجنة خير منه[(٤)] مع رواية أنس أن (أكيدر) صاحب دومة بعث إلى النبى بجبة ديباج منسوج فيها الذهب ، فلبسها النبى ﷺ ثم قام على المنبر وقعد فلم يتكلم، ونزل فجعل الناس يلمسونها بأيديهم فقال : أتعجبون من هذه ، لمناديل سعد فى الجنة أحسن منها[(٥)] .

هذه بعض الأمثلة لما يتعدد فيه الراوى ، فيكون مظنة التبديل عند قوم مع أن كل راو قال بما سمع ، ونحن مع ذلك لا نمنع أن يكون الراوى واحدًا ، ويحدث التبديل فى بعض الألفاظ ، ولكنه من القلة بحيث يمثل الاستثناء ولا يمثل القاعدة إذ إن فرط انتباه الرواة من صحابة رسول الله لما يصدر منه من قول ثم مراجعة أقواله واستذكارها فى حلقاتهم الخاصة ، مما يضيق مسألة التغيير اللفظى ، بحيث

(١) ، (٢) « التاج » ، ج ، ص ٣٤.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٩٤.

(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٤٨.

(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٤.

(٦) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٥.

لا يتسع إلى حد يظن معه بعض النحاة واللغويين أن للراوى أن يحافظ على المعنى وحده ، وله أن يأتى بالألفاظ كما يشاء ، ونضرب بعض الأمثلة لهذا القليل النادر مما صدر فيه التبديل فى حديث لصحابى واحد كان هو الراوى الأول وإن اختلفت سلسلة الرواة بعد ذلك .

١- عن أبى برزة الأسلمى ﵁ أن رسول الله ﷺ قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه فى بيته (١) ، هذه رواية أبى داود أما رواية الترمذى : « فيا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه، لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم ؛ فإنه من يتتبع عورة أخيه المسلم يتتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو فى جوف رحله (٢) .

٢- عن أنس ﵁ عن النبى ﷺ قال : من ترك الكذب وهو باطل بنى له فى ربض الجنة ، ومن ترك المراء وهو محق بنى له فى وسطها ومن حسن خلقه بنى له فى أعلاها (٣) . هذه رواية الترمذى ، أما رواية أبى داود فلفظها : أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًّا ، وبيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا ، وبيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه (٤) .

٣- عن أنس ﵁ عن النبى ﷺ : لكل نبى دعوة قد دعا بها فاستجيبت ، فجعلت دعوتى شفاعة لأمتى يوم القيامة(٥) . هذه رواية البخارى ومسلم . أما رواية

(١) ، (٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٠ .
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤١ .
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤١.
(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٢٣.

الترمذى : « فلكل نبى دعوة مستجابة ، وإنى اختبأت دعوتى شفاعة لأمتى وهى نائلة إن شاء الله ، من مات منهم لا يشرك بالله شيئًا »[1] .

٤- عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : من لا يشكر الله لا يشكر الناس[2] هذه رواية أبى داود . أما رواية الترمذى : من لم يشكر الناس لم يشكر الله[3] .

٥- عن أنس رضي الله عنه من حديث عن الرسول ﷺ : إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يقلبها كيف يشاء[4] هذه رواية الترمذى ، أما رواية مسلم فلفظها : إن قلوب بنى آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه كيف يشاء[5] .

على أننا بعد هذه الأمثلة المختلفة نتساءل ، هل فقد الطابع الأدبى فى أسلوب الرسول كثيرًا بهذا التبديل الذى يلحق القلة القليلة من أحاديثه ؟ إننا نعرف أن عناصر الأسلوب الأدبية كما فصلها النقد الحديث تتكون من الفكرة والصورة والتعبير . والفكرة والصورة صحيحتان دون شك فى كل ما ورد عن رسول الله ، أما التعبير فقد تغير تغييرًا طفيفًا فى البعض دون البعض ، أيكون لنا إزاء ذلك أن نرفض الاحتجاج بالحديث ، ونظن بصياغته الظنون احتياطًا لهذه القلة القليلة مما تطرق إليه بعض التبديل ، ولماذا لا نرفض الاستشهاد إذًا بالشعر العربى القديم إذ إن من اليقين كل اليقين أن الوضع قد تطرق إلى بعض أبياته ، وقد ظهر الانتحال واضحًا فى بعض ما روى (حماد وخلف) وأفاض فى ذلك أئمة الأدب بما لا مجال لإنكاره . لو اتخذنا مقياس بعض المحدثين فى إهمال الاستشهاد بالحديث كافة لمجرد ظن التبديل فى بعض الألفاظ ، فإننا نلزم حينئذ بإهمال الاستشهاد بالشعر القديم لمجرد إضافة يسيرة أو كثيرة تبرع بها بعض الرواة على ما تنوقل من القصائد

(١ ، ٢ ، ٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٧١.

(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٠٧.

(٥) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٠٧.

والأبيات . ولكننا مع ذلك نستشهد بالشعر العربى عالمين أن حاسة الذوق الأدبى لدى الناقدين تستطيع بمهارة ، أن تفرق بين الأصيل والدخيل ، ولكى لا نكون متناقضين فيما نصدر من الأحكام ، فعلينا أن نجزم بصحة الاستشهاد بالحديث النبوى اتكالاً على حاسة الذوق الأدبى لدى النقاد كيلا نزن الشىء الوحيد بميزانين مختلفين فيلحقنا التثريب .

والعجيب بعد ذلك كله : أن بعض سادتنا من النحاة واللغويين يحتجون بأقوال منثورة تعزى للأعراب دون أن يعرفوا القائل ؛ فتكون فى رأيهم موضع الاستشهاد ، مع أن تطرق التبديل والتغيير محتمل فيها احتمالاً لا يقاس باحتمال التبديل فى أحاديث مطهرة يتضافر الرواة المخلصون على تمحيصها واستذكارها أطراف الليل وآناء النهار ، إن لم يكن رغبة فى تفهم أسرارها التشريعية والأدبية فابتغاء لمرضاة الله وزلفى قريبة إلى رضوانه .. إنهم يستشهدون بأقوال منثورة معزوة إلى المجهولين من أغمار العرب ، ثم يحجمون عن الاستشهاد بآثار الرسول ، فهم مثلاً فى باب نعم وبئس يستدلون بقول الأعرابى : نعم السير على بئس العير ، ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله : من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغُسْل أفضل . وفى باب حذف ضمير الشأن يستدلون بقول الأعرابى : إن بك زيد مأخوذ ولا يستدلون بقول رسول الله : إن من أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون ، وفى باب الفاعل يستدلون بقول الأعرابى : أكلونى البراغيث ، ثم لا يجيزون الاستشهاد بقول رسول الله : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، بل إنهم يضعون قاعدة خاصة فى الجر بالمجاور اتكالاً على قول بعض الأعراب (هذا حجر ضب خرب) ولا يسمحون لأنفسهم أن يرفضوا الاحتجاج بقوله ، على ندرته وشذوذه ، ونحن نعرف أن هذه الأحاديث السابقة تتردد فى كتب (ابن هشام وابن مالك) ومن تبعهما من النحاة . ولكننا لا نقصد

هؤلاء المجيزين ، بل نقصد المانعين ممن يحرمون الاستشهاد بالحديث ، ولابد أن نفصل الأمر تفصيلاً لا يحتمل اللبس فنشير إليهم موضحين :

إن أول من نص على عدم الاستشهاد بالأثر النبوى لغة ونحوًا هو (أبو الحسن على بن محمد) الأشبيلى المعروف بابن الضائع المتوفى سنة ٦٨٠ ، و(أثير الدين محمد ابن يوسف) المعروف بأبى حيان المتوفى سنة ٧٤٥ حيث زعم أن ذلك مذهب المتقدمين والمتأخرين من علماء العربية ؛ إذ قال فى شرح كتاب « التسهيل » ما نصه :

« إن الواضعين الأولين لعلم النحو المستقرئين للأحكام من لسان العرب (كأبى عمرو وعيسى بن عمرو الخليل وسيبويه) من أئمة البصريين ، و(الكسائى والفراء وعلى بن مبارك الأحمر وهشام الضرير) لم يفعلوا ذلك – أى لم يحتجوا بالحديث – وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفريقين وغيرهم من نحاة الأقاليم كنحاة بغداد وأهل الأندلس » .

وقول أبى حيان فى القرن الثامن الهجرى : إن ذلك مذهب المتقدمين ومن تبعهم من المتأخرين يتضمن مبالغة مفرطة إذ لو كانت المسألة موضع إجماع لترددت قبل عصره فى كتب العربية ، ولكننا لا نعرف من تعرض لها من العلماء قبله غير (ابن الضائع) وقد رد عليه (البدر الدمامينى) حين قال فى حاشيته على المغنى :

« أسقط أبو حيان الاستدلال على الأحكام النحوية بالأحاديث النبوية باحتمال رواية من لا يوثق بعربيته إياها بالمعنى ، وكثيرًا ما يعترض على (ابن مالك) فى استدلاله بها ، ورده شيخنا (ابن خلدون) بأنها على تسليم أنها لا تفيد القطع بالأحكام النحوية تفيد غلبة الظن بها لأن الأصل عدم التبديل لاسيما والتشديد فى ضبط ألفاظها والتحرى فى نقلها بأعيانها مما شاع بين الرواة ، والقائلون منهم بجواز الرواية بالمعنى ، معترفون بأنها خلاف الأولى ، وغلبة الظن كافية فى مثل تلك الأحكام بل فى الأحكام الشرعية فلا يؤثر فيها الاحتمال المخالف للظاهر ، وبأن

الخلاف فى جواز النقل بالمعنى فى غير ما لم يدون فى كتب ما دوّن فلا يجوز تبديل ألفاظه بلا خلاف كما قاله ابن الصلاح ، وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول قبل فساد العربية وحين كان كلام أولئك على تقدير تبديلهم يسوغ الاحتجاج به ، وغايته يومئذ تبديل لفظ يحتج به بآخر ، كذلك دون ذلك البدل ومنع من تغييره ونقله بالمعنى ، فبقى حجة فى بابه صحيحة ، ولا يضر توهم ذلك الاحتمال السابق فى استدلالهم المتأخر[1] .

وإذا كان بعض المتقدمين من علماء العربية لم يحتجوا بالحديث فقد أجاب عن ذلك المجيزون للاحتجاج – كما روى الأستاذ (محمد الخضر حسين) – بأن علماء اللغة العربية فى العهد الأول لم يتعاطوا رواية الحديث حتى يقفوا منها على ما يسعف فى الاستشهاد ، ثم إن دواوين الحديث لم تكن مشتهرة فى ذلك العهد ولم يتناولها علماء العربية كما كانوا يتناولون القرآن الكريم ، وإنما اشتهرت دواوينه ووصلت إلى أيدى أهل العلم من بعد ، فإن سلمنا عدم احتجاجهم بالحديث فلعدم انتشاره بينهم ، لا لأنهم يمنعون الاحتجاج به وأما ما ادعاه أبو حيان من أن المتأخرين من نحاة الأقاليم تابعوا المتقدمين فى عدم الاحتجاج بالحديث فمردود بأن كتب النحاة من أندلسيين وغيرهم مملوءة بالاستشهاد بالحديث ، وقد استدل بالحديث الشريف (الصقلى والشريف الغرناطى) فى شرحيهما لكتاب سيبويه و(ابن الحجاج) فى شرح المغرب ، و(ابن الخباز) فى شرح ألفية ابن معطى ، و(أبو الشلوبين) فى كثير من مسائله ، وكذلك استشهد بالحديث (السيرافى

(١) نقلنا هذا النص وما قبله من « مجلة المجمع اللغوى » - الجزء الثالث سنة ١٩٣٦ عن بحث مسهب جديد للأستاذ الأكبر (الشيخ محمد الخضر حسين) يدعو إلى الاستشهاد بالحديث ، كما رجعنا إلى ما كتبه بذلك الصدد (البغدادى) فى الجزء الأول من الخزانة ، والعلامة (الشيخ حمزة فتح الله) فى الجزء الأول من « المواهب » ، و(العلامة الصبان) فى حاشيته على « الأشمونى » ، وليس وراء ذلك موضع لتنقيب .

والصفار) فى شرحيهما لكتاب سيبويه ، وقال ابن الطيب : بل رأيت ذلك فى كلام (أبى حيان) نفسه « ا هـ من مقال الأستاذ الخضر » .

ولنا أن نسأل أبا حيان بعد ذلك ما رأيه فى الأحاديث التى وردت من طرق متعددة واتحدت ألفاظها ، إذ إن اتحاد الألفاظ مع تعدد الطريق دليل على أن الراوى لم يتصرف فى لفظ ؟ ثم ما رأيه فى الأساليب البيانية المشتهرة مع جوامع كلمه ﷺ وقد سارت على كل لسان ، أيكون الرواة قد تصرفوا أيضًا فى بعض ألفاظها حين جرت بها الأفواه كالمثل الشرود . إن وجه الحق أشهر من أن يدل عليه وأخالنا نعترك فى غير ميدان .

لقد أطلنا بعض الشىء فى هذا المضمار لنخاطب من يعشقون الجدل العلمى بنصوصه المقررة ، وكان لنا عن ذلك غنى لو رجعنا إلى الشخصية الأدبية لمحمد ﷺ كما تتجلى فى أسلوبه ؛ فإنها بطابعها المتميز ، وخصائصها المنفردة تدفع ما عسى أن يثيره هذا الجدل المتزمت من غبار . فقد ترك محمد ﷺ آثارًا مشتهرة فى الخطبة والرسالة والأقصوصة والمثل والحديث المتبادل والابتهال السماوى ، وقد طبعت كلها بطابعه واتسمت بميسمه . فأنت تحس روحًا واحدة تنظم هذه الآثار المختلطة على اختلاف مناحيها ، وسنلم قريبًا بخصائص أسلوبه ﷺ فى فصل خاص يحاول أن يتعرف سماته البيانية وملامحه التعبيرية . فذلك ما ليس منه بد . ولكننا نعرض الآن أمثلة مختلفة لبعض آثاره الكريمة تنطق بطابعه البيانى العام ، وتجزم بأن صاحب هذا النسق الرائع الممتاز مبين أعظم البيان وهو فى تفكيره وتصويره وتعبيره أبعد من أن يستطيع أحد إطفاء نوره وإخماد جذوته ، بوضع لفظ مكان لفظ، أو تقديم جملة على جملة فى نصوص متماسكة يشد بعضها بعضًا كالبنيان المرصوص .

خطب رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال : نضر الله عبدًا سمع مقالتى فوعاها ، ثم أداها إلى من غاب ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ثلاث لا يغل عليهن قلب المؤمن : إخلاص العمل لله ، والنصيحة لأولى الأمر ، ولزوم

الجماعة ، فمن كان همه الآخرة جمع الله شمله وجعل غناه فى قلبه وأتته الدنيا وهى راغمة ، ومن كان همه الدنيا فرق الله أمره وجعل فقره بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له[1] .

هذا أنموذج من خطابته يليه أنموذج من رسالته حين كتب إلى (أكثم ابن صيفى) : بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى أكثم بن صيفى ، أحمد الله إليك ، إن الله أمرنى أن أقول لا إله إلا الله ، أقولها وآمر الناس بها ، والخلق خلق الله ، والأمر أمر الله ، خلقهم وأماتهم وهو ينشرهم ، ولتعلمن نبأه بعد حين[2] .

أما أنموذج الأقصوصة فننقله من رواية الشيخين عن النبى ﷺ قال :

بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا فنزل فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ، وإن لنا فى البهائم لأجرًا ؟ قال : فى كل ذات كبد رطبة أجر »[3] .

ونأتى بأنموذج المثل فنستشهد بقول رسول الله : مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا[4] .

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٥٤.
(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٦٩ .
(٣) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٢٢٦.
(٤) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٠٨.

أما أنموذج الحديث فنحو قوله : تجدون الناس معادن ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير الناس فى هذا الشأن أشدهم له كراهية، وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه[١] .

فإذا كان لابد من أنموذج للابتهال السماوى ، فلنذكر دعاء رسول الله بين التكبير والفاتحة :

« اللهم باعد بينى وبين خطاياى ، كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم نقنى من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد »[٢] .

ألا يرى المنصف أن لأسلوب محمد ﷺ طابعًا فريدًا يلوح فى فنون أدبه وتضاعيف حديثه أنه طابع الخلوص والقصد والاستيفاء – كما قال الأستاذ الرافعى ويعنى بالخلوص النفاذ إلى اللباب من طريق سهل يسير ، وبالقصد الإيجاز الذى تحل فيه الكلمة محل جمل مترادفات ، وبالاستيفاء وقوع الكلام تامًّا مبسوطًا لا ينقطع دون الغاية .. وذلك إجمال سنبسطه ونضيف إليه حين نشرح عناصر الأسلوب المحمدى فى فصل حفيل .

على أن آية الإبداع فى تعبير محمد ، تروعك حين يتحدث عن الأحكام التشريعية بلغة الأديب ، فنحن نقرأ المواد التشريعية فى كل قانون أرضى جافة خشنة. تلوح لعقلك جامدة صماء ، وكأنما كتب على ذوى التشريع أن يحبسوا أحكامهم فى نصوص مظلمة مغلقة تتطلب منافذ الضوء فى كل حرف ، وإذا كان القرآن الكريم نسيج وحده فى إبداعه التشريعى ، فإن نبى الإسلام قد استلهمه التعبير فى أكثر ما شرع من أحكام . إنك تقرأ أحاديث محمد التشريعية فلا يعيبك أن

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٦٨.

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٧٧.

تجد طابعه الأدبى ، وأن تتلمس عناصر أسلوبه تنادى على نفسها ، وتغريك بتأملها تاليًا ومستعيدًا ، حتى لينسى القارئ أنه يطالع تشريعًا وله الحق فى ذلك ؛ فهو يقرأ أنموذجًا من الأدب القوى يعرض الفكرة القوية معرضًا أخاذًا فيبعث فيها من الحياة ما يكاد يخرج بها عن دائرة القانون فى أنظار القاصرين .

اقرأوا إن شئتم هذه الأحاديث :

١- سئل رسول الله عن ضالة الإبل فقال : مالك ولها . معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وترعى الشجر ، فذرها حتى يلقاها ربها(١) .

٢- إن أحدكم إذا قام يصلى ، جاء الشيطان فلبس عليه حتى لا يدرى كم صلى ، فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس(٢) .

٣- إنى لأقوم فى الصلاة أريد أن أطول فيها ، فأسمع بكاء الصبى ، فأتجوز فى صلاتى كراهية أن أشق على أمه(٣) .

٤- تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، قالوا : أعملت من الخير شيئًا؟ قال : كنت آمر فتيانى أن ينظروا المعسر ، ويتجاوزوا عن الموسر فتجاوز الله عنه(٤) .

٥- لا تسأل المرأة طلاق أختها لتكتفئ ما فى إناها(٥) .

٦- كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهى خداج(٦) .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٦٧.
(٢) المصدر نفسه ، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه ، ص ١٥٧.
(٤) المصدر نفسه ، ص ٢١٦.
(٥) « المجازات » ، ص ٥٠.
(٦) المصدر نفسه ، ص ٩١.

٧- لو نظرت إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما[١] .

٨- العصر إذا كان ظل كل شيء مثله ، وكذلك ما دامت الشمس حية ، والعشاء إذا غاب الشفق إلى أن تمضى كواهل الليل[٢] .

٩- قال لمعاذ : صل الظهر بعد ما يتنفس الظل وتبرد الرياح[٣] .

١٠- من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم ، يتردى فيها خالدًا مخلدًا أبدًا ، ومن تحسى سمًّا فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم ، خالدًا مخلدًا فيها أبدًا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يجأ بها فى بطنه فى نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا[٤] .

وما بنا أن نطيل أكثر من عشرة أحاديث .

وقد أكثر الناقدون من القول بضرورة تأثير الشخصية الأدبية الفذة فيما وليها من الأجيال ، (فالجاحظ) مثلاً كان ذا شخصية فذة ، تركت طابعها البارز فى مئات الأدباء من معاصرين ومتأخرين ، حتى إنك لا تزال تلمس روحه فى بعض كتاب العصر الحاضر (كالبشرى والمازنى والرافعى) وغيرهم من صفوة البلغاء . وتأثير الجاحظ الأدبى إذا قيس بتأثير محمد ﷺ فى الأدب العربى كان لا شىء فقد نهج الرسول نهجًا جديدًا فى الخطابة الدينية احتذاه كل من جاء بعده ، حتى إنك تقارن بين الخطابة فى الجاهلية والخطابة فى صدر الإسلام ، فترى روحًا وثابًا نهض فجأة فى بيان الرسول ، ثم أخذ يثب فى ألسنة الخطباء ؛ إذ يرتقون المنابر فى كل موعظة . وإذا كان القرآن الكريم يضفى على الأثر الأدبى جمالاً وروعة إذا استشهد به فى موضعه ،

(١) المصدر نفسه ، ص ٩٣.

(٢) المصدر نفسه ، ص ١٧٠.

(٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٢.

(٤) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٤.

فإن الحديث النبوى قد شاركه هذه الميزة الجليلة ، فأصبحت كلماته وعباراته مددًا لا ينفد للبلغاء ، حتى لترتفع بالأثر إلى ذروة بيانية لا تتطاول ، اقرأ إن شئت خطب أبى بكر وعمر وعلى ، ثم انتقل إلى عظات الحسن البصرى والأوزاعى والغزالى وابن الجوزى ، بل اقرأ خطب الخوارج أنفسهم ، تجد البيان النبوى قد حلق بهم جميعًا فى أرفع أوج . ونحن الآن نطالع المقالات الأدبية لصدور البلغاء فى القديم والحديث ، فنحس الأثر النبوى فى تأييده فكرة أو تأكيد عبارة أو إيضاح رأى ، ونراه يترك فى مجاله ما يتركه الورد من نفح فواح . وإنك لتقرأ المقال ضعيفًا وانيًا ، وما تزال تحدث نفسك على إهماله حتى تجد الكاتب يلم بأثر نبوى جاء به فى مكانه ، فكأن صبحًا أضاء على غير انتظار فاكتسح الظلمات ، ولن يكون ذلك إلا بإبداع ملهم مطبوع ، له سماته البارزة التى تستعصى على التبديل والتحوير كما يتوهم الغافلون .

دع الحديث المتصل من قوله ، والخطبة الرائعة من بيانه ، والرسالة السائرة من إنشائه ، وانظر إلى إجابته العابرة على سؤال طارئ ، أو تعليقه الموجز على واقعة حال ، فإنك ترى هذا الطابع الممتاز يشع عليك نورًا من أفكاره ، ولن يقول هؤلاء المتشككون إن الراوى قد تصرف فى جملة تتركب من ثلاث كلمات وهى بعد مضرب المثل الشرود :

١- يسمع رسول الله أعرابيًّا يقول بعد صلاته : اللهم ارحمنى ومحمدًا ، ولا ترحم معنا أحدًا فيرد عليه محمد فى رفق : لقد تحجرت وسعًا .

٢- ويرى حادى المطايا يسرع بالنساء ، فيقول له : رفقًا أنجشة بالقوارير .

٣- ويصف له بالمدينة قادم من مكة بعض مشاهدها فتغرورق عيناه حنينًا لمطارح صباه ويقول فى هدوء : دع القلوب تقر .

٤- ويسأل عن صحابى لا ينام الليل بل يقرأ ويذكر فيقول : ذلك رجل لا يتوسد القرآن .

٥- ويعتب عليه الأنصار فى موقف ، فيقول لهم مبتسمًا : أنتم الشعار ، والناس الدثار .

٦- ويرى جملاً هزيلاً فيصيح بصاحبه : بعيرك يشكوك ، أكلت شبابه حتى إذا كبر تريد أن تنحره .

٧- ويسأل عما اقترفه المؤمن قبل الإسلام فيقول : الإسلام يجب ما قبله .

٨- ويتحدث عن قرب القيامة ، فيقول : بعثت فى نسم الساعة إن كادت لتسبقنى .

٩- ويرى سائلاً يتكفف فيصيح به : اليد العليا خير من اليد السفلى.

١٠- ويسمع فى سورة هود أحاديث الغابرين ممن عصوا الله فيقول فى ألم : شيبتنى هود وأخواتها .

هذه عشرة أحاديث أخرى[1] (ولو كان المجال ذا سعة لاستفاضت من طرازها الأحاديث .

---

(١) أخذت جميعها من « المجازات النبوية » (للشريف الرضى) فى مواضع متفرقة .

القرآن أستاذ محمد
نظرة فى عوامل تكوينه الأدبى

يتحدثون عن المؤثرات المهمة فى تكوين الأديب ، إذا أرادوا أن يحللوا حياته الأدبية ، فيبحثون عن مصادر إلهامه ، وعوامل إبداعه ، ويرجعون ذلك إلى بواعث داخلية من استعداده الخاص ، وتكوينه الذاتى ، وخارجية من تأثير البيئة فى اتجاهه ومنحاه . ولابد لنا أن نبحث عن هذه المؤثرات فى مجال يتحدث عن أفصح البلغاء.

لقد اختار الله محمدًا ﷺ من بين آلاف الفصحاء من قومه ؛ ليعجزهم بفصاحة القرآن ، ووكل إليه أن يفسر كتابه ، ويبين وحيه حين قال فى محكم آياته : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] ، وحين قال : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴾[2] ، وحين قال : ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[3] .. إلى غير ذلك من الآيات التى تنطق بمهمة الرسول فى الإبلاغ والتبيين والهداية ، فإذا علم أن هذا التبيين كان لقوم يتصاولون بالبيان ، ويتقارعون بالفصاحة ، فلابد أن يكون الذى يتولى هدايتهم من الظلمات إلى النور بالبرهان

(١) سورة النحل : ٤٤ .

(٢) سورة مريم : ٩٧ .

(٣) سورة آل عمران : ١٦٤ .

والمنطق ، أشدهم عارضة وأقواهم حجة . ولابد أن يكون الذى اختاره لهذه الهداية، قد مكن له فى منبته وفى نفسه من عوامل السداد والتوفيق ، ما يحرز به الفلج الحاسم فى ملأ لُدٍ أنبياء .

أجل .. لقد مكن الله له فى منبته ونفسه بما بهر به العقول إقناعًا وإفحامًا ، ولم يكن محض الصدفة العابرة أن يختاره الله من بنى هاشم بن عبد مناف بن قصى ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى ، فكل هؤلاء الأجداد قد توارثوا البلاغة وكانوا رؤساء فى أقوامهم يقولون فيُسمعون ، ويُسألون فيجيبون ، وكانت الرئاسة القبلية فى الجزيرة العربية بعامة ومكة بخاصة ، ترتكز على عوامل بارزة من الشجاعة والكرم والبيان ، فكل رئيس فى قومه لا يحتل مكان الصدارة إلا إذا سال فناؤه بالخير للمعتفين ، وجرؤ قلبه بالبأس والشجاعة غداة الروع ، وعرف كيف يفصل فى المآزق المشتبهة بالقول الجزل . هذه هى عناصر الرئاسة العربية كما اتضحت فى أسرة (كعب بن لؤى) . وقد بدأنا الحديث به لأن كتب العهد الجاهلى قد تحدثت كثيرًا[١] عن زعامته ، واجتماع العرب إليه فى كل جمعة ، ليأمرهم بالطاعة والكف عن الشر ، وسمى هذا اليوم يوم الرحمة أو يوم العروبة[٢] فكان يوم عيد قومى لاجتماع القبيلة ، ويوم عيد دينى لزيارة البيت ، ولا يتم ذلك إلا لعظيم يأتمر بأمره العرب ، وقد حافظوا على تاريخ وفاته ، فأرخوا به حتى كان عام الفيل فمحا من قبله من ذكريات المجد ، ثم جاء حفيده (قصى بن كلاب) ، فأخذ حيازة البيت الحرام فى يده ، وأنشأ دار الندوة بمكة فكان أول من فطن إلى الحكم الشورى من العرب ، ويروى الثقات أنه هو الذى أسس مدينة مكة ، وقسمها بين قريش وخزاعة ، وجمع شملهم ولمّ عزوتهم ، ولم تكن مكة قبل قصى سوى معبد بدوى قائم فى الصحراء فصنع بها قصى أكثر مما صنع (تيزيو) لأثينا و(رومولو) لروما ،

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ٢٨٢.

(٢) « ثورة الإسلام » ، ص ٢٤٠.

و(أبو جعفر المنصور) لبغداد ، وكان خطيبًا لا يبارى تنوقلت على بعد الأمد بعض أحاديثه ، حتى إذا مات حزنت عليه قريش حزنًا لا يزال يتردد صداه فى الشعر العربى القديم ، وقد سمى مجمعًا ؛ إذ جمع الله به القبائل من فهر ، فنزلوا بطحاء مكة فى الشعاب ورءوس الجبال ، ثم جدد بناء الكعبة إذ تآكلت أحجارها وكادت تصير إلى أنقاض ، وجاء ولده (عبد مناف) فاحتل مكان أبيه فى رياسة دار الندوة ، وكان حليمًا لا ينطق إلا بما يأمر بالمعروف من صلة الرحم وذم الحروب والغارات ، أما ولده (هاشم) فقد ملك بعد أبيه الرفادة والسقاية ، وكان يصنع الطعام لحجاج البيت ، وكان إذا أهل هلال ذى الحجة من كل عام ، قام إلى الكعبة فخطب الناس وحضهم على إكرام الحجاج ، وأعلن أنه فتح بيته للوافدين ، وسارت له فى ذلك أقوال ترويها كتب الأدب ، وهو بعد والد عبد المطلب الجد الأول للرسول ، وما حديث عبد المطلب فى رئاسته وفصاحته ببعيد .

أسهبنا بعض الشىء فى بيان السمات المتواترة فى رجال النسب المحمدى ، لنعلن أن ما اشتهروا به من الفصاحة والمجادة قد خلص إلى سليلهم العظيم ، فكان من عوامل سيادته ، ولنعفى على ما يلوكه حقدة المستشرقين من غمز دنىء لأجداد محمد ، فقد حلا لبعضهم أن يكيل المدح جزافًا لبنى شمس لينتقص بنى عبد مناف ، وكل أدلته ما تناقلته الكتب من كثرة مال بنى عبد شمس . ولو عرف هؤلاء أن حقوق السيادة ومغارم الفضيلة ، هى التى جعلت مال بنى عبد مناف نهب الراجين ومنال الطامعين لعرفوا أنهم يمدحونهم بما يظنونه موضع التقصير .

ولم تكن قلة المال – ذات يوم – مكمن الغميزة فى شرف أو رياسة لدى الأعاجم ، ممن ينكرون عامدين منازع الفتوة والمروءة لدى المساميح من أبناء عبد مناف . ولك أن تعجب حين تجد المستشرق الكاثوليكى (لامنس) ، يكتب تاريخًا مسهبًا (ليزيد بن معاوية) . لينتقص (الحسين بن على) ثم يعلو إلى (معاوية) مادحًا مباهيًا لينتقص (على بن أبى طالب) فإذا تحدث عن أبى سفيان بالغ فى

مآثره متوهمًا أنه يعد له برسول الله ، فإذا بلغ (حرب بن أمية) فضله ورفعه على (عبد المطلب) . وأنت تسأل فيم هذا الهيام العنيف ببنى أمية لدى القس الكاثوليكى العجيب ، فلا تجده غير التنفيس قليلاً عما يضطرم فى حناياه من بغض لنبى الإسلام.

لقد ورث محمد الفصاحة فيما ورث من سمات آبائه ، وقد مكن الله له من أفانين البلاغة والسداد والإفحام ، بما استطاع أن يبهر به قومًا قال عنهم (الجاحظ) واصفًا بلاغتهم المبدعة :

« وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام ، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة ، وإنما هو أن يصرف وهمه – العربى – إلى الكلام ، وإلى رجز يوم الخصام ، أو حتى حين يمتح على رأس بئر أو يحدو ببعير أو عند المقارعة والمناقلة أو عند صراع حرب ، فما هو إلا أن يصرف وجهه إلى جملة المذهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى إرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً ثم لا يقيده على نفسه ، ولا يدرسه أحدًا من ولده ، وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر ، وهم عليه أقدر وأقهر ، وكل واحد فى نفسه أنطق ومكانه من البيان أرفع ، وخطباؤهم أوجز ، والكلام عليهم أسهل وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ أو يحتاجوا إلى تدارس ، وليس هم كمن حفظ علم غيره واحتذى علم غيره واحتذى على كلام من قبله ، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم ، والتحم بصدورهم ، واتصل بعقولهم من غير تكلف ولا قصد ، ولا تحفظ ولا طلب وإن شيئًا الذى فى أيدينا جزء منه لبالمقدار الذى لا يعلمه إلا من أحاط بقطر السحاب وعد التراب ، وهو الله الذى يحيط بما كان . والعالم بما سيكون »[١] .

لقد أحسن شيخ أدباء العربية فى حديثه عن فصاحة العرب ؛ إذ وصف الأمر كما كان فى تدفق بيان وخلوص عبارة ، وإن من يوكل إليه إقناع من أنصف من

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٢٥.

هؤلاء وإفحام من اتبع هواه دون إنصاف ، لسيد بلغائهم وأفصح رجالهم دون نزاع، ولم يقل رسول الله ﷺ : أنا أفصح العرب ، بيد أنى من قريش ونشأت فى بنى سعد مباهاة بالفصاحة ومفاخرة بالبيان ، فما كان أبعده عليه الصلاة والسلام عن المفاخرة والمباهاة ، ولكنه كان يعبر عن حقيقة خالصة ويجيب عن سؤال من سأله كيف يخاطب رجال القبائل على اختلاف لهجاتهم ، وتنوع ألفاظهم ، واختلاف مدلولاتها بين القبيلة والقبيلة ؟ كيف يخاطب هؤلاء بما يعجز عنه – عادة – القرشى الناشئ فى مكة والمتنقل إلى المدينة . دون أن يتعمق بطون القبائل ، قبيلة قبيلة حتى يلم بعشرات اللهجات المتضاربة ومئات الألفاظ المغلقة ، فيجيبه الرسول عن الحقيقة الماثلة دون تزيد ، حين يعلن أنه أفصح العرب ، ولد فى قريش ونشأ فى بنى سعد .

هذه النشأة القوية فى ربوع الفصاحة ، ومسارح البلاغة ، كانت بعض عوامل الإعداد الإلهى لنبيه الكريم ، والله أعلم حيث يجعل رسالته ، وإذا كان عز وجل قد قدر عليه أن ينشأ هذه النشأة ليتمكن لسانه من الأداء المحكم عما يلهم خاطره ويجيش بنفسه من المعانى ، فقد قدر عز وجل أن يحيا حياة خاصة تساعد نفسه على الاتساع والعمق ، فيشعر مشاعر الدقيق الحس ، ويفكر تفكير المتفتح اليقظ ، ويرى كل عابرة وطائرة رؤية المتأمل المحيط ، لتكون تجارب حياته ومشاهد بيئته ، وصور الكون أمامه كتابًا مفتوحًا ، يقرأ فى سطوره ما لا يقرأ البسطاء من ذوى النظر المحدود . لذلك .. أورثه الله الظمأ الحار إلى المعرفة ، ومنحه من لدن شب عن الطوق هذا التساؤل المتطلع عن ألغاز الكون ومعمياته ، وأوسع له من ذات عقله ليفكر فيطيل التفكير ، ويتدبر فيمعن التدبر ، كما أوسع له من ذات نفسه ليحس الخلجة السانحة ، ويتأمل الومضة البارقة ويتسمع إلى أخفت أحاسيس الضمائر والمكنونات . أما تاريخ حياته يومًا فيومًا فمما ساعد على تقوية انتباهه ودقة شعوره ، وعمق حساسيته مساعدة كان من أثرها أن أصبح الداعية المختار إلى نشر دين الله

فى الأرض ، وأن يكون وحده المعنىّ بقول الله عز وجل : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴾[1] ، وصدق الله .

لم يكد يتخلق ﷺ فى بطن أمه جنينًا ، يقتات قطرات الدم الخالص ، حتى فوجئت الأم الرءوم بها أثار شجونها من موت زوجها الحبيب ؛ فوجمت العروس الشابة وجومًا طبعها بطابع الحزن المرير ، وأخذ الجنين الحى فى أحشاء أمه يقتات لبنًا حزينًا يتحدر من نفس تحمل كوامن الشجن ، وتنطوى على أقسى ما تنطوى عليه عروس حسناء فجعت فى مشرق أملها ، وهى تتحسس بين أحشائها فلذة منه ، تضطرب مؤذنة بوجودها المتوثب إلى مشرق الضياء . ثم أهلّ الطفل المنتظر ليحيا فى كفالة جده ، لا فى رعاية أبيه ، وكانت مدة الحمل الحزينة ، قد تركت طابعها لا محالة فيما بعد فى نفس الطفل ، فلم تكن حياته الطويلة مجالاً للطرب والنشوة ، إنما كان ما وصفه أبو هالة متواصل الأحزان دائم التفكير ، ليست له راحة ، طويل السكوت . وقد كان فى صغره موضع العجب من عارفيه ، فإن مرضعته العطوف (حليمة السعدية) تقول عنه : إنه كان يقلق بالليل ، فلا يبكى ولا يصرخ ، ولكن سمة الضجر تطبع وجهه فتخرج به من الخيمة ، فيتطلع فى سرور إلى نجوم الليل ، وإذ ذاك ينفرج ضيقه ، فإذا شبعت عيناه من نور السماء أطبقهما وأخذ الكرى بمعاقد أجفانه[2] .

نشأ محمد فى بنى سعد ما نشأ ، ثم عاد الطفل المتأمل إلى أمه بعد الرضاع ، فخرجت به من مكة إلى زيارة قبر أبيه بالمدينة ، وبلغ من حساسيتها أنها لم تخبره – وهو غض نضير – بمكان القبر كيلا تثير تساؤله ، إنما تسللت إليه منفردة ، فذرفت من دموعها ، ثم كرت أدراجها إلى مكة والمرض يهدها هدًّا ، حتى إذا كانت فى

---

(١) سورة الأحزاب : ٤٥ ، ٤٦ .

(٢) « محمد رسول الله » ، ص ٧٤.

الطريق بالأبواء لفظت أنفاسها ، وتركت الصغير فى السادسة من عمره مع جاريتها (أم أيمن) كى تسلم اليتيم إلى جده (عبد المطلب) . أى صدمة تحملها الطفل حين فتح عينيه فوجد أمه تفارقه قسرًا لتوضع فى لحد بالأبواء . لم ينس الرسول هذا المشهد طيلة حياته ، فظل يراوده بين الفينة والفينة ، حتى إذا خرج فى عهده الأخير إلى الحديبية ناويًا دخول مكة ، تعمد النزول بالأبواء ، فوقف على قبر أمه وبكى ، فبكى لبكائه المسلمون . هذا الحزن الذى طاف باليتيم تجدد فى حياته مرات كثيرة ، تجدد حين فقد لعهد قريب جده ، ثم تجدد حين رأى الدنيا تحيطه بغرائب المنكرات ، من إثارة للحروب ، وشن للغارات ، وعسف بالضعيف ، واعتزاز بعصبية الجاهلية، ونزقها الأرعن ، فكان دائمًا يطيل التفكير فيما يرى ويسمع ، ويرى أن الحياة فى حاجة إلى إصلاح وتوجيه .

على أن هذه النشأة الجادة الحزينة ، جعلته يفكر تفكير الرجل المحنك وهو شاب يافع ، إذ أنس من نفسه انصرافًا عن دواعى اللهو وبواعث الطرب ، تقوم الأعراس بمكة ويخف الشباب أرسالاً إلى مسارح اللهو يصاحبون القيان ، ويستمعون الألحان ، ويشاركون فى العزف والرقص والشراب ، ومحمد عزوف عما ينشط له اللدات ، لا يحب أن يشارك فى اللهو ، ويراه عبثًا طائلاً لا يليق بمفكر ملهم مثله ، وقد حدثه اللدات عما تمثله الأفراح والأعراس من مغريات اللهو والطرب ، وطال الحديث مغريًا دائبًا ؛ فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يذهب ذات مرة إلى مشاهدة ما يلهج به اللدات ، ولم يكد يأخذ مكانه حتى أخذه النوم ، فما أيقظه إلا وهج الشمس ، يقول المؤرخون : إنها معجزة ، وأقول مستعينًا ببسائط علم النفس : إن النوم كان حيلة لا شعورية تخلص بها محمد مما يكره ، لأنه ذهب إلى العرس بعد أخذ ورد من بعض رفاقه ، فحين وجد نفسه فى المكان ، وهو فى أطوائه غير مقتنع بما يرى من المناكر والملاهى ، تغلبت داعية الباطن على وعيه المتيقظ ، فكان النوم حيلة لا شعورية انتصر بها الضمير المستكن . وقيل فى بعض الروايات :

إن محمدًا ذهب إلى العرس فى شبابه مرتين ، فكان النوم هو ستارة الأمان ، والتعليل واحد فى موقفين متحدين .

هذا العزوف المشيح عن الملاهى ما خطبه ؟ لابد أنه كان يسأل نفسه فيطيل السؤال ، يسأل نفسه عن ضرورة القيام بإصلاح ينجى الناس من الشرور والآفات. ليس الأمر أمر عرس ولهو ، ولكنه أمر الحياة بما يصطخب فيها من آثام . ما هذه الخمور التى تراق فى كل مكان ، حتى إذا شربها العاقل عاد وحشًا هائجًا يقتل ويذبح ويعيث فى الأرض بالفساد . ما هذه الغارات التى تعبّأ فيها القوى وتتكتّل الجهود لينهب ملأ ملأ . تكون القبيلة آمنة فى خيامها ترعى الأم طفلها ، والكبير صغيره ، والصحيح مريضه ، ثم تصيح الصائحة فإذا خيل تغير ، وسيوف تشرع، ورماح تطعن ، ثم إذا الدماء سائلة ، والشباب صرعى ، والنساء أسرى ، والشيوخ والأطفال بلا مأوى . ما هذه الأوثان التى يعبدها الناس فى الكعبة ، إنها حجارة صماء ، صنعت بيد صانع فكيف تصير أربابًا تدير الكون وتسأل الخير وتدفع الشر ، وكيف يعبدها العقلاء وقد صنعوها بأيديهم ، ولو هم أحدهم لاستطاع أن يكسرها بفأسه فيجعلها حطامًا تذروه الرياح . أهى مع هذه المهانة آلهة خلقت الأرض والسماء ، وملكت الزرع والضرع والماء . من يصدق هذا ؟!

منافذ للتفكير كثيرة اتسع لها جنان هذا المتأمل الصامت . وقد بدأ بنفسه ، فأصلحها هداية من الله ، واستجابة لهواتفه الذاتية ، فلم يلعب ميسرًا ، ولم يشرب خمرًا ، ولم يسجد لوثن ، وكان مثال الأمانة والنزاهة ؛ حتى عرف بين الناس جميعًا بالصادق الأمين . ولكن هداية النفس وحدها لا تكفى ، بل لابد من هداية الناس . وكيف . دون ذلك أهوال .

كانت الأشعار الأدبية ترن فى مكة ، وتتجاوب بها أرجاء عكاظ ، ويسمر بها العرب فى أنديتهم راوين مباهين . ومحمد البليع المبين لا يعيرها سمعه ، ولا يهش إلى خلابتها الرنانة ، وغزلها الرائق ، وحماستها المتأججة ، ولماذا ؟ إنها لا تهدف إلى

غاية ، ولا ترسم طريقًا لخير ، ففيم الاهتمام بها فى ملإ فاسد يعكف على الأباطيل ، وكانت الخطب المطيلة يرمى بها المقاول من البلغاء ، وقد تنكبوا القنا واعتجروا العمائم ، وشدوا الأوساط وأرخوا عليها العباءات .

ومحمد البليغ المبين يشيح عنها فلا يسمع ، ولا يستعيد . ففيم الاهتمام بها وهى تدعو إلى العصبية ، وتوقظ الفتنة وتتخذ سلاح الحروب . فكل متشدق لا يعنى بالحق ، ولا يلتزم الصدق ولا ينشد الإصلاح ، وإنما يرضى قومه ويتبع هواه .

لا شيء من ذلك يستهوى هذا المفكر الصامت . إنما الذى استهواه وظل يذكره حتى آخر سنى حياته ، خطيب من إياد وفد إلى عكاظ ، يحمله جمل أورق ، فتجمع حوله الملأ ، ورأى محمد فى سماته النبيلة ما جذبه إلى الاستماع إليه ، فأنصت ثم أنصت ، فإذا به يسمع ، وإذا القائل (قس بن ساعدة) يحذر الناس ببعض ما يجيش فى صدر الشاب المتأمل ، ويضرب الأمثلة بمشاهد الكون فيصيح :

« أيها الناس ، اسمعوا وعوا ، إذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهر ، وبحار تزخر ، وجبال مرساة ، وأرض مدحاة ، وأنهار مجراة ، إن فى السماء لخبرًا . وإن فى الأرض لعبرًا ، ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا فأقاموا ، أم تركوا فناموا ، يقسم (قس) بالله قسمًا لا إثم فيه ، أن لله دينًا هو أرضى له وأفضل من دينكم الذى أنتم عليه ، إنكم لتأتون من الأمر منكرًا »(١) .

حديث شائق ، يسمعه النبى الشاب فيأخذ بمجامع نفسه . ويظل يتذكر صاحبه ، حتى يجيء إليه وفد عبد القيس بالمدينة ، فيسألهم عن (قس بن ساعدة) ، فيجيبونه فيتذكر موقفه فى عكاظ ثم يقول عنه : « يرحم الله قسًّا . إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده »(٢) .

---

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥.

(٢) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٣٥.

وكانت الاجتماعات السياسية والحربية والدينية ، تعقد فى دار الندوة وغيرها ، وتأتى أنباؤها إلى من لقبوه بالصادق الأمين ، فلا يسرع إلى شهودها ، ولو فعل لأخذ مكانه فى صدارة بنى هاشم ، أوسط أهل مكة حسبًا وأشرفهم مكانًا ، ولكنه يستمع إلى أنبائها فيشيح ، ويدعى لشهودها فيحجم ، وكأنه يتساءل ما يفعل القوم فى هذه الاجتماعات ، غير أن يشربوا الخمور ويلعبوا الميسر ويقتسموا الأزلام . ثم يخرجوا إلى صفقات الربا ، وغزوات السلب ، وأوكار البغاء ، وعبادة الأصنام .

وفى يوم يأتيه ، أن حلفًا عقد فى دار (عبد الله بن جدعان) يسمى : حلف الفضول ، يدعو لنصرة الضعيف ، وإحقاق الحق ، فيسرع إلى دار (ابن جدعان) فى شغف ويمد يده مع المجتمعين قيامًا فى شهر حرام ، يتعاهدون على ألا يظلم بمكة غريب ، ولا قريب ، ولا حر ، ولا عبد حتى يأخذوا له بحقه فيكونوا جميعًا مع المظلوم على الظالم شريفًا كان أم وضيعًا ، أو يبلغوا فى ذلك عذرًا ثم عليهم ألا يتركوا لأحد عند أحد فضلاً حتى يأخذوه متعاهدين على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى التآسى فى المعاش ، والتساهم بالمال(١) . ما هذا ؟ إنها الأغراض التى ينشدها ، والتى تخالجه وحيدًا حين يخلو إلى هواتفه ، فليحرص عليها مع الحريصين ، وقد مضت الأيام وقام بعبء الرسالة ، فحقق هذه الأغراض صادعًا بوحى ربه ، ولكن اجتماع حلف الفضول لم يبرح ذاكرته ، فهو يتحدث عنه بالمدينة قائلاً لصحابته : « لقد شهدت فى دار (عبد الله بن جدعان) حلفًا ، ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو دعيت إليه فى الإسلام لأجبت » .

هذه بعض هواتف الشاب الصامت العزوف تراوده متقطعة بين الفينة والفينة، وقد ينجو منها أمدًا طويلاً مشتغلاً بالتجارة ، أو ناهضًا بأعباء المنزل والزوجة والولد ، ولكنها تعود وتلح عليه ، وتلحظ عليه خديجة زوجته أم المؤمنين ما يعتريه من الصمت المفاجئ والإطراق المتصل ، فتتساءل فى نفسها : فيم إطراق هذا

(١) « بلوغ الأرب » ، ج ٣ ، ص ١٢٥ .

الإنسان النبيل الشهم ، إنه لنظيف كل النظافة فى مسلكه ، يقرى الضيف ، ويرعى الكلّ ، ويحمى الضعيف ، ويعين على نوائب الدهر ، وإنه لفى سعة من المال ، ورفاهة من العيش ففيم الإطراق الطويل ، وعلام الصمت والاعتزال . وإن اعتقادها الراسخ فى همامة نفسه وسمو مثله ليحدثها بشىء عجيب يوشك أن يحدث ، أو ليس (ميسرة) قد حدثها بمعجزة الغمامة ، وتلك لن تكون لإنسان عادى يأكل ويشرب ويغرق فى هموم الأكل والشراب ، غير متطلع إلى أفق أعلى تشرق فيه لوامع الحق والعدل والإحسان . لقد تحقق هاجسها الصامت ؛ فقد بدأ الزوج يواصل الاعتزال نازحًا عنها إلى غار حراء .

قد يظن ظان أن الذى نكتبه أدب متخيل لا حق واقع ، والحقيقة : أن مهمة الناقد أن يبحث الظواهر الغريبة فى حياة الأديب ، متلمسًا تعليلها المعقول ، والنبى ﷺ كان يطيل التفكير والتأمل ، فلابد من علة واضحة لذلك ، وكان ينأى مشيحًا عن أماكن اللهو والريب ، فلابد لذلك من سبب ؟ وكان لا يرحب بشعر الجاهلية فى الحروب ، والحماسة والغزل والهجاء ، ولا بخطبها فى الثأر والاعتزاز بالعصبية . وهى تحيط به عن شمال ويمين ، إنما يرحب بأنموذج معين من الخطب جاء على لسان قس . وباجتماع منصف قام به حلف الفضول لدرء المظالم .. لن يفعل ذلك إنسان خواء لا يفكر فى شىء ، بل لابد وراءه من نفس ذات عالية ، ومنازع رفيعة هيأها البارئ المصور لحمل رسالة السماء . ثم شاء لها أن تعتزل ، وتخلو قبل أن يضىء لها القرآن طريقها المشتبه ، ففيم كانت تفكر أثناء الاعتزال ؟ وكيف استطاع القرآن أن يجيب عن أسئلتها الغامضة ، فيكون لها بإجابته الشافية أكبر أستاذ ؟

إن الجبال العارية الجرد التى تحيط بمكة ليست مما يملأ العين جمالاً وبهجة ، فليست لها سفوح تزهر بالخضرة ، ولا تتوجها الثلوج أو تكسوها الأشجار ، وهى فى أتون الهجير تصلَى نارًا حامية تحيلها جمرة حمراء ، فإذا لفها الليل بظلامه بدت قاتمة دهماء ، وكأنما تسربلت بأثواب الحداد فى غير الليالى القمراء . إلى هذه القمم

الموحشة كان يسعى محمد بين الدروب والأزقة بمكة ، ليجلس فى غار منها متأملاً متعبدًا ، يفكر فيما هيأ الله نفسه له من عوالم الحق والخير والمعروف . كان يجد بعض العزاء فى أشعة الكواكب ، تنحدر برفق إلى مخدعه فى بعض الليالى ؛ فتؤنس وحشته وتسامر وحدته ، فإذا أطلق لعينيه أن تمتد وراء الجبال شاهد بساطًا من الرمل تصفعه الريح بسياطها الهوج ، فينتفض سياجًا هائجًا من الذر ثم يتبدد هباء .. إن بعض الذين كتبوا السيرة المطهرة من كتّاب الغرب – منصفين ومتحاملين – قد تصوروا مكة ذات حدائق ، وبساتين ، وجعلوا جبالها نمطًا أوروبيًّا تتوجه الثلوج آنًا وتحوك له الطبيعة أزهى الثياب من ريحان وأزاهير ، آنًا آخر ، وأخذوا يعللون رحلة محمد إلى الغار ، كما يعللون مواقف (لامرتين وجيته وهوجو وابن خفاجة) من طبيعة أوروبا ، وقد فاتهم شىء كبير مهم جدًّا هو الفرق الهائل بين مواقف الشعراء من عرب ومن عجم ومن الطبيعة ، وموقف سيد الأنبياء ، هؤلاء يقصدون إلى قمم الجبال ومعارج الأنهار ، وأبسطة الصحراء ليجدوا الأنس البصرى ، والراحة الذاتية فيما يشهدون من مسارح ، وليجعلوا الطبيعة بغاباتها وأشجارها وأزهارها منظرًا خلفيًّا لمشهد شعرى فى قصيدة غزلية ، أو ليجعلوها مسرحًا أنيقًا لقصة عاطفية . ما إلى هذا كان يذهب محمد حتى يقاس بسواه ، إنه كان ينظر إلى الطبيعة ليتساءل عمن صور الطبيعة : هذه النجوم ، هذا الجبل ، هذا الليل، هذا النهار ، كل ذلك رائع مهيب جليل . فمن أوجد هذه الروعة ؟ أخلقت من غير شىء ! أتمخضت عنها المصادفة . أيعقل أن توجدها أصنام لا تملك لنفسها ضرًّا ولا نفعًا .. وإن الوحدة الخالية لمما يساعد النبى الموعود على اجتلاء غوامضه ، واستيضاح خوالجه ، وبالفعل .. كانت وحدة الغار بداية الطريق . ففيه بدأت الرؤيا الصادقة ، وفيه نزل الروح الأمين بالقرآن على قلب محمد ليكون من المرسلين .

أخذت آيات القرآن تتوالى ؛ فكانت الإجابة الشافية لكل ما جاش فى صدره من خواطر ، وفتح الرسول عينيه على هذا البيان الهابط من أرفع سموات ، فإذا به ينقذه من حيرته ، ويجيب على أسئلته ، ويؤيد وجهة نظره فى الحياة والأشياء . أليس محمد كان ينأى عن الأصنام ؟ لقد نزل بيان السماء بتحريم عبادة الأصنام . أليس محمد كان يشيح عن العصبية الحمقاء ، والتعالى بالأنساب ؟ لقد نزل بيان السماء بأن الناس من أصل واحد من ذكر وأنثى . إن العناية التى استخلصته لرسالة السماء ، قد طبعت بطابع السماء ، حتى إذا جاء زمان الدعوة صادف القرآن نفسًا ظامئة وقلبًا تائقًا ، وروحًا متطلعًا ، فروى الظمأ وشفى الغليل . وكان ذلك كله التفسير الصادق لقول الله : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴾(1) . إن الحيرة التى توزعت نفس الرسول قبل البعثة ، كانت الاستعداد الطيب من التلميذ المخلص لتلقى تعاليم الأستاذ المرشد . وها هو ذا الأستاذ الحكيم يجيب عن كل سؤال ، ويرشد إلى الطريق الأمثل : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾(2) .

كان التلميذ المعتزل يرى دورات الليل والنهار ، وارتفاع السماء ، وانبساط الأرض ، وتفجير الأنهار ، وإرسال الرياح ، ونهوض الجبال ، وإجراء الرزق ، وبدء الخلق ، فيتساءل متلهفًا : أتم ذلك بدون مبدع ؟ أقامت به الأصنام الصم ؟ فتأتى إجابة الأستاذ دقيقة صريحة بمثل قول الله : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن

(1) سورة الضحى : ٧ .

(2) سورة العنكبوت : ٤٨ ، ٤٩ .

تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيۡنَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ حَاجِزًاۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهۡدِيكُمۡ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَمَن يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ ﴾[1] .

وكان التلميذ المتأمل يرى الفجرة من الأعراب : يسرقون ويقتلون ويعيشون فى الأرض فسادًا ثم يموتون كما يموت الأبرياء الصالحون دون عقاب رادع ، أو جزاء منصف ، فيتعاظمه أن يتساوى البرَ والفاجر فى العاقبة . ويتساءل ألا يقوم هؤلاء ليوم ينتصف فيه المظلوم من الظالم ؟ وهل خلق الخلق سدًى ؟ فما هذه الدنيا إلا لعب ولهو ، وما يهلكنا إلا الدهر كما يزعم معاصرون ؟ إن أحاسيس أعماقه الدفينة بما برأها الله من إلهام نبوى لا تقر ذلك ، ولكنه يتطلع متسائلاً فى حيرته يريد التأكد والتثبيت ، فيأتيه الأستاذ بالبلسم الشافى حين ينزل عليه جبريل بمثل قول الله :

﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ

(١) سورة النمل : ٥٩ : ٦٥ .

وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡۖ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَقِيلَ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾(١) .

وكان التلميذ المتطلع ينكر فى أعماقه ما اشتهر فى زمانه من وأد البنات ، وإظهار الفواحش ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ويريد أن يعلن حق اليتيم فى العون والرعاية ، وحفظ المال ، وينفر ممن يطففون الكيل والميزان ، ويحب العدل والقسط ، وينفر من الربا ، ويراه ابتزازًا دنيئًا . ثم ينظر فإذا الجاهلية مطبقة على غير ما يعتقد . يتطلع إلى من يشد أزره فى إصلاح يقوم به كما أسرع من قبل إلى الانضمام فى حلف الفضول ، ولكن السماء التى ألهمته ذلك ، ترسل آياتها المفصحة بمثل قول الله :

﴿ قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ

(١) سورة الزمر : ٦٧ – ٧٥ .

ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾(1) .

وبمثل قول الله من آيات محكمة :

﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰا۟ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴾(2) .

ثم يكون التلميذ الحريص فى حاجة إلى معرفة أحوال الأمم الغابرة ، والعصور الخالية ليضرب لقومه المثل ، وليأخذ لنفسه الأسوة ، فينزل عليه القرآن بقصص فرعون وهامان ، وقارون وأقوام نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط ويوسف وغيرهم من المرسلين : ﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾(3) . ويلزم قومه الحجة بمثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ

(1) سورة الأنعام : 151 - 153 .

(2) سورة البقرة : 275 ، 276 .

(3) سورة يوسف : 111 .

لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾[1] . ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا ﴾[2] ؛ ﴿ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ﴾[3] ثم يرد شبهتم المفتراة ، إذ يقول عمن عزوا إليه تعليم الرسول : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾[4] .

لقد أسهبنا بعض الشيء فى الاستشهاد بنصوص القرآن الكريم ؛ لنعلن أن هذا الكتاب المبين قد ملأ حياة الرسول ، وشغل عقله وقلبه ، وأورثه الحكمة والحجة والبيان ، ولم أراع التدرج الزمنى فى الاستشهاد بآيات القرآن ، بدءًا ونهاية لأنى فى هذا المجال لا أرصد خطوات التشريع خطوة خطوة ، فأبين مراقيها فى سلم الحياة النبوية ، فذلك شأن علماء التشريع ، إنما أختار نصوصًا قرآنية توضح أستاذية القرآن ، ولئن شاركتها كل نصوص القرآن فى الأستاذية والتوجيه فلست فى مجال الاختيار والتفضيل ، وكل كلام الله جيد مختار ، ولكنى أستشهد بما يفد على الذهن ويسد حاجة البحث ، وإن شابهه سواه .

لقد روى أن أبا بكر الصديق قال لرسول الله : لقد طفت فى قبائل العرب ، فما وجدت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : « أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى » إن بعض الشراح يميلون بكلمة الأدب فى سؤال أبى بكر ورد الرسول إلى المعنى الخلقى . ولكنى أجد السياق صريحًا ينطق بأنها تخص المعنى الأدبى ، وإلا فما معنى قوله فما رأيت أفصح منك . والفصاحة هنا فصاحة المنطق بشقيه من اللفظ والمعنى ، إذ إن بعض البسطاء يتصورون الفصاحة خلابة لفظ ، وشقشقة بيان ، لئن تصورنا ذلك لدى بعض خطباء الجاهلية ممن وفدوا على

(١) سورة آل عمران : ٤٤ .

(٢) سورة القصص : ٤٦ .

(٣) سورة هود : ٤٩ .

(٤) سورة النحل : ١٠٣ .

(كسرى) باختيار (النعمان) ، فلن نتصوره إطلاقًا فى فصاحة رسول الله ، إذ إنها فصاحة العاقل المكين الذى أرشده القرآن ، وأفرغ عليه آلاف المعانى ، وفتح أمامه أبواب الإقناع والسداد ، فإذا تكلم فعن رصيد ضخم من التفكير الثاقب والمعرفة الغزيرة والدراية الكونية والتاريخية والفقهيه ، مما بسطه محكم الذكر الحميد . ومن هنا .. كان تعبير رسول الله دسمًا بمعناه مشرقًا بلفظه ، وتتابع المعانى وتسلسلها لدى البليغ المطبوع يجبر الألفاظ المنتقاة جبرًا ، ويسوقها مساقًا هادئًا كى تأخذ مكانها الطبيعى دون نشاز ، وما ضلّت الألفاظ لدى بعض الناس وصارت موضع اللجاج والجدل ، إلا لأنها لم تأخذ مكانها المحدد ، ولم تفصل على المعنى المراد أحكم تفصيل .

ولقد كانت معانى محمد فى إرشاداتها ربانية ، وكانت ألفاظه معرضًا رائعًا لمعانيه ، وإذا كان القرآن أستاذ معانيه ، فإن أثره عليه عظيم جليل .

على أن هذا الأستاذ – لم يتخل عن طبيعة المربى اليقظ فى شىء . فكان يقسو عليه فى بعض الأحيان قسوة الحريص محذرًا مصممًا ، مخافة أن يحيد التلميذ عن الطريق ، فهو يقرعه بمثل قوله .

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلاً ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾[1] . أما إذا حاد عن الأولى فى شىء فهناك المحاسبة الصريحة تنطلق عالية مدوية لتقول :

---

(١) سورة الإسراء : ٧٣ – ٧٧ .

﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴾[1] ، ولتقول: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

تلك نماذج من محاسبة الأستاذ ومراقبته ، وقد تركت أثرها القوى فى نفس التلميذ ؛ فكان يقرأ القرآن ، أو يسمعه وجلاً حذرًا متمعنًا ، عن (عبد الله ابن مسعود) رضى الله عنه قال :

قال لى النبى ﷺ : اقرأ على ، قلت : أأقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[3] قال : أمسك ، فإذا عيناه تذرفان . رواه الشيخان[4] ، ومع هذا الحرص البالغ فى موضع المؤاخذة ، فقد كان الأستاذ مشيدًا بتلميذه معددًا سجاياه ، مشجعًا إياه ، شأن المربى الناهض الذى يدفع أشباله المرموقين إلى الأوج ، مترقبًا غدهم البهيج ، يقول الله تعالى – وما أكثر

---

(١) سورة عبس : ٥ – ١١ .

(٢) سورة الأنعام : ٥٢ – ٥٤ .

(٣) سورة النساء : ٤١ .

(٤) « التاج » ، ج ١ ، ص ٩٦ .

ما قال عن نبيه : ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾(1) .

وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾(2) .

وقال : ﴿ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾(3) . وكان مثنيًا أعظم الثناء حين قال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(4) لقد سئلت عائشة عن أخلاق الرسول ، فقالت فيما قالت : « وكان خلقه القرآن » . أجل كان القرآن طمأنينة خاطره ، ومصباح عقله ، وملهم معانيه ، ومحدد اتجاهه ، ويا له من أستاذ !

* * *

(1) سورة الفتح : ١ ، ٢ ، ٣ .

(2) سورة الفتح : ١٠ .

(3) سورة الطور : ٤٨ .

(4) سورة القلم : ٤ .

محمد ﷺ خطيبًا

لا يقدر تأثير محمد ﷺ فى الخطابة العربية على مر العصور ، إلا من عرف كيف كانت الخطابة العربية قبله ، وكيف صارت بعده .

نحن نعلم أن حياة الحروب والغارات فى الجاهلية مع الحرية التامة للقائلين ، قد أوسعت مجال الخطابة الجاهلية ، إذ إن من المقول الطبيعى أن تفيض الألسنة الفصيحة بما تجيش به الصدور فى مواقف عابسة تختلط فيها الأمور ، ويفزع الناس إلى ذوى العقل والرئاسة فيهم ؛ ليسمعوا منهم ما يوضح الغوامض ويجلو الدياجير، وهؤلاء لابد أن يتوسطوا الملأ ليقولوا بما توحيه عقلياتهم ومنازعهم . فازدهار الخطابة فى المجتمع الجاهلى أمر يتفق وطبيعته ، فهو مجتمع ذو أحداث وذو رجال ، فلابد من القول الواسع العريض .

ولكن أى ازدهار ذلك ؟ هل هو ازدهار الفكرة الصائبة ، والمنطق المتسلسل والأسلوب المطرد ؟ إن ما لدينا من بقية ما حفظته الأجيال لا يوحى بشىء من ذلك؛ فالخطبة الجاهلية لا تعنى بالترتيب والتسلسل ، ولا تخاطب العقل مخاطبة واعية بصيرة ، ولكنها صرخة متحمس يصيح بها فى ملأ . حتى ذكر بعض الناقدين[1] أن الخطابة المنطقية المقنعة قد ازدهرت فى بلاد اليونان والرومان ، وعز على أرباب الفصاحة فى الجاهلية أن يوجدوا خطبًا متماسكة ، وهذا كلام فيه كثير من الحق ؛ لأن شيوع الارتجال بمعناه الفطرى قد دفع كل قائل إلى القول دون إعداد ، وقد عبر عن ذلك (الجاحظ) حين قال : « وكل شىء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال ، وكأنه إلهام ، وليس هناك معاناة ، ولا مكابدة ، ولا إجالة فكرة ،

(١) « فن الخطابة »، ص ١٨٢ للدكتور الحوفى .

ولا استعانة ، فما هو إلا أن يصرف همه إلى جملة المذاهب ، وإلى العمود الذى إليه يقصد ، فتأتيه المعانى أرسالاً ، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً »[1] هذا .. إلا أن غرض القول فى أكثر أحواله لا يوحى باتباع المنطق فى القول والتزام الحجة فى المناقشة ، فأى منطق شديد يلتزمه خطيب يتكلم فى حرب البسوس ، وقد مكثت أربعين عامًا بسبب ناقة عجفاء ؟ وأى حجة صائبة يتذرع بها متحدث فى معركة (عبس وذبيان)، وقد فاضت بها مئات الأرواح من أجل فرس سابق ؟ لا ننكر أن من بعض خطباء الجاهلية حكماء عقلاء (كأكثم بن صيفى) ، ولكن تلاطم الحوادث الهوج عن شمال ويمين يعصف بصوت الحكمة ، فلا يكاد يسمع بين قعقعة الرماح وصليل السيوف.. حتى هذه القلة القليلة من الحكماء ، إذا أتيح لها أن تتحدث لم يجئ حديثها متساوقًا يجرى فى اطراد مرتب ، وإنما هى حكم وأمثال تضم إلى بعضها فى استكراه وقهر ، حتى لو تركت جملة ونطقت أخرى ما اضطرب السياق ، واستعرض إن شئت ما تعورف من خطبة (أكثم بن صيفى) فلن تعثر إلا على مثل قوله :

إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعًا، وخير الأزمنة أخصبها ، وأفضل الخطباء أصدقها ، الصدق منجاة ، والكذب مهواة، والشر لجاجة ، والحزم مركب صعب ، والعجز مركب وطىء ، آفة الرأى الهوى ، والعجز مفتاح الفقر ، وخير الأمور الصبر ، حسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة ، إصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى ، من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء ، شر البلاد بلاد لا أمير بها ، شر الملوك من خافه البرىء ، المرء يعجز لا محالة ، أفضل الأولاد البررة .. إلخ »[2] .

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٢٥.

(٢) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٢١.

فماذا ترى فى كلمة هذا العاقل الحكيم غير حكم معقولة رصت رصًّا ، وحشدت حشدًا دون سياق مطرد . ولو سارت خطب الخطباء على هذا النهج الجاف ما انتفع بالخطابة ملأ ، وما كان للخطباء تأثير . وقد توجد فى بعض ما روى عن القوم خطب متماسكة ، ولكنها من القلة الضيقة بحيث لا نملك الحكم عليها كطابع بارز للخطابة فى العصر الجاهلى ، هذا إذا عرفنا أن بعض هذه الخطب المتماسكة مما يجوز أن نحكم عليه بالوضع ، لأن من أفكاره مالاً يتهيأ لجاهلى لم يشرف بنور الإسلام ، كما أن بعضها الآخر لا يخالجنا شك فى صحته كخطبة (قس ابن ساعدة) الذائعة مثلاً . وهذه الخطبة لم تعدم من يشك فى صحتها (كزكى مبارك وطه حسين) وغيرهما . ولكننا نعتقد أن الخطيب الذى ضربت به العرب المثل فى الفصاحة فقالت : (أبلغ من قس) . لا يمكن أن يحوز هذه الشهرة الفياضة وهو شخص أسطورى كما يزعم الزاعمون ، إذ إن جميع القبائل الضاربة فى بطون الجزيرة العربية ، أعقل من أن تخدع بشخص لا حقيقة له ، فتضرب به المثل وتمدح البلغاء بتشبيههم به . هذا إلى أن الرسول شهده وتحدث عنه وروى قوله . ولن يكون ذلك لغير خطيب مكين .

جاء محمد ﷺ والخطابة الجاهلية لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع ، وصحة المنطق ، فأحدث فيها انقلابًا كبيرًا يجب أن يشير إليه الباحثون ، إذ لم يرها ﷺ مجال خلابة ومباهاة وموضوع افتخار بالفصاحة والإغراب . ومصدر تيه وإعجاب للمتفيهقين المتشدقين بل كان عليه الصلاة والسلام حربًا على هذه الفقاقيع التى لا ترى فى الخطابة إلا معرضًا للثرثرة واللمز والتطاول والادعاء . وإذا كانت خطب اليونان على اشتهار صيتها وجهارة رجالها لم تسلم فى بعض موضوعاتها من السفسطة الخالية والتضليل المغرق ، بحيث عيب على نفر من أعلامها تطاولهم على الحق وتغريرهم بالمستمعين ، فإن محمدًا ﷺ بخطبه النبوية قد وضع الميزان الجديد للخطيب المنصف الأمين .

لقد هيأت الأقدار لرسول الله أن يكون المثل الأعلى للخطيب الممتـاز : شـكلاً وموضوعًا ، أما من ناحية الشكل : فنحن نعلم أن مؤرخى الخطابة يعـدون المظهـر المرئى لشخص الخطيب من بواعـث توفيقـه ، ودلائـل نجاحـه ؛ فالخطيـب البـارز الوضىء النظيف ذو الصوت الملىء ، واللفـظ المطلـق يحـوز بـوادر النجـاح لمجـرد رؤيته ، إذ القلوب إليه أجذب ، وعلى سماعه أحرص .

وقد كان رسول الله ﷺ - كما وصفه (ابن أبـى هالـة) - : وقـد كـان وصـافًا شهيرًا ، فخمًا مفخمًا يتلألأ وجهه تلألـؤ القمـر ليلـة البـدر ، عظـيم الهامـة ، رجـل الشعر، أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزج الحواجب ، سابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدره الغضب ، أقنى العرنين ، له نـور يعلـوه ، ويحـسبه مـن لم يتأملـه أشـم . كـث اللحية، أدعج سهل الخدين ، أشنب مفلج الأسـنان . خـافض الطـرف ، نظـره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء[١] . وبدهى أن الخطيب حين يتحـدث إنـما يظهـر انفعاله فى وجهه ، فإذا رزق صباحة وضاءة فقد ضاعف انفعاله من جماله وضاعف فى تأثير سامعيه . هذا قول ينص عليه علماء النفس ولنفوسنا جميعًا خـبرة بـه ، فكـم من دميم تزدريه النفوس ولا تحب أن تسمعه . وإذا كان بعض الخطبـاء (كالحجـاج والأحنف) من ذوى الدمامة ، فيعلم الله كم بـذلوا مـن التحبـب والتلطـف حتـى تدسسوا إلى نفوس السامعين ، فتحملوا بذلك مـا عـوفى منـه ذو الطلعـة الـصبيحة كرسول الله ، أما صوته فكان رقيقًا سلسًا مفصلاً حتى ليحفظه السامع إذا سـمعه . لا يمل إلى صخب مرتفع ولا تعوقه حبسة أو تقـف بـه تأتـأة أو لتغـة . فـإذا تكلـم أشرق ثناياه فكأن شعاعًا أضاء . وكان مع هذه الصفات الموهوبـة يزيـد إلى مظهـره حسنًا باحتفائه بما يجمل ويزين ، إذ يخضب لحيته بالحناء فتبدو شـقراء جميلـة ويحـب التطيب بالعطر ليأنس إليه مـن حولـه ، وكـان يكـره أن يـرى رجـلاً أشـعث أغـبر منكوث الشعر ، أو ذا أسنان صـفر لا يتعهـدها بالـسواك[٢] ، ويراعـى التناسـق فى

(١) « محمد المثل الكامل » ، ص ١٠٢.

(٢) « ثورة الإسلام » ، ص ٣١٤.

الإطار العام ، فحين دخل مكة يوم الفتح لبس عمامة سوداء مشابهة للون الراية التى ترفرف من فوقه . هذا المظهر الشكلى للخطيب يفرغ عليه من المهابة ، والقبول ما تعرفه نفوسنا دون تأكيد .

أما اهتمام الرسول بالموضوع فى خطبته ، فقد ملأ عليه أقطار نفسه ، لا يهم بالحديث فى موقف حتى يهيئ معانى القول ، وما ذلك لعى أو ضعف كما يتصور البسطاء ولكنه ﷺ يعلم أنه مسئول عن كل لفظ ، وأن صحابته سيتداولون حديثه كما نطق به ، فلابد أن يختار من الألفاظ المحددة ما لا يدع المجال للتفريع والتشقيق. هنا موضع تهيئة القول وهنا مجال التحديد ، وهنا أيضًا تعليل ظاهرة الإيجاز التى انطبع بها أدبه – أو كاد .

ولنا وقفة يسيرة عند إيجازه فى أكثر من خطبة . وقد بز عليه الصلاة والسلام الخطب الطوال بالكلام القصير ، إذ إن الإيجاز العربى فى بلاغته المعجزة وليد ذهن ثاقب يستعرض حشودًا من المعانى ليبرزها فى عبارة محدودة ، تكون جوامع الكلم وشوارد المثل ، فهى عصارة مركزة لمادة دسمة تضم من أسباب القوة ما يتيح لها التغلب والنفاذ ، وهنا كان الأديب الموجز أعرق فى البلاغة من الأديب المطنب ، إذ إن الثانى يدون خواطره كما تجيء ، أما الأول فيقف وراء هذه المعانى المنثالة ، يطالع وجوهها ويتأمل منازعها ، ثم يأتى بفحواها الشامل فى جملة تصيب المحز وتطبق المفصل . وأذكر أن بعض البلغاء من أساطين الأدب أرسل خطابًا مسهبًا فى أحد أموره ، ولم يفته أن يعتذر فى نهايته عن الإطناب كأثر ملحوظ ، إذ لا وقت لديه يتسع للإيجاز ، ولن يقدر هذا الاعتذار الصادق غير من تمرس بأساليب البيان فعرف مضايق الإيجاز . وقد فطن الأستاذ أحمد حسن الزيات ، إلى روعة الإيجاز فى البلاغة العربية فقال متحدثًا عن بيان محمد ﷺ :

« والإيجاز هو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ، وهذه

صفات تلازم قوة العقل ، وقوة الروح ، وقوة الشعور ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه[1] .

ونحن نعلم أن أصحاب الدعوات الكبيرة فى حاجة ماسة إلى تكرار القول وترديده ، والخروج به من نطاق الدقة والتحديد إلى مجال الإسهاب والتطويل ؛ لترسخ مبادئهم فى الأذهان ، وتصل تعاليمهم إلى القلوب ، فالإيجاز – إذًا – فى ظاهر الأمر لا يصل بهم إلى الهدف المنشود . نعلم ذلك ولا نستغربه من قادة الرأى، ورواد الإصلاح فى عصورنا الحديثة . ولكن الأمر جد مختلف بيننا وبين عصر النبوة، فالعرب إذ ذاك قوم بلغاء يقدرون الإيجاز حق قدره ، وقد قالوا فى بعض قوانينهم الأدبية : إن البلاغة الإيجاز ، فهم إليه أميل وما نزع نازعهم فى الإسهاب إلا عن ضرورة تحتم ذلك ثم يعود إلى الإيجاز ، مكتفيًا باللمح والومض عن الطرق الملح والتشقق المتفرع ، هذا إلى أن رسول الله كان يحارب الثرثرة فيما يحارب من الآفات ، ويراها مضرة البلاغة فى القول ومدعاة الشغب فى العمل ، حتى قال فى بعض أحاديثه : « إن أبغضكم إلىّ وأبعدكم منى مجالس يوم القيامة : الثرثارون المتشدقون المتفيهقون » .

وقد يقتضى الأمر – لمناسبة عارضة – أن يفيض رسول الله فى القول فلا يتأخر، لذلك روى (أبو سعيد الخدرى) أن محمدًا ﷺ قد خطب ذات يوم بعد العصر ، فما زال يخطب حتى لم تبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف ، ولسنا نجد من يخبرنا عن موضوع خطبته تلك ؛ لنعرف الدافع الذى حدا به إلى تجنب الإيجاز ، ومن يدرى ، لعل الله قد شاء له أن يطيل لا شعوريًّا فى موقف كذا ليعلم الحسدة من أعدائه أنه يملك أزمة البيان المطيل ، وأن إيثاره الإيجاز ترجيح صائب للجادة المثلى من طرق الحديث ، وإذا كان لكل مقام مقال ، فإن مقال الإيجاز يستدعى من الخبرة النفسية والثقافية الملهمة ذخيرة وافية واقية ، فقد تحين المناسبة المرتقبة ، وتتفتح

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ١٩.

نوافذ القول من كل ناحية ، ويظن المستمعون أن مجال الخطابة ذو سعة ، ثم يقف محمد فيوجز إيجازًا لا مجال بعده لإطناب وتهويل ، ويترك النفوس ذاهلة لا تدرى كيف استطاعت الجمل المحدودة أن تفعل ما لا يفعله حديث اليوم الطويل ، فتخلق جوًّا من التأمل والعبرة والحيرة ، يمتد أيامًا طويلة دون أن ينقطع فيضه وأن يغيب صداه . هذا رسول الله يرجع إلى مكة يوم الفتح الأعظم ، فيقتحم عرينًا طالما جمع أعداءه وذوى الضغائن من مناوئيه ، وتخفق راية النصر على جيش الإسلام سابقًا ظافرًا ، وإذ ذاك تتطلع العيون الكافرة دامعة مغيظة ترتقب أن يفاجئها الجزاء الرادع من المنتصر الظافر دون إبطاء ، ثم يقف الخطيب القائد ، فلا يشك مستمع فى أنه سيتعرض إلى تاريخه الطويل مع أعدائه متشفيًا شامتًا ، وسيعدِّد ما مَنّ الله عليه به من فوز سباق ، ثم يميل بالتهديد والوعيد إلى قوم أخرجوه من وطنه ، وآذوه فى دعوته وناصبوه الحرب فى مغتربه ، بالله : كم ينتظر السامع من محمد فى مثل هذا اليوم الأغر . إنه ليقف والأبصار خاشعة والرقاب منحنية فيقول :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، وقتل الخطأ مثل العمد بالسوط والعصا ، فيهما الدية مغلظة منها أربعون خَلِفة فى بطونها أولادها » .

يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَـٰكُمۡ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾(١) .

(١) سورة الحجرات : ١٣ .

يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ، قالوا : خيرًا أخ كريم وابن أخ كريم. قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء[1] .

ما هذا الإفحام البليغ تنبعث به حروف معدودة ، فتترك النفوس ذاهلة مأخوذة ، كم يستشعر الطليق من ذات نفسه ندم الخجل فيرى فى وجهه عرق الخزى ، ويحس فى حلقه مرارة الأسف . وكم من الساعات سيظل مرددًا لقول محمد : اذهبوا فأنتم الطلقاء . مستحييًا أن تعود به الذكرى إلى باطل سلف ، وإثم أدبر ، أرأيت الإيجاز يبلغ مبلغه من النفوس حتى يصبح فى كلماته مثلاً شرودًا مجلجل الأصداء ، تاركًا فى النفس أعنف ضروب التأثير . إنه لا شك وليد خبرة بالمنازع الهاجسة ، يحدوها بما يضمن لها الهدوء والتثبيت .

الإيجاز إذًا كان السمة الأولى لخطابة محمد ﷺ ، وتجاوره السمة الثانية المتجلية فى قوة الإقناع ، إذ كانت خطب الرسول من روعة إقناعها الملجم ، بحيث لا تدع منفذًا لمهاجم متربص . فإذا سألت عن مصدر هذا الإقناع وجدته الصدق الحار الذى تنفعل به نفسه نحو رسالته العالية ، فكثير من الخطباء من يغترون بمواهبهم الكلامية ، فيخطبون فى الدعوة إلى أمور لا يعتقدون صوابها ، بل سيقوا إلى ذلك سوقًا وراء نفع مادى أو منصب حكومى أو تأييد حزبى . ومهما أتقنوا التمثيل والمداراة ، فلن تجد لدى حديثهم هذا برد الاطمئنان فى نفسك ، لأنهم لا يزيدون عن محترفين يمثلون أدوارهم دون أن تشتعل فى صدورهم جذوات الصدق ، وهى التى تهيج هائج الانفعال ، فيوحى بالنفاذ والتأثير ، أما محمد ﷺ فقد كان صدقه الحار ، وإخلاصه القوى ، وإيمانه الأكيد برسالته مما يدفعه إلى قوة الإقناع . إنه ليس خطيب قبيلة يتحدث عن مفاخرها بالباطل والحق ، ولكنه نبى يؤمن بضرورة الإصلاح الذى اقتنع به ، وعليه تبعًا لذلك أن يقنع الناس . هذا الصدق الحار يدفعه إلى أن يخلو إلى نفسه فيتلمس وسائل الإقناع من مشهد حاضر ، أو دليل

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٥٢.

ملموس ، أو سؤال واضح الإجابة ؛ ليمهد بذلك الطريق إلى العقول والقلوب ، لنا أن ننظر فى أول خطبة رويت عنه ، وهى التى قالها حين صدع بالدعوة تنفيذًا لأمر ربه . كان من المظنون والمقام مقام دعوة جديدة لنبى جديد أن يعد نفسه – لو لم يكن محمد بن عبد الله – لموقف طويل يشغل الساعة والساعتين وأن يتحدث عن تاريخ حياته بإفاضة يمهد بها لهذا الطارئ الجديد ، وأن يستغيث بروائع الأخيلة ، ذات التهويل ، والعبارات ذات الجرس يقرع بها الأسماع ، ولكنه ليس محترفًا للقول يصول به مباهيًا بالإطناب والخلابة والمغالطة ، بل هو نبى يعتمد على الصدق الملجم والإقناع المفحم ، فيصعد إلى الصفا بمكة ثم يلتفت يمينًا وشمالاً ، لينادى بصوته المطبوع النافذ : « يا معشر قريش ، يا معشر قريش ، فيتواثب الجالسون ، ويتدانى النازحون يستمعون إلى هذا الذى وصفوه بالصادق الأمين ، لم يشكوا لحظة فى صدقه أو يماروا ساعة فى أمانته ، يستمعون إليه وهو يسألهم فى هدوء : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تغير عليكم ، أكنتم مصدقى ؟ فيصيح الملأ فى صوت واحد : نعم ما جربنا عليك كذبًا ؟ فيتفرس فى وجوههم وقد ألزمهم بتصديقه حين وجه إليهم سؤاله ، فأجابوا عنه بما أرضاه ، ثم يقول متابعًا : إن الرائد لا يكذب أهله ، والله لو كذبت الناس جميعًا ما كذبتكم ، ولو غررت الناس جميعًا ما غررتكم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ، والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، ولتجزوُنّ بالإحسان إحسانًا ، وبالسوء سوءًا ، وإنها لجنة أبدًا ، أو لنار أبدًا »[1] .

أرأيت إلى الإقناع الملزم ، يأخذ به محمد العقول ! لقد سألهم عن صدقه فاعترفوا به ، ثم أقسم لهم بما يثبت هذا الصدق ويؤكده حتى إذا أعلن رسالته إليهم خاصة وإلى الناس كافة ، لم يترك الأمر دون تدليل ، فهناك حساب وبعث وجزاء ، لئن كانوا ينامون فالموت كالنوم حقيقة واقعة ، ولئن كانوا يستيقظون فالبعث كاليقظة حقيقة أخرى ، ووراء البعث جزاء وحساب ، وإنها لجنة وإنها لنار .

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٥٢.

لا أظن أن كلمات هذه الخطبة الموجزة تغيب عن سامعها . ولابد أنها كانت مجال نقاش وعراك بين المجتمعين . لقد اعترفوا مجمعين أنهم ما جربوا على الرجل كذبًا . وهم يعلمون أن الرائد لا يكذب أهله ، ثم لا يستطيعون فى سطوة هذا البيان المقنع أن يدفعوه ، فيكون قصارى قائلهم الألد الخصيم أن يسأل : ألهذا جمعتنا ؟

صارت خطب الرسول بهذا الإقناع الصريح مرتبة الألفاظ ، مطردة المعانى ، واضحة التركيب ، لأن تعمد الإقناع يدفع صاحبه إلى أن يجرى القول فى نسق متصل يسلم أوله إلى آخره كما تسلم درجات السلم – طال أو قصر – بعضها إلى بعض فى غير مشقة ، وأقوى الكلام ما طرق عليك عقلك طرقًا تعيه بتأملك ، حتى إذا بلغ موضعه من فكرك انتقل تأثيره إلى وجدانك ، فيقتنع به اقتناع الواثق المدرك ، وعشاق الخلابة اللفظية يطربون الوجدان بمعسول الألفاظ وما تتضمنه من سجع وازدواج طربًا سطحيًّا ، فلا يلبث الوجدان أن يفيق من طربه إذا استعاد خطب الخلابة اللفظية مرة أو مرتين ، لذا .. يجدها بالتكرار قد نفضت زركشتها السطحية ، ووقفت عارية عن التأثير المقنع ، أما الذين يقنعون الوجدان بالقول الحى ، والمعنى الصادق فلن تزول حرارة تأثيرهم النفسى مهما تكررت أقوالهم ؛ لأنها بإقناعها الفكرى فى حرز مكين .

استمع إلى مثل ذلك من قول محمد فى خطبة له :

« أيها الناس ، إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم ، وإن لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم ، فإن العبد بين مخافتين : أجل قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجل باق لا يدرى ما الله قاض فيه ، ليأخذ العبد من نفسه لنفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل الممات ، فوالذى نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ، ولا بعد الدنيا من دار إلاّ الجنة والنار »[1] .

(١) « إعجاز القرآن » ، للباقلانى ، ص ١١٠.

أرأيت كيف قسم الخطيب أفكاره وحدد معانيه بين الماضى والمستقبل ، والذاهب والآيب ، وقد برع فى المقابلة بين الدنيا والآخرة وبين الشبيبة والكبر ، والحياة والموت ، والأجل الماضى والأجل الباقى ، براعة من يقابل بين معان متعارضة ترسم بتعارضها فجاءة فى النفس ، وليس حلية لفظية من البديع ، يتكلفها متكلف دون أن تغوص إلى حقيقة متعارضة فى كبد الحقيقة الإنسانية ، وهنا مجال التأثير القوى ، لا الخلابة السطحية التى تتصيد من زائف المحسنات .

لقد أكثر الواعظون من لدن رسول الله إلى يومنا هذا من التحذير من الموت ، فلا تكاد تسمع خطبة جمعة حتى يأخذ عليك الخطيب منافذ سمعك بعبارات مكررة ، تشير إلى الجزاء والثواب والجنة والنار واليوم الآخر ، وليت هؤلاء يعلمون أن مجرد ذكر الموت والجنة لا يترك تأثيرًا ، إلا فى حديث مرتب مقنع كحديث الرسول ، فليست المسألة مسألة تهويل وترهيب ، دون خطة تحكم الإقناع ، ليتهم يرتسمون مثل قول محمد ﷺ فى إحدى خطبه عن الموت :

« أيها الناس ، كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب ، وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب ، وكأن الذى يشيع من الأموات سفر عما قليل إلينا راجعون ، نبوئهم أحداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ، نسينا كل واعظة ، وأمنا كل جائحة ، طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه فى غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة ، طوبى لمن زكت وحسنت خليقته ، وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله ، وأمسك الفضل من قوله ، ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة »(١) .

تلك نصوص صريحة من خطب نبى الإسلام ، تتسم بالإيجاز وقوة الإقناع وحرارة الصدق ، وهى بعد ، واضحة التركيب سلسلة اللفظ ، ولعل هذه جميعًا هى السمات البارزة فى خطبة عليه الصلاة والسلم .

(١) « جمهرة خطب العرب » ، ج ١ ، ص ٥٣.

نقول – لعل – ولا نجزم ، لأن مئات الخطب النبوية قد ضاعت دون راو ، لقد كان عليه الصلاة والسلام يخطب فى العام الواحد خمسين خطبة جمعة ، دون غيرها من خطب الغزوات والعيدين ، والكفاح ، والاستسقاء ، فكم من الخطب قالها على المنبر فى عمره السعيد . إن كتب الأدب والسنة لا تتجاوز عدد أصابع اليدين ، فماذا جمعت من خطب محمد ﷺ !! أليس لنا أن نتخذ من ذلك دليلاً على أن الراوين عنه لم يتزيدوا عليه فيما رووه من الآثار ، وإلا فلو كان كل راو يترك لنفسه العنان أن ينقل من المعانى ما تدل عليه ألفاظه الخاصة كما ظن بعض الواهمين، لرويت لنا مئات الخطب عن رسول الله ، ولكن قلة ما روى من هذه الخطب دليل التثبيت والاحتياط .

لقد حفظ لنا الدهر خطبة جمعة كاملة رواها الطبرى ، وكأن الزمن قد شاء أن يقدمها مثالاً لمنهج سنة الرسول ، ثم أتبعه خطباء الإسلام من لدنه ، ليظهر تأثيره فى الخطب الدينية بدءًا وطريقة واستشهادًا بالقرآن وموعظة بالتى هى أحسن ، ونحن ننقلها فى مجال البحث عن خطابة محمد ؛ لتكون أحد شواهد تأثيره البارز فى هذا المجال . قال عليه الصلاة والسلام فى خطبة جمعة بالمدينة : « الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأؤمن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفر ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل وقلة من العلم وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل ، من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصهما فقد غوى وفرط ، وضل ضلالاً بعيدًا ، وأوصيكم بتقوى الله ، فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك نصيحة ، ولا أفضل من ذلك ذكرًا ، وأن تقوى الله لمن عمل بها على وجل ، ومخافة من ربه ، عون صدق على ما تبغون ، من أمر الآخرة ، ومن يصلح الذى بينه وبين الله من أمره فى السر والعلانية لا يبتغى بذلك إلا وجه الله ، يكن له ذكرًا فى عاجل أمره ، وذخرا فيما بعد الموت ، حين يفتقر المرء إلى ما قدم وكان من سوى ذلك يود لو أن بينه وبينه أمدًا بعيدًا ويحذركم الله نفسه

والله رءوف بالعباد ، والذى صدق قوله وأنجز وعده لا خلف لذلك ، فإنه يقول عز وجل : ﴿ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾[1] فاتقوا الله فى عاجل أمركم وآجله فى السر والعلانية ، فإنه من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرًا ، ومن يتق الله فقد فاز فوزًا عظيمًا ، وإن تقوى الله يوقى مقته ويوقى عقوبته ويوقى سخطه ، وإن تقوى الله تبيض الوجوه وترضى الرب وترفع الدرجة ، خذوا بحظكم، ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين صدقوا ويعلم الكاذبين ، فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه ، وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة ولا قوة إلا بالله . فأكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد هذا اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفه الله ما بينه وبين الناس ، ذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله العظيم »[2] لقد نقل هذه الخطبة الدكتور (شوقى ضيف) فى بحث بالثقافة عن « خطابة الرسول » ، ثم قال تعقيبًا عليها :

« وما من ريب فى أن صورة هذه الخطبة – إذا صحت – هى الصورة التى تحكمت فى خطب الجمع النبوية ، كما تحكمت فى خطب من جاءوا بعده من حيث طريقة افتتاحها بالحمد لله ، والصلاة على النبى عليه الصلاة والسلام ، ثم من حيث توشيحها بآى القرآن الكريم ، ثم من حيث ما تعالجه من الدعوة إلى تقوى الله ، وخشيته وطاعته وطاعة رسوله ، وما جاء به من أوامر ونواه » وقد امتازت الخطبة بالتكرار فى ألفاظها ومعانيها ، ونحن نعرف أن التكرار من أهم رسل الأسلوب الخطابى وقد كان النبى ﷺ يميل إلى هذا التكرار كما يبدو من خطبته الكبيرة الأخرى التى احتفظ لنا الرواة بكثير منها ، ونقصد خطبة حجة الوداع[3] .

(١) سورة ق : ٢٩ .

(٢) « تاريخ الطبرى » ، ج ٢ ، ص ٢٥٥.

(٣) « مجلة الثقافة » ، السنة الثامنة ، ص ١٣٣٥ .

ونحن نؤكد مع الدكتور أن هذه الخطبة وعشرات مثلها من قول الرسول قد خطت للخطبة الدينية مجراها ، بدءًا ، بالتحميد والصلاة على رسول الله واستشهادًا بآيات القرآن . وإذا كان فيها بعض الطول النسبى كما فى خطبة الوداع ، فإن الذى نرجحه أنه عليه الصلاة والسلام كان يميل إلى قصر الخطبة فى أكثر أحواله . ودليلنا عليه ما أسلفناه من بعض خطبه ، ثم قوله عليه الصلاة والسلام : أقصروا الخطبة ، وأطيلوا الصلاة !

أجل .. لقد ظهر تأثير الخطب النبوية فى خطب خلفاء الإسلام بعد محمد ، فما روى عن أبى بكر وعمر من المشهورات الذائعات ينحو المنحى النبوى ، ولو كان فى المقام سعة لاستشهدنا بخطبتهما – على الأقل – عند التولية ، ولكن اشتهار ما روى عنهما يشفع لنا حين نهمل ترداد الذائع المشتهر لدى القراء .

أما على بن أبى طالب فقد تربى فى بيت النبوة وتأثر من الهدى النبوى بما نضح على بيانه قوة وبهاء ، ولكن حوادث عصره وما أقساها على نفسه ، قد دفعته إلى ضرب من الإطناب يثير به هؤلاء القاعدين عن نصرته ، ويناوئ به هؤلاء الذين نازعوه حقه ، وفتحوا باب الشر على المسلمين ، فتساقطت الأرواح فى معركة خسر فيها الإسلام مئات من رجاله ، وفى طليعتهم أمير المؤمنين الشهيد كرم الله وجهه ، فإذا قرأنا خطب العصر الأموى ، رأينا من رجاله من عاد إلى الطبيعة الجاهلية من الجلجلة بالغريب والخلابة بالتمويه، والتزيد فى اللجاج طمعًا فى الغلبة (كالحجاج)، ومن نهجوا النهج المحمدى فى الدعوة إلى الله بالإقناع والمنطق والتأثير (كالحسن البصرى) ، وأكاد أقول (كأبى حمزة الشارى) لولا ما نعرفه من تعسف جماعته ، وتهورها فى مؤاخذة المسلمين دون عدل .

إن رجلاً يحول الخطابة العربية من مجرى معوج إلى مجرى مستقيم ، ويرسم بطابعه الأدبى آلاف الخطب الدينية – وغير الدينية فى بعض الأحيان – على مد العصور الإسلامية لجدير أن يكون خطيب عصره دون منازع ، وخطيب لغته دون

منازع ، وخطيب لغته دون منازع . ولسنا نضيف إليه أمرًا خارجًا عنه حين نبين تأثيره الخطابى ، ولكننا نعترف بالحق لصاحبه فى مجال الرصد النزيه .

ولابد من وقفة هادئة لدى خطبة الوداع ، إذ إن لها أكثر من دلالة هنا فى تقدير نبوغه الخطابى إذا عرفت ظروفها الحرجة ، وما اشتملتها من مناسبات .

لقد كان الجمع الحاشد الذى خطب فيه الرسول خطبته تلك ، أكبر جمع أتيح لمحمد ﷺ أن يخطب فيه ، فقد حشد من حجاج القبائل ما لم يتيسر جمعه قبل ذلك ؛ إذ أتت الخطبة بعدما رسخت أقدام الإسلام ، وخطبت وده الوفود متحدثة بلسان القبائل ، وأدرك الجاحدون من المشركين أن نجم الإسلام قد تألق وازدهر ، وأن التخلف عن ركبه حكم نهائى بالاعتزال والهوان ، ولأن يكونوا ساقة فى جحفل الإسلام ، تتقدمهم الطليعة والقلب والجناحان خير من أن يصبحوا لا شىء إطلاقًا فى ركب الحياة ، هذا الجمع الحفيل بالحشد ، قد وقر فى نفس خطيبه بإلهام ربانى أنه لن يقف هذا الموقف مرة أخرى ، إذ سيأتيه اليقين الصادق قبل دورة العام ، وهذا ما عبر عنه صراحة حين قال : « فلعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا ، فى موقفى هذا » . وقد يطرأ مثل هذا الخاطر فى نفس غير النبى فيتجاهله ويلتمس المبررات لتكذيبه ، ثم يستريح إلى هذا التجاهل ، ويسير مع الحياة سيرًا طبيعيًّا لا يكدره تذكر الرحيل القريب ، ولكن طروقه فى نفس نبى ملهم عودته الأيام أن تصدق تنبؤاته مما يستحيل معه التجاهل ، فما ظنك بخطيب يجتمع أمامه حشد لم يجتمع مثله من قبل ، ويحس أن عليه لهذا الجمع عبء الإبلاغ . ليخرج من التبعة أمام ربه وأى إبلاغ ذلك ؟ ليس الأمر إبلاغ مسألتين أو مسألة ، ولكنه إرساء حقوق الإنسان على وضع وطيد ، فلابد أن يتحدث عن حرمة الدماء والأموال ، وعن أداء الأمانات إلى أصحابها ، وعن تحريم ربا الجاهلية ، وعن ديات القتل عمدًا وعن غير عمد ! وعن النسىء وضلالته ، وعن النساء ما لهن وما عليهن ؟ وعن الأخوة الإنسانية التى ترجع إلى أصل واحد هو آدم ، وعن الميراث والوصية . مسائل هامة مختلفة

لو تزاحمت فى صدر خطيب غير محمد فى مثل موقفه لطار سداده ، وارتج عليه فى مقامه . ولكنه يقدر عبء التبليغ ويستشهد بالله على أدائه ، ثم يرسل هذه الكلمة الشاملة التى جمعت فأوعت ، ثم كانت بمناسبتها وتعدد موضوعاتها ، وغرابة شعور قائلها موضع العجب والإعجاب . وها هى ذى :

إن الحمد لله ، نحمده ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله وأحثكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذى هو خير . أما بعد ، أيها الناس ، اسمعوا منى أبين لكم ، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا ، أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى الذى ائتمنه عليها ، وإن ربا الجاهلية موضوع وإن أول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وإن دماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أبدأ به دم (عامر بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب) ، وإن مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر ففيه مائة بعير، ومن زاد فهو من أهل الجاهلية .

أيها الناس ، إن الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ، ولكنه رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . أيها الناس ، إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليواطئوا عدة ما حرم الله ، وإن الزمان قد استدار كهيئة يوم خلق الله السموات والأرض ، إن عدة الشهور اثنا عشر شهرًا فى كتاب الله يوم خلق السموات الأرض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان ألا هل بلغت اللهم اشهد ، إن لنسائكم عليكم حقًّا ، وإن لكم عليهن حقًّا لكم

ألا يوطئن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدًا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم ، ولا يأتين بفاحشة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تعظوهن وتهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربًا غير مبرح ، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئًا ، أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا . أيها الناس ، إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ، فلا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم أعناق بعض ؛ فإنى قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتى[(١)] . ألا هل بلغت اللهم اشهد ، أيها الناس ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . ألا هل بلغت قالوا : نعم ، قال : ليبلغ الشاهد منكم الغائب ، أيها الناس ، إن الله قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث من وصيته أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من دعى إلى غير أبيه ، وتولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً[(٢)] .

إن القدرة على إيجاز كل هذه المعانى فى هذه الكلمات مع الحرص على الإيضاح والتفهيم ، فى موقف لا يظن صاحبه أن يتكرر ، لمجال الروعة ، وهو إن دل على قوة العقل ، وامتلاك أزمة القول ، فإنه يدل مع ذلك على رباطة الجأش وقوة النفس، والنزول على حكم الله راضيًا مغتبطًا به ، وتلك شيم الأنبياء . وهناك عنصر مهم من عناصر الخطابة النبوية يكاد يبلغ وحده من التأثير ما تبلغه كل الخصائص مجتمعة ؛ لأنه ينبع عن معدن قائله ، وأعنى به : عنصر الشجاعة الأدبية لدى

(١) انفرد الباقلانى برواية : وأهل بيتى ، وأخالها بعيدة ؛ لأن رواية النسائى المختصرة ، وروايتى البخارى والترمذى المتوسطتين ، وروايتى مسلم وأبى داود المبسوطتين ليس فيهما « أهل بيتى » وقد جاء حديث حجة الوداع بالتاج ، ج ٣ ، ص ١٧٥ عن مسلم.

(٢) « إعجاز القرآن للباقلانى »، ص ١١١.

المتكلم، فالخطيب إذا كان شجاع الرأى ، يزأر فى وجه العاصفة بعزيمة لا تعرف النكوص ، فإن المعجبين به يتزايدون حتى ليكون من بينهم بعض خصومه ، وإذا كان هؤلاء يستشعرون الغيظ لجراءته ، فإنهم فى قرارة نفوسهم يسمعون أصوات الضمائر صارخة بالإعجاب والدهشة . هؤلاء هم المعارضون ، فما ظنك بالمؤيدين الذين يجدون فى حديث الخطيب ترجمة عن مشاعر مكظومة ، وتعبيرًا عن أحاسيس مكبوتة . ومهما كانت عبارة الخطيب الشجاع سهلة قريبة ، فإن هدفها الأسمى يغنى عن كل صورة خالبة ، ولم يعرف تاريخ النبوات رسولاً حمل أمانة اللسان كما حملها محمد بن عبد الله ؛ لأن بيئته العربية قد جمعت قومًا لدًا يرمون بالخطب الطوال ويقذفون بالحجج السوائر ، فإذا صيح فى وجوههم بما يسفه أحلامهم فتلك هى الشجاعة الأدبية ، وهناك ضرب من الشجاعة الرائعة يفوق مجابهة الباطل ومدافعة الطغيان ، ذلك هو الاعتراف الصريح بحقوق المعارضين ، ومواجهة مطالبهم بما يحفظ جانب الحيدة والإنصاف ، والخطيب فى مثل هذا الموقف يحتاج إلى رصيد ضخم من كرم النحيزة ، وعراقة الضمير ومتانة الخلق ، وإنى لأعرف لمحمد مواقف رائعة أنصف فيها معارضيه من نفسه فى شجاعة مخلصة ، فزاده الإقرار بالحق رفعة وجلالاً .

لقد غضب بعض الأنصار عقب غزوة حنين ؛ إذ نال المهاجرون من سبى المعركة أكثر ما نالوه وهم ذادة الدعوة ، وحماة الإسلام ، ومضى حديثهم إلى محمد ﷺ فبادر بالنهوض إليهم ، وجابه الموقف فى نزاهة العادل ، وإنصاف الأمين فعرف لهم حقهم كما عرف لنفسه حقها ، وكان فى مكنته – لو تخلى عن شجاعته المنصفة – أن يتحدث عن نفسه وحدها ، فيفيض فيما نشره الإسلام على المدينة من أمن وسيادة ، ولكنه نظر إلى نفوسهم ، فعرف خوالجها المقنعة . ولمس نبضات الأفئدة وهمسات النوازع فعرف صدقها الصريح ، وصور ذلك حينما قال :

« يا معشر الأنصار ، مَا قالةٌ بلغتنى عنكم ، وموجدة وجدتموها فى أنفسكم ، ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ،

قالوا : بلى ، لله ورسوله المن والفضل ؟ فقال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ، قالوا: وبماذا نجيبك يا رسول الله ؟ فقال : أما والله ، لو شئتم لقلتم فصدقتم ولصدقتم : أتيتنا مكذبًا فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلاً : فآسيناك ، وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار ، أن يرجع الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ، لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلك الأنصار شعبًا سلكت شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا[(١)] .

هذه الكلمات المنصفة قد نزلت على القلوب نزول الغيث الدافق على المحل الظامئ ، فأخصبت الجديب ، وأنعشت الذاوى ، بل إن تيارها القوى قد دفع بالدمع إلى العيون ففاضت المحاجر ندمًا واستسلامًا ، ولا أجد أروع ولا أبدع من براعة المقابلة المذهلة بين رجوع المهاجرين بالشاة والبعير ، ورجوع الأنصار برسول الله ﷺ .. وهى إحدى وثبات العبقرية فى خطابة الرسول . وكم لها من أمثال !

* * *

(١) « زهرات منثورة » للأستاذ عبد الله عفيفى ، ص ٩٨.

موقف النبى من الشعر والشعراء

آفة الكتابة التزيد ، فقد تكون قضية من القضايا الأدبية أو العلمية واضحة النتيجة ، لا تتطلب الكثير من الإسهاب ، ولكن نفرًا من الكتاب يطيلون القول فى غير مقال ، فيضاعفون الشبهة الواهية حتى تتضخم ، ثم يقرنونها بغيرها ويقفون بذلك أمام أدلة قوية تتعارض معها ، وتدور معركة كبيرة فى التأييد والتفنيد ، فيتسع القول على أصحابه ، وتمضى الأيام ، فيأتى من الكتاب من يتناول القضية عارضًا ما قيل من نقض وتأييد ، ومضيقًا من استنتاجه ما يميل برأى على رأى فيساعد على تضخيم الجدل وتعدد مناحيه . وتتزايد النصوص والنقول لكثرة ما خاص الخائضون حتى تصبح القضية الواضحة فى بادئ الأمر ذات غموض وتعقيد ، قد لفها غبار الجدل وكاد وجه الحقيقة معه أن يضيع .

لق قال الرسول ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » ، وهى جملة صريحة يدل منطوقها الواضح ، على أن بين ما يقول الشعراء ما يوصف بالحكمة ذات الرأى الصائب والسداد العاقل ، كما يدل مفهومها المتلمس ، على أن من بين ما يقول الشعراء ما لا يوصف بالحكمة ، بل يذهب مذهب اللغو والأباطيل من حث على اللهو وولوع بما حرم الله من القول ، وهذا هو الجانب البغيض من الشعر ، بل من القول ، شعرًا كان أم نثرًا ، فليست القضية فى ذلك قضية شعر بالذات .

فإذا تركت قول الرسول ﷺ : « إن من الشعر لحكمة » واستمعت إلى قوله الله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ

كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾[1] « تجد الشعراء فريقين : فريقًا يهيم فى كل واد بالباطل يتبعهم الغواة من الفاسدين ؛ إذ يطلقون الكلام دون تحرز ، ثم يقولون ما لا يفعلون . وفريقًا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، جاء شعرهم مهتديًا بنور الإيمان ، إذ يذكرون الله كثيرًا فإذا تطرقوا للهجاء ، فليس هجاء البادئ المعترض ولكنه دفاع عن ظلم نزل ، إذ انتصروا لأنفسهم ممن تناولوهم بالسباب بغيًا دون عدل » .

فالحديث النبوى والآية القرآنية ، واضحان صريحان فى تحبيذ اتجاه عاقل ، ومعارضة اتجاه سفيه . هذه الصراحة الواضحة لا تدعو إلى أن نشن الغارة على الشعر قاطبة بدليل أن الشعراء يتبعهم الغاوون .

ولكن الذين تحدثوا عن موقف الرسول من الشعر ، لم يحسموا الأمر حسمًا واضحًا يقطع كل شىء . ولكنهم تعارضوا وتناقضوا ، وأخذ كل ببعض الأدلة النقلية يرمى بها فى وجه صاحبه ، ولم تكن المعركة بين الأدباء وحدهم ؛ إذ لو اقتصرت على ناقدى الأدب لبان وجه الحق من أقرب طريق ، ولكنها انتقلت إلى رجال التفسير تعقيبًا على آيات القرآن . وإلى رجال الحديث استنباطًا من بعض الآثار ، وإلى رجال السيرة تعليقًا على بعض المواقف . وفى هؤلاء : المتزمت المتشدد، والمستنبط اليقظ الميسر ، فدارت الرحى بين الفريقين ، وهى بعد حرب فى غير ميدان. وما زال الخلاف قائمًا حتى يومنا هذا ؛ إذ إن المغفور له الأستاذ (فكرى يس) قد كتب تفسيرًا بمجلة الأزهر لحديث رسول الله : « إن من الشعر لحكمة » فقال فيما يقال[2] :

« ويتلخص ما قاله العلماء فى حكم الشعر فى الإسلام فى مذهبين ، فذهب قوم إلى كراهة الشعر مطلقًا ، قليلة وكثيرة ، حسنة وقبيحة – واحتجوا بآثار رواها

(١) سورة الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧ .

(٢) « مجلة الأزهر » السنة الحادية والعشرون ، ص ٢٩٧.

الأستاذ ، وسنعرض لها فيما بعد – وذهب قوم إلى إباحة الشعر ما لم يكن فيه فحش أو هجو أو إغراق فى المدح ، أو كذب محض أو تغزل بمعين » .

هذا الكلام عن انقسام العلماء إلى مذهبين فى حكم الشعر فى الإسلام . ما كان يجب أن يبقى على وضعه هكذا ، بعد أن درست النصوص النبوية والآيات القرآنية، ومواقف الرسول فى سيرته دراسة توجب لنا أن نحكم ببطلان رأى ، وبصحة رأى آخر ، بحيث لم يعد مجال للقول بأن هناك رأيين . وفيم تسجيل ذلك ، والآثار بين أيدينا نواطق بما لا يحتمل الشك ؟ ولنا أن نستعرض مختلف الآيات والأحاديث ، والمواقف النبوية استعراضًا محللاً ، فإذا رأينا أنها جميعًا تسير فى خط واحد لا فى خطين متقابلين كان لنا أن نعلن أن رأى القرآن واحد فى الشعر وأن موقف الرسول واحد من الشعر ، بحيث لا يكون هناك مجال بعد الآن للقول بكراهية الشعر : قليله وكثيره ، حسنه وقبيحه كما ذهب بعض الناس .

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾[1] ، ويقول : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمۡ تَرَ أَنَّهُمۡ فِي كُلِّ وَادٖ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمۡ يَقُولُونَ مَا لَا يَفۡعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْۗ ﴾[2] .

هاتان هما الآيتان اللتان يتمحل بهما القائلون بكراهية الشعر ، والآية الأولى رد على قول المشركين عن محمد أنه شاعر وأن ما أتى له شعر مما يقول الشعراء ، فهى مثل قول الله فى سورة الحاقة : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾[3] . فهى

(١) سورة يس : ٦٩ .

(٢) سورة الشعراء : ٢٢٤ – ٢٢٧ .

(٣) سورة الحاقة : ٣٨ – ٤١ .

لا تفيد كراهية الشعر . وإنما تربأ بالقرآن أن يكون شعرًا من جنس ما يقوله الشعراء. فالقرآن الذى تحدى الله فصحاء العرب أن يأتوا بسورة من مثله لا يسمو إليه ما يقولونه من الشعر ، فقولهم : إن محمدًا شاعر فيما يتلو عليهم من الذكر يدحضه أن الله لم يعلمه الشعر الذى تنسبونه إليه ، وقد استنبط (ابن رشيق) من ذلك أن هذا النص القرآنى يوحى بتعظيم الشعر لا بتحقيره ، لأن القرآن بسرده المحكم قد ارتفع عن أجمل نسق تتيه به العرب من القول وهو الشعر ، فلولا أن الشعر مظنة التأثير والإبداع ما نسب هؤلاء الفصحاء قرآن محمد إليه ، يقول (ابن رشيق) فى العمدة[1] :

« ولعل بعض الكتاب المنتصرين للنثر الطاعنين على الشعر يحتج بأن القرآن كلام الله تعالى منثور ، وأن النبى ﷺ غير شاعر لقول الله تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ ويرى أنه قد أبلغ فى الحجة وبلغ فى المحجة ، والذى عليه فى ذلك أكثر مما له ؛ لأن الله تعالى إنما بعث رسولاً أميًّا غير شاعر إلى قوم يعلمون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة ، واشتهرت البلاغة آية للنبوة ، وحجة على الخلق ، وإعجازًا للمتعاطين ، وجعله منثورًا ليكون أظهر برهانًا لفضله على الشعر الذى من عادة صاحبه أن بكون قادرًا على ما يحبه من الكلام ، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ، فكما أن القرآن أعجز الشعراء وليس بشعر كذلك أعجز الخطباء وليس بخطبة ، والمترسلين وليس بترسيل ، وإعجازه الشعراء أشد برهانًا، ألا ترى كيف نسبوا النبى ﷺ إلى الشعر لما غلبوا وتبين عجزهم ، فقالوا : هو شاعر لما فى قلوبهم من هيبة الشعر وفخامته ، وأنه يقع منه ما لا يلحق ، والمنثور ليس كذلك فمن هنا قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ** ﴾ أى لتقوم عليكم الحجة ويصح قبلكم الدليل .

(١) « العمدة » ، ج ١ ، ص ١٢.

أما الآية الثانية : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فقد سبق أن أشرنا إلى أن تمامها يوحى بأن القوم فريقان : فريق يخبط فى الباطل ، وفريق يهتدى بالحق ، والشعراء ليسوا وحدهم كذلك من أصحاب البيان ؛ فالخطباء والكتّاب والقصّاص ممن يجوز أن يلحقهم التقسيم لتنوع إنتاجهم بين الحق والضلال ، فلو جاز لنا أن نحكم بكراهية الشعر أصلاً لانحطاط بعض أغراضه ، لجاز لنا أن نحكم بكراهية جميع ألوان البيان لاتحاد العلة . ولا أظن عاقلاً منصفًا يميل إلى ذلك ، وقد أفصح (ابن رشيق) عن وجه الآية حين قال ما نصه(١) :

« أما احتجاج من لا يقيم وجه الكلام بقوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴾ فهو غلط وسوء تأول ؛ لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله ﷺ بالهجاء ومسوه بالأذى ، فأما من سواهم من المؤمنين فغير داخل فى شىء من ذلك . ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل ، ونبه عليهم فقال : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ ﴾ يريد شعراء النبى ﷺ الذين ينتصرون له ويجيبون المشركين عنه (كحسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة) » . هذا قوا ابن رشيق ، أما (الجاحظ) فقد أطلق القول دون تحديد ؛ إذ قال تعقيبًا على الآية الكريمة : « فمن الخصال التى ذمهم بها ؛ تكلف الصنعة ، والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعة ، ومناسبة أصحاب التشديق ، ومن كان كذلك كان أشد افتقارًا من السامع إلى السامع إليه لشغفه أن يذكر فى البلغاء وصبابته باللحاق بالشعراء ، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك فى قلبه شدة الحمية وحب المحاربة ، ومن سخف هذا السخف وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة كانت حاله داعية إلى قول الزور والفخر بالكذب »(٢) .

(١) العمدة ، ج ١ ، ص ١٢ .

(٢) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ ، ص ١٣ .

وكلام الجاحظ لا يُحمل إلا على الفريق الأول ممن يهيمون فى كل واد . على أنه لا يخص الشعراء وحدهم ، فخطباء الجاهلية كانوا يتفاخرون بلسان القبائل حبًّا للغلب والمباهاة ، وهم بذلك كالشعراء أشد افتقارًا من السامع إلى السامع إليهم لشغفهم بادعاء الفصاحة وامتلاك البيان . وإذًا ، فالذم لا يلحق فنًّا بعينه كالشعر أو أناسًا بأعينهم كالشعراء ، وإنما يلحق كل قائل جمح فاشتط وهام فى كل واد .

ونحن إذا انتقلنا من أدلة القرآن إلى أدلة الحديث ، لا نجد إلا حديثًا واحدًا أولع به القائلون بكراهية الشعر ، وهو ما روى من قول رسول الله ﷺ عن أبى هريرة : « لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا فيريه ، خير له أن يمتلئ شعرًا » وقد ظل هذا القول يتردد فى كتب الحديث هكذا ناقصًا مبتورًا حتى طبع كتاب (الزركشى) المسمى : « بالإجابة لا يراد ما استدركته عائشة على الصحابة » فإذا فيه أن عائشة رضى الله عنها قالت مستدركة على الراوى : « لم يحفظ أبو هريرة الحديث إنما قال رسول الله : لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحًا ودمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا هجيت به » . وقد ذكر (عبد القاهر) حديث أبى هريرة ناقصًا فى دلائل الإعجاز ، فعلق عليه (السيد محمد رشيد رضا) بقوله فى أحد هوامشه ص ١٣ .

وفى رواية ابن عدى عن جابر : « لأم يمتلئ جوف الرجل قيحًا أو دمًا خير له من أن يمتلئ شعرًا مما هجيت به » فاتفقت روايتا عائشة وابن عدى على تصحيح ما قاله أبو هريرة ، وسقط بذلك الدليل الوحيد من قول الرسول على كراهية الشعر مما استند إليه مبغضوه ، وقد كان محمد ﷺ من رقة الإحساس ونبل الشعور بحيث يبغض كل هجاء ظالم وجه إليه أو لغيره ، فليست الكراهة لديه نزعة ذاتية تخص ما قاله المشركون فى هجائه ظلمًا ، بل تشمل كل هجاء ظالم ، وقد روى (الشيخ عبد القاهر) فى دلائل الإعجاز حديث (محمد بن مسلمة) الأنصارى إذ قال : « كنا يومًا عند النبى ﷺ ، فقال لحسان بن ثابت : أنشدنى قصيدة من شعر

الجاهلية ، فإن الله تعالى قد وضع عنا آثامها فى شعرها وروايته فأنشده قصيدة للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة :

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر

فقال النبى ﷺ : يا حسان ، لا تعد تنشدنى هذه القصيدة بعد مجلسك هذا ، فقال : يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر . فقال النبى ﷺ : «يا حسان ، أشكر الناس للناس أشكرهم لله تعالى ، وإن قيصر سأل (أبا سفيان ابن حرب) عنى فتناول منى – وفى خبر آخر فشعت منى – وإنه سأل هذا عنى فأحسن القول »[1] فالرسول ينبه حسانًا فى رفق ألا ينشد هجاء فيمن أظهر فى بعض مواقفه صدق الحديث ونزاهة الضمير .

أما الأحاديث التى رويت عن رسول الله فى تحبيذ الشعر ، فإنها إذا ضمت إلى مواقفه المتعددة من الشعراء لعهده أفصحت عن موقفه المؤيد لكل ما سلك سبيل الحق من الشعر ، ودلت على مكانة هذا الفن من نفسه ، وشعوره القوى برسالته القادرة فى التأثير والاستمالة والإقناع .

فحين بدأ شعراء الشرك حملتهم على المسلمين ؛ إذ انطلق (عبد الله بن الزبعرى وعمرو بن العاص وأبو سفيان بن الحارث) يهجون الرسول ويذمون الإسلام ، جمع محمد الأنصار وقال فيهم :

« ما يمنع الذين نصروا الله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ، فنهض (حسان ابن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة) لمناقضة هؤلاء الطاعنين الهاجين ، وليس فى ذلك خروج عن سنن الإسلام ؛ لأن الله لا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم ، وقد ظُلِم المسلمون حين قام شعراء الشرك بدعايتهم المسمومة ضدهم ، وليس شىء أشهر ذكرًا ولا أمضى سيرًا من الشعر ، فكان من حق الدعوة

(١) « دلائل الإعجاز » ، ص ١٦ وقد خرج السيد رشيد الحديث بهامشه .

الجديدة أن ينافح عنها قادة الشعر بما يرد على المشركين كيدهم ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾[1] .

أقام الرسول منبرًا لحسان ، وأمره أن ينشد فى الدفاع عن دينه ، وكان حسان أشد زملائه عارضة ، وأقوى المسلمين بيانًا ، فأخذ يترصد كل ما يقوله شعراء مكة ليأتى على بنيانه من القواعد ، فإذا بكى (ابن الزبعرى) صرعى بدر من المشركين ناقضه ابن ثابت بقصيدة من الوزن والقافية ، وإذا شمت (ابن الزبعرى) بالمسلمين بعد أحد لم ينس أن يعرض بحسان فيقول فى قصيدة :

يا غراب البين أسمعت فقل ... إنما تنطق شيئًا قد فعل
أبلغا حسان عنى آية ... فقريض الشعر يشفى ذا الغلل

فيرد عليه حسان مناقضًا بقوله من قصيدة طويلة :

نزلت بابن الزبعرى ضربة ... كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذلك الحرب أحيانًا دول

وإذا قدمت الوفود مفاخرة رسول الله وقام (الزبرقان بن بدر) يقول فى قصيدته :

نحن الكرام فلا حى يعادلنا ... منا الملوك وفينا تنصب البيع

بعث رسول الله إلى حسان فيأتى عجلاً ليرد بقصيدته :

إن الذوائب من فهر وإخوتهم ... قد بينوا سنة للناس تتبع

قال الشعبى : « لما كان عام الأحزاب ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرًا قال النبى ﷺ : من يحمى أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يا رسول الله ، وقال عبد الله بن رواحة : أنا يا رسول الله ، وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال : نعم اهجهم أنت ، فإنه سيعينك عليهم روح القدس »[2] .

---

(١) سورة الشورى : ٤١ .

(٢) « دراسات فى الأدب الإسلامى » ، ص ٥٦.

كما أن رسول الله لم يترك حسانًا لمعرفته الضئيلة بمثالب المشركين ، فتأتى نقائضه واهية ضعيفة ، فعهد إلى أبى بكر العالم النسابة أن يحدثه حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، فملأ وطابه من كل ذلك ، وجاء شعره قاسيًا قارصًا ، فكانت قريش إذا أنشدت شعره قالت : « إن هذا الشتم ما غاب عنه ابن أبى قحافة » وكان محمد يطيل الاستماع إليه ثم يقول : « لهو أشد عليهم من وقع النبل ، وروى أنه قال: أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشفى واشتفى[1] ، ونظرًا لمكانة حسان من الدعوة كان حين يقع فى هنات مخطئة يجد الصفح السريع من رسول الله ، فلو قام غيره مقامه فى حادث الإفك ما وجد الصفح السريع من رسول الله كما وجده حسان . وأخرى زلت بها قدمه إذ جمحت به أنصاريته ، فجلس مع أصحاب له فوق بساط على أطمة فارع متضايقًا لكثرة من يأتى النبى من العرب فيسلمون ، ثم يضيع فى غمارهم الأنصار كما توهم ، وكان مما قال فى ذلك :

أمسى الخلابيس قد عزوا وقد كثروا وابن الفريعة أمسى بيضه البلد

فبلغ ذلك محمدًا ﷺ فقال متضايقًا : من لى بأصحاب البساط بفارع : وعلم حسان بتضايق رسول الله فجاء نادمًا يستغفر إليه ، فأعرض عنه مرتين حتى جاء الثالثة يحمله أصحابه فقال : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى . احفظ قولى :

هجوت محمدًا فأجبت عنه وعند الله فى ذاك الجزاء

فرضى عنه رسول الله ، ووهب له سيرين أخت مارية[2] ، ولولا ما أسلفه من جميل الدفاع ما سارع النبى بالعفو . بل إنه ﷺ يوم فتح مكة أمر الزبير بن العوام أن يدخلها مع بعض الجنود من كداء ، وسئل فى ذلك فأجاب تحقيقًا لقول حسان :

عدمنا خيلنا إن لم تروها تثير النقع موقعها كداء

(١) « دراسات فى الأدب الإسلامى » ، ص ٣٥ للأستاذ محمد خلف الله .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤.

والكلام عن حسان يطول إذا أرخيناه ، فلنكتف بما أسلفناه .

أما ابن رواحة فقد كان الرسول يستشهد بشعره ويردد أراجيزه ، وكان يصغى إلى كعب بن مالك مثنيًا عليه بالجميل ، وثلاثتهم مسلمون كرام من الأنصار . فاحتفاء الرسول بهم مما توحيه طبائع الأشياء . ولكن احتفاءه ﷺ بغيرهم من الشعراء ، لا لشىء إلا لكونهم شعراء فقط مما ينفعنا فى هذا الصدد ، وإليكم الأمثلة:

١- كان (أبو عزة الجمحى) الشاعر مملقًا مقترًا ، وذا عيال أطفال ، وقد أسر فى بدر كافرًا فأتى رسول الله واستشفعه بأبيات قال فيها :

ألا أبلغا عنى النبى محمدًا ... بأنك حق والمليك حميد

وأنت امرؤ تدعو إلى الرشد والتقى ... عليك من الله الكريم شهيد

فعفا عنه وأطلقه . وغفر له ما أسلف .

٢- وكان (قيس بن الحطيم) شاعر الخزرج مقيمًا على الشرك بالمدينة ، وقد أسلمت امرأته (قبل لأن ينزل تحريم نكاح المشركين للمسلمات) فقال له النبى : إن امرأتك قد أسلمت ، ولا أحب أن تؤذيها ، فقال قيس : نعم يا أبا القاسم ، لست بعائد فى شىء تكرهه ، واكتفى الرسول بعهده دون أن يرهقه بما هو أكثر تجلة لمكانته الشعرية .

٣- أتعب (ابن الزبعرى) نفسه فى هجاء المسلمين بمكة ، ثم جاء بعد الفتح نادمًا ضارعًا يقول :

يا رسول المليك إن لسانى ... راتق مافتقت إذا أنا بور

آمن اللحم والعظام بما قلت ... فنفسى الفدا وأنت النذير

فعفا عنه الرسول وصان دمه ، بعد أن سرت أهاجيه فى الآفاق .

٤- أما (أمية بن أبى الصلت) فقد حسد الرسول ونابذه العداء ونزل فيه قول الله :

﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾[1] .. وما زال يهجو محمدًا ويرثى قتلى بدر .. ومع هذا .. فقد كان الرسول يستنشد شعره ، ويقول : آمن لسانه وكفر قلبه ، وفى رواية البخارى : (وكاد أمية ابن أبى الصلت) أن يسلم بل إن الرسول قد استشهد بقوله :

إن تغفر اللهم تغفر جمًا ... وأى عبد لك لا ألمًا

ولو كان يكره الشعر لذات الشعر لأعرض عن شعر أمية على الأقل وهو حاقده اللدود .

٥- لما قتل النضر بن الحارث يوم بدر ، رثته أخته (قتيلة) بقصيدتها الشهيرة :

يا راكبًا إن الأثيل مظنة ... من صبح خامسة وأنت موفق

وبها عتاب كريم لمحمد ، فبلغه ﷺ فسمعها متأثرًا ثم قال : لو جاءت قبل مقتله ما قتل .

٦- أما قصيدة بانت سعاد (لكعب بن زهير) ، ففى غير حاجة إلى التنويه بها ، إذ بلغت مبلغها من نفس محمد ، ونادى الأنصار لاستماعها ثم من عليه ومنحه بردته الشريفة فى قصة تطول ، فكانت مصدر فخره فى الحياة ، ومنبع ثراء أسرته بعد الوفاة إذ اشتراها معاوية بمال كثير . وأما إلمام محمد بقصائد الشعر فقد تحدث عنه الرواة بما يؤكد التفاته إلى القريض التفات اليقظ الدارس ، والأخبار

---

(١) سورة الأعراف : ١٧٥ ، ١٧٦ .

فى ذلك مستفيضة ذائعة ، ولكننا ننقل من ذلك عن دلائل الإعجاز وحده ما يقع موقع الاستدلال ، وسواه كثير كثير .

لا ريب أن أفصح الفصحاء قد ركب فى طبعه تمييز جيد القول من رديئه ، فهو إذا استمع إلى – كلام ما – عرف مواضع الارتقاء ، ومزالق الهبوط فيما يسمع ، والشعر لا يعدو أن يكون بيانًا عربيًّا يعرفه الفصيح ، ويتابعه راصدًا مواضع الجودة، ومساقط الزلل ، وقول الرسول عن نشأته الأولى قبل البعثة أن الشعر كان مبغضًا إليه ، لا يعنى إلاّ أن نظمه كان مما يعاف لديه ؛ إذ يجد فاصلاً شاسعًا بينه وبين مزاولته ، وتلك آية المعجزة فى نشأته ، لأن الله قد صرفه عن ولوج هذا الباب لما يعلم من إعداده الخاص لإبلاغ كتاب سماوى يشتبه على الناس بالشعر وليس به فإذا قالوا – فيما بعد – إنه شاعر فلن يجدوا من سابق حياته ما يؤيد زعمهم فى شىء، وإذا كان شعر الجاهلية قد جمع الخبيث والطيب ، فإن صاحب الدعوة الكبرى إلى تطهير النفوس لن يقبل شعر الهجاء والمثالب ، وإنما يميل إلى استماع نمط من البيان يترفع عما يؤذى الخلق ، وينال الكرامة ، وفى الآثار عن رسول الله ما يدل على إلمامه الكثير بطرائف الشعر ، وأقوال الشعراء مما يندرج فى هذا النطاق ، وإلى بعضها نشير :

١- حين شحت السماء ذات ربيع ، وصلى محمد صلاة الاستسقاء ، داعيًا ربه ، لم يكد يفرغ من دعائه حتى تدفق المطر كأفواه القرب ، وكانت السماء . قبل ذلك صحوًا ما ترى بها قزعة ، فنظر رسول الله إلى أبى بكر وسأله مبتسمًا : ماذا قال الشيخ ؟ يريد أبا طالب فأنشده أبو بكر قوله :

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يطوف به الهلاك من آل هاشم فهم عنده فى نعمة وفواضل

٢- ولما انتهت معركة بدر ، نظر رسول الله ﷺ إلى قتلى المشركين مصرعين ، فقال لأبى بكر رضى الله عنه : لو أن أبا طالب حى لعلم أن أسيافنا قد أخذت بالأماثل، مشيرًا عليه الصلاة والسلام إلى قول أبى طالب :

وأنا لعمر الله إن جد ما أرى ... لتلتبس أسيافنا بالأماثل

وينهض قوم فى الحديد إليكم ... نهوض الروايا تحت ذات الصلاصل

٣- أنشدت (سودة بنت زمعة) قول الشاعر : « عدى وتيم تبتغى من تحالف » فغضبت عائشة ؛ لأنها من عدى وطال جدال بينهن ، فأخبر النبى ﷺ فدخل عليهن قائلاً : « يا ويلكن ليس فى عديكن ولا تيمكن قيل هذا ، وإنما قيل فى عدى تميم وتيم تميم ، قال عبد القاهر وتمام هذا الشعر :

فحالف ولا والله تهبط تلعة ... من الأرض إلا أنت للذل عارف

ألا من رأى العبدين أو ذكرا له ... عدى وتيم تبتغى من تحالف

٤- وروى (الزبير بن بكار) قال مر رسول الله ﷺ ومعه أبو بكر رضى الله عنه فسمع رجلاً ينشد فى بعض أزقة مكة :

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد الدار

فقال النبى : يا أبا بكر ، أهكذا قال الشاعر. قال : لا يا رسول الله ، ولكنه قال:

يا أيها الرجل المحول رحله ... هلا نزلت بآل عبد مناف

فقال ﷺ : هكذا كنا نسمعها .

فلا مجال للنزاع بعد ذلك فى أن نبى الإسلام قد سمع الشعر ووعاه وحكم عليه ، بعد أن استفاضت فى ذلك الأقاويل وكثر الاستشهاد .

ويسلمنا هذا الحديث إلى قضية أخرى بالغة الأهمية إذا استفاضت روايات مدخولة تنص على أن رسول الله ﷺ كان لا يقيم وزن الشعر حين ينشده ، فإذا أنشد مثلاً قول طرفة :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالأخبار من لم تزود

أنشده هكذا :

ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلاً ويأتيك من لم تزود بالأخبار

وإذا أنشد قول العباس بن مرداس :

أتجعل نهبى ونهيب العبيد بين عينيه والأقرع

أنشده هكذا :

أتجعل نهبى ونهيب العبيد بين الأقرع وعينيه

تنص الروايات المدخولة على ذلك وأنا أقرأها فأتساءل ؟ أيكون أفصح خلق الله لسانًا ، وأنصعهم بيانًا غير قادر على إلقاء بيت من الشعر .. وهل قول الله : ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى ﴾ ينصب على الإلقاء كما ينطبق على التأليف ، فيكون إنشاء الشعر سبيلاً إلى تأليفه ، ثم هل كل راو للشعر ملم بصحة أوزانه وقوافيه شاعرًا ينظم القصائد بمجرد روايته وحفظه . أسئلة تتوارد على ذهنى دون أن تجد الإجابة المقنعة . والأنكى والأدهش أن يتخذ هذا الحصر الشائن دليلاً على نبوة رسول معجزته الفصاحة والبيان ، وحجته المنطق واللسان ، هذه الروايات المدخولة التى تناقلها المؤلفون لاحقًا عن سابق تدفعنا إلى مناقشتها بالدليل .

وأبادر فأعلن مقدمًا : إنى أتحدث عن الإنشاد وحده ، أما تأليف الشعر فلا مجال للخلاف فى تحريمه على النبى ، فأنا معترف بأن ما ورد من مثل قوله :

أنا النبى لا كذب أنا ابن عبد المطلب

وقوله :

هل أنت إلا إصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت

فإنما جرى ذلك على لسانه عفوًا بادئًا دون ارتصاد لنظمه أو احتشاد لصوغه . ونظيره فى ذلك ما جاء بالقرآن من بعض الآيات التى يمكن أن تنسب إلى بحر من البحور دون أن تساق مساق الشعر بحال . فهى فى موقعها من الكتاب الحكيم نثر صريح لا يأتيه الشعر من قريب أو بعيد ، كذلك ما جاء عفوًا من كلام الرسول .

وقد أسلفنا القول بأن الرسول قد انصرف عن النظم كيلا يظن ظان أن كتاب الله شعر يتدفق على لسان شاعر ، فشاء الله أن يكون رسوله هاديًا بخطبة وداعية إليه بأحاديثه ، فهو لا ينظم ولا ينمق ، إذ إن صاحب الدعوة فى حاجة إلى توضيح مذهبه وإرشاد قومه ومناقشة خصومه ببيان وضاح ، لا يجنح به الشعر عن الدقة والتحديد إلى المبالغة والإغراق ، ولا يميل به عن الواقع المشاهد إلى الخيال الشارد ، فإذا كان فى كلامه تأثير أخاذ فهو تأثير الحق الأبلج والمنطق السديد ، واللفظ المحكم ، وليس تأثير القافية الخلابة ، والبحر الصادح ، ولا نعنى بذلك أن نثر محمد ﷺ بعيد عن التأثير الوجدانى ، والإيقاع الموسيقى ، بل نقول : إن الشعر ميدان ذلك وموضوعه ، فصاحبه غير مطالب فى أكثر أحواله بالتزام التدقيق . تلك مشيئة الله فى بُعد محمد ﷺ عن نغم القصائد ورنين الأوزان ، ولكن ما مشيئته فى أن يكون رسوله غير قادر على إنشاد بيت من الشعر قاله شاعر سواه :

لنسمع ما يقوله الأديب الكبير (مصطفى صادق الرافعى) فى تعليل ذلك[١] :

(والذى عندنا أنه ﷺ لم يمنع إقامة وزن الشعر فى إنشاده ، إلا لأنه منع من إنشائه ، فلو استقام له وزن بيت واحد لغلبت عليه الفطرة القوية ، فمر فى الإنشاد وخرج بذلك لا محالة إلى القول والاتساع وإلى أن يكون شاعرًا ، ولو كان شاعرًا

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٤٢.

لذهب مذاهب العرب التى تبعثه عليها طبيعة أرضهم ، ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة وعما هو أزكى بالنبوة ، وأشبه بفضائل القرآن ، لأنه تعالى يعلم من غيب المصلحة لبعاده أنه ﷺ لو أقام وزن بيت ، لمال به عمود الدين ثم لتصدع له الأساس الاجتماعى العظيم الذى جاء به القرآن) .

وكلام الأستاذ الرافعى – رحمه الله – هو لباب ما يقوله رفقاؤه ممن يذهبون إلى عدم استقامة الإنشاد على لسان الرسول ، وقد حرصنا أن ننقل عنه دون غيره ؛ لأنه أفصح بيانًا من سواه ، ونحن نعجب كل العجب لقوله : إن إلقاء بيت صحيح أدعى إلى نظم مثله ، لأننا نرى من كبار أساتذة الأدب فى أرقى كلياته ومعاهده من ينشدون آلاف الأبيات الصحيحة ، فضلاً عن حفظها ثم لا يستطيعون أن ينظموا بيتًا واحدًا من الشعر ، فكيف يكون إنشاد البيت الصحيح مدعاة النظم الصحيح ، وكيف يقول الكاتب البليغ أن الرسول لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين ، إذ ينصرف إلى الشعر تاركًا ما عداه ، هذا أبو بكر كان راوية شعر ، وهذا عمر كان ناقدًا يوازن بين الشعراء فما شغلهما ذلك عن إقامة دولة إسلامية فى بلاد الفرس والروم ذات أمجاد وفتوح . ألا تعجب لرسول الله أن تحضر مجلسه وفود العرب من شتى القبائل ونازح الأصقاع ، فيحدثها أفصح حديث وأشهاه ، ثم يستشهد ببيت شعر لطرفة مثلاً فيخرج على لسانه مختل الأجزاء مضطرب الألفاظ ، وهل سيصدق هؤلاء – وفيهم أعداؤه – أنه يكسر البيت كيلا يقدر على نظم مثله فيصير شاعرًا ، وهم يرون خطباءهم يرمون بالخطب الطوال ، ويستشهدون بأبيات تؤكد معانيها وأغراضها ، فلا يلحقهم هذا الاستشهاد الصحيح بطوائف الشعراء ، إن مدرس المرحلة الابتدائية يستمع إلى طفل صغير يلقى قطعة من المحفوظات فيتقزز ويتضايق حين يجده يبدل لفظًا مكان لفظ ، وهو بعد طفل ، فماذا يكون شعور القادمين من وفود القبائل ، إذ يرون أفصح البلغاء لا يقيم بيتًا فى إنشاده . لو صح ما تقوله هذه الروايات .

على أن (عبد القاهر) قد لجأ فى هذا المأزق إلى تعليل غير تعليل الرافعى فقال[1]:

« ويبقى أن يعلم أن ليس المنع فى ذلك منع تنزيه وكراهة ، بل سبيل الوزن فى منعه عليه الصلاة والسلام إياه سبيل الخط حين جعل عليه الصلاة والسلام لا يقرأ ولا يكتب فى أن لم يكن المنع من أجل كراهة كانت فى الخط ، بل لأن تكون الحجة أبهى وأقهر والدلالة أقوى وأظهر ، ولتكون أعكم للجاحد ، وأقمع للمعائد » ونحن نفهم أن تكون الحجة أبهى وأقهر والدلالة أقوى وأظهر إذا كان الرسول غير شاعر ، وجاء بها أعجز الشعراء ، ولكن أية حجة فى أن يكسر البيت فيلحقه من سامعيه ما يشين . لا عيب عند العرب إطلاقًا – ولا عند غيرهم – ألا تكون شاعرًا. فالشعراء قلة بين من سواهم فى كل زمان ، ولكن العيب كل العيب أن تنطق بيتًا من الشعر فلا تقيمه وأنت رجل كسائر الرجال ، فكيف إذا كنت أفصح البلغاء . أخال الذين يحرصون على نسبة ذلك إلى الرسول يتعبدون بالروايات المنقولة دون تمحيص .

لقد رأينا كتب السيرة تجمع على أن رسول الله قد أنشد أبياتًا صحيحة من الرجز (لعبد الله بن رواحة) يوم الخندق ، فماذا يصنع المنكرون فى هذا الإجماع ؟ لنسمع الأستاذ الرافعى يقول فى كتابه السالف[2] :

« إن الرجز فى أصله ليس بشعر ، وإنما هو وزن السجع ، وهو يتفق للصبيان والضعفاء من العرب يتراجزون به فى أعمالهم ، وفى لعبهم ، وفى سوقهم ، ومثل هؤلاء لا يقال لهم شعراء » .

ونحن على علم أن الرأى الغالب بين العلماء : أن الرجز بحر من بحور الشعر، فإذا مال الأستاذ الرافعى إلى عده من غير الشعر ، فلنأخذ من قوله حجة عليه ولنقل

(١) « دلائل الإعجاز » ، ص ٢٢.

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٤.

له : لقد أنشد رسول الله رجز (ابن رواحة) إنشادًا صحيحًا أكثر من مرة ، فلماذا لم يكن إنشاد الرجز سبيلاً إلى نظمه حتى يتخوف من إنشاد الشعر الصحيح ، ولماذا لم يقل أعداؤه من كفار العرب أنه عليه الصلاة والسلام صار رجّازًا لأنه أنشد أبياتًا صحيحة من الرجز دون كسر واعوجاج ؟ لقد روى البخارى ومسلم أبيات (ابن رواحة) ، ونقلها ابن كثير فى البداية والنهاية [1] ، فهل نجد بعد ذلك مبررًا للفرق بين الرجز والشعر عند المانعين .

لقد وقع هؤلاء المنكرون فى مأزق حرج حين وجدوا الرسول يقول أصدق كلمة قالها لبيد :

« ألا كل شىء ما خلا الله باطل » فهبوا ينتحلون المبررات ويزعمون أن ذلك ليس شعرًا ، لماذا . لأنه ﷺ لم يكمل البيت . وإذًا فقد تحول الشطر المظلوم من الشعر إلى النثر دون إمهال ، مع أن من يسمعه منفصلاً عن عجزه يعلم أنه شطر تام من بيت شعرى شهير ، فهو شعر لا محالة ، ونحن نستشهد فى مقالاتنا وخطبنا بأشطار من الأبيات تجرى مجرى الأمثال بل نستشهد أحيانًا ببعض الشطر لا كله ، فلا يمنع ذلك أحدًا أن يقول إنه استشهاد بالشعر ، وهبنى قلت فى كلمة ما « وإنما الأمم الأخلاق » فقط أفلا يطير ذهن القارئ إلى شوقى مدركًا أنى استشهدت بشعره . إنما يكون الشطر الواحد غير شعر إذا أنشأه المتكلم إنشاد فى حديثه عن غير قصد فجرى على لسانه موزونًا كما جاء الوزن عفوًا فى بعض آيات القرآن ، هنا نقول بحق: هذا ليس بشعر ، أما أن نقول ذلك عن شطر طائر الصيت تتناقله الألسن عن لبيد فذلك ما لا يستقيم .

إن الحديث عن سلامة الشعر المنشد على لسان رسول الله حديث عن تمام فصاحته وكمال بلاغته وهما فى غير حاجة إلى تدليل .

---

(١) ج ٤ ، ص ٩٦.

رسائل محمد ونصوص معاهداته

(١)

تروى كتب السيرة والحديث والتاريخ أكثر من أربعين وثيقة نبوية ، ما بين رسالة إلى ملك أو أمير أو قائد ، وما بين معاهدة صلح أو أمان أو اتفاق على مسائل ينحسم بها النزاع ، وورود هذه الرسائل والمعاهدات مما أيدته مواقف حياته ﷺ وتطلبته ظروف دعوته . ولكن آفة الشك التى تمكنت من بعض النفوس ، دفعت قليلاً من الكتاب إلى الارتياب فى بعضها . والشك مبدأ مقرر فى أصول البحث العلمى إن ظهرت دواعيه . وبه يهتدى إلى اليقين لا محالة ، ولكن تعمد الشك لوجه الشك دون مبرر قوى مما يحدث بلبلة خطيرة تكاد تعصف ببعض حقائق التاريخ ، ولعلنا نستطيع أن نجتث فى هذه العجالة بعض الأشواك التى نجمت حول رسائل محمد ونصوص معاهداته ، إذا استعرضنا ملابسات العصر النبوى ومناحيه . لنرى فى ضوء ذلك إذا كان ما بقى لدينا من الرسائل النبوية ، والمعاهدات التاريخية مما توجبه طبيعة العصر ، أو أنه مما تزعزعه هبات الشكوك بين الحين والحين .

ولقد كانت الرسائل الكتابية معروفة عند العرب قبل ظهور محمد ﷺ لوجود دواعيها من التجارة والرحلة والزراعة وعقود التحالف ، فإن جميع العرب لم يكونوا كما وقر فى كثير من الأذهان نزحًا متقاطعين لا يتواصلون ولا يتعاهدون ، ولم يكونوا جميعًا بدوًا رحلاً لا يميلون إلى الاستقرار الهادئ ، ولم تكن جميع بلادهم صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ماء . فإذا تركنا إمارتى الحيرة وغسان لاشتهار حضارتيهما فإننا نعلن أن بعض قرى الحجاز غلبت عليها الزراعة ، وانتقلت إليها

آلاتها الحديثة مما جاورها من الأقطار . وإن كثيرًا من القبائل قد توطن فى أماكن خاصة لا يتعداها ، ولا يسمح لغيره من القبائل باحتلالها ، إلا إذا كان ذلك عنوة عن طريق الحرب ، كما تعتدى الآن دولة على دولة دون حق مشروع ، وأن القبيلة فى موطنها الخاص تعرف أماكن الخصب والجدب فى مدار العام ، فتنتقل فى حدودها المعلومة إلى ما يفىء عليها الخير ، مبتغية مساقط الغيث ، ومنابت العشب مربعًا ومصيفًا فى موطن واضح المعالم والرسوم . ولها مع غيرها من القبائل المجاورات معاهدات مكتوبة واجبة التنفيذ ، وقد تلح السنون بالجدب فتضطر القبيلة إلى الرحيل مكرهة غير راضية ، ثم لا تلبث أن تعود أدراجها إلى مكانها الأول ، ومن هنا كان ما نعلمه من عدم الاستقرار المكانى فى البداية ليس أمرًا عامًّا تخضع له الكثرة الكاثرة ، وإنما هو نصيب القلة ممن لم تساعدهم حظوظهم على الاستقرار ، لذلك .. نجد مؤرخى القبائل يحددون أماكنها المتعارفة ، فطيئ مثلاً تسكن ما بين جبلى : أجا وسلمى ، وبنو أسد باليمامة والأزد بعمان ، وعاملة وكلب وجذام ببادية الشام ، وقضاعة فى شمال الحجاز ، وجهينة وعذرة بوادى أخم بالحجاز ، وتميم ببادية البصرة ، وهذيل خلف جبال مكة ، وكنانة فى جنوب الحجاز ، وقيس عيلان بالجزء الغربى من نجد ، ومنها فروع غطفان وعبس وذبيان ، وكندة فى حضرموت، وهكذا .. نجد لأكثر القبائل أمكنة محددة تساعدها على الاستقرار ، وتتيح لها أن تنتج وأن تبيع وأن تشترى وأن تتعاقد شفويًّا وكتابيًّا ، ولها بعد ذلك مرابعها وخيامها وآبارها وحيواناتها لا ينازعها منازع إلا إذا أراد الحرب فتهب الجماعة فادية حماها أن يستباح . أما التجارة فقد كانت الجزيرة العربية إحدى طرقها الدائمة ، وقد فتحت على العرب أبواب الرزق فكان كثير من القبائل يحمون القوافل من اعتداء الآخرين نظير جُعل يأخذونه ، وكان الحجازيون بالذات يشترون السلع من اليمن والحبشة ثم يبيعونها فى أسواق مصر والشام وفارس ، وقد اتخذوا مكة قاعدة

لتجارتهم ، وعلى تجارة مكة كان يعتمد الروم فى كثير من شئونهم ؛ لأنها تقع فى منتصف الطريق ، ولأنها تضم الكعبة التى يدين بها العرب ويقدسونها . وكان المكيون آمنين فى رحلاتهم لأنهم أهل حرم الله : ﴿ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١] .

لهذا كله .. نشأت الكتابة قبل الإسلام فى الحجاز ؛ لأنها من ألزم الأمور للتجارة ؛ إذ كان التاجر يجمع من أفراد القبيلة الواحدة ما يمكن أن تسير به قافلة كبيرة . ولابد أن يعرف نصيب كل فرد ، وأن يلم بحظه من الربح أو الخسارة . فإذا تركنا التجارة إلى الأمور السياسية ، فإننا نجد المعاهدات والمحالفات تسجل فى المهارق ، وإذا حام بعض الشك لدى المتزمتين عن معاهدات مثل حلف الفضول ، وحلف ذى المجاز فإن أشدهم إنكارًا لن يحوم شكه حول صحيفة المقاطعة بين قريش وبنى هاشم حين كتبت وعلقت بالكعبة . ومن أوضح الدلائل على شيوع الكتابة بمكة أن أسرى بدر قد فدوا أنفسهم بأن يعلم كل أسير عشرة من أبناء الأنصار كيف يكتبون ، وأن الله عز وجل حين قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌۢ بِٱلْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ ﴾[٢] إنما أمر بذلك ؛ لأن الكتابة من الذيوع واليسر بحيث تكون مجالاً ميسرًا للتعاقد ، فدعا إليها الإسلام .. وإذا كان مؤرخو السيرة النبوية قد أحصوا كتّاب الرسول فبلغوا بهم خمسة وأربعين كاتبًا فى كثير من الروايات ، منهم من اختص بكتابة الوحى مثل عثمان بن عفان ، وعلى ابن أبى طالب فإن غابا فأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، ومنهم من كان يكتب الحوائج كخالد بن سعيد بن العاص ، ومعاوية بن أبى سفيان ، ومنهم من كان

(١) سورة القصص : ٥٧ .

(٢) سورة البقرة : ٢٨٢ .

يكتب للملوك كعبد الله بن الأرقم ، وزيد بن ثابت مع إشراكه فى كتاب الوحى ، ومن كان يكتب المغانم كمعيقيب بن أبى فاطمة ، ومن كان يكتب أموال الصدقات مثل الزبير بن العوام وجهم بن الصلت[1] . وقد وجد هؤلاء جميعًا ووجدت بعد ذلك نصوص رسائلهم المكتوبة فما وجه الشك فيها ؟ لقد شاءت الأقدار أن يسلم على مدى العصور ثلاثة أصول خطية مما أرسله محمد ، منها كتابه إلى المقوقس ، وقد وجده المستشرق الفرنسى (بارتلمى) فى كنيسة قرب أخميم ، وكتابه إلى (المنذر بن ساوى) وقد نشره المستشرق (بلاشير) ، وكتابه إلى (النجاشى) وقد نشره المستشرق (دنلوب) [2] ، وبمقارنة الأصول على ما روته كتب السيرة والحديث ، لم نر فارقًا جللاً يلتفت إليه ، فنصوص الوثائق النبوية إذًا جهيرة ذائعة تعصف بما يخفت حولها من الشكوك ، ولنا أن نتعرض إلى الحديث عن طابعها الأدبى مطمئنين.

إذا نظرنا لما بقى بين أيدينا من رسائله ﷺ ومعاهداته ، نجد أنه يتفق كل الاتفاق مع ما شاع من تعريف البلاغة بأنها : مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته ، فجل هذا النصوص بمثابة مواد قانونية أرسلت للفصل فى أمر يجب الاتفاق عليه ، فليس مجالها مجال أدب ترفده العاطفة ويوشيه الخيال ، ولكنها شروط محددة تلتزم الدقة البالغة فى التعبير ولا تسمح للفظ أن يتجاوز موضعه الحقيقى إلى صورة خيالية تكون فيها بعد مثارًا للخلاف ، والذين يوازنون بين خطب الرسول وأحاديثه ، وبين رسائله فيرون الثانية من حيث البهاء الجمالى فى موضع أقل من سابقتيها فيأخذون ذلك عليها ، يخطئون تقدير الأمر ومقتضيات الأحوال لأن محمدًا فى خطبه أو أحاديثه يعمد إلى الإقناع بالفكرة الصائبة ، والصورة الأدبية المطبوعة ، فالمجال مجال أدب يرضى الوجدان والعقل معًا ، ومن هنا ظهرت بدائع

(١) « الوزراء والكتّاب » ، ص ١٢.

(٢) « مجموعة الوثائق السياسية فى عهد النبوة » للدكتور الحيدرابادى ، ص ٢٢ مع نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى للدكتور حسين نصار ص ٣٥.

البيان الفنى فى الخطب والأحاديث ، أما الرسائل والمعاهدات فجلها شروط سياسية رسمية تلتزم نصوصها ، وتكون حجة لدى النزاع ، فكل توشية خيالية فيها تنافى التحديد الواجب ، وتحيد عن مقتضى الحال إلى غير مقتضى الحال ، وبهذا الوضع الدقيق المجرد تقوم برسالتها المنشودة على نحو لا يقوم به سواها فى شىء ، فنحن نرى الآن أساطين البلغاء من رجال القانون أو السياسة يجتمعون اليوم الطويل حول دائرة مستديرة ، ليكتبوا نصًّا واحدًا فى معاهدة أو مادة فى قانون ، وهم فيما يكتبون حينئذ يحترزون عن كل لفظ يشم منه غير المقصود ، ويتوهمون كل دلالة قريبة أو بعيدة لا يقصدونها ، ويمكن أن تستنبط من بعض الألفاظ فيسارعون إلى استبدال غيرها بها ، ليأتى الكلام دقيقًا لا تساهل معه ، صريحًا لا شىء وراءه ، فإذا كتبوا المادة القانونية أو النص السياسى فى معاهدة ، فلن يقال عنه أنه حقائق مجردة لا تترقرق فى أعطافها صور البيان . ولن يخرجهم أسلوبهم الدقيق عن دائرة الأدب الرسمى ، وإن برزوا بعد ذلك بما يكتبون خارج النطاق القانونى والسياسى من أدب فنى .. وما مثل معاهدات رسول الله ورسائله إلى المملوك وشيوخ القبائل إلا مثل هذه المواد التى يسطرها القانونيون والنصوص التى يمليها الدبلوماسيون ؟ فهل يجوز فى منطق العقل أن تكون نصوص أدب فنى حتى تقاس بالخطب والأحاديث . إن الحرص الشديد ، لدى أبلغ البلغاء على مراعاة مقتضى الحال ، جعل رسائله نوعًا من الإبلاغ الرسمى يسد الحاجة فى دقة وإحكام ، وهو بعد لا يغفل عقلية المرسل إليه ولا اتجاهه الدينى ، ولا واقعه السياسي ، وذلك ما لابد منه لدى الكاتب الحصيف ، الذى يتعمد إصابة الهدف فى يقظة وإتقان .

لقد أرسل محمد ﷺ بعض كتبه إلى النجاشى النصرانى ، وإلى كسرى المجوسى، وإلى ابنى الجلندى الوثنيين . فخاطب كلاً بما يجب أن يخاطب به ،

عرف أن النجاشى كتابى يؤمن بالمسيح ومريم العذراء ، ولديه ثقافة دينية عن آدم وبدء الخليقة مما يقره الإسلام ، فكتب إليه فى لباقة حصيفة[1] :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله إلى النجاشى الأصحم ، سلم أنت ، فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصيفة فحملت بعيسى ، حملته من روحه ونفخه ، كما خلق آدم بيده ونفخه ، وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعنى بالذى جاءنى ، وقد بعثت معك ابن عمى جعفرًا ونفرًا معه من المسلمين ، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر ، وإنى أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصحى ، والسلام على من اتبع الهدى » وكان النجاشى فى صميم ذاته مؤمنًا ورعًا، قرأ الإنجيل الصحيح وترقب ظهور نبى بشر به المسيح ، فلما جاء كتاب الرسول شفى منه غليلاً ، ففكر وقدر ثم أشرق نور الإسلام فى قلبه ؛ فكتب إلى محمد يقول:

« بسم الله الرحمن الرحيم إلى محمد رسول الله ، من النجاشى الأصحم ابن أبجر ، سلام عليك يا نبى الله ورحمته وبركاته ، من الله الذى لا إله إلا هو الذى هدانى إلى الإسلام . أما بعد ، فقد بلغنى كتابك يا رسول الله فما ذكرت من أمر عيسى عليه السلام فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثغروقًا إنه لكما قلت ، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا ، وقد قربنا ابن عمك وأصحابه فأشهد أنك رسول الله صادقًا مصدقًا ، وقد بايعتك وبايعت ابن عمك وأسلمت على يديه لله رب العالمين ، وقد بعثت إليك با بنى أرها بن أبجر فإنى لا أملك إلا نفسى ، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله ، فإنى أشهد أن ما تقول حق ، والسلام عليك يا رسول الله » .

(١) « أسد الغابة » ، ج ١ ، ص ٦٢.

وقد مات النجاشى مسلمًا وصلى عليه رسول الله صلاة الغائب .

أما رسالته إلى كسرى ، فقد كان رسول الله يعلم تكبره وصلفه ، ويعلم أن أقوى البراهين إقناعًا لا يقابل منه بغير الغضب والاستعلاء . ولكنه ملزم بتبليغه ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ فلابد أن تصل إليه رسالته فليجاهر إليه بدعوته ، وليسمعه شيئًا من القرآن ، وليحمله وزر المجوس إن أبى ، كل ذلك فى أسطر قليلة تقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد رسول الله ، إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله عز وجل ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين أسلم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »(١) .

وقد تعالى الطاغية وتجبر ، فغضب ومزق الكتاب . وصاح فى غيظ : يكتب إلى هذا وهو عبدى .

وأما ابنا الجلندى ملكا عمان ، فقد عرف الرسول وثنيتهما المظلمة ، وأن إنقاذهما بالسلم إن أمكن أو الحرب إن استدعى الأمر واجب لا محالة فأرسل إليهما يقول :

« من محمد عبد الله ورسوله إلى جيفر وعبد ابنى الجلندى ، سلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، فإنى أدعوكما بدعاية الإسلام ، أسلما تسلما ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة ، لأنذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ، وإنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما ، وإن أبيتما أن تقرا بالإسلام فإن ملككما زائل عنكما ، وخيلى تحل بساحتكما وتظهر نبوتى على ملككما »(٢) .

---

(١) « السيرة الحلبية » ، ج ٢ ، ص ٣٦٨.

(٢) « السيرة الحلبية » ، ج ٣ ، ص ٣٧٤.

فأجابا إلى الإسلام طائعين .

تلك ثلاث من رسائله ، وما بنا أن نسطر جميع ما لدينا من رسائله ﷺ إلى هرقل والمقوقس وأهل البحرين وصاحب اليمامة وغيرها مما جمعه الأستاذ (أحمد زكى صفوت) مشفوعًا بمصادره فى الجزء الأول من « جمهرة رسائل العرب » ما بين صفحات ٢٥ ، ٩١ فإن الإشارة إلى مصادره تغنى عن ذكره ، ولكننا نجعل هذه الرسائل الثلاث أنموذجًا للكتابة الديوانية النبوية كما يحلو لمؤرخى الأدب أن يقولوا فى حديث الرسائل . وتتجلى فيها الدقة وإصابة الهدف مع الإيجاز والوضوح واتحاد المطالع ، وقد يرى بعض الناقدين أنها من الإيجاز بحيث لا تشرح قواعد الإسلام لقوم يجهلونه . ونحن نرد على ذلك : أن النبى ﷺ كان يختار حامل الرسالة من صفوة أصحابه ليستطيع أن يفصح عن دينه بما عرف من نبيه ، وفى قصة إسلام النجاشى ما يشير إلى نقاش طويل بين النجاشى وجعفر بن أبى طالب من ناحية وبين جعفر ووفد الوثنية من قريش من ناحية ثانية ، حين بعثوا إلى الحبشة من يتعقب المسلمين هناك ، فردوا بغيظهم لم ينالوا شيئًا ، فلو أن الرسالة النبوية حملت بالبريد – على الرواحل حينذاك – دون مفسر شارح لأمكن أن تؤاخذ الرسالة باختصار ، ولكن حاملها صحابى مختار يعتنق الإسلام عن حمية وإيمان ، وحسبه أن كان موضع ثقة الرسول فى هذا المهم الخطير .

ولست أتحرج فى شىء حين أستشف من هذه الرسائل حصافة الدبلوماسية المتزنة التى تجعل لكل حرف معناه . وأعنى بالدبلوماسية : السلوك السياسى الصحيح الذى يؤتمن على الكلمة ائتمانًا لا يتطرق إليه التزيد ، وليس ما أعنيه ما شاع عن بعض أساليب الدبلوماسية من الاحتيال والدهاء والتربص ، فذلك شىء تجحده الدبلوماسية النزيهة فى لبها الصميم . ومن المعروف أن رسل محمد قد عادوا سالمين دون أن يقتل منهم أحد ، وأن هرقل والنجاشى والمقوقس قد ردوا جميلاً ، حتى توهم بعض المؤرخين أن هرقل قد أسلم وحسن إسلامه . أما الذى شذ وتكبر

فكسرى إذ كان يعانى هزيمة أليمة بعد حرب طاحنة مع هرقل رجع منها بالخذلان، فمزق الخطاب وكلف عامله على اليمن بمعاقبة محمد . إن أكثر المستشرقين فى دهشة من جرأة نبى الإسلام على مكاتبة رؤساء العالم دون تهيب ، ويعتدون ذلك مجازفة خطيرة كان من الممكن أن تتمخض عن أحداث جسام . ولو علموا أن محمدًا لا ينطق عن الهوى بل يسير بوحى من السماء لعرفوا مقدار ثقته فى ربه وفى نفسه . وإذ كانت رسائل محمد قد آتت كلها حين أحسنت الأداء عن صاحبها ، فإنها بإيجازها الدقيق تعد لا محالة ذات سداد مكين ، ولنا أن ننتقل منها إلى نماذج من المعاهدات النبوية فنتحدث عن طابعها الأدبى كما نراه .

(٢)

لنذكر الآن ما قلناه آنفًا عن الدقة القانونية فى معاهدات لا تخرج عن شروط دقيقة ، تتبع بين فريقين يتباعدان أو يتقاربان . ولعل معاهدة صلح الحديبية تصلح مثالاً لأسلوب محمد القانونى ، لأنها بتواترها الذائع تمحو كل شك يهم باعتراضها، وقد كان ممثل قريش فيها (سهيل بن عمرو) وهو فوق رزانته الهادئة ، وتشدده الحازم خطيب فصيح كان موضع تقدير سامعيه . وقد هم عمر بن الخطاب بكسر ثنتيه حين وقع أسيرًا فى بدر لاشتهاره بخطبه المناوئة للدعوة الإسلامية ، فقال محمد ﷺ : دعه يا عمر ، فلعله يقوم مقامًا تحمده ، هذا الخطيب القرشى الفصيح كان ممثل قريش فى معاهدة الصلح ، وقد أبدى اعتراضات تمثل وجهة نظره من ناحية الصياغة ، حتى رفض كلمة محمد رسول الله وقال : لو كنت أعلم أنك رسول الله ما نازعتك ، فحسم الرسول الأمر ومحا كلمة رسول الله بعد أن رفض محوها على ابن أبى طالب ، وكان ما أملاه محمد بعد الجدل والاعتراض ومناقشة المسلمين الغاضبين كعمر بن الخطاب تارة وفريق سهيل من المشركين تارة ثانية ، كان ما أملاه بعد الصراع المتأزم ينحصر فى قوله :

هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه وأن بيننا عيبة مكفوفة ، وأنه لا أسلاب ولا أغلال ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه[١] .

فهذه معاهدات ذات مواد صريحة ، وذات ألفاظ محددة ملتزمة ، وليس بها من الخيال التصويرى غير قوله ﷺ : « إن بيننا عيبة مكفوفة » والعيبة فى الأصل : زنبيل من أدم يجعل فيه الثياب ، ومكفوفة مشرجة مشدودة على ما فيها ، والعرب تشبه الصدور التى تضم القلوب بالعياب التى تشرج على حر الثياب وفاخر المتاع ، فجعل عليه الصلاة والسلام العياب المشرجة على ما فيها مثلاً للقلوب تطوى على ما تعوهد عليه مثل بها الذمة المحفوظة التى لا تنكث ، وهذا رأى فى الصورة البلاغية ، وهناك رأى آخر يقول : إن المراد أن الشريكين مكفوفًا بينهم كما تكف العياب إذا أشرجت على ما فيها من المتاع[٢] ، وكذلك الذحول التى كانت بينهم كما تكف العياب إذا اصطلحوا على ألا ينشروها بل عليهم أن يتناسوها كأنهم جعلوها فى وعاء وأشرجوا عليها . هذه صورة بلاغية واحدة اختلف البلاغيون فى مؤداها إلى رأيين ، وكلاهما صحيح فى بابه ومتفق مع الظروف والملابسات المصاحبة للمعاهدة ، وقد تعمدت تفصيل ذلك ليكون شاهدًا قائمًا على ما قررته أن أساليب البيان مما يفترق معه الرأى إذا حشدت فى المعاهدات الوثائق وأن مجافاتها ما أمكن سبيل الاتفاق واللقاء من طريق قريب . والصورة البلاغية على لسان بليغ عظيم

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣٢.

(٢) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٣١.

كمحمد ، لا تؤدى إلى خلاف ما كما نرى ، ولكنها على يد غيره موضع المزلة . لذلك كان اجتنابها أحزم .

ونختار نصًّا آخر من معاهداته . وهو ما عاهد عليه الصلاة والسلام به أهل نجران حيث أرادوا مصالحته على الجزية . وهى معاهدة مثقلة بالشروط ، متعددة الأزمنة دقيقة الحساب ، تضم فى السطور الموجزة ما تتسع له صفحات كثيرة ، وإيرادها بنصها التاريخى يكشف عن السداد البصير فى التحديد الملزم ، والتفصيل الشارح ، والتنويع الكاشف بحيث تجب كل اختلاف يمكن أن يتاح ، وهذا نصها:

« بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما كتب النبى ﷺ لأهل نجران ، إذ كان عليهم حكمه فى كل ثمرة ، وفى كل صفراء ، وبيضاء ، وسوداء ، ورقيق ، فأفضل ذلك عليهم ، وترك ذلك كله لهم ، على ألفى حلة من حلل الأواقى ، فى كل رجب ألف حلة ، وفى كل صفر ألف حلة ، كل حلة أوقية من الفضة ، فما زادت على الخراج أو نقصت عن الأواقى فبالحساب ، وما قضوا من دروع أو خيل أو عروض أخذ منهم بالحساب ، وعلى نجران مثوى رسلى شهرًا فدونه ، ولا تحبس رسلى فوق شهر ، وعليهم عارية ثلاثين درعًا ، وثلاثين بعيرًا ، وإذا كان كيد باليمن ومعرة ، وما هلك مما أعاروا رسلى من دروع أو خيل أو ركاب أو عروض ، فهم ضمن حتى يردوه إليهم .

ولنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد النبى رسول الله ، على أموالهم وأنفسهم وأرضهم وملتهم ، وغائبهم وشاهدهم ، وعشيرته وبيعهم ، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يغير أسقف عن أسقفيته ولا راهب عن رهبانيته ، ولا كاهن عن كهانته ، وليس عليهم دنية ، ولا دم جاهلية ، ولا يحشرون ولا يعشرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقًّا فبينهم النصف ، غير ظالمين ولا مظلومين ، ومن أكل منهم ربًا من ذى قبل فذمتى منه بريئة ، ولا يؤخذ

رجل منهم بظلم آخر ، ولهم على ما فى هذا الكتاب جوار الله ، وذمة محمد النبى ﷺ رسول الله أبدًا ، حتى يأتى الله بأمره نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير منفلتين بظلم »[١] .

هذا هو نص المعاهدة ، وهو نص بليغ إذ يطابق مقتضى الحال .

لقد تعرض الدكتور حسين نصار إلى رسائل محمد ﷺ ومعاهداته ، فقال ما نصه[٢] :

« هذه هى حال الكتابة فى عهد النبى ﷺ ، فهل يمكننا أن نطلق عليها اسم : «الكتابة الفنية» ، أعتقد أن من الواضح الذى لا شك فيه بعد كلامنا الطويل أننا لا يمكننا ذلك ، فإنها ليست إلا كتبًا مرتجلة محلاة بلغة سهلة هى لغة الحديث لا يوشيها شىء من عمل أو جمال فير فصاحة لغة الحديث عند العرب بل تهبط لغتها كثيرًا عن لغة الخطابة التى كان لها تقاليدها المرعية ، وقواعدها الأدبية منذ العصر الجاهلى ، ولم تكن تسمو إليها إلا فى بعض الرسائل » .

وموضع النقد فى كلام الدكتور أنه : أغفل مقتضى الحال المتعارف عليه فى كتابة الرسائل السياسية ، والمعاهدات القانونية قديمًا وحديثًا حتى يومنا هذا ، فإذا كانت كتب الرسول سريعة مملاة بلغة سهلة لا يوشيها شىء من عمل أو جمال غير فصاحة الحديث عند العرب فذلك مما يجب أن يحسب لها لا عليها فى مثل موقفها الدقيق ، ولا يمكن أن تخرج عن الكتابة الفنية ، لأن الفن فى صميمه التزام بما تقتضيه الظروف والملابسات . هذا ما نعرفه . ولكن الدكتور فى مقدمة كتابه[٣] يقول : « إنه يعنى بالكتابة الفنية ما لا تصدر عن سليقة تقصد إلى الإفهام إنما يريد الكتابة التى

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٧٧.
(٢) « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، ص ٤٧.
(٣) « نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى » ، ص ٣.

تروى صاحبها فى تجريد المعنى ، وتأتى فى اختيار اللفظ قبل إبرازها لتخرج محبرة مجودة لأنه لا يقصد منها الإفهام وحده ، وإنما يقصد أيضًا إثارة اللذة عند القارئ والإحساس بالجمال . ولذلك نعت كتابات العرب الجاهلين ، وكتابات الرسول والصحابة بأنها غير فنية على الرغم من فصاحتها وجمالها ، فأنا لا أقصد بالفن الجمال وحده ، إنما أقصد الجمال الذى استحدثه صانع فنان يعرف ما يعمل ويريده ويبحث عنه » .

والذى يقرأ الرسائل النبوية لا يشك أن صاحبها قد تروى فى تجويد المعنى وتأنى فى اختيار اللفظ ، وليس ملزمًا بأن يثير اللذة عند القارئ السطحى ، ولكن القارئ الناضج المدرك لملابسات الوثائق والمعاهدات يعلم أن الإتيان بما يناسب المقام مصدر متعة وجمال ، ونحن مع ذلك كله لا نعتبر المعاهدات من النثر الأدبى ، ولكن من الذى ينكر أن النثر العلمى بإقناعه وعمقه مصدر لذة وجمال لدى المفكر الأصيل ، حتى يقول الدكتور : إنها لا تثير عند القارئ إحساسًا بالجمال ، ولماذا يطلق الدكتور الحكم على جميع ما لدينا من آثار العرب الجاهلين والرسول والصحابة . أليس ذلك مصدر شطط بعيد . لقد رجع إلى جمهرة رسائل العرب أكثر من عشرين مرة ، أفلم ترقه رسالة النعمان إلى كسرى فى شأن (عدى بن زيد) ص ١٣ ألم يرقه كتاب (النعمان بن قبيصة) إلى (أكثم بن صيفى) ص ٢١ ألم يرقه كتاب أبى بكر إلى أهل الردة ص ١١٤ ألم ترقه كتب أبى عبيدة إلى عمر فى أكثر من موضع ، أم ترقه مراسلات على بن أبى طالب إلى معارضيه ومؤيديه معًا ، وما أبرعها فصاحة ونصاعة وبهاء . أكذلك يعم الحكم جميع رسائل الجاهلية ومحمد ﷺ وأئمة الصحابة دون احتراس !! .. لقد كان الرسول مشتغلاً بأحداث الدعوة عن أن يكون صانعًا فنانًا كما يشترط الدكتور ! وهنا موضع العجب من الذى لا يهش لأدب السليقة المطبوعة ! ويدعو إلى الصنعة المتكلفة ! إن عشرات الرسائل التى يكتبها صانعو الفن لا تسمو إلى رسالة واحدة أرسلها فصيح مطبوع هو محمد بن

عبد الله معزيًا بها معاذ بن جبل فى وفاة نجله فأى تعزية ؟ وأى تأثير . وأى لذة مقنعة راضية صابرة يجدها القارئ فى قول محمد .

« من محمد رسول الله إلى معاذ بن جبل . سلام عليك ، فإنى أحمد إليه الذى لا إله إلا هو ، أما بعد ، فعظم الله لك الأجر ، وألهمك الصبر ، ورزقنا وإياك الشكر، ثم إن أنفسنا وأهلينا وموالينا من مواهب الله السنية ، وعوارفه المستودعة ، نمتنع بها إلى أجل معدود ، وتقبض لوقت معلوم ، ثم افترض علينا الشكر إذا أعطى . والصبر إذا ابتلى ، وكان ابنك من مواهب الله الهنية ، وعوارفه المستودعة متعك به فى غبطة وسرور ، وقبضه منك بأجر كثير : الصلاة والرحمة والهدى إن صبرت واحتسبت ، فلا تجمعن عليك يا معاذ خصلتين ، أن يحبط جزعك صبرك فتندم على ما فاتك ، فلو قدمت على ثواب مصيبتك قد أطعت ربك وتنجزت موعوده ، وعرفت أن المصيبة قد قصرت عنه ، واعلم أن الجزع لا يرد ميتًا ، ولا يدفع حزنًا ، فأحسن الجزاء ، وتنجز الموعود ، وليذهب أسفك ما هو نازل بك فكأن قد »[1] .

لا يستطيع ناقد منصف أن يجحد مواضع الإبداع فى قوة الإقناع ، وصدق العاطفة وجميل العزاء ، واطراد التعبير ! وكل ذلك مصدر جمال وإمتاع ، ولن ينتظر من رسائل قائد أعظم كنبى الإسلام ، أن يكتبها فى غير ما يمت إلى ذلك النمط العاقل البديع أفينتظر من رسول الله أن يكتب رسالة فى الهجاء كابن زيدون ، أو فى التهكم كالجاحظ أو فى المدح كالبديع ، أو فى الغزل كابن العميد ؟ ليصبح بذلك صانعًا فنانًا ، تحوز كتابته ثناء الناقدين ! هيهات هيهات .. لقد كتب الرسول البليغ ما يعقل أن يصدر عن نفسه الذكية العاقلة ، وطابق بين الحال ومقتضاه ، وبين القول ، وصاحبه فجاء ما كتبه آية فى بابه على غير مباهاة بالقول أو تزيد بالحديث !!

(١) جمهرة رسائل العرب ، ج ١ ، ص ٦٥.

على أن نماذج محمد فى الرسائل والمعاهدات كانت فاتحة لما جد بعدها من مئات الرسائل التى كتبها خلفاء محمد ، وقادة الحروب ، وأمراء البلاد فى الإسلام . إذ إن حركة الفتح الإسلامى التى شملت ثلاث قارات عظيمة ، وقد تطلبت طوفانًا من الرسائل الديوانية والوصايا السياسية والمعاهدات الحربية ، ابتدأ ذلك من عهدى أبى بكر وعمر ، وكلاهما حريص على محاكاة الرسول فى نهجه الكتابى ، حتى أصبحت كتاباته نماذج محتذاة فى بدئها وختامها ووضوحها وترك اللغو والفضول ، وإن الذى يرجع إلى عشرات من هذه الوثائق فى عهد الخلافة الراشدة يجد النمط المحمدى بارز المعالم واضح الاتجاه ، وقد أخطأ الدكتور (حسين نصار) تعليله حين قال [1] عن رسائل النبى :

« أما ما اتبعه – النبى محمد – من نظم فى أوائل الرسائل وخواتيمها ، فإن هى إلا أمور اقتضتها الدعوة التى يبشر بها ، فلما جاء خلفاؤه ساروا على منواله ولم يخلوا بنظمه ، وهنا نستطيع أن نقول : إن هذه النظم أصبحت تقاليد مرعية ، ولكن يجب أن ننظر إلى هذا الرأى نظرة سهلة غير متشددة ؛ إذ إن الخلفاء كانوا يتبعونها اتباعًا دينيًّا لا أدبيًّا ، فهم يعتبرونها سنة من الرسول ، ولذلك نرى رسائل على التى يرسلها إلى معاوية يدعوه فيها إلى الطاعة والانطواء تحت لوائه تشبه كتب الرسول إلى الملوك ورؤساء العرب شبهًا كبيرًا ، وإذًا فهذه تقاليد دينية لا أدبية يمكن أن نعتبرها فنية ، ولم تتطور لغة الرسائل كثيرًا فى هذه الفترة ؛ إذ لا تزال تهدف إلى مجرد الإفهام » .

والذى حدا بالدكتور أن ينص على أن محاكاة أسلوب الرسول كانت محاكاة دينية لا أدبية ، ما رآه من بدء الرسالة بالبسملة وحمد الله والصلاة على نبيه وختمها بالسلام ، فاعتبر ذلك من خصائص الدين لا الأدب ، ناسيًا أن الأدب فى كل عصر ترجمة عن شعور صادق ، وقد كان إحساس أصحاب الرسائل وبخاصة فى عهد

(١) « جمهرة رسائل العرب » ، ج ١ ، ص ٦٥.

الخلافة الراشدة إحساسًا دينيًّا عميقًا ، فجاءت رسائلهم مضمخة بعبير الدين ، وهم يصدقون بذلك التعبير عن خوالجهم الخالصة ومشاعرهم الصريحة ، فأسلوبهم الدينى إذ ذاك من صميم الأدب الصادق ولبابه ، وليس مجرد تقليد دينى، وقد يمكننا أن نعتد بعض كتب سلاطين آل عثمان فى العهود الأخيرة ذات تقليد دينى لبعد كاتبيها عن روح الإسلام الأصيل ، أما أن تعتبر كتب الخلفاء الراشدين ومن نهج نهجهم مجرد تقليد دينى لا ينبئ عن شعور صادق ، فهذا موضع النقد ! لذلك .. كانت رسائل محمد أنموذجًا أدبيًّا ودينيًّا معًا لصحابته ، وقد ظهر احتذاؤها فى القرن الأول ، حتى جاء (عبد الحميد الكاتب) فطغت عليه ثقافته الفارسية وجعلته يبتدع نمطًا جديدًا من الرسائل الديوانية ، يميل إلى الأسلوب المطيل والترادف المطنب ، متخذًا وسائل التعظيم والإكبار للخلفاء والرؤساء بعد أن عرف ما كان عليه كتاب البلاط الفارسى من إكبار بالغ للأكاسرة ، وتمجيد مسرف للأمراء ، فتأثر بذلك كله وأحال الرسائل السياسية من لون إلى لون ، ومنذ عهده رأينا كتابة الرسائل تميل إلى لون جديد من التعبير ، انتهجه الكاتبون من بعده، تشقيق قول ، وتوليد معنى ، وترادف لفظ ، وتفخيم رئاسة مع مبالغة مفرطة فى الوعيد والترهيب ، ومباهات بالحول والطول ! ولعلنا بذلك نستريح إلى ما قررناه من أستاذية النهج المحمدى لجميع من صدرت عنه الرسائل ، حتى جاء (عبد الحميد) فاستبدل نهجًا بنهج .

وإنصافًا للدكتور (حسين نصار) نقرر أنه انتهى من بحثه عن نشأة الكتابة الفنية فى الأدب العربى إلى نتيجة نراها صحيحة قوية ؛ إذ أعلن فى خاتمة كتابه : أن الكتابة الفنية العربية كانت وليدة الثورة التى قام بها محمد عليه الصلاة والسلام ، فغيرت من تاريخ العرب كل تغيير ، « وإن كتابة الرسائل بجميع أنواعها ، نشأت فى عصر مبكر بدافع من الظروف والعوامل التى تحرك الجماعة العربية فى عصرها ذلك ، فهى ثمرة الثورة التى قام بها الإسلام ، وأخضع العرب لها وأمدهم بأسسها التى يقيمون عليها حياتهم الجديدة ، وإذًا فكتابة الرسائل الفنية كانت ظاهرة حتمية

لم يتجنبها العرب وما كانوا مستطيعين أن يتجنبوها بعد أن دفعهم القرآن تلك الدفعة التى ذهبت بنظمهم السياسية الجاهلية أدراج الرياح »[1] .

هذا مجال القول فى : رسائل محمد ومعاهداته فنًّا وتأثيرًا ، وقد أرجأنا الحديث عما تضمنته بعض الرسائل النبوية من الغريب العويص ، مما لم يوجد فى لغة قريش ، مراعاة لألفاظ القبائل الأخرى ؛ إذ يخاطبهم بما يفهمون ، أرجأنا ذلك إلى فصل يتحدث عن خصائص الأسلوب النبوى ، وما هو ببعيد .

* * *

(١) « نشأة الكتابة الفنية » ، ص ٥٤٠.

الأقصوصة فى أدب الرسول

(١)

فى الإنسان – أى إنسان – ميل شديد إلى القصة ، فهو إذا شاهد حادثة فى الطريق رفه عن نفسه بروايتها ووصفها والتعليق عليها ، وإذا وجد من يقص ويروى تابعه متطلعًا على شوق ، واستوعب قصته ليرويها للناس . وكان للعرب أسمارهم وسهراتهم تروى فيها القصص ، وتتعدد فيها الروايات ، وإذا كانت البيئة الجاهلية مسرحًا للغارات والحروب ، وهبات الرمل وعويل الريح وتخايل الأشباح فى ظلماء الليل ، فإن قصصهم السامرة تدور حول ما يحسون ويتخيلون ، وقد سجلت لنا الكتب الأدبية كثيرًا من أساطير الأولين، ولكن الأستاذ (أرنست رينان) منذ قال: « إن العقل السامى عقل جزئى لا يميل إلى الشمول والسعة ، والعقل الآرى عقل كلى ، ينظر إلى الأشياء نظرة عامة واسعة » منذ قال ذلك ، والهجوم على العقلية العربية ظلمًا دون تحقيق يفيض ويتسع ، ومما قيل فى ذلك : أن العقل العربى لا يجيد القصص ، إذ إن القصص ذات أبعاد وأطوال ولا ينهض بملئها عقل جزئى محدود! وقد أثر كلام (رينان) فى أخلص الخلصاء للعرب ، فأصبحنا نجد مؤرخى الأدب من رجالنا أنفسهم يشتطون فى أحكامهم ، فهم يرددون دائمًا مثل قول الأستاذ (أحمد أمين) فى « فجر الإسلام » عن العربى [١] .

« إن خياله محدود وغير متنوع ، وقلما يرسم خياله عيشة خيرًا من عيشته ، وحياة خيرًا من حياته التى يسعى وراءها » وبالحكم على العربى بضيق الخيال حكم

(١) « فجر الإسلام » ، ص ٤٦ ، ط ثالثة .

عليه ظلمًا بمعاداة القصة ، وهى شىء لا يكاد يكون غريزيًّا فى كل إنسان ؛ لأنها قائمة على حب الاستطلاع وترقب النهايات ، واستعظام المفاجآت ، ولقد كان للعرب قصاص يرددون الحديث عن الآباء والأجداد والرحلات والقوافل والغارات ، مما امتلأت به كتب الأدب ، وإذا لم نجد فى الأدب القديم قصة كاملة النهج مستوفاة شرائط الفن الحديث ، فذلك شىء طبيعى يتفق والبيئة الساذجة التى تتطلع إلى آفاق ، لم تلبث أن امتدت على يد الإسلام ، ولكنها لا تخرج عن كونها قصة ، وإذا كان من مميزات الأدب اليونانى عند خصوم العرب قيامه على الأساطير والخرافات ، فإن الخرافات لم تكن بعيدة عن الذهن الجاهلى فى بعض تفكيره ! وكلمة خرافة فى أصلها العربى تدل على : رجل تاه فى الأرض واختلط عقله ردحًا ما ، حتى قيل : إن الجن قد استهوته ، ثم رجع إلى قبيلته يحدثها عما شاهد من الغرائب ، فضرب به المثل القائل : « حديث خرافة » وحين لمس القرآن حاجة النفس إلى القصص ، جاء بأخبار الأولين من فرعون وعاد وثمود ، وشرح قصص مريم وامرأة العزيز وبلقيس وأهل الكهف ! وقَصص القرآن وقَصص واقعى تاريخى لا خيال فيه ، ولكنه ضرب من ضروب القصص يرضى حاجة النفس ، ويمد الرسالة النبوية بأمثلة من القوة والصبر والعزاء ! : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[1] .

فالقصة : إحدى أسلحة القرآن فى الهداية والإرشاد ، وهى أيضًا إحدى أسلحة محمد ﷺ فى الهداية ، وقد كان مبلغ تأثير القصة عظيمًا غاية العظم فى نفوس العرب ؛ إذ سحروا بما سمعوا من غرائب الأولين ، واضطر المناوئون للدعوة الإسلامية أن يختاروا قصصًا منهم يصد عن سبيل الله بما يعلم من عجائب الفرس

(١) سورة يوسف : ١١١ .

ليمنع شىء شيئًا ، قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَـٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾[1] ، وجاء فى الكشاف عن هذه الآية ، نزلت فى (النضر بن الحارث) ، وكان يتجر إلى فارس فيشترى كتب الأعاجم فيحدث بها قريشًا ، ويقول : إن كان محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود ، فأنا أحدثكم بأحاديث (رستم وبهرام والأكاسرة وملوك الحيرة) فيستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن »[2] .

وفى كتاب « أسباب النزول » (للنيسابورى) نرى تعليقًا مستفيضًا على قصة أهل الكهف ، يفصل كلام (الزمخشرى) ويزيد عليه أن بعثة من قريش تألفت من (النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط) وغيرهما قد ذهبت إلى أحبار اليهود بالمدينة تعلم عنهم أنباء الأولين لتسأل عنها محمدًا ! فمكانة القصص إذًا من الدعوة الإسلامية مشتهرة ذائعة ، إذ كانت إحدى الأسلحة الناصرة لا محالة ! إذ إن القصة الهادفة تقنع العقل وتمتع الوجدان ، وهى إذا اتضح مغزاها النبيل أعمق المسارب الإنسانية إلى الهداية والتوجيه !

أجل .. كانت القصة الهادفة إحدى وسائل محمد فى الإقناع والتأثير ! وقد نقلت كتب الحديث قصصًا كثيرة مما حكى الرسول ، وإذا أردنا الدقة الفنية فلنقل أقصوصة لا قصة ؛ لأن علماء هذا الفن يطلقون الأقصوصة على القصة القصيرة ، التى يعالج فيها الكاتب جانبًا من حياة لا كل الجوانب ، فهو يقتصر على حادثة لا حوادث ، أما القصة فهى التى تتسع إلى جوانب أرحب وأفسح ، فلا بأس أن يطول الزمن وتمتد الحوادث ، ويتوالى تطورها فى شىء من التشابك والتمازج[3] .

---

(١) سورة لقمان : ٦ ، ٧ .

(٢) « الكشاف » ، ج ٢ ، ص ١٩٣ .

(٣) « دراسات فى القصة والمسرح » للأستاذ محمود تيمور .

وقد تتضاءل الأقصوصة حتى تصير خبرًا قصصيًّا محدودًا ، وما إلى هذا النوع نقصد ، وإن وجد كثيرًا فى كلام النبوة من مثل قوله ﷺ :

« بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئرًا ، فنزل فشرب ، ثم خرج فإذا بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ، فنزل البئر فملأ خفه ماءً فسقى الكلب ، فشكر الله له فغفر له » (١) رواه البخارى ومسلم .

ومثل قوله : « بينما امرأتان معهما ابناهما ، جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت لصاحبتها ! إنما ذهب بابنك أنت ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فاحتكمتا إلى داود « عليه السلام » فقضى به للكبرى ، فخرجتا على سليمان بن داود « عليهما السلام » فاختبرتاه ، فقال : ائتونى بالسكين أشقه بينكما ، فقالت الصغرى: لا . يرحمك الله هو ابنها فقضى به للصغرى » رواه الشيخان والنسائى (٢) .

فهاتان أقصوصتان تضاءلتا حتى كادتا تبلغان مبلغ الخبر ، ومع إيجازهما المفرط فقد تضمنت كلتاهما لباب ما تتضمنه الأقصوصة المتسعة ! ففيهما السويق ، والإثارة ، وفيهما التصوير النفسى للعواطف ، وفيهما بعد ذلك العظة الهادفة من الرحمة الواجبة للحيوان فى الأولى ، والحنان المستقر بنفس الأم فى الثانية ! مع ما تشير إليه من بعد نظر سليمان بن داود وقدرته على اجتلاء الصواب بحيلة تصل إلى مقطع الرأى فى قضية دامسة غاب شاهدها المنير ! ومع ما بهاتين الأقصوصتين القصيرتين من لوامع وضيئة ، ومثلهما كثير فى أدب النبوة ، فإننا نتجاوزهما إلى الأقصوصة المبسطة نوعًا ما لنرى كيف عالجها الرسول بسداد وتوفيق ! ونحن لم نتعد الأقاصيص المتفق عليها فى الكتب الصحاح ، تاركين ما عزى إلى الرسول فى كتب الترغيب والترهيب ، مما لم يشف سياقه عن طابع محمد الأصيل !

---

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٦٩.

(٢) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٦٩.

نعلم أنه لابد لكل أقصوصة من وحدة فنية تكون هدفًا للكاتب ، يحققها بما يعرض من صور ويرسم من شخصيات ، ويعالج من أحداث ، بحيث يكون ذلك كله خيوطًا متلاحمة تؤدى إلى نسيج قوى متماسك يبرز هذه الوحدة الفنية ! فالوحدة الفنية فى القصة والأقصوصة معًا هى الفكرة الأصلية التى يحاول القصاص إبرازها وراء ما يقدم من نتاج ، ولابد أن تكون من الوضوح فى نفسه ؛ بحيث يستطيع التعبير عنها بصوره وأحداثه تعبيرًا يبرزها للقارئ بروزًا لا يتستر بإبهام وغموض ، وقد تضم الأقصوصة عدة أفكار مهمة ، ولكنها تتلاحق وتتساند لإبراز الفكرة الأصلية ، فلا يكون هناك من التعارض والتناقض ما يجعل الأقصوصة عرضة للانهيار ! وتطبيقًا لذلك نعرض – من أقاصيص الرسول – قصة الصخرة المطبقة على غار يأوى ثلاثة أفراد ، فإن فكرتها الأولى هى : تقرير أهمية العمل الصالح فى الحياة إذ ينقذ من الضيق ، ويفرج من الكرب ! هذه الفكرة الأساسية لا تمنع أفكارًا خلقية ودينية أخرى تساندها فى القصة ، فحب الوالدين والقيام بخدمتهما عند المتحدث الأول من رجال الأقصوصة ، والرجوع عن المعصية بعد الإقدام عليها عند المتحدث الثانى ، وأداء حق الأجير عند المتحدث الثالث ، كل هذه الثلاثة أفكار قوية تؤدى إلى الفكرة الأساسية ، وهى تقرير أهمية العمل الصالح ، بل إنها تدل عليها بأحداثها الواضحة ، وهنا نجد التلاؤم فى الأفكار والخواطر يسير بالعمل الفنى سيرًا مطردًا إلى الكمال ، وإذا كانت بعض القصص تعتمد فى بنائها الأدبى على الأحداث كعنصر بارز ، وبعضها الآخر يعتمد على الحوار ، وبعضها يعتمد على الأشخاص ، وبعضها يعتمد على المناجاة ، فإن عنصر المناجاة فى قصة الغار والصخرة قد كان أقوى العناصر البارزة فيها ، حيث رفع كل سجين يده ليناجى ربه بما أسلف من الخير فى حياته ، فهو يستعرض ماضيه من مناجاته استعراضًا يأتى بالأحداث السالفة زلفى للنجاة ! أما تعبير القصة فقد

كان مع إيجازه موحيًا ترسم ألفاظه أضواء مختلفة ، حتى لكأن كل لفظ فى حده صورة لمشهد ! ولنا أن نتابع القصة ببعض التحليل كما جاءت فى كتب الحديث :

« عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : بينما ثلاثة نفر يمشون ، أخذهم المطر ، فأووا إلى غار فى جبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل ، فانطبقت عليهم »(١) .

هنا ..توالت الأحداث مسرعة : أشخاص ، وأمطار وفرار إلى الجبل ، وانطباق صخرة ! إن المفاجأة لتشد سمع المستمع مشوقًا إلى تتمة ما كان ! وقد أغنت هذه الكلمات القليلة عن وصف مسهب يتقدم به ثرثار ليرسم الأحداث الأولى فى نحو ثلاث صفحات ! ثم ما عسى أن يقوله غير ما أوحت به كلمات القصة ، إن كل لفظ منها يحمل مدلولاً يفتح أبواب الخيال لدى السامع فتريه من وراء الغيب ، ما أدرك الثلاثة من العجلة حين رأوا المطر ، ومن الحيلة حين اهتدوا إلى الجبل ، ومن الضيق المتأزم حين سقطت عليهم الصخرة مؤذنة بالهلاك !

قال الحديث بعد ذلك : « فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله ، فادعوا الله بها لعله يفرجها عنكم ، قال أحدهم : اللهم ، كان لى والدان شيخان كبيران ولى صبية صغار كنت أرعى عليهن ، فإذا رحت عليهم حلبت ، فبدأت بوالدى أسقيهما قبل بنى ، وإنى استأجرت ذات يوم فلم آت حتى أمسيت ، فوجدتهما نائمين فحلبت كما كنت أحلب ، فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما ، وأكره أن أسقى الصبية ، والصبية يتضاغون عند رجلى حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك فأفرج لنا فرجة نرى منها السماء ، ففرج الله فرأوا السماء » .

---

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٤٦.

هنا تكفّلت المناجاة بإيضاح ما كان ، وجاء التعبير دقيقًا بإيحائه النفسى ، فالوالدان يغطان فى النوم ، والابن قائم على رأسيهما ، والصبية يتضاغون ! أى مقابلة نفسية كبيرة بين بكاء الأطفال وتصبر الولد وتماسكه حتى يستيقظ الوالدان ! وهنا أيضًا فهم الهدف الخلقى من مراعاة حقوق الوالدين ؛ فهما تأثيريًّا لم ينبع من الوعظ ، ولكن من رسم المشهد فى أدق صورته ! وهنا ثالثًا جاءت النتيجة السارة المرتقبة إذ تزحزحت الصخرة ، فرأوا لون السماء ، وعرفوا كيف يتنفسون !

وقال الحديث متابعًا :

« قال الآخر : اللهم ، إنه كانت لى بنت عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت منها ، فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فبقيت حتى جمعتها ، فلما وقعت بين رجليها قالت : يا عبد الله ، اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ، فقمت ، فإن كنت تعلم أنى فعلته ابتغاء وجهك ، فأفرج عنا فرجة ففرج » .

مناجاة ثانية تصور الأحداث بجوامع الكلم ، وتوجز لتترك إطنابًا نفسيًّا يفيض ويمتد ، أرأيت إلى الاقتصاد على قوله : « فطلبت منها » دون أن يبين المطلوب ! وعلى قوله « فقمت » متحرجًا أن يقول مستحييًا من نفسى ، مستجيبًا إلى هاتف الضمير ، ثم أرأيت إلى هذا الكناية البديعة : اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه ! كل ذلك دعوة خالصة مقنعة إلى العفة وصيانة المحارم تجذب بتأثيرها الرائع نفس السامع ، فتقوم مقام عشرات من الخطب المنبرية فى التصون ، والعفاف ! ثم تتفرج الغمة إلى حد يبشر بالفرج ، فيشير الحديث إلى ذلك بقوله عقب المناجاة الحارة الصادقة : ففرج !

ويتابع النص النبوى قوله : وقال الثالث : اللهم إنى استأجرت أجيرًا بفرق أرز فلما قضى عمله قال ، أعطنى حقى ، فعرضت عليه فرغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاتها ، فجاءنى فقال : اتق الله ، فقلت : اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فقال : اتق الله ولا تستهزئ بى ، فقلت إنى لا أستهزئ بك ،

فخذه فأخذه . فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فأفرج ففرج الله ، وفى رواية فخرجوا يمشون ،.. رواه الشيخان .

مناجاة ثالثة ترسم مفاجأة غريبة ! أجير كان يطمع فى قدح من الأرز فقط ، يسارع إلى طلبه فيقول له صاحبه : اذهب إلى تلك البقرة ورعاتها فخذ ، فلا يصدق إطلاقًا ، ويصيح أتستهزئ بى ؟ ثم يجد الجد دون الهزل ، فيصبح صاحب البقرة والرعاة ، أى دعوة إلى المحافظة على حق الأجير أقوى ممّا رسَمَتْه القصة فى فصلها الأخير ! وأخيرًا جاءت النتيجة النهائية سارة مطمئنة ؛ إذ كشف الله الصخرة ، فخرجوا يمشون !

لقد التقت خيوط القصة لتؤدى إلى نسيج قوى متماسك يقبض عليه القارئ بيده معجبًا ! فالطاعات تفرج الكربات ، والعمل الصالح ينفع صاحبه فى المأزق الحرج ! والقصة بصياغتها القوية نمط رائع من الأدب ؛ يؤكد أن الفن فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين حين يشيد بمبادئ الرحمة والعفة والحق والإنصاف ! وإن محمدًا ﷺ حين جعل الأقصوصة من عدده التى يغزو بها المشاعر ، ويعبئ النفوس إنما اعتمد على سلاح قوى نفاذ ، وقد أجاد استعماله بما أبدع فى قصصه من تصوير وتلوين !!

وإذا كانت المناجاة فى أقصوصة الصخرة هى الأداة التى تنطق بالحوادث ! فإن الحوار فى أقصوصة أخرى يكون اللون المختار لتأدية ما يهدف إليه الرسول من معان ، وإذا كان الحوار مصدر متعة وطرافة فى بعض الآثار الفنية ، فإنه يكون فى بعضها الآخر مثار فضول وعبث ؛ إذ يندفع الكاتب إلى ما يشبه اللجاج ، وقد ترك اثنين يتصارعان فى تحد متعسف وكل يحاول أن يتشبث برأيه ، والحوار فى قصة نبوية لن يأخذ غير سمته الرفيع ؛ إذ يدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة فى إيجاز لماح ، هذا إذا كان الحوار بين إنسانين عاديين ، فكيف به إذا كان بين الله وملائكته المقربين !

لقد جاءت أحاديث مختلفة تشير إلى ألوان مختلفة من الحوار بين الله وملائكته ، كما جاء فى القرآن ما يشير إلى هذا اللون أيضًا من مثل قول الله : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[1] .

وما جاء فى الحديث النبوى من الحوار بين الله وملائكته مع قوة هدفه وعمق مغزاه واضح شفاف ؛ ليستميل إليه القارئ بمجرد النظرة الأولى ، وهنا يظهر فضل الأقصوصة فى جذب الأنظار بما تتضمن من التشويق ، وبما تدفع إلى الاستزادة والاستكثار فى تلذذ واستمتاع لقرب موقعها ولطافة مأخذها ، وحسن تأتيها إلى مكامن النفس ! ويمكننا أن نقدم طرفة نبوية من هذا اللون الجميل :

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن لله ملائكة يطوفون فى الطرق ، يلتمسون أهل الذكر ، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تنادوا : هلموا إلى حاجتكم ، قال : فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا ، فيسألهم ربهم عز وجل وهو أعلم بهم :

- ما يقول عبادى ؟
- قالوا : يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك .
- فيقول عز وجل : هل رأونى ؟
- فيقولون : لا والله ، ما رأوك .
- فيقول تعالى : كيف لو رأونى ؟

(١) سورة البقرة : ٣٠ - ٣٣ .

– فيقولون : لو رأوك كانوا أشد لك عبادة ، وأشد لك تمجيدًا ، وأكثر تسبيحًا .
– فيقول : وما يسألوننى ؟
– فيقولون : يسألونك الجنة !
– فيقول : وهل رأوها .
– فيقولون : لا والله يا رب ، ما رأوها !
– فيقول : فكيف لو أنهم رأوها ؟
– فيقولون : لو رأوها كانوا أشد عليها حرصًا ، وأشد لها طلبًا ، وأعظم فيها رغبة !
– قال : فَمِمَّ يتعوذون ؟
– فيقولون : من النار .
– قال : وهل رأوها ؟
– فيقولون : لا والله ، ما رأوها .
– فيقول : وكيف لو رأوها ؟
– فيقولون : لو رأوها كانوا أشد منها فرارًا ، وأشد لها مخافة !
– فيقول : فأشهدكم أنى غفرت لهم !

فيقول ملك من الملائكة : فيهم فلان وليس منهم ، إنما جاء لحاجة !

قال الله : هم الجلساء ، لا يشقى بهم جليسهم » [(١)] .

فماذا يرى القارئ فى تسلسل الحوار واطراده ؟ وكيف انتقل من شجن لشجن ليعلن فضل الذاكرين ، وخير المسبحين ! وليشمل هؤلاء بنعيم الله ورضوانه ، ثم لا يقتصر عليهم بل يلحق بهم من جالسهم داعيًا بذلك إلى مصاحبة الذاكرين العابدين ! لقد أدى الحوار دوره الأدبى ؛ إذ تمشى بالسؤال والجواب تمشية مستقيمة لا عوج فيها ولا أمت ، ثم أدى دوره الدينى حين بين الرسول فضل الالتجاء إلى السماء ، وتذكر الله فى مجالس العبادة ، ومطارح التسبيح ؟

* * *

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٩٠.

(٢)

وإذا اعتمدت قصة الصخرة على المناجاة ، واعتمدت قصة الذكر على الحوار ، فقد اعتمدت قصة الأعمى والأبرص والأقرع على تصوير الأشخاص ! إذ رسمت لكل شخصية من هؤلاء الثلاثة صورتين متقابلتين ، بينهما من الفروق ما بين السماء والأرض من أبعاد ، وبتأمل الصورتين المختلفتين يتجلى فضل النعمة وهول النقمة! وإذا كنا نجعل المناجاة سمة لأقصوصة والحوار سمة لثانية ، وتصوير الأشخاص سمة لثالثة ، فإنما نقصد السمة الغالبة ولا نعنى أنها انفردت بشىء واحد ، إذ إن كل قصة لا تخلو من أحداث وحوار وغيرهما ! .

وسنعرض الآن القصة الأخيرة كما جاء بها الحديث :

« عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : كان ثلاثة فى بنى إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى ، فأراد الله أن يبتليهم ، فبعث إليهم ملكًا فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ، فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا ؟ فقال : فأى المال أحب إليك قال : الإبل ، أو قال : البقر (شك إسحاق فى الأبرص والأقرع) قال أحدهما : الإبل ، وقال الآخر : البقر ، قال : فأعطى ناقة عشراء فقال: بارك الله لك فيها ! قال : فأتى الأقرع فقال أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ، ويذهب عنى هذا الذى قذرنى الناس ، قال : فمسحه فذهب عنه وأعطى شعرًا حسنًا ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؟ فأعطى بقرة حاملاً فقال : بارك الله لك فيها ، قال : فأتى الأعمى . فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى ، فأبصر به الناس قال : فمسحه فرد الله إليه بصره ، قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ، فأعطى شاة والدًا فأنتج هذان وولد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين ، قد انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى

اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن ، والجلد الحسن والمال بعيرًا أتبلغ عليه فى سفرى ، فقال : الحقوق كثيرة ، فقال له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس فقيرًا فأعطاك الله ، فقال : إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ، فقال : إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت ! قال : وأتى الأقرع فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الحبال فى سفرى فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى ، فقال : قد كنت أعمى ، فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله ، فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم ، فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك . رواه الشيخان [1] .

أقصوصة جيدة مبينة ، تدعو إلى المعروف بالمحسوس المشاهد ، وتأخذ مناظرها من أحوال الناس وملابساتهم ، فبنو آدم منهم الفقير والغنى والأعمى والبصير والأقرع وذو الشعر الجميل والأبرص والصحيح ! وكل مؤوف ينشد السلامة والعافية ، فإذا حققها الله لذوى الضر ثم منحهم المال والخير كان الأجدر بهم ، وقد ذاقوا مرارة الفقر ومضاضة الألم ، أن يعطفوا على من لا يزال رهين أوْصَا به وبأسائه ! وأنى ذلك ؟ وكثير من النفوس تعيث فى الأرض بالفساد إذا وجدت بسطة من الرزق وقليل من عباد الله الشكور ، إلى ذلك الكثير من الناس رمز الأقرع والأبرص فى القصة ، وإلى هذا القليل منهم رمز الأعمى الحيى العطوف! ولن تترك هذه القصة قارئها المتأمل دون أن يسبح سبحًا طويلاً فى عوالم البشر ، ودون أن يذهب بخياله إلى أناس يعرفهم فى مدى حياته رزقوا الصحة بعد المرض ، والغنى بعد الفقر ، والجاه بعد المذلة فكفروا بأنعم الله ، وانطبق عليهم قوله الكريم : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[2] ، وقوله عز وجل :

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢٣٩.

(٢) سورة العلق : ٦ ، ٧ .

﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] ومالنا نبعد وأمامنا قول القرآن فى بعض البخلاء : ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾[2] إن أقصوصة قصيرة تثير هذه الأحاسيس وأشباهها لذات نفع جزيل ، ولا أدرى لماذا تلح على إيحاءات الألفاظ فى القصة أن أخصها ببعض الإيضاح ! لقد أحسن الرسول التعبير عن الصرخات النفسية الكظيمة لدى الثلاثة، حين قال بلسان الأول راجيًا متمنيًا : لون حسن وجلد حسن ويذهب عنى الذى قذرنى الناس ! كلمات هادئة بسيطة ولكنها تحمل زفرات تكاد تتأجج بها الحروف ! وتكشف عن دنيا من السخط يمور بها صدر هذا المريض !

وإذا كان الإحساس البشرى واحدًا لدى كوارث النفس والجسم ، فإن المريض الثانى يجىء متفقًا مع أخيه ؛ إذ يقول فى توجع : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس! ويأتى الثالث فلا يتحدث عن القذارة ، بل يقول فى بساطة : يرد الله إلى بصرى ! وقد دل سلوكه بعد نعيمه على أنه من معدن غير معدن صاحبيه ! ويحسن الرسول تصوير الموقف حين يقف المتنازعان ليقول أحدهما فى تحد هازئ كأنى أعرفك ! ألم تكن أبرص يقذرك الناس ، فيرد عليه صاحبه متشامخًا: إنما ورثت هذا المال كابرًا عن كابر ! فيصفعه الرد المفحم مجابهًا : إنما كنت كذابًا فصيرك الله إلى ما كنت ! أما الأعمى فيحس بمأساته القديمة ، وتكاد تتجسم بهولها الفادح لعينيه ، فيقول فى عطف مشفق ، أجل كنت أعمى فرد الله بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله ، كلمات هادئة معبرة يقرأها القارئ لا ليلم بمعناها الإجمالى كما يطالع كثيرًا من الآثار ، ولكنه يقرؤها لترتسم أمام عينيه ، فكأنه يستعرض شريطًا سينمائيًّا يمثل له الأبرص والأقرع والأعمى فى الخفض ، والشدة والهناء والشفاء حتى إذا انتهت مشاهد الشريط لم ينقطع تيارها

(١) سورة الشورى : ٢٧ .

(٢) سورة التوبة : ٧٦ .

الدافق عن النفس ، بل تفسح مجال التأمل للمعتبر ! وهى بذلك تدفع الأيدى الشحيحة إلى البسط بعد أن زعزعت بها معاقل الشح والإمساك ! وإذا فعل البيان ذلك فما أسماه ، لقد حكى الرسول هذه الأقصوصة عن بنى إسرائيل ، كما يظهر من النص النبوى الكريم ، أفتكون هذه الأحداث قد وقعت فعلاً وألهمها الله نبيه . إن اختيار القوم من بنى إسرائيل لا من أى قوم آخرين قد يدل على ذلك ، ولكن قصصًا أخرى تنسب لرجال من بنى إسرائيل فى كتب الحديث ، ويدل سياقها على أنها سيقت مساق التمثيل ، ومن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ « أنه ذكر رجلاً من بنى إسرائيل ، سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار ، فقال : ائتنى بالشهداء أشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيدًا قال : صدقت، فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج فى البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركبًا يركبها يقدم عليه للأجل الذى أجله ، فلم يجد مركبًا ، فأخذ خشبة فنقرها . فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ثم زجج موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر ، فقال : اللهم إنك تعلم أنى كنت تسلفت فلانًا ألف دينار ، فسألنى كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً فرضى بك وسألنى شهيدًا ، فقلت : كفى بالله شهيدًا فرضى بك ، وإنى جهدت أن أجد مركبًا أبعث إليه الذى له فلم أقدر وإنى أستودعها ، فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف ، وهو فى ذلك يلتمس مركبًا يخرجه إلى بلده ، فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركبًا قد جاء لماله، فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطبًا ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذى كان أسلفه فأتى بالألف دينار ، فقال : والله ما زلت جاهدًا فى طلب مركب لآتيك بمالك ، فما وجدت مركبًا قبل الذى أتيت فيه قال : هل كنت بعثت إلى بشىء؟ قال : أخبرك أنى لم أجد مركبًا قبل الذى جئت فيه ! قال : فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت فى الخشبة ، فانصرف بالألف دينار راشدًا »[1] . فماذا نرى فى هذه

(١) « جواهر البخارى » ، ص ٢٥٣.

الأقصوصة النبوية بعد التدقيق والإمعـان أتكـون الخـشبة الملقـاة فى البحـر حاملـة الألف دينار حقيقة واقعة ! أيوجد من العقلاء من يضحى بهذا المبلغ الضخم ، وهو يعلم أن احتمال وصوله فى حكم المستحيل ! أيوجد من تسوقه الظروف ليقف عـلى سقيف البحر منتظرًا صندوقًا ماليًّا يصل إليه فى عهد لم يعرف البريد كل ذلـك ، ممـا يبعد بالقصة عن واقعيتها إلى مساقها مساق التمثيل ، فتكون بهذا الوضع ذات دلالة خلقية ترجع إلى الوفاء الحتم بعهود القروض والمعاملات ، فـإذا أراد رسـول الله أن يعظم واجب أداء الدين ضربها مثلاً عـلى ذلـك ، والقـرآن نفـسه يـسوق القـصص مساق التمثيل خلوصًا منها إلى العبرة المستفادة من مغزاها ، وقد جاء فى تفسير المنار تعليقًا على حوار الملائكة فى خلق آدم ما نصه (١) :

« وقد علم ممـا تقـدم : أن هـذه الأقـوال والمراجعـات والمنـاظرات ، يفـوض السلف الأمر إلى الله تعالى فى معرفة حقيقتها ، ويكتفون بمعرفة فائدتها وحكمتهـا ، أما الخلف فيلجأون إلى التأويل ، وأمثل طريقة فى معرفة حقيقتهـا ، التمثيـل ، وقـد مضت سنة الله فى كتابه بأن يبرز لنـا الأشـياء المعنويـة فى قوالـب العبـارة اللفظيـة ، ويجلى لنا المعارف المعقولة بالصورة المحسوسة تقريبًا للأفهام ، وتسهيلات للإعلام، ومن ذلك أنه عرفنا بهذه القصة قيمة أنفسنا وما أودعته فطرتنا مما نمتاز به عن غيرنا من المخلوقات ، فعلينا أن نجتهد فى تكميل أنفسنا بالعلوم التى خلقنا مستعدين لهـا من دون الملائكة وسائر الخلق لتظهر حكمة الله فينا ، ولعلنا نشرف على معنى إعلام الله الملائكة بفضلنا ومعنى سجودهم لأصلنا « ويضرب الله الأمثال للنـاس لعلهـم يتفكرون » .

وقريب من أقصوصة سداد الدين فى خشبة البحر ما روته هذه الأقصوصة عن رسول الله :

(١) « تفسير المنار » ، ج ١ ، ص ٢٦٤ ، الطبعة الرابعة .

« عن أبى سعيد الخدرى ﷺ أن نبى الله ﷺ قال : كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه ، فقال : إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا ، فهل له من توبة ! فقال : لا ، فقتله فكمل به مائة ، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على رجل عالم فأتاه ، فقال إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة فقال : نعم ، ومن يحول بينك وبين التوبة ، انطلق إلى أرض كذا ، وكذا ، فإن بها أناسًا يعبدون الله فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء . فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائبًا مقبلاً بقلبه إلى الله تعالى ، وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيرًا قط ، فأتاهم ملك فى صورة آدمى فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيهما كان أدنى فهو له ، فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التى أراد ، فقبضته ملائكة الرحمة .

فهذه الأقصوصة تمثل فضل الله وسعة عفوه وعظيم صفحه عن المذنبين ، فهى تأكيد بالغ لقول الله عز وجل : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[١] . وليس الأمر اختصام ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، ولا قياس مساحة الأرض ليعلموا إلى أى الناحيتين كان الميت أقرب !! إنما كان ذلك كله تجسيمًا لفداحة الجرم وهول الذنب ! وأى ذنب أكبر من أن يقتل مذنب مائة إنسان !! ثم يأتى بعد ذلك التوبة الخالصة يتبعها عفو الله . ونحن فى مجال الحكم الأدبى عليها نجدها قد صيغت بألفاظ واضحة معبرة ، فأحسنت الأداء عما يريده الرسول من معنى ، ثم صورت التوبة المقبولة بعد الجرم الفادح أتم تصوير !!

على أن كثيرًا من هذه القصص النبوية الحكيمة ، الهادية كان نواة لقصص دينى يعتمد على التمثيل الحكيم ، فقارئ كتب التصوف والأخلاق والتربية لكبار علماء

(١) سورة الزمر : ٥٣ .

الإسلام يجد من هذا الضرب أفانين ممتازة وضعها كبار الوعاظ وعلماء التربية والأدب والأخلاق فى الإسلام ! وهى جديرة بعناية الباحثين لتأخذ نصيبها من التاريخ الأدبى العادل ، وإلا فكيف تزدحم كتب السلف الصالح بأقاصيص (الثورى وطاووس ، وعطاء ، وابن السماك ، والأوزاعى ، والحسن البصرى ، والرقاشى ، والمحاسبى) ، ثم لا يهتم ناقد بتحليلها والحكم الناقد لها أو عليها ! فى حين نقرأ أجزاء الأغانى الكثيرة لنهتم بعبث (أبى دلالة ، ووالبة ، ومطيع بن إياس، والأقيشر الأسدى ، وبشار ، وحماد ، وأبى نواس) وأضرابهم ممن لا تذكر لهم غير المساخر والأضاحيك ، لسنا ننكر على مؤرخى الأدب تسجيل ما يعرفونه عن الشعراء والأدباء ، ولكننا ننكر أن يكون التاريخ غير عابئ بأقاصيص ذوى المثل والأهداف ! وكأنهم وحدهم يستحقون الإهمال !

وبعد ، فماذا يشترط ناقدو العصر الحديث فى الأقصوصة الناجحة ؟! ألا يشترطون أن تكون ذات مقدرة على الإيحاء الملهم ؛ إذ تتيح للقارئ أن يستنتج ويحلل بحيث لا تشرح له كل شىء ، بل تتركه يشق بمخيلته آفاقًا من التصوير والتفكير ، وإذ ذاك يقاسم المؤلف بعض إبداعه ، دون أن يدفعه الإيجاز إلى بعض الغموض والإبهام .

كما يشترطون ألا تكون الأشخاص بوقًا يردد آراء الكاتب ، بل يحتفظ لها بكيانها المستقل ، فتأتى أقوالها وأفعالها صادرة عن طبيعة حية فاعلة ، بحيث لا يستغرب من أقوالها وأعمالها ما يكون موضع المبالغة ؟

ثم ألا يشترطون أن يكون للقصة معنى خاص يلح على المؤلف ، ويحاول إبرازه فى صورة جيدة بما يرسم من الانفعالات ، ويصور من مشاهد وأشخاص.

ويشترطون ألا تأتى الحكمة والموعظة فى القصة تقريرية جافة ، وكأنها قاعدة علمية بل توحى بها القصة إيحاء ، وكأنها نتيجة تستلهمُ من السياق ! وإلا استحالت القصة مقالة علمية !

أما شروطهم فى اختيار اللفظ الكاشف والمغزى الهادف ، فأوضح من أن يدل عليه ، فإذا جئنا بهذه الشروط لتطبق على المأثور من الأقاصيص النبوية ، أفنجدها أخلت بأحد هذه الشروط ؟ لنترك الأقصوصة التمثيلية التى تجسم بعض المعانى دون أن يتأكد وقوعها مثل أقصوصتى القاتل التائب ، والصندوق الملقى فى البحر ، ثم فلننظر إلى بقية ما قدمنا من الأقاصيص المرورية عن صاحب الرسالة ، وقد قدمنا أنموذجين مختارين منها : هما : قصة الغار والصخرة ، وقصة المرضى الثلاثة ، فهل تشذ إحداهما عما اشترط المشترطون ! إن ما سقناه من التحليل الكاشف لهما ينطق بسبقهما الفنى . وربما زاد من قيمتها الفنية - غير ما اشترطه الناقدون - أنهما لم تتملقا الغرائز بالحديث عن موضوع رخيص ، بل ارتفعت بالنفوس إلى عوالم الحق والخير والجمال ! وفى ذلك إقناع العقل وإمتاع الوجدان .

* * *

صور القيامة فى أدب محمد

(١)

لأحاديث الرسول عن اليوم الآخر وما أعقبه من جنة ونار ، أهمية بالغة فى الدراسات الأدبية المقارنة ، لأن العربية لم تعرف قبل القرآن وصفًا كاشفًا لليوم الآخر ، وما يتخلله من حساب وميزان ، وصراط ، ثم ما يترتب على ذلك من نعيم وعذاب ! وجاء الحديث النبوى ليوضح ما أجمل القرآن ، وليسهب فى ذكر اليوم الآخر إسهابًا يقربه من العقول ، ويجعله حقيقة واقعة لدى قوم ينكرون البعث ويقولون فيما حكى عنهم القرآن : ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَـٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾[1] .

كان على رسول الله مع هذا الإنكار الجاحد أن يجعل من قضية البعث مجالاً للتأكيد والتثبيت ، ومن وسائل ذلك : أن يستعرض مواقف القيامة موقفًا موقفًا يبدأ من النفخ فى الصور ، وينتهى بوصف مقاعد الجنة ومهاوى النار ! ولابد أن يكون لهذا الاستعراض أدواته البيانية من وضوح الفكرة ، وإبرازها فى صورة رائعة مؤثرة، وإجادة تصوير الموقف المنتظر وتوشيته بأزهى الألوان والأصباغ مما ألهمه نبى الإسلام بإعداد الله وتوجيهه ، لذلك .. جاءت الثروة النبوية من حديث القيامة قيمة جزيلة النفع !! وقد تأثر بها الأدب العالمى فى أوروبا تأثرًا أصبح موضع الاعتراف دون إنكار ، (فدانتى) حين تحدث فى « الكوميديا الإلهية » عن الجحيم قد أتى بصور إسلامية لا تعرفها المسيحية ، وإنما تلوح مصادرها فى آيات القرآن

(١) سورة الصافات : ١٦ - ١٩ .

وأحاديث محمد ، كما سنعرض لذلك بالتفصيل فى الفصل القادم ، (وملتون) حين وصف نعيم الجنة فى الفردوس المفقود ، إنما استلهم القرآن والحديث فى بعض ما نظم ! وعجيب جدًّا أن تحدث مشاهد القيامة فى القرآن والحديث هذا الأثر العالمى ، ثم نجد أحاديث الرسول عنها فى المكتبة العربية تقبع فى حيز ضيق لا يجد المجال من الكتاب للتشريح والتحليل ، وهى من قوة التصوير وعمق الإدراك ، وإثارة العاطفة بحيث استطاعت أن تترك الأدب العربى ، وتطير إلى أبعد الآفاق !

أجل ، لقد وجد لدينا من الأدباء من استغل أحاديث القيامة فى إنتاجه الفنى (كأبى العلاء المعرى) حين أبدع « رسالة الغفران » فتحدث عن جبال الذهب فى الجنة ، وحياض العسل فى الفردوس ، وعن الحور العين فى هيئة الأوز ثم عن شجرة الزقوم وخزنة جهنم بما سنشير إليه قريبًا ! وكان الشاعر الفيلسوف أول أديب عربى استلهم الآثار الدينية فى إبداع رحلة خيالية تحلق فى آفاق اليوم الآخر ، ثم كتب لرسالته الخلود فترجمت إلى اللغات المختلفة وصارت مصدرًا حيًّا من مصادر الأدب والفن ، ولا يهمنا أن نذكر أن المصدر الأول لرسالة الغفران كان الآثار الدينية الإسلامية من قرآن وحديث ! ولقد أفردت كتب خاصة لحديث القيامة فى القرآن ، فلابد أن نعقد فصلاً كاشفًا هنا لتوضيح حديث القيامة فى آثار الرسول العظيم !!

على أننا حين نقرر أن محمدًا ﷺ كان أول إنسان أضاف للأدب العربى صورًا مؤثرة نافذة عن عالم غيبى ، لم يكن الجاهليون على دراية شىء منه ، إنما نقرر أنه بما أضاف للأدب من هذه الصور الجديدة قد أعطى الدليل على نبوته الصادقة ! وإلا فكيف استطاع هذا الأمى الناشئ فى الجزيرة العربية أن يصف أشهى منازل الترف فى الجنة من قصور عالية ، وحياض مترعة ، وحور ناعمة وحدائق نضيرة ، وسندس وحرير ، واستبرق وولدان مخلدين ، وأنهار من عسل مصفى ومن خمر لذة للشاربين، كيف استطاع أن يصور ذلك كإنسان لأول مرة فى الأدب العربى ،

ونقول كإنسان ، لأننا نعلم فضل القرآن فى الحديث عن مشاهد القيامة ! فلابد أن نذكر أنه كان أول أثر فى العربية فتح العيون على آفاق واسعة من عالم الغيب ، وإنها لآفاق تظل على تكرار آياتها وسورها ذات بهجة ونشوة وإمتاع !

لم يكتف القرآن برسم المناظر المحسوسة ، ولكنه أضاف إليها مشاهد الحوار والجدل والنقاش فى الجنة والنار ، فساعد على إكمال صور حية تجيش بالحركة ، والخصام والجدل ، وتقف بالقارئ على صورة حقيقية لما سيكون ، إذ يرى المشهد المؤثر ، ويسمع الرد المحتدم ، والجواب الثاقب ، ثم يصل إلى العاقبة الهائلة حين يرى المتخاصمين قد كبكبوا فى نار جهنم ! ويطول بنا المقام إذ نعرض بعض مشاهد القرآن فى فصل يتحدث عن مشاهد الحديث ، ولكننا نستشهد بمنظر قرآنى واحد لأهل النار ، نعده تمهيدًا كاشفًا لما سيجىء من مشاهد القيامة فى أدب الرسول .

إن الكافرين ليحشرون فى جهنم أفواجًا خلف أفواج ، وإن القادمين لينظرون إلى المقيمين فى تلدد وغيظ ، إذ كانوا مصدر نكبتهم حين أغروهم بالكفر وصدوهم عن الإيمان ! وإن النظرات لتتبادل فى غيظ محنق ، وإن النقاش ليحتدم فى كراهية ، ولدد ، وإن القرآن ليبدع فى تصوير ذلك حين يقول : ﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ الْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ ﴾(1) .

هذا النمط المعجز من الوحى الإلهى ، قد سار البيان المبدع من القول المحمدى على هديه ، فجاء بكثير من الصور الزاهية ، والمشاهد الرائعة ليوم الآجلة ! وقد يستكثر بعض الناس وفرة ما روته كتب السنة عن الرسول فى ذلك ، وهو استكثار

(1) سورة ص : ٥٩ – ٦٤ .

فى غير موضعه ! لأن قضية البعث قضية أساسية فى الدعوة الإسلامية ، ولن تقتنع بها العقول المغلقة فى سهولة ويسر ، فلابد من إكثار الحديث عنها بإفاضة واستيفاء ! وقد قامت الشريعة الإسلامية على أساس الجزاء من ثواب وعقاب فى الدار الآخرة! وإنها فى معتقد الجاهلين ممن لا يؤمنون بالبعث خيال منكر ، فلا مناص إذًا من أن يكثر نبى الإسلام من حديث القيامة ما استطاع ، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين ! وقد نلاحظ تكرارًا لبعض المشاهد فى الحديث بحيث يأتى المشهد الواحد بعبارات مختلفة ، وهذا شىء توجبه حقيقة الدعوة وتحتمه رسالتها الخطيرة ، لأن الرسول قد يتحدث عن المشهد المثير لقوم ، ويجىء آخرون فيحدثهم بما سبق أن قاله آنفًا ليستوى المسلمون فى الإبلاغ ! فتكرار الحديث عن المشهد الواحد مما تحتمه كبيعة الدعوة لا مراء ! وإذا كان المتحدث بشرًا له إدراكه المحدود مهما كان قويًّا بالغ القوة بالنسبة إلى الرسول ، فإنه لا يستطيع أن يعيد المشهد بحروفه وألفاظه كما سبق أن حكاه ، فلابد من اختلاف فى التعبير من المحافظة على اللباب ! وسنعرض الآن صورًا من مشاهد القيامة فى الحديث محاولين أن تكون متساوقة مطردة السياق، جارية مع الزمن تقديمًا وتأخيرًا ، لأن كثيرًا من رواة السنة فى الكتب الصحاح قد بعثروا أحاديث القيامة فى مئات الصفحات خضوعًا لأمور لا تتصل بالترتيب الفنى للأحداث ، فربما ذكر فى أبواب العبادات – مثلاً – ما يدل على الميزان والصراط ؛ لأن المؤلف قد راعى الموضع الفقهى فى كلمة من الحديث دون غيره ! ولا عليه فى ذلك ، ولكننا الآن نستعرض صورًا أدبية لمشاهد حية مؤثرة فنلتزم التسلسل الزمنى ما أمكن !

يبدأ اليوم الآخر بالنفخ فى الصور ، وقد أكثر محمد ﷺ من الحديث عنه ، ونحن نكتفى هنا بمثل قوله عن أبى سعيد الخدرى : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن ، واستمع الآن متى يؤمر بالنفخ فينفخ »(١) أرأيت إلى هذا القول

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٣.

الموجز وما يحمل من صور مثيرة ، إن المعنى الأصلى الذى يقصد إليه الرسول هو أن موعد الساعة قريب ، فهو تأكيد لقوله ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين ، وأشار إلى سبابتيه ، ولكن هذا المعنى الأصلى البسيط قد رسم أجمل رسم أدبى فى موقف إسرافيل وقد التقم البوق قابضًا عليه بفمه ، كأنه يريد أن يأكله ، ثم أخذ يلقى بأذنه إلى السماء منتظرًا الأمر بالنفخ كأنه سيصدر وشيكًا بين آونة وأخرى وهو على أتم أهبة واستعداد للتنفيذ ، فأى تصوير لقرب الساعة ودنو موعدها يبلغ مبلغ هذا القول .

فإذا وقع النفخ فهناك مشهد جديد صوره نبى الإسلام حين قال عن عبد الله ابن عمر :

« ينفخ فى الصور ، فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا ، وأول من يسمعه رجل يلوط إبله ، فيصعق الناس ، ثم يرسل الله مطرًا كأنه الطل فتنبت منه أجساد الناس ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون ، ثم يقال : يا أيها الناس ، هلم إلى ربكم وقفوهم إنهم مسئولون ، ثم يقال : أخرجوا بعث النار ، فيقال : من كم ؟ فيقال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين ، فذلك يوم يجعل الولدان شيبًا » (١) .

أسطر ضئيلة تشير إلى عدة مشاهد ، رجل يفجأ بالصوت ، فيصغى ليتا ويرفع ليتا أى أنه يهش مضطربًا وجلاً ثم يصعق . ورجل يشغل بحوض يعده لإبله فيفاجأ بما يأخذ عليه حياته فيخر صعقًا ، ومطر يتساقط رذاذًا كالطل تنبت به الأجساد لتنهض عنه النفخة الأخرى . ثم يأتى بعد النار من كل ألف لا نجد غير واحد غير خائف . أما الموقف نفسه فيجعل الوالدان شيبًا .

فإذا تركنا النفخ متابعين الأحداث المترقبة فى تسلسلها المعقول ، فإننا ننتقل إلى الحشر ، وما أكثر ما تحدث الرسول عن حشر الناس حفاة عراة كما بدأ الله أول خلق يعيده ! وقد تساءلت عائشة عن العراء فى الحشر نساء ورجالاً فقال النبى فى رواية

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٤.

البخارى : يا عائشة ، الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض ، وإذ ذاك تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده ، كما يكفأ أحدكم خبزته فى السفر [١] ، ثم يطوى الله السموات ، ويأخذهن بيده اليمنى والأرضين ويأخذهن بشماله ، يقول الرسول ذلك وهو يحرك يديه خائفًا وجلاً حتى ظن ابن عمر أن المنبر يتحرك برسول الله [٢] أما الموقف نفسه ، فقد قال فيه رسول الله عن ابن عمر :

« تدنى الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل ، فيكون الناس على قدر أعمالهم فى العرق ، فمنهم من يكون إلى كعبه ، ومنهم من يكون إلى ركبتيه ، ومنهم من يكون إلى حقويه ، ومنهم من يلجمه العرق إلجامًا ، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه » [٣] .

أرأيت بحرًا يعوم فيه الناس ، وقد اختلف ارتفاع موجه صعودًا وهبوطًا وفق ما قدمه السابحون ، فمن واقف فى الماء إلى كعبيه ، ومن غائص إلى ركبتيه أو خصره، ومن ملجم لا يجد من العرق متنفسًا . إذ يلجمه الماء إلجامًا . وحرارة الشمس اللاهبة فوق الرءوس دانية بشواظها اللفاح . أى موقف هذا الذى صوره البيان فى أقرب لفظ وأيسره دون افتعال !

أما أحاديث الشفاعة ، فما أروعها وما أشد تأثيرها ! كل حديث يمثل قصة شائقة ذات عرض وحوار وأحداث ، وقد تكررت فى كتب الأحاديث كما تكررت قصص الأنبياء فى القرآن ، لكل قصة مساق خاص ومغزى خاص ، وهدف خاص وإن ظن الغافل أنه حديث معاد .. وإذا كان المسرح لأحاديث الشفاعة هو ساحة العرض فما أهوله مسرحًا تزيغ به الأبصار وتبلغ القلوب الحناجر ! فهو فى حاجة إلى متحدث بليغ ينقله بألوان معبرة من الحروف والكلمات لا تتاح لغير مبين قدير ،

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٨٩.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٣٩٠.

وإن مشاهده لتتراءى فى مخيلتك حين تقرأ أن الناس جزعون زائغون تائهون يبحثون عن آدم ، فيقولون : أنت آدم أبو الخلق ، خلقك الله بيده ونفخ من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، اشفع لنا عند ربنا حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول آدم : لست هناكم. ويذكر خطيئته فيستحى ربه منها ثم يشير عليهم أن يأتوا نوحًا.

فتفر الجموع إلى نوح هلعة متوسلة فيقول ما قال آدم لست هناكم ، ويذكر دعوته التى قال فيها رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا ، ثم يشير عليهم أن يذهبوا إلى إبراهيم .

فيتكرر المنظر ويسرعون إلى خليل الرحمن إبراهيم ، فيقول : لست هناكم ، عليكم بموسى :

ويتوالى الذهاب إلى موسى فيعتذر ويشير إلى عيسى ، فيقصدونه فيقول عليكم بمحمد فيأتون خاتم المرسلين باكين صارخين ، قال محمد فى حديثه : « فأستأذن على ربى فيؤذن لى ، فإذا أنا رأيته وقعت ساجدًا فيدعنى ما شاء الله ، فيقال : يا محمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأرفع رأسى ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ، ثم أشفع فيحد لى حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، ثم أعود فأقع ساجدًا فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ثم يقال لى : ارفع يا محمد ، قل تسمع ، سل تعطه ، اشفع تشفع ، فأحمد ربى بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحد لى حدًّا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ، قال : فأقول : يا رب ما بقى فى النار إلا من حبسه القرآن أى وجب عليه الخلود » (١) .

ولقد اقتضبنا الحديث السابق باقتطاف نماذج من حواره الحائر بين الخلق والأنبياء . ولن تكمل البراعة الفنية لأثر أدبى إلا إذا سجل دون اقتضاب ، وأخالنا لا نعد كثيرًا على باحث يشخص أدب الرسول تشخيصًا أدبيًّا أن يذكر نصًّا كاملاً من نصوصه فى رسالة طويلة تتعمد بيانه النبوى بالتشريح والتحليل ، مهما طال

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٢.

الحديث . إن الذى يتحدث عن شاعر (كعمرو بن كلثوم) يذكر معلقته الطويلة دون حرج أفتكون معلقة عمرو بن كلثوم أو سواه أثقل فى ميزان الأدب من حديث نبوى يرسم مشاهد الحشر الأخروى حتى نتحيفه بالاقتضاب . لننقل هنا النص النبوى على طوله النسبى ، ففى ترتيبه المسلسل ، وصوره المتلاحقة وألفاظه المعبرة ما يقدم لنا وثيقة صحيحة من وثائق الوصف النبوى حين يتسع المجال فيتدفق الينبوع .

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن ناسًا قالوا : يا رسول الله ، هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال : نعم . ثم قال : هل تضارون من رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب ؟ وهل تضارون رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب ؟ قالوا : لا يا رسول الله ، قال : ما تضارون من رؤية الله تعالى يوم القيامة إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ، إذا كان يوم القيامة أذن مؤذن لتتبع كل أمة ما كانت تعبد ، فلا يبقى أحد ، كان يعبد غير الله تعالى من الأصنام والأنصاب إلا يتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله من بر وفاجر وغير أهل الكتاب ، فتدعى اليهود فيقال لهم ما كنتم تعبدون ؟ قالوا : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى النار ، كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فيتساقطون فى النار ، ثم يدعى النصارى فيقال لهم : ما كنتم تعبدون قالوا : كنا نعبد المسيح ابن الله فيقال لهم : كذبتم ما اتخذ الله من صاحبة ولا ولد ، فيقال لهم : ماذا تبتغون ؟ فيقولون : عطشنا يا ربنا فاسقنا ، قال فيشار إليهم ألا تردون فيحشرون إلى جهنم كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فيتساقطون فى النار ، حتى إذا لم يبق إلا من كان يعبد الله تعالى من بر وفاجر أتاهم رب العالمين سبحانه فى أدنى صورة من التى رأوه فيها ، قال : فماذا تنظرون ؟ نتبع كل أمة ما كانت تعبد ، قالوا : يا ربنا فارقنا الناس فى الدنيا أفقر ما كنا إليهم ، ولم نصاحبهم فيقول : أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله لا نشرك بالله شيئًا مرتين أو ثلاثًا حتى أن بعضهم ليكاد أن ينقلب ، فيقول : هل بينكم وبينه آية فتعرفونه بها ، فيقولون : نعم ، فيكشف عن ساق فلا

يبقى من كان يسجده إلا جعل ظهره طبقة واحدة . كلما أراد أن يسجد خر على قفاه، ثم يرفعون رءوسهم وقد تحول فى صورته التى رأوها فى أول مرة ، فقال : أنا ربكم فيقولون : أنت ربنا ، ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة فيقولون : اللهم سلم سلم ، قيل : يا رسول الله ، وما الجسر ؟ قال دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد فيها شويكة ، يقال لها : السعدان ، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم حتى إذا خلص المؤمن من النار فوالذى نفسى بيده ما منكم من أحد بأشد مناشدة لله فى استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين فى النار ، يقولون : ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون ، فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم ، فتحرم صورهم على النار ، فيخرجون خلقًا كثيرًا قد أخذت النار إلى نصف ساقيه وإلى كبته ثم يقولون : ربنا ما بقى فيها أحد ممن أمرتنا ، فيقول: ارجعوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقًا كثيرًا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها أحدًا مما أمرتنا به ، ثم يقول : ارجعوا ، فمن وجدتم فى قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقًا كثيرًا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها خيرًا – وكان أبو سعيد الخدرى ﷺ يقول : إن لم تصدقونى بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمًا** ﴾[1] – فيقول الله عز وجل: شفعت الملائكة ، وشفعت النبيون ، وشفع المؤمنون ، ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قومًا لم يعملوا خيرًا قط ، عادوا حممًا فيلقيهم فى نهر فى أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ، ما يكون إلى الشمس أصيفر أو أخيصر ، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ، فقالوا : يا رسول الله ، كأنك كنت

(١) سورة النساء : ٤٠ .

ترعى بالبادية ، قال : فيخرجون كلؤلؤة فى رقابهم الخواتم يعرفهم أهل الجنة ، هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين ، فيقول : لكم عندى أفضل من هذا ، فيقولون : يا ربنا أى شىء أفضل من هذا . فيقول : رضاى فلا أسخط عليكم بعده أبدًا » رواه الشيخان [١] .

ما الذى نراه فى هذا السرد الأدبى الشائق يبتدئ بالسؤال الواضح ، هل تضارون فى رؤية الشمس بالظهيرة صحوًا ليس معها سحاب ؟ هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر صحوًا ليس فيها سحاب . ما تضارون فى رؤية الله تعالى إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما ؟ أليس التصوير التمثيلى هنا أدل على المراد وأهدى إلى قرب إمكانه وتحقق وقوعه دون اعتراض ، وهذا أحد ما يهتم به البيانيون !

ثم ما هذا الحوار المفحم بين عبدة غير الله ؟ وكيف عبر عن معانٍ كثيرة بألفاظ معدودات ، ثم انتهى بهؤلاء إلى جهنم وكأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ؟ أليست هذه صورة جميلة تذكرنا بقول الله تعالى عنها : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾[٢] وكلتا الصورتين تنطق باحتدام اللهيب !

والجسر ما صفته . وماذا يعترضه من الأهوال ، وما حال العابرين على اختلاف منازلهم على الصراط ؟ ألم يتكفل الحديث بتصوير ذلك أبدع تصوير حين قال عنه دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسك فيمر المؤمنون كطرف العين ، وكالبرق، وكالريح ، وكالطير ، وكأجاويد الخيل ، والركاب ، فناج مسلم ، ومخدوش مرسل ، ومكدوس فى نار جهنم ، أهناك وصف للصراط أبلغ مما قال نبينا محمد ؟ وقد تحدث عنه فى أقل من ثلاثة أسطر حديثًا يرج النفس بأهواله الثقال !

* * *

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٠ .

(٢) سورة الملك : ٨ .

(٢)

أما رحمة الله فقد تجلت فى هذا الحوار البديع ، بين الله وعباده بشأن المعذبين حين أخرجوا من كان فى قلبه مثقال دينار أو نصف مثقال ذرة من خير ، وحين أخرجوا بعض من لم يعملوا خيرًا بالمرة ، وقد صاروا حممًا فحين قذفوا فى نهر الحياة خرجوا كما تخرج الحبة فى حميل السيل ، ثم أصبحوا كاللؤلؤة فى رقابهم الخواتيم وهم عتقاء الله من النار ، أما وصف النبى محمد لحبة السيل من خضراء وصفراء وبيضاء فكان موضع العجب من السامعين حتى سألوه فى دهشة : كأنك كنت ترعى بالبادية ! أليس الحديث على طوله النسبى صورة فنية رائعة تحدر بها لسان أديب مطبوع ! ثم أليس هؤلاء الذين نقلوا بعض صوره الخالدة إلى قصصهم الفنى فى الشرق والغرب معذورين حين وردوا أعذب مورد من البيان الرفيع ؟

فإذا انتهى الموقف ، وأزلفت الجنة للمتقين ، وبرزت الجحيم للغاوين . قدم لنا الأدب النبوى فى وصف الجنة والنار ما لا يسبقه فى دنيا البيان غير وصف القرآن الكريم ! وقد تحدث الرسول عن كلتيهما بإسهاب شاف واف ، وحديث الرسول عن دار الثواب ودار العقاب مما يجب أن يتكرر فى عظاته دون ملال ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى صدر هذا البحث ، ولكن البراعة أن يضطر الرسول إلى إعادة ما قال ، فما يسأم كما يسأم المعيدون . بل يحاول أن يظهر حديثه المعاد فى ثوب بيانى جديد ، ليضيف بعض الطريف منه إلى تليد ما قال ، والإنسان منا يتضايق عادة حين يضطر إلى إعادة خطبة قالها أو صياغة مقال سبق أن نشره إذ يشعر فى أعماقه أن السامع فى موقف الخطبة ، والقارئ فى مجال المقالة سيفتقد الجديد دون أن يعثر عليه، ولكن الداعية المبين يجد من أدوات البيان لديه ما يذهب عنه التضايق ، فيعرض الحديث فى ثوب أقشب وأبهج ، هكذا جاء المتكرر من أحاديث الجنة والنار فى بيان خاتم الأنبياء .

نسمع أن بالجنة « ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »[١] هذه العبارة الذائعة الشائعة أثر من آثار الرسول ﷺ فى وصف الجنة ، وقد سارت مسير المثل شهرة واستضافة ، وهى على قلة ألفاظها لا تدع فى النفس بعدها للمؤمن من مأمل ، فكل ما أمكن أن يتخيله التصور الإنسانى من نعيم ومتعة يندرج تحتها لا محالة ، وذلك بعض ما يعطيه الأدب البليغ إذ يشبع النفس امتلاء وارتواء بألفاظ معدودات ، وللرسول فى ذلك مشابه كثيرة ، ومنها فى وصف الجنة أيضًا هذا الحديث المعبر ! « لقاب قوس أحدكم فى الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو غربت »[٢] إن الشمس لتطلع وتغرب على الدنيا جميعًا بما تحوى من فنون البهجة والإمتاع ، وكل ما يتطلب .

وإن كل مستمع من الناس لا محالة مأخوذة ببعض ما رآه وشاهده فى الحياة ! فإذا كان قاب قوس فقط فى الجنة خيرًا مما طلعت عليه الشمس أو غربت ! فأى دهشة تستولى عليه وهو يعد من طيبات الحياة أفانين وأفانين !!

أما بناؤها وحصباؤها وترابها ، فقد سأل أبو هريرة رسول الله عن ذلك كله ، فقال من حديث وصفى رائع :

« بناؤها لبنة من فضة ، ولبنة من ذهب ، وملاطها المسك الأذفر وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت وتربتها الزعفران » . ثم أعقب ذلك بقوله : » من دخلها ينعم ولا يبؤس ، ويخلد ولا يموت ، لا تبلى ثيابهم ولا يفنى شبابهم »[٣] أما درجاتهم فكما قال الرسول فى حديث آخر : « فى الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، ومنها تفجر أنهار الجنة الأربعة ، ومن فوقها يكون العرش ، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس »[٤] .. أما متعة العين والشم والإحساس فكما قال عنها

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٥ .
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٦ .
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٧ .
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٢٧ .

الحديث النبوى « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما يتراءون الكوكب الدرى العابر فى الأفق من المشرق أو المغرب » [١] وإن فى الجنة لسوقًا يتأتونها كل جمعة فتهب ريح الشمال فتحثو فى وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسنًا وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم حسنًا وجمالاً ، فيقولون : وأنتم والله قد ازددتم حسنًا وجمالاً [٢] كما أن أهل الجنة إذا دخلوها نزلوا بفضل أعمالهم ، ثم يؤذن فى مقدار يوم الجمعة من أيام الدنيا فيزورون ربهم ، ويبرز لهم على عرشه ويتبدى لهم فى روضة من رياض الجنة ، فتوضع لهم منابر من نور ، ومنابر من لؤلؤ ، ومنابر من ياقوت ، ومنابر من زبرجد ، ومنابر من ذهب ، ومنبر من فضة ، ويجلس أدناهم وما فيهم من دنىء على كثبان المسك والكافور ، وما يرون أن أصحاب الكراسى بأفضل منهم مجلسًا [٣] ، أما غيد الجنة فإن فيها « لمجتمعًا من الحور العين يرفعن بأصوات لم يسمع الخلائق مثلها تُقلن : نحن الخالدات فلا نبيذ ، ونحن الناعمات فلا نبؤس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، وإن الغادة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة ، حتى يرى مخها وذلك بأن الله يقول : « كأنهم الياقوت والمرجان » فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه ، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت على الأرض لأضاءت ما بينهما ولملأت ما بينهما ريحًا» [٤] .

إننا نسوق هذه الأوصاف النبوية لنقرر أنها جديدة فى الأدب العربى لم يهتف بها لسان قبل النبى محمد ! وإذا كنا نعد من معجزات الإسلام إتيانه بشريعة محكمة التنزيل ، صالحة لكل زمان ومكان على وجه لم يسبق ، فلماذا لا نعد من معجزات البيان العربى أن يفد القرآن والحديث عليه بصورة أدبية كانت عليه بمنأى بعيد ! إنا

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٣٣.
(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٤٠.

نذكر (امرأ القيس) فنعد من فضله البيان العربى أنه أول من بكى واستبكى ، ووصف المرأة بأنها بيضة خدر ! فأى شىء أوصاف المرأة فى شعر امرئ القيس إذا قيست بأوصاف المرأة فى الحديث عن الحور العين ! لقد رحل (الأعشى والنابغة) إلى بعض الملوك ووصفا مطارف النعيم لديهم ، فهل قال (النابعة) فى الخورنق وأبهائه وغرفه وجداوله ما يوازى ذرة مما جاء فى الأثر النبوى عن قصور الجنان ؟ إن المنابر من نور والكثبان من مسك ، وشفافية الحجرات بحيث يتراءى أهل الجنة مساكن رفقائهم ، وإن الريح والنور يطبقان ما بين الأرض والسماء كل ذلك صورة جديدة فى الأدب ! أفنغض الطرف عنها لنتتبع أمثال وبيضة خدر ، وصدر مثل حق العاج واهمين أن ذلك أبلغ ما قيل فى أدبنا القديم !

هذا كثير من قليل مما نضح به أدب محمد بن عبد الله من مطارف زاهية على البيان !

والنار ! هل نملك أعصابنا حين تسمع ما سطره الحديث النبوى عنها من الأهوال ؟

إنها فى وضعها الطبيعى كما تحدث عنها الرسول قد » أوقدت ألف سنة حتى احمرت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت ، فهى سوداء مظلمة [١] ، وإن الصخرة العظيمة لتلقى من شفير جهنم فتهوى فيها سبعين عامًا ، وما تفضى إلى قرارها [٢] ، وإن الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخ يتواطؤه الناس ، وإن شفته العليا لتتقلص حتى تبلغ وسط رأسه، وتستر شفته السفلى حتى تضرب سرته [٣] ! - أى هول هذا يا رباه ! وإن أهل النار يلقى عليهن الجوع فيعدل ما هو فيهم من العذاب فيستغيثون فيغاثون

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥١.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٢.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٣.

بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذى غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب أنهم كانوا يجيزون الغصص فى الدنيا بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلاليب الحديد فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخلت بطونهم قطعت ما فى بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيقولون : ﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾[1] ، فيجىء مالك فيقولون له : ﴿ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَ ﴾ فيجيبهم : ﴿ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾ فيقولون لأنفسهم : ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمًا ضَآلِّينَ ۝١٠٦ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ فيجيبهم : ﴿ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾[2] .

هذه بعض أحاديث النار ، وما بنا أن نستطرد فنذكر شهادة أعضاء الجسم من يد ورجل وجوارح على الإنسان ، فذلك ما اشتهر بين الواعظين ! إنما نسرد ذلك عمدًا لنذكر أن المتحدثين عن الجحيم من أئمة الأدب العالمى قد استغلوه فراج لديهم ، وأصبح فنًّا عالميًّا ! بينما سكت مؤرخو الأدب العربى عن تقديره الصحيح ، بل إن كثيرًا منهم قد احتفل بمشاهد القيامة فى « رسالة الغفران » أكثر مما احتفل به فى حديث رسول الله ، وهو مع كتاب الله مصدر أبى العلاء دون نزاع !

على أن أبدع ما فى مشاهد الجنة والنار : حوار الله لعباده ، فقد عبر رسول الله عن أعمق المعانى النفسية بين البشر عن طريق حوار تعبيرًا لم يدع مزيدًا لمستزيد ، والحوار فن أدبى له أساتذته وأعلامه ، وهو فى مشاهد القيامة لقطات تصويرية بارعة تكتفى باللمح والرمز والكناية عن الكشف الواضح بالتصريح . وذلك ما

(١) سورة غافر : ٥٠ .

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٦.

يكسب الموقف متعة وعمقًا ؛ لأن الحوار إذا تحدث عن كل شيء ولم يترك للقارئ أن يستشف ويستنتج فقد أوثق أمامه عالم التصور ، وقيد أساسه بالمنظور الملموس ، أما إذا مال إلى الإيماء والرمز فقد أعطى للقارئ الناضج مفتاحًا يلج منه عشرات الأبهاء ومئات الحجر ليرى فى كل زاوية ما يصوره خياله من لوامع وإيماض ! والأدب العالى فى أرفع أنماطه يعتمد كثيرًا على هذا الإيحاء الوامض ليقدم فى السطور القليلة عشرات الخواطر والمشاهد والأحاسيس ، وفق تصور القارئ ودرجته من التوضيح الذهنى والإشعاع التصويرى ! ولك أن تنظر إلى هذا المشهد الأخروى كما رسمه الرسول :

« عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ » قال : آخر من يدخل الجنة رجل ، فهو يمشى مرة ويكبو مرة وتلسعه النار مرة ، فإذا جاوزها التفت إليها ، فقال : تبارك الذى نجانى منك ، لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، فترفع له شجرة فيقول : أى رب أدننى من هذه الشجرة فلأستظل بظلها وأشرب من مائها ، فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم . لعلى إن أعطيتكها سألتنى غيرها ، فيقول : لا يا رب ، ويعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره ؛ لأنه يرى ما لا يصبر عليه ، فيدنيه منها ، فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة هى أحسن من الأولى فيقول : أى رب أدننى من هذه لأشرب من مائها وأستظل بظلها لا أسألك غيرها ، فيقول : يا ابن آدم ، ألم تعاهدنى ألا تسألنى غيرها ، لعلى إن أدنيتك منها تسألنى غيرها ، فيعاهده ألا يسأله غيرها ، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه ، فيدنيه منها فيستظل بظلها ويشرب من مائها ، ثم ترفع له شجرة عند باب الجنة هى أحسن من الأوليين ، فيقول : أى رب أدننى من هذه لأستظل بظلها وأشرب من مائها لا أسألك غيرها ، وربه يعذره لأنه ما لا صبر له عليه فيدنيه منها ، فإذا أدناه منها فيسمع أصوات أهل الجنة ، فيقول : أى رب ، أدخلنيها فيقول : يا ابن آدم ما يضيرنى منك ، أيرضيك أن أعطيك الدنيا ومثلها معها ، قال :

يا رب ، أتستهزئ منى وأنت رب العالمين ؟ فيقول : إنى لا أستهزئ منك ، ولكنى على كل شىء قادر» رواه مسلم [1] .

فهذا المشهد الرائع له أكثر من دلالات ، فمع دلالاته على سعة عفو الله ورحمته فإنه بحواره الجذاب يرمز إلى تجدد الآمال فى النفس البشرية ويعالج واقعًا محسوسًا لدى الإنسان فى كل عصر وفى كل مكان ، ألا يتمنى الإنسان شيئًا فإذا حققه صبا إلى ما فوقه ، فإذا حققه تجددت الصبوة إلى شىء آخر ، وهكذا نظل فى سباق مع الأمانى حتى تنفد الحياة . هذه الحقيقة الإنسانية الخالدة المتكررة قد أفصح عنها الحديث فكانت إحدى دلالاته الرمزية الكبيرة بمغزاها العريق ، أما اختيار الألفاظ لرسم المعانى فلا أبدع منها ولا أروع ! هذا الرجل الذى خرج من النار مستغيثًا صارخًا رأيناه يمشى مرة ويكبو مرة وتسفعه النار مرة ، فإذا ما جاوزها التفت إليها فقال : تبارك الذى نجانى منك ! لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، ألا يذكرنا هذا بما نشاهد فى دوامة هذه الحياة إذ يخرج الإنسان من أحد مآزقه ، كمعركة حربية أو سجن حكومى أو استجواب فى محكمة ، فلا يكاد يصدق أنه خرج . فهو يلتفت ويكبو ويتعثر حتى إذا شم ريح الحرية فى الحياة الفسيحة عد نفسه ذا شأن كبير جدًّا بحريته التى ردت إليه ، فيقول : لقد أعطانى الله شيئًا ما أعطاه للأولين والآخرين ، أما تدرج الآمال من صغير إلى كبير إلى أكبر حتى تصل بصاحبها إلى منتهى الآمال فى الجنة ، فذلك ما أجاد الحديث النبوى تصويره ، فمن مبلغ عشاق الأدب الرفيع فى كل أمة وفى كل لغة أن لدينا من فرائد المشاهد الأدبية فى آثار محمد بن عبد الله ما نعجز أن نراه لدى المتنطسين من مشاهير الكتاب لعلهم يقرءون !

أما قصة جبريل مع الجنة والنار حين خلقها الله ، فمن أحسن ما تركه البيان النبوى من قصص ، حيث استطاع محمدٌ أن يومئ إيماءً قويًّا إلى ما يكتنف الجنة من

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٦٣.

مصاعب ثقيلة على النفس حين تفطم عن الشهوات وتقنع بالحلال اليسير ، ثم إلى ما يكتنف النار من مغريات جاذبة شهية لدى النفس حين تقبل على الملذات الوبيئة مستمرئة مستمتعة ! تلك معان دقيقة غاية الدقة ، ولكنها برزت لامعة واضحة فى قول نبى الإسلام :

« عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : لما خلق الله الجنة والنار ، أرسل جبريل إلى الجنة فقال : انظر إليها وإلى ما أعددته لأهلها ، فجاءها ونظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها ، فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع أحد بها إلا دخلها ، فأمر بها فحفت بالمكاره ، فقال : ارجع إليها فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها ، فرجع إليها ، فإذا هى قد حفت بالمكاره فرجع إليه فقال : وعزتك لقد خفت ألا يدخلها أحد ، قال : اذهب إلى النار فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فإذا هى يركب بعضها بعضًا ! فرجع إليه فقال : وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها ، فأمر بها فحفت بالشهوات ، فقال : ارجع إليها ، فرجع إليها فنظرها ، فقال : وعزتك لقد خشيت ألا ينجو منها أحد إلا دخلها [١] .

إن بلاغة الإيماء فى هذا الأثر مع إيجازه الموحى لتتسع إلى صفحات كثيرة إن سيقت مساق الشرح والتفسير ! ولن تأتى الأقصوصة الهادفة فى سياق أحسن منها فى هذا السياق !

على أن لكل من أهل الجنة وأهل النار نهاية محتومة لا شىء بعدها ، فلابد أن يطمئنوا إلى مصيرهم الخالد نعيمًا أو جحيمًا ، فيعلموا أن كل إنسان قد أخذ مكانه ، وأنهم خالدون خالدون ، وأن الموت قد مات بعد الجنة والنار ! فلا خوف منه لفريق الجنة ولا راحة فيه لفريق السعير !! لم يتحدث الرسول عن ذلك حديثًا تقريريًّا فيما نعرض ، ولكن تحدث عنه حديثًا تصويريًّا فقال :

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٦٦ .

« عن ابن عمر ، عن رسول الله : « إذا أدخل الله أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، أتى بالموت فيوقف على السور الذى بين الجنة والنار ، ثم يقال : يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ، ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون بالشفاعة ، فيقال لأهل الجنة وأهل النار ، هل تعرفون هذا ؟ فيقولون : قد عرفناه ، وهو الموت الذى وكل بنا ، فيضجع فيذبح على السور الذى بين الجنة والنار ثم يقال : يا أهل الجنة خلود لا موت ، ويا أهل النار خلود لا موت . ثم قرأ : ﴿ **وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ** ﴾[1] .

* * *

(١) سورة مريم : ٣٩ ، « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٩.

تأثير حديث المعراج فى الأدب العالمى

يتابع علماء الأدب المقارن الصلات القريبة والبعيدة بين الآثار الأدبية فى لغات العالم ، فيعقدون موازنات دقيقة بين ما يلمسون تشابهه من هذه الآداب ، فهم يتتبعون الأفكار والأخيلة ، ناقدين محللين ، وكثيرًا ما ينتهون إلى الحكم بالتأثير القريب أو البعيد فى أثر من الآثار الذائعة ، حين يحللون عناصره الأدبية فيجدون بينها أصولاً تمت إلى أثر أجنبى آخر ! وهذا شىء طبيعى فى دنيا القول ، لأن الأفكار الأدبية والعلمية تتناقل وترحل فى كل مكان ، والأديب أو العالم قارئ مثقف يلتقط ما يعثر عليه إن قريبًا وإن بعيدًا ، وهو لا محالة متأثر بروائع ما يقرأ ، ولا يستطيع أن يمنع عن تفكيره وخياله ما يرفدهما بالقوة والنماء ، وقد كان حديث المعراج الذى حكاه نبى الإسلام أحد هذه الآثار الأدبية الخالدة التى امتد تأثيرها إلى آداب أمم مختلفة ! والتى أحدثت دويًّا عاصفًا بين علماء النقد المقارن حين لمسوا خيوطها البارزة فى أكثر من نسيج فنى ، ولعلنا نومئ إلى ذلك ببعض التفاصيل !

إن كتب الأحاديث النبوية تروى عدة آثار خاصة بليلة المعراج ، فهناك روايات سنية عن أنس بن مالك تلقى بعضها عن أبى ذر ، وبعضها الآخر عن أبى هريرة ، وعن مالك بن صعصعة الأنصارى ! وهناك آثار شيعية عن الإمام زيد ابن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، تلقاها عن أبيه عن جده عن على عن رسول الله ! وهناك روايات لا تصل إلى درجة ما روى عن أنس وزيد رضى الله عنهما ! بل تظهر عليها آيات الوضع وعلائم الاضطراب ، ومن كل ذلك امتد حديث المعراج امتدادًا كبيرًا ، وأحيط بأقوال ضخمة للمفسرين والمحدثين والمؤرخين ! بحيث لو جمع ما قيل بصدد ذلك لشغل كتابًا ضخمًا برأسه ! ثم جاء بعض العلماء فوصلوا الأحاديث المختلقة فى رواية واحدة ، وجعلوا منها نسقًا

متصلاً متلاحقًا ، بل إنهم تعدوا أحاديث المعراج إلى ما دار حولها من الشروح ثم انتقل هذا الحشد إلى الأجيال المتلاحقة ، فقرأه العلماء والأدباء ، وترجم إلى اللغات الأجنبية ، فأحدث دويه الرنان !

ونحن الآن .. فى مجال إبراز التأثير القوى لحديث المعراج فى الأدب العربى ، والآداب المختلفة نضع فاصلاً بين ما صحت روايته عن الرسول أو رجحت ، وبين ما ضعفت نسبته إليه لأسباب ذكرها المحدثون ! نضع هذا الفاصل لنحكم بأن ما صحت نسبته إلى الرسول كان الأساس الأول لهذه الصورة الجميلة ، عن السماء والأرض والجنة والنار ؛ إذ إن محمدًا ﷺ حكى ما شاهده من العجائب حكاية رائعة فتحت أمام الأدباء مجال التصوير الفسيح ! ومن هنا .. كان تأثيره المباشر فى كل رحلة خيالية إلى السماء ، وإلى الجنة والنار ! أما ما ضعفت نسبته إليه ، فقد ساقه الوضاعون متأثرين بحديث المعراج ناسجين على منواله ، فلولا أنهم رأوا الكوى المضيئة بأشعة من حديث محمد ما استطاعوا أن يقولوا شيئًا ! وهنا يكون الحديث الموضوع وليد تأثير من الحديث الصحيح ، فإذا استلهمه بعض الروائيين ، فإنما يردون موردًا اشتق إبداعه وإلهامه من حديث صحيح . ويمكننا إذ ذاك أن نسمى ما ساق الوضاعون من حديث المعراج أدبًا مصنوعًا استلهم البيان النبوى ، ثم نقل تأثيره إلى أدباء العالم ، وهم بإنتاجهم المتشابه يعلنون بلسان النقد أن صاحب الإبداع الأول هو نبى الإسلام لا محالة ! وغيره قد احتذاه .

وإذا كانت رواية أنس بن مالك عن المعراج تلخص حادث المعراج بما هو معروف من مجيء جبريل إلى النبى ، وتقديمه البراق ، وارتقائه إلى السموات السبع، فرؤية آدم ويحيى ، وعيسى ويوسف وإدريس ، وهارون وموسى وإبراهيم ، بعد سؤال وجواب عن القادم والإذن له بالزيارة ، ثم مشاهدة أنوار رب العزة وفرض الصلاة خمسًا بعد خمسين عقب مراجعة تنشد التخفيف .. إذا كانت رواية أنس بن مالك تقف عند ذلك فإن رواية الإمام زيد بن على وهو الفقيه المجاهد الشهيد العلم

الثقة ، تفصل الأمر بوضوح مستوعب ! وهى بعد رواية محترمة عزيت إلى إمام ورع متحرز ، وذلك نصها :

قال على بن أبى طالب : صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الفجر يومًا بغلس ، فلما قضى الصلاة التفت إلينا وقال : أفيكم من رأى الليلة شيئًا . قلنا : لا يا رسول الله ، قال : ولكنى رأيت كأن ملكين أتيانى فأخذا بضبعى ، فانطلقا بى إلى السماء ، فانطلقت فمررت على ملك وأمامه آدمى وبيد الملك صخرة يضرب بها هامة الآدمى، فيقع دماغه جانبًا ، وتقع الصخرة جانبًا ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت ، فإذا أنا بملك وبين يديه آدمى وبيد الملك كلوب من حديد ، فيضعه فى شدقه الأيمن فيشقه حتى ينتهى إلى أذنه ، ثم يأخذ فى الأيسر فليتئم الأيمن ، قلت : ما هذا . قالا لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر من دم يفور كفوران المراجل ، وعلى حافتى النهر ملائكة بأيديهم نار ، كلما طلع طالع قذفوه بها ، فيقع فيه فيشتعل إلى أسفل ذلك النهر ، قال : قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت ، فإذا بيت أسفله أضيق من أعلاه ، وفيه قوم عراه تفور من تحتهم النار فأمسكت على أنفى من نتن ما أجد من ريحهم ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فمضيت فإذا أنا بتل أسود عليه قوم مخبيون تنفخ النار فى أدبارهم ، فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه فمضيت ، فإذا أنا بنار مطبقة موكل بها ملك لا يخرج منها شىء إلا أتبعه حتى يعيده فيها ، قلت : ما هذا ؟ قالا لى : امضه ؛ فمضيت فإذا أنا بروضة خضراء وإذا فيها رجل شيخ جميل لا أجد أجمل منه ، حوله الولدان ، وإذا أنا بشجرة ورقها كآذان الفيلة ، قلت : ما هذا ؟ قالا : امضه ، فصعدت إلى ما شاء الله من تلك الشجرة ، فإذا أنا بمنازل لا منازل أحسن منها ، درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء قلت : ما هذا ؟ قالا لى : امضه ، فمضيت فإذا أنا بنهر عليه جسر من ذهب وفضة وعلى حافة النهر منازل لا منازل أحسن منها من درة وزبرجدة وياقوتة وفيه أقداح وأباريق ، قلت : ما هذا ؟ قالا لى:

انزل فنزلت فضربت بيدى إلى إناء منها ثم غرفت فشربت فإذا هو أحلى من العسل وأشد بياضًا من اللبن وألين من الزبد ، فقالا لى : أما صاحب الصخرة التى رأيت الملك يضرب هامته فيقع دماغه جانبًا وتقع الصخرة جانبًا فأولئك الذين كانوا ينامون عن صلاة العشاء الآخرة ، ويصلون الصلوات لغير وقتها ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما صاحب الكلوب الذى رأيت به ملكًا موكلاً بيده كلوب من حديد يشق به شدقه الأيمن حتى ينتهى إلى أذنه ثم يأخذ فى الأيسر فليلتئم الأيمن ، فأولئك الذين كانوا يمشون بين المؤمنين بالنميمة ليفرقوا ، فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما البيت الذى رأيت أسفله أضيق من أعلاه وفيه قوم عراة توقد من تحتهم النار ، فأمسكت على أنفك من نتن ما تجد من ريحهم ، فأولئك الزناة وذلك نتن فروجهم فهم يعذبون بها حتى يصيروا إلى النار ، وأما التل الأسود الذى رأيت عليه قومًا مخنيين تنفخ النار فى أدبارهم فتخرج من أفواههم ومناخرهم وآذانهم وعيونهم ، فأولئك الذين كانوا يعملون عمل لوط الفاعل والمفعول به فهم يعذبون بهذا حتى يصيروا إلى النار ، وأما النار المطبقة التى رأيت ملكًا موكلاً بها كلما خرج منها شيء أتبعه حتى يعيده فيها ، فتلك جهنم حتى يفرق بين أهل الجنة والنار ، وأما الروضة الخضراء التى رأيت فتلك جنة العامة ، وأما الشيخ الذى رأيت لا أجد أجمل منه حوله الولدان فذاك أبوك إبراهيم ، وأما الشجرة التى رأيت وطلعت إليها فيها منازل لا منازل أحسن منها درة جوفاء وزبرجدة خضراء وياقوتة حمراء ، فتلك منازل أهل عليين من الأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا ، وأما هذا النهر الذى رأيت فنهرك الذى أعطاكه الله ، وهذه منازلك ومنازل أمتك ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ، فارتعدت فرائصى ورجف فؤادى واضطرب كل عضو منى ولم أستطع أن أجيب شيئًا ، فأخذ أحد الملكين يده اليمنى فوضعها بين ثديى ، وأخذ الآخر فوضع يده بين كتفى فسكن ذلك منى ، ثم نوديت من فوقى : يا محمد ، سل تعط ،

سل تعط ، قال : قلت : اللهم ، أسألك أن تثبت شفاعتى وأن تلحق بى أهل بيتى ، وأن ألقاك لا ذنب لى »[(١)] .

هذه بعض المشاهد من عالم الغيب كما رواها حديث المعراج ، وكان من المنتظر أن ننقل حديث ابن عباس بدل حديث زيد بن على . حيث يتضمن كثيرًا من مشاهده ، ولكن المحدثين قد ردوه مع ما ردوا من روايات ضعيفة ذكرها الدكتور على حسن عبد القادر ص ١٢٨ من كتاب « المعراج » ، كما ذكر الدكتور بعض مصادر الروايات الصحيحة ص ١٣٧ ، فحديث المعراج إذًا كما روته الروايات الراجحة ، ولخصه حديثًا أنس وزيد ، يعتبر فتحًا مبتكرًا فى عالم البيان التصويرى ، تمخض عن الجديد الطريف ، وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب حديثًا آخر ينحو نحو حديث زيد فى لبابه ، فيتحدث عن رجل جالس ورجل قائم بيده كلوب من حديد يدخله فى شدقه ، وعن رجل مضطجع على قفاه ورجل قائم على رأسه بفهر أو صخرة فيشدخ به رأسه ، فإذا ضربه تدهده الحجر ، وعن رجال ونساء عراة فى تنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع يتوقد نارًا عليهم ، وعن نهر من دم فيه رجل قائم وعلى وسط النهر رجل يحمل أحجارًا ، فكلما اقترب سابح النهر رجمه فيرجع ، وعن روضة خضراء ذات شجر مزهر ، وبها دار وشباب وشيوخ .. ثم فسر جبريل فى حديث البخارى جميع ما يرمز إلى ذلك بما لا يخرج عن الإجابة فى حديث زيد ، وإنما ألمعنا إلى ذلك لنزيل الشك من صدور لا تزال تقابل بعض روايات الشيعة بالصدود. وهى فى ذلك واهمة مغرقة ، لأن أئمة الشيعة المخلصين من أمثال زيد بن على وجعفر الصادق لا يمكن أن يرتقى الشك إلى أقوالهم ، وإذا وجد فى الشيعة مغالون مغرضون ، فلن يذهبوا بفضائل الأئمة المخلصين . وقد جرت سنة الله أن يوجد الباطل مع الحق فى كل شىء ، وفى رجال الدين من شيعة وسنيين .. وقد آن لنا فى مجال البحث العلمى أن ننصف إخواننا فى الإسلام دون أن نأخذ البرىء بإثم

---

(١) « المعراج » للقشيرى تحقيق الدكتور على حسن عبد القادر من ٣٩ – ٤٢.

الظالم ؟ ولعل الأزهر الشريف قد فطن إلى ذلك حين قرر دراسة فقه الشيعة بكلية الشريعة ؛ كى يلتقى المسلمون على نهج سواء !

لا جرم أن مشاهد القيامة فى القرآن ، قد صورت اليوم الآخر تصويرًا لا ينفد سحره ، ولكن القيام برحلة فى عالم الغيب مما أبرزه حديث المعراج لأول مرة فى الأدب العربى ، وقد استغله الخطباء والواعظون فى مواقف الترغيب ، والترهيب ، وليس هنا مجال القول فى ذلك ، ولكننا نبحث عن التأثير الفنى الخالص فى الأدب العربى أولاً ، ثم فى غيره من الآداب !

أما الأدب العربى فقد كان أبو العلاء أبا عذرة الرحلة الخيالية به إلى الجنة والنار فى « رسالة الغفران » حيث استهلها بزيارة للفردوس تصف شجره وأنهاره ، ولبنه وخمره وأوانيه التى شكلت على هيئة الطير السابحة من كراكى ومكاكى وطواويس ، فبعض فى الجارية ، وبعض على الشط ينبع من أفواهها شراب كأنه من الرقة سراب . فإذا قذفوا الأوانى فى الأنهار سمع لها أصوات بمثلها تبعث الأموات، ثم أخذ يتحدث عمن تخيلهم بالفردوس من الشعراء كزهير بن أبى سلمى ، وعبيد ابن الأبرص ، والهذلى ، والنابغين مناقشًا إياهم فيما ينقده من أدبهم المأثور ، ويمر به رف من أوز الجنة ، فلا يلبث أن ينزل على تلك الروضة ، ومن شأن طير الجنة أن يتكلم ويناقش ويغنى ليسمعه لبيد والجعدى والأعشى ، ثم يقابل حسانًا فينقد بعض ما قاله ويتطرق فجأة بصاحبه إلى يوم الموقف فى يوم مقداره خمسون ألف سنة، وبه يطول الأمد ، ويشتد الظمأ فيستشفع برجل عليه نور يتلألأ هو حمزة ابن عبد المطلب فيرسل معه رسولاً إلى على بن أبى طالب ليخاطب النبى فى شأنه ، فيمر بأبى على الفارسى فى حلقة من الأدباء يناقشونه تخريجاته النحوية والصرفية إلى أن يصل إلى على فيسأله عن التوبة ، ثم يرد الحوض ويستشفع بفاطمة بنت محمد لتسترحم أباها ، فيشفع له ، ويعبر الصراط إلى الجنة فيحاور رضوان قبل دخوله ، ثم يلج إلى نعيم الفردوس ليقابل حميد بن ثور ، ولبيدًا، ويقيم

لهما ولزملائهما من الشعراء مأدبة حافلة بما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين ، فيجتمع خلق كثير فتوضع الخون من الذهب والفواثير من اللجين ، فإذا قضوا الأرب من الطعام دار الشراب والغناء وتحدث الأدباء ! ويعبر طاووس من طواويس الجنة يرون مرآه حسنًا فيشتهيه أبو عبيدة مصوصًا ، فيتكون كذلك فى صفحة من الذهب فإذا قضى منه الوطر انضمت عظامه إلى بعض ثم يعود طاووسًا كما بدأ ، ويمر ملك كريم فيعطيه ثمرة من شجر الحور رمانة أو تفاحة أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها فتخرج منها حورية عيناء تبرق لحسنها حوريات الجنان وتقول له : إنى أتمنى لقاءك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة ، ويبدو له أن يطلع إلى أهل النار ، فيركب بعض دواب الجنة ، فيرى فى الطريق جنة العفاريت المؤمنين بمحمد المذكورين فى سورة الأحقاف، فيسمع أشعار الجن ويشهد صرع فتاة تصور لها الجن فى صورة فأر ، ثم فى صورة صل ، ثم فى صورة ريح ويتساءل عن لغة الجن وحديث الرجم . ويرى بعض آساد الجنة ويحادث الحطيئة وقد جلس فى أهون منازل الجنة . فإذا وصل إلى أقصى مكان بها وجد الخنساء تجلس هكذا لترى أخاها صخرًا يعذب فى جهنم ، فإذا أطاف بالنار رأى إبليس يضطرب فى الأغلال والسلاسل ، ومقاطع الحديد تأخذه من أيدى الزبانية ، ثم يصطنع على لسانه فكاهة سمجة ما كان أحرى أبا العلاء باجتنابها فى مثل هذا الموقف ، ويرى بشار بن برد فى أصناف العذاب يغمض عينيه حتى لا ينظر إلى ما نزل به من النقم ، فتفتحها الزبانية بكلاليب من نار ، فيحادثه مع زملائه المعذبين من أمثال امرئ القيس ، وعنترة ، وعلقمة ، وعمرو بن كلثوم ، وطرفة ، وأبى كبير ، والأخطل وإبليس يسمع ذلك الخطاب كله فيقول للزبانية : « ما رأيت أعجز منكم إخوان مالك ، ألا تسمعون هذا المتكلم بما لا يعنيه ، فلو أن فيكم صاحب نحيزة قوية لوثب وثبة حتى يلحق به فيجذبه إلى سقر ، فيقولون : ليس لنا على أهل الجنة من سبيل . ثم يقابل المهلهل ، والشنقرى ، وتأبط شرًّا ، وبعد الرحلة الجهنمية يقفل إلى فردوس يحاور آدم وذات الصفا ، ثم

يضرب فى غيطان الجنة ليقابل حوريته التى انشقت عنها الثمرة ويتكئ على مفرش من السندس ، ويأمر الحور العين أن يحملنه فيضعنه على سرير ذهبى فى الجنة فيحمل إلى محله ، وكلما مر بشجرة نضحته أغصانها بماء الورد قد خلط بماء الكافور»!

رحلة رائعة التصوير محلقة فى القمة من عالم الفن ، ولو رسمنا مشاهدها فى لوحات فنية كما رسمت مشاهد الكوميديا الإلهية لأمكن أن تقارن بها . وأذكر أن فريقًا من أساتذة الأدب المقارن قد تلاحوا بصدد تأثير أبى العلاء فى دانتى ، فمن مثبت هذا التأثير متعلل بما عرف من اتصال الشرق والغرب أثناء الحروب الصليبية، وبعدها عن طريق مصر والشام وصقلية والأندلس ! فلابد أن تكون رائعة أبى العلاء مما ترجم وقدم إلى دانتى فهضمه . وتلك قضية يتعذر فيها وجه لحق ، وبخاصة إذا علم أن دانتى لا يمكن أن يصبر على قراءة قصة عسيرة الفهم لدى غير متخصص فى علوم العربية ؛ إذ إن « رسالة الغفران » تضم من النقاش النحوى والصرفى واللغوى ما يخفف كثيرًا من رونقها .

بل ما يجعل تقديمه فى ترجمة أجنبية نوعًا من الألغاز الغامضة . والذين قد تلاحوا بصدد تأثر دانتى بأبى العلاء كان عليهم أن يتجهوا إلى حديث المعراج مباشرة ، وهو المصدر الأول لأبى العلاء باتفاق ، أما كونه المصدر الأول أو أحد المصادر المهمة لدانتى فهذا ما سيتضح لنا عن قريب .

لقد بدأ (دانتى) جحيمه ذاكرًا أنه كان يضرب على غير هدى فى تيه لا أول له ولا آخر ؛ إذ يضل فى غابة مظلمة تعج بالأفاعى والوحوش ، وقد أنقذه (فرجيل) من أحد الكواسر بعد أن كاد يمزقه . وقد دلفا معًا إلى الجحيم ، فسمع دانتى أنين المعذبين فسأل عنهم فرجيل فأجابه أنهم الذين قضوا حياتهم فى لهو لا يعبأون بأوامر الله ! ثم رأى الجبار (خارون) منتصبًا كالوحش فى زورق ينقل أرواح الأشقياء من عدوة إلى عدوة ، فدارت الأرض برأس الشاعر من هول مشهده ثم دوى رعد

قاصف أنقذه من غيبوبته ، فانطلق مع صاحبه إلى دركات الجحيم . دركًا وراء درك ليرى بعض القوم تعصف به ريح السموم ، وتنثره كما ينثر الريش فى يوم عاصف ، ويرى أصحاب المطامع المنكرة تنصب فوقهم شآبيب من برد وثلج ، ويمزق أجسادهم الكلب (سيرسيروس) بأنيابه الحداد ، ثم يعبر دركًا آخر ليرى نهرًا من الدم تسبح فيه أرواح الذين آذوا جيرانهم بالافتراءات ، ثم يرى فى درك آخر عصبة من المزورين المختلسين يسبحون فى حديد يغلى بالقار ، وحراسهم زبانية قباح الوجوه . أما المنافقون فيرتدون عباءات من نار وطراطير من جمر . وقد فجر دانتى فجورًا خسيسًا سافلاً حين أعماه التعصب فجعل نبى الإسلام - أكرم خلق الله وأشرفهم على الإطلاق - بين أهل النفاق من المعذبين ! وذلك ما ينتظر من كاثوليكى متعصب ظل يأسف على انقضاء الحروب الصليبية دون أن تستأصل المسلمين .. ثم يشهد زمهريرًا من ثلج وبرد وماء يلف الآثمين فى قرار الدرك التاسع، وحينئذ ينتهى الجحيم ويصل إلى المطهر فيهب عليه أول أنفاس الفجر المرطب بالندى ويرى النجوم تتألق فى بنفسج السماء ، ولجة ترغى وتزبد حول جزيرة نائية ينهض فوقها جبل شامخ رفيع الذرى [1] ، ثم ينظر (دانتى) فبلا يرى إلا خياله حين تشرق الشمس منبطحًا على السفح من ورائه ، فينزعج ويحسب أن (فرجيل) غادره ورحل ، ولكن فرجيل يطمئنه ويخبره أن أرواح الموتى أضواء شفافة لا ظلال لها ، كما يكون لأهل الدار الفانية ، ثم ينطلقان ليقابلا عشرات الناس من أعلام الأدب والسياسة ، والحب والدين فى أوروبا ، وحولهما ضجيج الأرواح الهائمة ، تلغط جميعًا بهراء من الحسد والأحقاد القديمة ، إلى أن يصلا إلى شجرة باسقة ذات طلع نضيد ، وفاكهة حلوة يفوح عبيرها ، وفى أوراقها أرواح تذكر الله وتسبح بحمده ، وتشكر له ما رزقها من عفة . والناقدون يرون سدرة المنتهى فى المعراج هى التى ألهمت دانتى صورة هذه الشجرة وترى الأرواح الهائمة

(١) من ترجمة الأستاذ د. خ. من مجلة الرسالة أعداد يوليو ، وأغسطس سنة ٣٦ .

فى النار ظل دانتى على اللهب فتدهش لوجود حَىٍّ من الدار الفانية فى هـذا المكـان . ثم يلتقى الشاعر بحبيبته (بياتريس) فتكشف له عن شئون غيبية كثـيرة ، ويظـلان يتحدثان عن نهر يونو ، فإذا انتهى من المطهر سـما إلى الفـردوس ، فاحتـسى جرعـة نزعت ما فى نفسه من أدران الدنيا ، وجعلت جسمه هلامًا شفافًا وهيولى نقية ، كـى يرقى فى السماء دون عائق ، ومـضى فى رحلـة سـماوية إلى كواكـب عطـارد والزهـر والمريخ والمشترى ليحدث من أدخلهم الجنة مـن ذوى محبتـه مثـل : (جوسـتنبان) إمبراطور رومـا ، (وشـارل مارتـل) قائـد النـصرانية فى معركـة بـلاط الـشهداء ، وطائفة من أرواح شهداء النصرانية فى الحروب الصليبية ، يمرحون فى أفياء الجنات الوارفة التى يهتز عنها المريخ ، ومثل (بندكت ، وداميانو ، وبطرس ، ويوحنا) مـن كبار القديسين . ثم يرى السيد المسيح وفى أثره مريم البتول ثم يدخلان سماء المنتهى - بهذا التعبير القرآنى - ذات الضوء الوهاج ، فيقف قلـيلاً ثـم يفيـق مـن رؤيـاه . وتنتهى الرواية .

تلك هى الخطوط الواضحة فى كوميـديا الـشاعر ، وأثـر حـديث المعـراج بهـا أوضح من أن يدل عليه ، فهو يتجلى فى تكوين الهيكل العـام للكوميـديا مـن رؤيـة المعذبين والسؤال عن جرائمهم ، ومن أدوات التعذيب وزبانيته ، ومن بحـار الـدم والصديد . ومن سرد طائفة من مقابح وما أعد لها من العقاب . ومن غير ذلـك ممـا يستشفه القارئ من خلاصتنا المركزة التى أوجزنا بهـا خطـوط الكوميـديا الإلهيـة ، وقد قامت معركة حامية بين المستشرقين ما بـين منكـرين لتـأثير حـديث المعـراج ، ومثبتين له حتى عثر على مخططات قديمة لحديث المعراج ترجمت قـديمًا إلى اللاتينيـة قبل زمان الشاعر ؛ مما يثبت إلمامه بها فى لغته ووطنه ، ولهذا الكشف الأدبى الجليـل قصة طريفة لا مناص من الإشارة إليها بإيجاز :

لقد عاش (دانتى) فيما بين القرنين : الثالث عشر والرابع عشر ، ورحـل عـن الحياة متمتعًا بصيت أدبى رنـان ؛ إذ اعتـبرت ملحمتـه الإلهيـة أنـضج ثـمار الأدب

الإيطالى فى جميع عصوره وظلت موضع المباهاة لدى قومه ، فكانوا يقابلون بالاستنكار والتهكم أحيانًا - من يسعى لإيجاد مقارنة بينها وبين النصوص العربية أو اليونانية ، ويرون ذلك محاولة للنيل من شاعر مبتدع جل أن يقرن إلى نظير ، ولكن عشاق المعرفة فى كل مكان لا يبالون بإشباع الغرور القومى لدى بعض الطليان ، فهبوا فى القرن الماضى يعقدون الدراسات المختلفة بين المتشابهات من أمثال ملحمة (فرجيل) وحديث المعراج ، ورسالة أبى العلاء . وتتوالى الردود عليهم من المعارضين دون أن يتقدم البحث خطوة إلى الأمام ، حتى جاء المستشرق الأسبانى العظيم الأستاذ (آسين بلاثيوس) ، سليل أبناء الأندلس الذين أشرقت بحضارتهم الإسلامية أوروبا فى عصور الظلمات ، فأخذ على عاتقه أن يترهب رهبنة متصوفة فى البحث عن تأثير أجداده العرب من الأندلسيين فى آداب العالم وثقافته ، ووصل فى بحثه إلى نتائج مدهشة تثبت تأثير بثولوحية ابن رشد فى سان اكوينتس ، وابن عربى فى ريموندلال ، وإخوان الصفا فى فرانس انسلموا ، وجاءت خاتمة أبحاثه تعبن تأثير القصيدة الإسلامية فى كوميديا دانتى . إذ ساعدته دراساته العربية العريقة أن يتبع أكثر خواطر الشاعر معقبًا عليها بنظائرها فى القرآن والحديث وقصة المعراج ، وبعض آثار (ابن عربى) المتصوف الأندلسى ، وكان ما قدمه (بلاثيوس) من النصوص الإسلامية مذهلاً للكثيرين ممن كانوا يؤمنون بأفكار دانتى وطرافة خلقه الفنى. ولكن مجال الأفكار بعد ذلك لا يزال متسعًا ؛ إذ إن هناك سؤالاً لا يجد الجواب الشافى وهو : كيف تطرقت المعارف الإسلامية إلى الشاعر الإيطالى الكبير ؟ ولو كان الجدل المقارن وحده مجال الترجيح لا نحسم النزاع ؛ لأن تحليلات (آسين بلاثيوس) كانت من القوة بحيث لا يتطرق إليها اللبس ، ولكن المتمسكين بالعثور على وثيقة تثبت إلمام دانتى بالثقافة الإسلامية يرفضون كل جدل منطقى مقنع ويودون ما يلمس باليد لا ما يدرك بالعقل ، ولم يستطع البحاثة الكبير (بلاثيوس)

أن يجد هذه الوثيقة فمات بحاجة لم يقضها ، كما مات الفراء وفى نفسه شىء من حتى ..

ولكن الحق لم يعدم أنصاره ؛ إذ اجتهد بعده المستشرق الإيطالى الأستاذ (مونيرى دى فيبار) فى تتبع هذه المسألة حتى عثر على ترجمتين غربيتين مخطوطتين لقصة المعراج ، كما رواها أهل الحديث النبوى ما كتبت أولاهما بالفرنسية وحفظت بمكتبة اكسفورد وكتبت الأخرى باللغة اللاتينية وحفظت بالمكتبة الأهلية بباريس ، وجاء بعده الأستاذ الإيطالى (تشيرولى) ودرس المخطوطين فأكد وجهة نظر الأستاذ (مونيرى) ، ومن قبله (بلاثيوس) وسارع بنشرهما مضيفًا إليهما ما تتطلبان من الحواشى والتفسيرات لتوضيح مسألة التأثير وبتوالى البحث ، ظهر أن كلتا المخطوطتين ترجمت عن القشتالية من العربية إذ قام بترجمة القصة إلى القشتالية طبيب يهودى كان ببلاط الملك (الفونسو) بأشبيلية سنة ١٢٦٣ م يدعى : (إبراهيم الفقيم) ثم نقلها فى أثره إلى اللاتينية والفرنسية معًا الكاتب الإيطالى (بونافنتورا) الذى كان سكرتير (الفونسو) (١٢٢١ - ١٢٧٤ م) .

لقد وقعت فى أيدينا الوثيقة المطلوبة إذًا ، ولو عثر عليها (بلاثيوس) لعد نفسه أسعد باحث خدم قضية غامضة ، فسلط عليها من الأشعة ما يجلو الغموض ، ولكن الذين تم على أيديهم اقتطاف الثمرة يعترفون بالجميل لمن غرس البذرة وعمل على إروائها وتنميتها بعد أن مهد الأرض وقواها بالحراثة والتسميد .. وبهذا أصبح مؤكدًا لدى العلماء أن (دانتى) وقد انتشرت هذه النصوص قبل ميلاده قد اقتبس فكرة كوميدياه من المعراج وتأثر به فى نظمه وتفكيره وخياله أوضح تأثر .

يقول المستشرق الإيطالى الكبير الأستاذ (امبرتو ريزتيانو) الأستاذ بجامعة القاهرة من بحث نشرته مجلة الرسالة بافتتاحية العدد (٩٤٠) ما نصه :

« هذا .. وقد يتساءل الباحث عما إذا كانت ترجمة من هذه التراجم الثلاث كانت معروفة فى إيطاليا أثناء القرون الوسطى ، والإجابة فى هذه المرة لابد أن تكون

بالإيجاب ؛ إذ ورد ذكر هذا الكتاب الخاص بقصة المعراج فى كتابين من مؤلفات كاتبين إيطاليين عاش أحدهما فى منتصف القرن الرابع عشر ، وعاش الآخر فى أواخر القرن الخامس عشر ، وليس هذا إلا دليلاً على انتشار المعلومات عن العقائد الإسلامية وفلسفة العرب فى بلاد أوروبا ، ولا سيما إيطاليا فى القرون الوسطى ، وهذا ولم يقتصر المستشرق (تشيرولى) على نشر الترجمتين الفرنسية واللاتينية وعلى ملخص الترجمة القشتالية فحسب ، بل أضاف قسمًا ثالثًا جمع فيه كل الشواهد التى تثبت هذا الانتشار وعلى رأسها : حوار جرى بين محمد ﷺ وعبد الله بن سلام ، ترجمه إلى اللاتينية (أرمانوالد عاطى) سنة ١١٤١ نقلاً عن الكتاب المعروف «رد الكلام فى مسائل عبد الله بن سلام » ، وقد يتساءل الإنسان كذلك عن قيمة البحث الذى قام به (تشيرولى) ، والإجابة عن ذلك أنه نجح كل النجاح فى إيضاح المسألة التى أثارها (بلاثيوس) كما نجح فى وضع هذه المسألة على أساس أمتن من الأساس الذى وضعها عليه المستشرق الأسبانى » .

وأظن أن المتتبع لأدوار هذه القضية بإنصاف وحيدة لا يسعه إلا القول بتأثير حديث المعراج فى أروع تحفة يفتخر بها الإيطاليون ، ويقيمون (لدانتى) كل عام مهرجانًا تذكاريًّا لإبداعها ، ويرصدون الجوائز الأدبية باسمه من أجلها وكأنه بها فى رأيهم أعظم أديب عرفه التاريخ .

أما أثر المعراج فى الأدب الفارسى ، فما أوضحه وأقواه فيما نعرفه من أشعار المتصوفة بفارس . وهم مسلمون قد درسوا عقائد شريعتهم وألموا بحياة نبيهم ، ثم جذبتهم قصة المعراج إلى رحلات خيالية بديعة قاموا بها على جناح الشوق إلى آفاقهم الروحية ، ومن أشهرهم فى ذلك شيخهم الشاعر الأكبر (سنائى) صاحب كتاب الحديقة ، ومثنويات كنوز الرموز ، وحديقة الحدائق ، وسير العباد إلى المعاد وغيرها، وقد اتصل فى صدر حياته بملوك غزنه ، إلا أنه تزهد وتصوف وحج على قدم التجريد . وهنا تدفق الطوفان الإبداعى على لسانه شعرًا تردد على ألسنة

معاصريه ، وتتلمذ عليه من سلك سبيله من بعده ، أما معراج (سنائى) فقد نشره فى كتابه (سير العباد إلى المعاد) ليشرح رجوع النفس من عالمها المظلم الذى سقطت فيه إلى أصلها الإلهى ومقرها الأخير . فى رحلة تصور مقامات المتصوفة وأحوالهم تصويرًا، يدركه المتخصصون ممن تشربوا مصطلحات القوم وعرفوا خفايا رموزهم ودقائق ألطافهم ، وإذا كان (سنائى) قد سبق (دانتى) فى الزمن ، فإن المستشرق الأستاذ (نيكلسون) قد عقد بينهما مقارنات تدل على استقاء الشاعر الإيطالى [1] من معين الفكر الإسلامى ، وإذا كان اطلاع دانتى على روائع سنائى لا يزال افتراضًا، فإن اطلاعه على حديث المعراج النبوى قد انتقل من ضباب الافتراض المحتمل إلى ضياء اليقين الجازم ، وقد تأتى الأيام المقبلة بالجديد من تأثير سنائى إذا اطرد البحث على وجهه النزيه ..

أما متصوفة الأدب العربى ، فقد جذبتهم قصة المعراج بصورها العلوية ، وأنوارها السماوية دون شك ، وأوضح من تأثر بها إمامان كبيران هما : (محيى الدين ابن عربى) الأندلسى ، (وأبو يزيد البسطامى) ، فالأول فى الفتوحات المكية قد ذكر عن العرش والسدرة وأنوار ذى الجلالة ما يجد أصله فى الصحيح من حديث المعراج والموضوع معًا ، والطريف أن الأستاذ (نيكلسون) يجعل (دانتى) متأثرًا أيضًا بابن عربى فى ذلك ، ويفيض فى مقارنات طريفة ليس هنا مجال تفصيلها ، وقد أشار إليها الدكتور (مبارك) فى الجزء الأول من التصوف الإسلامى ص ٢٠٧ نقلاً عن غيره، أما (أبو يزيد البسطامى)، فقد نشر الدكتور (على حسن عبد القادر) نص معراجه ملحقًا بكتاب القشيرى ص ١٢٩ ، وهى رحلة روحية بديعة تجسم المعنويات فى صور حية تنطق بالبراعة والإبداع . ويقول فى مطلعه :

« إنى رأيت فى المنام كأنى عرجت إلى السموات قاصدًا إلى الله ، على أن أقيم معه إلى الأبد ، فامتحنت بامتحان لا تقوم له السموات والأرض ومن فيهما ؛

(١) كتاب « المعراج » ، ص ١٣.

إذ بسط لى بساط العطايا نوعًا بعد نوع ، وعرض على ملك كل سماء ، ففى ذلك كنت أغض بصرى عنها ، لما علمت أنه بها يجربنى فكنت لا ألتفت إليها إجلالاً لحرمة ربى ، وكنت أقول فى كل ذلك ، يا عزيزى ، مرادى غير ما تعرض على » .

ثم مضى (أبو يزيد) يذكر ما رآه فى السماء الدنيا من طير أخضر نشر جناحًا من أجنحته فحملته إلى صفوف ملائكة يضعون أقدامهم بالنجوم فتساءلوا عن بشر يصعد إلى مقر الأملاك ، فألهم كلمات قالها ، ثم صعد إلى السماء الثانية فرأى فوجًا من الملائكة يستقبلونه استقبال مدينة لأميرها ، وتقدم إلى روضة خضرة تحوى نهرًا وحوله ملائكة يطيرون إلى الأرض كل يوم مائة ألف مرة ، وعلى حافتيه أشجار من نور ولها أغصان كثيرة متدلية فى الهواء وفى كل غصن وكر طير وفى كل وكر ملك ساجد . فترك ذلك إلى سماوات أخرى فإذا جميع الملائكة يسلمون عليه ، وإذا ملك منهم له أربعة أوجه : وجه يلى السماء ، ووجه يلى الأرض ، ووجه يلى الملائكة ، ووجه يبعث بجنوده يسبحون الله فى كل مكان ، ثم نشر جناحًا من أجنحته فإذا على كل ريشة من ريشه قنديل يظلم ضياء الشمس فى ضوئه وقد أغواه الملك بأشياء ترفع عنها ؛ إذ إن مراده الأسمى يجل عن الإغراء ، ثم ارتقى فجلس على كرسى فوق شاطئ بحر عجاج لا أول له ولا نهاية ، فألهم التسبيح مشغولاً بذكر الله عن كل شىء . فإذا ملائكة قيام فى السماء ، رءوسهم فى أجوازها العالية يقطر منهم نور تبرق له السموات ويسبحون الله بكل لغة ، فرد عليهم بلغاتهم جميعًا . وما زال يرتقى ويطير ويجول مملكة بعد مملكة ، وبحرًا بعد بحر ، حتى انتهى إلى الكرسى ، فاستقبلته ملائكة لهم عيون عدد نجوم السموات يبرق من كل عين نور تلمع منه ، فتصير تلك الأنوار قناديل حيث يسمع من جوف كل قنديل تسبيح وتهليل ، ثم لم يزل يطير حتى انتهى إلى بحر من نور يظلم ضياء الشمس فى أشعته ، وعلى البحر سفن نورانية أخذ يعبر عليها سفينة سفينته حتى رأى حملة العرش من الكروبين قال

(أبو يزيد) : « فلما علم سبحانه وتعالى منى صدق الإرادة فى القصد ناداني إليه ، ثم سقانى شربة من عين اللطف بكأس الأنس ... ثم قابل روح محمد فسلم عليه وأوصاه .. » .

تلك خيوط من معراج (البسطامى) ، وقد قيل عنه إن (أبا يزيد) يذكر ما يذكر على لسان الحال لا الوقوع ؛ ليقرب إلى الوجدان بعض أحاسيسه . ولا نملك الحكم هنا على أحوال القوم ، إنما نثبت قضية التأثير كما اتضحت معالمها لدى الصوفى الكبير .

إن حديثًا نبويًّا - كحديث المعراج - يترك دويه فى الآداب العربية والفارسية والأوروبية وغيرها ، لجدير أن نفسح له أطيب مكان ، فى رسالة تتحدث عن أدب محمد بن عبد الله !

* * *

محمد رائد الدعوة والدعاة !

تستمع إلى من يتحدث فى موضوع جلـل ، فتعجبـك كثـرة مادتـه ، وانطـلاق لسانه ، وتشقيقه للقول فى شتى مناحيه ، ثم ينتهى الحديث ، وترجـع إلى بيتـك فـلا تتذكر عن الرجل إلا أنه قال كثيرًا ، ودل على تمكن وسـعة اطـلاع ، ثـم تـستمع إلى إنسان آخر فى موضوع جلل ، فلا يريد أن يغمرك بالمادة الغزيرة ، ولا يتباهى بتوليد الكلام وتشقيقه ، ولكن تلمس فى قوله حرارة وإيمانًا يشدانك إليه ، فأنت معلق بـه لا يحيد طرفك لحظة عنه ، وإن حديثـه ليـسرى إلى قلبـك فيفـتح نوافـذه ، ويـضىء أماكن الظلمة فى أعماقه . فإذا انتهى من حديثه شغلك بنفسك ، وعدت إلى منزلـك وخياله نصب عينيك ، ولكلماته فى خاطرك وقع الأجراس .

ما الفرق بين المتكلم الأول والمتكلم الثانى ؟

الأول : رجل محترف قد يكون محاميًّا ، وقد يكون محاضرًا ، وقد يكون خطيبًـا كلف من غيره أن يتحدث فى موضوع يحتمه الموقف فاسـتعان بذكائـه عـلى تـدبيج كلمة كثيرة الحجج متشققة الفروع ، دلت على علم وذكـاء ، فـإذا فـرغ مـن مهمتـه أحس أنه مثل دوره وانتهى .. وربما التمس الأجر عند من وكلوه وأقاموه .

أما الثانى : فمؤمن عظيم الإيمان بقضيته ، غيور أعظم الغيرة على موضـوعه ، وقد تشبعت به نفسه ، وتشربه وجدانـه وجـال فى أعماقـه وسرى فى عروقـه ، فـإذا تكلم نقل عن ذات نفسه ، وظهر انفعال الصدق فى وجهه ونبراته وإشـاراته ، فـإذا كان يلزم جانب الحق فيما يقول أمده ذلك بقوة لا تكتسح ، وذخيرة لا تنفـد ، ففـى كل غرض من أغراض الحياة دليـل عـلى صـدقه ، وفى كـل هـاجس مـن هـواجس

النفس برهان على يقينه . ذلك الذى يشد أعصابك إليه . فإذا رجعت إلى بيتك ظل موقفه بهيئته وإشاراته ، وكلماته ونظراته نصب عينيك . وكأنه لا يزال فى مكانه يتحدث ويفيض .

الرجل الثانى : داعية يجاهد فى قضية قد اعتقد صدقها ، ودعا الناس إلى اعتناقها ، وجعلها شغله الشاغل ، وهمه المقعد المقيم ، فهو يتحدث عنها على المنبر ، وفى حلقات الاجتماع ، وفى الطريق بين أصحابه إذا سار ، ثم هو يستغل كل سانحة وخاطرة ليتخذها تكأة لموضوعه ، وينتهز كل حادثة ليعلق عليها بما يحقق هدفه . مستعينًا بشتى المؤثرات من قصة أو مثل أو تاريخ .

قد يكون الخطيب داعية . ولكن ليس كل خطيب داعية . لأن الخطيب قد يكون محترفًا يؤدى دوره كما يراد لا كما يريد . وقد يكون المحاضر داعية ، ولكن ليس كل محاضر داعية فقد يهزك المحاضر بترتيب أفكاره وسعة اطلاعه وكثرة مصادره ، ثم هو بعد ذلك يدرس منهجًا فرض عليه دون أن يلمس شغاف نفسه ، أما الداعية الناجح ، فلابد أن يكون مؤمنًا عظيم الإيمان بما يقول ، غيورًا أعنف الغيرة على ما يعتقد ؛ فإذا وجد من الدعاة من يحترف الدعوة على غير حمية وإيمان ، فهو دخيل زنيم ، لن يصيب تأثيرًا حاسمًا فى قومه ، أو نجاحًا إيجابيًّا فى هدفه . وستمضى الأيام عليه ، فإذا هو أمام الناس منكشف غير مستور .

الداعية قدوة فى كل شىء ، قدوة فى قوله ، فلا ينطق بغير ما يعتقد ، قدوة فى عمله ، فلا يفعل ما يستهجن ، قدوة فى خلقه ، فلا يهبط إلى ما يشين . وهو حين يلزم نفسه بالدعوة قد احتل منابر الصدارة ، وأصبح موضع النقد والمحاسبة . وإذا كان الحديث عن محمد الداعية يوجب على المؤرخ أن يوضح كيف كانت قدوته للناس فى القول والعمل والخلق فإن الذى يقصر موضوعه على بيان محمد وحده لن يتعرض لغير جانب القول من جوانب الداعية ؛ لأنه ذو الصلة الأكيدة بموضوعه الأدبى . وهل يكون الأدب – لعمرى – غير حديث يكتب أو يقال .

لقد اهتم العصر الحديث بالدعوة ، وأطلق عليها كلمة الإعلام ، ومنذ قريب كنا نجد الكتب العالمية تبدئ وتعيد فى أساليب « البروباجندة » مفصلة قواعدها وأصولها ، ومبينة ما ترتكز عليه من علوم النفس والاجتماع والسياسة . وكلها ترسم الطرق لنجاح الدعوات التى ينهض بها الزعماء والمفكرون . بل إن أول معهد للبروباجندة أنشئ فى العالم كان لبحث الوسائل المغرية بنشر المسيحية والدعوة إلى تعاليمها . وقد أنشأه البابا (جريجوريس) الخامس عشر بروما منذ ثلاثة قرون ، ولا يزال قائمًا إلى اليوم . وقد أنشئت على غراره معاهد أخرى للدعوة من سياسية ، واجتماعية ، ودينية فى شتى بقاع العالم ، ووضعت لها المناهج التى تكفل للداعية طريق النجاح . ومحمد ﷺ أكبر داعية دينى فى العالم لم يتقن أساليب الدعوة فى معهد . ولكنه حقق بدعوته المثلى أحسن طريق للداعية الشريف المجاهد ، فكانت أقواله وتعاليمه بريئة من الخداع والتمويه ، وهما بعض ما تقره الأساليب الأوروبية إلى يومنا هذا . إذ إن الغاية تبرر الوسيلة فى اعتقاد القوم ، لا يتخافتون بذلك خجلين بل يعلنونها فى دساتيرهم المنشورة ، ورائدهم فى ذلك السياسى الشهير (ميكافيلى)، الذى ذاع مذهبه وراج عن غير جدارة أصيلة . حتى اشتق من اسمه صفات غير كريمة إذ أصبحت الميكافيلية فى اللغة مرادفة للوصولية والانتهازية والتسابق غير المشروع إذا ضمن الكسب والجاه . على أن ما برعت فيه البروباجندة الغربية من وضع خطوات للإعلام مع تقدم الزمن وازدهار الحضارة لم يكن بعيدًا عن خطوات محمد الداعية ، مع إيجاد الفارق الكبير بين المسلكين ، إذ إن خطوات «البروباجندة» الغربية كانت ولا زالت تقصد النفع الحزبى أو الشخصى أو القومى مهما ترتب عليه من ظلم وعسف للآخرين ، أما خطوات الدعوة النبوية فقد كانت تقصد النفع الإنسانى العام ، بحيث لو أدى إلى ظلم إنسان ما فهى حيل منكرة لا يقرها نبى الإسلام ؛ إذ إن مهمته ﷺ فى طريق الإنسانية أن يمهد السبيل بإزاحة جميع الأشواك والصخور . لا أن يميط الأذى عن مكان ليدفعه إلى مكان .

تنص دساتير الدعوة الأوروبية على أن أعظم وسائل النجاح فى الإعلام يرجع أول ما يرجع إلى تكرار الموضوع الذى يراد جذب الأذهان إليه فى كل مناسبة ؛ ليتمكن من النفوس بالترداد ، ثم إلى تهيئة الموقف بانتهاز الفرص السانحة للدعوة ، ثم إلى لباقة العرض وحسن تهيئته ، مع الإلمام الكثير بأهواء النفوس ومطارح الرغبات من الناس ، هذه أشياء أربعة يجمع عليها أساتذة الإعلام والتعبئة فى العصر الحديث ، فلننظر كيف نهض بها أستاذ المصلحين من الدعاة : محمد ابن عبد الله .

أولاً : التكرار

إذا اتجه قادة أمة من الأمم إلى اعتناق فكرة ما ، هيئوا لها وسائل الإذاعة من نشر فى الصحف ، وبسط فى الكتب ، ودعوة فى المذياع ، حتى يتكون الرأى العام بما يصب إلى سمعه ويعرض على عينه صباحَ مساءَ .

وما قامت النازية فى ألمانيا والفاشستية فى إيطاليا ، وغيرهما من الدعوات فى شتى بلاد العالم، إلا بسيل جارف من التعبئة يعتمد على التكرار والترديد ، والتكرار سلاح ذو حدين فقد يكون ناجحًا مثمرًا إذا طرق النفوس من أبواب ملونة ، وقد يكون مبعث السأم والضيق إذا فقد التلوين فى العرض ، والإبداع فى التصوير حتى ليؤدى إلى عكسه بانصراف الناس عن فحواه ، ومحمد الداعية الأكبر لابد أن يلجأ إلى التكرار فى تعاليمه ، ولكن أى تكرار يرتضيه ؟ أهو التكرار الآلى الذى يردد الأقوال متشابهة فى اللفظ دون تلوين . لو فعل ذلك ما كان أفصح البلغاء بحال ، ولكنه تكرار المغزى الواحد فى صور مختلفة من القول ، تتغاير ألفاظها ومعانيها، ولكنها تهدف إلى شىء واحد، وإذ ذاك يتأملها جميعها السامعون، وقد وجدوا فى كل نص عنصر تشويق فى العرض والتلوين ، ولنقدم بعض الأمثلة الواضحة لما نقول :

دعا الإسلام إلى خلوص النيات ، واتجاه الأعمال إلى الله لا إلى الناس ، إذ إن خلوص العمل لله وحده يصرف المسلم عما سوى الله ، فلا يشعر بسلطان لكائن بشرى يتحكم فيه ، فيورثه ذلك عزة وحرية وكرامة لدى نفسه ولدى الناس ؛ إذ الناس سواسية كأسنان المشط ، والمسيطر رب واحد يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، ويدرك منابع العمل الإنسانى وبواعثه ، أهو فى صميمه خالص لوجهه عز وجل ، أم شابته شائبة أخرى من الغرض الشخصى الحقير . هذه الحقيقة الكبرى فى حياة النفس المؤمنة لابد أن تتكرر وتتردد حتى ترسخ فى الأذهان ، فانظروا كيف تكررت فى بيان محمد عليه الصلاة والسلام .

روى البخارى عن رسول الله قوله الذائع : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليها »(١) هذا قول هادف حق ، لا يكتفى نبى الإسلام أن يفوه به مرة ثم يتركه يبدد فى الهواء ، بل لابد أن يواصل به الطرق فى إلحاح حتى يتأكد ويثبت ، أفيعيده بلفظه ومعناه ؟ إن سامعيه كثير ، وإن فيهم من يتذكره وقد يتثاءب حين يستمع وما كان لأفصح البلغاء أن يعرض عن سماعه الناس . فليعرضه إذًا فى صورة أخرى إذ يقول : « عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به ، فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت ، قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال : فلان جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيه القرآن ، قال : كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم، وقرأت القرآن ليقال : هو قارئ فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٤٤.

وجهه حتى ألقى فى النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : ما عملت فيها . قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقى فى النار » رواه مسلم (١) .

كان حديث الأعمال بالنيات قاعدة عامة ضرب عليها المثل بدافع الهجرة من مكة إلى المدينة ، أما حديث القيامة فعدة أمثلة تصويرية لإيضاح البصائر المدخولة والنيات المريضة؛ إذ كشف الله عنها الغطاء فإذا جميع دوافعها ليست ابتغاء مرضاته، وإنما هى رياء زائف ، إن خفى عن الناس فلن يخفى عمن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والمغزى واحد فى كلا الحديثين فهو تكرار لمعنى خلقى يلح عليه الرسول ، ولكنه تكرار الحصيف الفصيح ، الذى يملك من الصور والأخيلة والمعانى ما يقدم به الطريف الجديد .

ونحن نرى فى حديث القيامة أعمالاً من الخير فسدت لفساد النية ، فالاستشهاد، وتعليم القرآن ، وبذل الخير من صوالح الأعمال التى تهيئ لصاحبها مقعد صدق عند الله لو انحدرت من نفس مخلصة ذات إيمان ، وقد نرى نية صالحة لا تؤدى إلى خير كثير ، ولكنها بخلوصها لله ترتفع بصاحبها عنده . لقد أحسن الرسول الداعية تصوير ذلك حين كرر حديثه عن النيات مرة ثالثة فقال فى نسق جذاب :

عن أبى هريرة عن رسول الله قال : « قال رجل : لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته ، فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق ، فقال : اللهم لك الحمد ، لأتصدقن بصدقة ، فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية ، فقال : اللهم لك الحمد . لأتصدقن بصدقة

---

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٢.

فخرج بصدقته فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غنى فقال : اللهم لك الحمد على سارق وعلى زانية وعلى غنى ، فأتى فقيل له : أما أن صدقتك على سارق فلعله أن يستعف عن سرقته ، وأما الزانية فلعلها أن تستعف عن زناها ، وأما الغنى فلعله يعتبر فينفق مما أعطاه الله [1] .

ماذا يقول القارئ فى هذه الأقصوصة الرائعة ؟ ألا يعدها نمطًا من السحر البليغ وتصويرًا فاتنا لعقبْى النية الصالحة إذا خلصت لله كما كان حديث القيامة تصويرًا بليغًا لعقبى النية الفاسدة إذا لوثت بأغراض الحياة ، إن الأحاديث الثلاثة - وغيرها كثير - مثال للتكرار الرائع الذى يتعمده البلغاء الأفذاذ فلا يدركه منهم غير الطائر السباق .

ولنترك تكرار هذا المعنى إلى تكرار معنى آخر .

علم رسول الله أن العباد خطاءون ، وأن المعصية ممهدة السبيل أمام الغرائز الهابطة والنوازع المسفة ، وأن التوبة نافذة الخلاص مما يرتكب من الآثام وقد جاءت آيات القرآن مبشرة بالتوبة النصوح ، داعية إلى استئناف صفحات جديدة من الحياة، تنسى لديها سوالف المعاصى ، ويرقى سلم الطاعات إلى مرتفع طاهر لا انتكاس به ولا ارتكاس . ومن الضرورى أن تسهب أحاديث الداعية الأعظم فى تحبيذ التوبة وتمجيدها والنفور من المعصية ومجافاتها ، حتى سار فى ذلك المثل السائر بقول رسول الله : « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ، وقوله على لسان ربه : « لأنين المذنبين أحب إلىّ من صراخ العابدين » . وتكرار الدعوة إلى التوبة فى أدب الرسول مما يرضى عشاق الأدب الرفيع حين تتنوع معارض اللفظ رافلة فى أبهى الحلل ، وسائرة فى غاية واحدة هى الغاية الخلقية الداعية إلى الطهور من الآثام ، تأملوا قول رسول الله فى رواية البخارى عن عائشة :

(١) ج ٢ ، ص ١٣١ من « صحيح البخارى » ط صبيح .

« لله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة ، ومعه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة ، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته ، حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أو ما شاء الله . قال : أرجع إلى مكانى ، فرجع فنام نومة ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده »[١] .

أى عرض لمنزلة التوبة عند الله أبهج من هذا العرض . لقد تحدث رسول الله عنها فى أقصوصة موجزة ، ترسم فجيعة إنسان وحيد يعتسف الصحراء فى أعز شىء لديه . فى حياته التى توشك أن تفنى بعد فقد الشراب والطعام والناقة ، وفى أى مكان ؟ فى مهلكة ترمى بالرعب والحمام ، وإن العطش ليلهب أحشاءه فى الداخل ، وقد جلده الحر بأقسى سياط فى الخارج حتى إذا استيأس ، ترقب نهايته المظلمة وأطبق عينيه ليحلم بالخاتمة الحزينة ، ولكنه يستيقظ ليرى الراحلة بما حملت أمامه؟!! يا لها من فرحة لا تعادلها فرحة فى الحياة ، إنها فرحة الغريق بطوق النجاة. وهى فى الحديث تقل عن فرحة الله بتوبة عبده من الآثام . لنذكر أقصوصة القاتل من بنى إسرائيل وقد تقدمت فى فصل سابق . حين قتل تسعة وتسعين ، ثم أكملها مائة وتنازعته ملائكة الرحمة والعذاب بعد موته ، فاحتوته ملائكة الرحمة فهى الأخرى نموذج ثان لتكرار الحديث عن هدف واحد دون ملل ، ثم لننتقل إلى النموذج الثالث من قول رسول الله من رواية البخارى عن أبى هريرة :

« إن الله يدنى المؤمن فيضع عليه كنفه ويستره ، فيقول : أتعرف ذنب كذا ؟ فيقول : نعم أى رب ، حتى إذا قرره بذنوبه ورأى فى نفسه أنه هلك قال : سترتها عليك فى الدنيا ، وأنا أغفر لك اليوم » .

(هذا هو المؤمن التائب) وأما الكافر والمنافق : ﴿ **وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ** ﴾[٢] .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٨٧.

(٢) سورة هود : ١٨ . « هداية البارى » ج ١ ، ص ١٠٧ .

وإلى نموذج رابع عن التوبة من قوله عليه الصلاة والسلام من رواية البخارى عن أبى هريرة [(١)] :

« إن عبدًا أصاب ذنبًا – وربما قال أذنب ذنبًا – فقال : رب ، أذنبت ذنبًا ، وربما قال : أصبت فاغفره فقال ربه : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ما شاء الله . ثم أصاب ذنبًا أو أذنب ذنبًا ، فقال : رب ، أذنبت أو أصبت فاغفره . فقال : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى » ، ثم مكث ما شاء الله ثم أذنب ذنبًا وربما قال : أصاب ذنبًا فقال : رب ، أصبت أو قال أذنبت فاغفره لى ، فقال : « أعَلِمَ عبدى أن له ربًّا يغفر الذنب ويأخذ به ؟ غفرت لعبدى ثلاثًا ، فليعمل ما شاء » .

هذا هو التكرار البليغ الذى يشرق على لسان الداعية الملهم أدبًا طريفًا لا سأم فيه ، هات أشد المتحاملين إنكارًا لمزية التكرار ، واقرأ عليه نماذج التوبة فى أدب الرسول ، ودعه يسأل نفسه أوجد سأمًا أم لذة ! آآنس مللاً أم متعة ! ثم ليسأل نفسه بعد ذلك عن مصدر اللذة والإمتاع يجبك أنه تنوع القول فى معارض طريفة من التصوير .

أنريد أمثلة أخرى من التكرار فى غرض آخر ؟ إن المجال ليتسع ويزيد .

لقد دعا الإسلام إلى الشهادة فى سبيل الله . والروح أغلى ما يملك الإنسان ، فلن يقدمها هينة رخيصة إلا إذا أصبح دين الله أحب إليه من نفسه ، ولابد لذلك من ثمن خطير هو فرحة الله بالشهيد ثم متعة روحه برضوان الله . إن نبى الإسلام ليحرص على الدعوة إلى الاستشهاد فى سبيل الله . وإنه يرى تكرار القول مما يطمئن النفوس ، فلابد أن يعرض ذلك مرة بأسلوب المرغب المدافع حين يقول فى رواية الترمذى عن أبى الدرداء :

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٦٢.

« للشهيد عند الله ست خصال : يغفر له فى أول دفعة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويجار من عذاب القبر ، ويأمن الفزع الأكبر ، ويوضع على رأسه تاج الوقار ، الياقوتة منه خير من الدنيا وما فيها ، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور »[1] .

كما يعبر عنه مرة أخرى ، منتحيًا منحى آخر من البيان ؛ إذ يقول عن عائشة فى رواية البخارى : « كل كلم يكلمه المسلم فى سبيل الله يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت تفجر دمًا ، فاللون لون الدم والعرف عرف المسك »[2] كما يعبر عن ذلك فى أسلوب تصويرى يرتفع إلى القمة من الإبداع نجده فيما حكاه عبد الله بن مسعود أنه سئل عن قول الله : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾[3] فقال ﷺ : « إن أرواحهم فى طير خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وتأوى إلى قناديل معلقة بالعرش ، فاطلع إليهم ربك اطلاعة ، فقال : هل تستزيدون شيئًا فأزيدكم ، قالوا : ربنا ، وما نستزيد ونحن فى الجنة نسرح حيث شئنا ، ثم اطلع إليهم الثانية فقال : هل تستزيدون شيئًا فأزيدكم ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا قالوا : تعيد أرواحنا فى أجسامنا حتى نرجع إلى الدنيا فنقتل فى سبيلك مرة أخرى »[4] .

فماذا عسى أن يبلغ البيان من التأثير فوق الذى يبلغه هذا القول البديع ، أخشى أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية فننقل جل ما روى عن رسول الله :

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٤٠.
(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٠٧.
(٣) سورة آل عمران : ١٦٩ .
(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٩٠.

ثانيًا : انتهاز الداعية للفرص الملائمة :

الداعية الصادق : إنسان أخذت عليه الدعوة مشاعره ، وملكت أحاسيسه فهو ينفرد بنفسه ويجتمع بصحبه ، ويسافر إلى مقصده وقلبه مشغول بما يدعو إليه ، وكأن تيارًا جاذبًا يدفعه إلى التفكير بإرادة وبدون إرادة فيما ينبغى أن يقول وأن يفعل، وهو لابد منتهز كل فرصة لتحقيق رسالته، ومهتبل كل سانحة لقنص مآربه، وكذلك كان الرسول مع رسالته العظيمة .

إن أهدافها العالية من السعة ، بحيث تشمل محيط الحياة جميعه .. فما أكثر ما يسنح فى الحياة من الفرص لتأكيد هذه الأهداف ، وما أذكى الداعية الملهم فى اقتناص هذه السانحات قبل أن تبيد .

إن من أهداف الإسلام أن يرتفع بالنفس عن المذلة وهوان الاستجداء والسؤال ذل ولو أين الطريق، كما قال أرسطو ، فكيف إذا كان استجداء لبعض المال ؟ وإن محمدًا ليجد بعض أصحابه يلحون ويسألون ، ويجيئه أحدهم سائلاً فينتهز الفرصة ، وقد أمكن منها السائل باستجدائه المتكرر ليقول له واسمه حكيم بن خزام :

« يا حكيم ، إن هذا المال خضرة حلوة ، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى » (١) .

فتبلغ العظة من نفس حكيم أبلغ المواقع ، ويتأسف على ما فرط منه ثم يقول لرسول الله فى ندم :

« والذى بعثك بالحق ، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا » (٢) .

---

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٤٠.

(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٤٠ .

وقد كان الرجل صادقًا فى قوله ، حيث أراد أبو بكر ومن بعده عمر أن يعطياه نصيبه من الفىء ، فأبى معارضًا فى شدة ، تمسكًا بما قال لرسول الله ، وهكذا أثمرت الموعظة إذ صادفت فرصتها المواتية .

وأمثلة أخرى : لقد أعلن الإسلام أن رحمة الله واسعة ، وأن الله غافر الذنب قابل التوب ، ونزل فى ذلك من الآيات وجاء من الأحاديث ما لا يحصى ، ولكن الداعية الحريص يقع فى مجلس من أصحابه على بعض المشاهد العاطفية فيهتبل الفرصة للحديث عن رحمة الله ، إذ نظر المسلمون عقب بعض الغزوات إلى امرأة من السبى أخذت تدور بعينيها ذاهلة وجلة ، كأنها تبحث عن شىء ، حتى إذا وقعت عينها على طفل نائم أسرعت إليه فى لهفة وألصقته بأحشائها طويلاً ، ثم ضمته إلى صدرها فى حنان . فتأثر القوم ، وانتهز الداعية العظيم هذه السانحة فسأل أصحابه : أترون هذه طارحة ولدها فى النار ؟ فقالوا فى استنكار : لا ! فقال ﷺ : الله أرحم بعباده من هذه بولدها [(١)] .

ويجلس الداعية الملهم فى مسجده ، فيأتيه رجل من الأزد كان قد استعمله على الصدقة ، فيقدم إليه شيئًا ويقول : هذا لكم ويمنع شيئًا فى يده ، ويقول : هذا أهدى إلى ، فتقبل السانحة بما يهيئ للداعية الغيور مجال القول ليحقق هدفًا كبيرًا من أهداف الإسلام فى استئصال الرشى ، ويصعد على المنبر داعيًا أصحابه ليقول فيهم بعد حمد الله :

« ما بال عامل أبعثه فيقول : هذا لكم ، وهذا أهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه أو بيت أمه حتى ينظر أيهدى إليه أم لا ! والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رغاء . أو بقرة لها خوار ، أو شاة تعر ، قال الراوى ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتى إبطيه ، ثم قال : اللهم ، هل بلغت ، اللهم هل بلغت » [(٢)] .

---

(١) « هدية البارى » ، ج ر ، ص ١٢ .

(٢) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٥٦ .

ويعظ الناس فى مجلس علمى بالمسجد فيتحلق حوله الأصحاب . ويقدم ثلاثة نفر ، فيجد أحدهما فرجة فيجلس ، ويقعد الثانى خلف الحلقة ، أما الثالث فيذهب من حيث أتى ، فلا يدع النبى فرصة سنحت للإرشاد تذهب دون أن تؤتى الثمرة ، فيلتفت إلى أصحابه قائلاً : « ألا أخبركم عن النفر الثلاثة أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله ، وأما الآخر فاستحيا الله منه ، وأما الآخر فأعرض ، فأعرض الله عنه » [1] فمن الذى يسمع بهذا القول ثم يعرض بعد عن حديث الرسول .

أما المثل الرائع حقًّا فى انتهاز الفرصة للتوعية والإرشاد مهما قامت دونها المصاعب واكتنفتها الأعباء ، فموقفه ﷺ حين كسفت الشمس يوم وفاة نجله الوحيد إبراهيم . لقد دمعت عينا الأب الواله ، وسأله أصحابه عن دمعه فقال قولته المشهورة : « إن العين لتدمع ، وإن القلب ليحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ، ثم نظر فوجد الشمس قد كسفت وسمع الناس يقولون لقد كسفت أسفًا على موت إبراهيم ، فلم يشغله حزنه الممض عن أن يغتنم الفرصة ليصحح الأخطاء وينبه الأذهان . فيسرع إلى المنبر ليجمع الناس قائلاً فى قوة:

« إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ، ولكن يخوف الله بهما عباده ، فإذا رأيتموهما فصلّوا وادعوا الله حتى ينكشف ما بكم [2] .

هذا الموقف وحده ينبئ عن معدن الشرف العريق فى نفس الرسول . لو كان زعيمًا انتهازيًّا لعد الأمر آية خارقة تشد أزره وتعلى مكانه ، فآثر الصمت لتمضى المقالة فى كل مكان . ولكن محمدًا أرسل بالإسلام ليضىء العقول ، ويبدد الخرافات، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور ، فكيف يصبر على جهل ينشر ويذاع ؟ لابد أن

(١) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ١٧٩.

(٢) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ١١٢.

يضع الأمر فى نصابه ، فهو بإيمانه ليس بحاجة إلى شائعة خرافية تزيد من اعتباره فى الناس ، بل إنه يعد نفسه قد تخلى عن رسالته إذا ارتكزت فى بعض أصولها على الخرافات ، فليصعد إلى المنبر وليرشد الناس . وسيجد الإرشاد موقعه إذا لمس المناسبة الهائلة التى تنقطع دونها المناسبات .

لعل فيما قدمناه من الأمثلة ما يدل على بصر الداعية الحصيف بانتهاز المناسبات، فلننتقل إلى أصل ثالث من أصول الدعوة كما بينها المفكرون .

ثالثًا : **لباقة العرض** :

لا يكفى أن يكون لدى الداعية ما يقول ، بل يجب أن يعرف كيف يؤدى ما يريد أن يقول ، لأن الثوب الذى يظهر المعانى مما يساعد على إبرازها فى وضوح واتساق إن حاكته يد صانع حكيم ، ومن هنا استعان موسى عليه السلام بأخيه هارون لينوب عنه فى الإفصاح لدى قومه ، حين قال لربه : ﴿ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[1]
فأجاب الله طلبته إذ قال مطمئنًا خاطره :

﴿ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴾[2] ، ونحن نرى كثيرًا من الناس تجيش صدورهم بالمعانى ، ولكنهم يكابدون صعوبات شاقة فى إظهارها ، وقد يضطرون إلى وأدها وأدًا دون أن يكشفها للناس لسان مبين ، وما مثلهم إلا كمن قيل فيه :

تجيش المعانى الدافقات بصدره ... ويسكت عنها لا يميل إلى الجهر
كشاعر قوم صاغ أجمل حكمة ... ولكنه قد ضاق بالوزن والبحر[3]

---

(١) سورة القصص : ٣٤ .

(٢) سورة لقصص : ٣٥ .

(٣) من قصيدة لى ضاعت ولم أجدها .

أما محمد الداعية فما كان أقدره على الإفصاح المشرق والعرض البديع ؛ إذ أوتى فى ذلك لباقة خارقة كانت مصدر نجاحه فى أكثر ما تم على يديه من إصلاح ، وإنك لتقرأ الأثر الباقى من آثاره ، ساقه وحى الساعة فنجد به من حسن التأتى ولطف التصوير ما يجذبك جذبًا إلى استعادته دون ملل ، حيث ضرب على أوتار قلبك بأجمل الألحان قوة وروعة وتأثيرًا ، إنه يريد - فى موقف ما - أن يدعو إلى عيادة المريض وإطعام الجائع وروى الظامئ ، فهل يقول عودوا المريض وأطعموا الجائع واسقوا الظامئ ثم يسكت ؟

لابد أن يبرز هذه المطالب الإنسانية فى صورة لا تنسى . ولابد أن يستعين بإلهامه النبوى ، فيوحى إليه بما يرويه عن ربه إذ يقول فيما رواه مسلم :

« عن أبى هريرة عن رسول الله أنه قال : إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم ، مرضت فلم تعدنى ، قال : يا رب ، كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟ قال : أما علمت أن عبدى فلانًا مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتنى عنده . يا ابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى ، قال : يا رب ، كيف أطعمك وأنت رب العالمين . قال : أما علمت أنه استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندى ، يا ابن آدم ، استسقيتك فلم تسقنى ، قال : يا رب ، كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه ، أما أنك لو سقيته وجدت ذلك عندى » (١) .

فهل يجد القارئ دعوة خلقية إلى الآداب النبيلة سيقت أجمل من هذا المساق ؟ ومن الذى يقول ربه استطعمتك واستسقيتك واستزرتك ثم لا يخفض رأسه خجلاً أن لم يصدع بأمر الله . إن نص الحديث الباهر ليغنى عن كل تعليق .

والذين يكتبون عن أساليب الدعاة اليوم ، يوجبون على الداعية أن يستعين بالحركة اللافتة والإشارة المعبرة والانفعال المؤثر ، لتظهر حرارة إخلاصه فى صورته

(١) « التاج » ، ج ٣ ، ص ٢٠٦.

أمام الناس كى يدق من قلوبهم أوتار الإعجاب . وكل ذلك مما يؤثر فى نجاح الدعوة إذا كان النبع الذى فى أعماقه يتدفق صفيًّا نقيًّا طاهرًا ، ولكنه قد يستحيل إلى عكس ما يراد منه لو كان مجرد تمثيل خطابة يؤديه الداعية على المنبر خضوعًا لتعاليم صبت فى أذنه صبًّا ، فهو كمن يزاول التجارب الأولى على خشبة المسرح دون أن ينفعل بالموضوع . أما رسول الله فكانت إشاراته وحركاته فى مجال الدعوة ذاتية ينبعث بها الانفعال الصادق دون تزييف . إنه فى إحدى جلساته يعلم أن بعض الناس يشهدون الزور دون استحياء ، فتهديه لباقته الحصيفة فى العرض الرائع أن يجمع إلى النهى عن شهادة الزور عدة فظائع متفق على إنكارها ، لتقرن بها شهادة الزور فتكون خاتمة الفظائع من المنكرات ، وإنه ليستعين بالحركة الصادقة دون افتعال ليظهر ما يعنيه من تشديد النكير على المزورين . فيمهد أولاً للحديث بسؤال لافت للأذهان إذ يقول : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » إن كل سامع مشوق إلى أن يعرف الإجابة لا محال فيصيح الجميع منتبهين : بلى يا رسول الله فيقول فى تؤدة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق - قال الراوى . وكان متكئًا فجلس ، ثم قال : ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور ألا وشهادة الزور فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت [1] . إن اعتدال الرسول بعد اتكائه لمما يدفع إلى اهتمام مفرط أغنت فيه الحركة عن أفصح التعبيرات . وإن تكرار النهى عن شهادة الزور لمما يجعل المزور يذوب خجلاً ، وألفاظ الحديث تنهال كالقذائف على رأسه مهددة متوعدة . وإن الحديث بذلك يدل على أجمل لباقة واعية فى تهيئة الأذهان واستيجاش الأحاسيس .

إن تقديم السؤال فى الحديث قبل الدعوة إلى مضمونه التشريعى . ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ لقرع للأجراس إلى دعوة مهمة تستلزم الانتباه . وإن الداعية الأعظم ليحرص على ذلك ، فتراه يسأل قبل أن يتكلم فى حديث ألمحنا إليه قريبًا ،

(١) ج ٨ ، ص ٤ « صحيح البخارى » ط صبيح .

أترى هذه طارحة ولدها فى النار ؟ ويجعل السؤال المفاجئ من بعض سماته الوعظية لما يلمس من قرعه للأسماع وجذبه للأذهان ، وما يريد الداعية غير ذلك ؟

لقد توسط محمد ﷺ أصحابه ذات مرة ، وأراد أن يحذر من اقتراب المحرمات ويبرز عقابها عند الله فماذا فعل ؟

« إنه - جريًا على خبراته النفسية - بدأ أصحابه بهذا السؤال كما فى رواية مسلم عن أبى هريرة : « أتدرون من المفلس من أمتى يوم القيامة ؟ فقالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع ، فقال ﷺ : إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتى وقد شتم هذا ، وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا ، وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه ، أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار » .

فهل تجد أبرع من هذا الثوب البيانى الرائع لإبراز هذا الوعيد الصارخ سؤالاً وجوابًا ، وشرحًا وتمثيلاً ، وهل أوحت به غير لباقة العرض الجذاب عند الداعية الحصيف .

ثم ماذا ؟

إن الداعية ليحس من بعض النفوس تكاسلاً عن صلاة الفجر ، إذ إن سلطان النوم حينئذ من القهر والغلب بحيث يستلب الإرادة عند الكثيرين ، فهل يقول محمد : يا قوم ، اتركوا النوم فورًا وقوموا إلى الفجر ، لو اقتصر على ذلك ما كان أفصح بليغ تمخضت عنه العربية فى عصورها الزاهرات ، ولكن لباقة العرض عنده تدفعه إلى أن يقول عن أبى هريرة فيما رواه البخارى :

« يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة مكانها ، عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن

توضأ انحلت عقدة ، فإذا صلى انحلت عقده كلها فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلانًا [1] .

لم يتعد الحديث الخالد تصوير النفس البشرية كما نعهدها بحال ، فنحن نعرف من نفوسنا همودًا واسترخاء عند اليقظة ، فإذا أسرعنا إلى الوضوء والصلاة حل النشاط مكان الهمود ، وإذا سردنا دون وضوء فقد خبث يوم الكسول .

لقد قلت تعقيبًا على ما استشهدت به من الأحاديث المصورة للتكرار البليغ : أخشى أن نفسح المجال لأمثلة أخرى من تكرار الداعية ، فننقل جل ما روى عن رسول الله ، أفأعيد هذا مرة أخرى فأقول : نخشى أن نفسح المجال لأمثلة من لباقة العرض فننقل كل ما روى عن رسول الله .

رابعًا : الخبرة الصحيحة بالنفوس :

إن علم النفس يدرس الآن فى معاهد الإعلام المختلفة بإفاضة قديرة ، ليكون المحاضر أو الكاتب أو الخطيب أو الإذاعى أو الصحافى ، أو كل من يمت إلى الإفصاح بسبب ما ، خبيرًا بطوايا النفوس ؟ فهل غابت هذه الخبرة الدقيقة عن رسول الله ؟

لو لم يكن نبى الإسلام صاحب خبرة صادقة بالنفوس ما استطاع أن ينهض بدعوته بين قوم متنافرين ، فيرأب الصدع ويلم الشمل مع اختلاف المنازع واصطدام الأهواء : ﴿ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٢٦.

﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾[1] ، وتاريخ جهاده ناطق بصدق فراسته وحسن استشفافه ، وبعد مرماه ، وهذا ما ينطق به أدبه البليغ . ألم يقل رسول الله فى بعض ما قال فى رواية البخارى : « والله إنى لأعطى الرجل وأدع الرجل ، والذى أدع أحب إلىّ من الذى أعطى ، ولكنى أعطى أقوامًا لما أرى فى قلوبهم من الجزع والهلع وأكل أقوامًا إلى ما فى قلوبهم من الغنى والخير[2] .

فما معنى هذا . معناه أن لكل إنسان - سعد بلقيا الرسول - وضعًا خاصًّا فى نفسه بناه ﷺ على ما تفرس فيه من الأحوال والمصادفات .

يتحدثون أن أبا بكر دخل على رسول الله ﷺ وهو مضطجع وعليه ثوبه ، فقضى حاجته وخرج ، ودخل عمر فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء على فقضى حاجته وخرج ، ثم جاء عثمان فجلس له رسول الله ﷺ فقالت له عائشة : لم تصنع هذا بأحد . فقال ﷺ إن عثمان رجل حيى ، وإنى خشيت إن أذنت له على تلك الحال أن لا يبلغ إلى فى حاجته[3] .

فهل نجد خبرة دقيقة بنفوس الصحابة أبلغ من خبرة رسول الله . لقد ضرب لنا المثل من قبل بخطبته ﷺ فى الأنصار حين ساءهم تفضيل بعض المؤلفة قلوبهم عليهم فى الفىء . فلمس محمد ذلك من نفوسهم وأسال الدمع من عيونهم حين هتف بقوله : « ألا يرضيكم يا معشر الأنصار أن ترجع قريش بالشاة والبعير وترجعون برسول الله .

فصاحوا فى صوت واحد . رضينا بالله ورسوله»[4] .

فأى حصافة تلك . وأى استشفاف ذلك ؟!

---

(١) سورة آل عمران : ١٠٣ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٨٨.

(٣) « العناصر النفسية فى سياسة العرب » ، ص ١٠.

(٤) يرجع إلى فصل (محمد الخطيب من هذه الرسالة) .

وبعد ، فلقد وافقت صفات الدعاة كما قررها العلم الحديث بعض المزايا الكامنة لدى رسول الله ، واختص دونهم بصفات لا يتعلق بغبارها أحد من الناس أفيكون على ظهر البسيطة من هو أجدر منه بلقب « الداعية المثالى » . حين نعترف بالحق لصاحبه منصفين .

* * *

الابتهال فن طريف فى أدب «محمد»

يشعر الإنسان بضعفه فى الحياة إذا حزبه أمر أو كربه ضيق ، فهو يلتمس المخرج لنفسه بالالتجاء إلى قوة كبيرة ، تنقذه من شدته ، وتنشله من عذابه ، ولن يكون لدى المسلم الصادق قوة أعظم من خالقه ومحبيه ، لذلك كان الالتجاء إلى الله فى كل أمر مفزعًا طبيعيًا يهرع إليه المؤمنون واثقين بعونه وليس لهم غير أن يترجموا عن أزماتهم الكاربة بكلمات صادقة مخلصة ، هى ما يسمى بالدعاء أو الابتهال ، والقرآن الكريم يعرف هذه الحقيقة لدى النفوس المحرجة التى تجد فى السماء فرجًا من ضيق فيقول عنها فى بعض ما قال: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾[1] . ويقول فى أسلوب تصويرى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ﴾[2] .

ولهذه الحقيقة النفسية التى تدفع بالضعيف دائمًا إلى الالتجاء لقوة مسعفة ، شرع الله دعاءه والابتهال إليه ، ليكون المؤمن على ذكر دائم من ربه فهو يقول :

(١) سورة الزمر : ٨ .
(٢) سورة يونس : ٢٢ ، ٢٣ .

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[1] ويقول : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[2] ، ثم عد الدعاء مما يمتدح به من صفات النبيين إذ يقول عن بعضهم : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴾[3] .

ومحمد ﷺ أقرب الأنبياء إلى ربه ، وأشد المؤمنين تعلقًا بمولاه فهو لا يفتأ يدعوه فى كل ساعة تمر ، حتى ترك من أدعيته الرائعة أدبًا عاليًا له سماته الجميلة من حرارة العاطفة ، وقوة الصدق وجمال التعبير ، وعجيب أن يسكت عنه النقاد غافلين.

لقد ورد الابتهال الربانى فى كتاب الله أول ما ورد فى لغة العرب ، فتحدث القرآن على لسان الأنبياء بأجمل ما يتحدث به من الدعاء حين قال على لسان إبراهيم:

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ

(١) سورة غافر : ٦٠ .

(٢) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٣) سورة الأنبياء : ٩٠ .

وَإِسْحَاقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾[1] .

كما عرض نمطاً من دعاء عباده المتفكرين فى خلق السموات والأرض حين قال على لسانهم :

﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾[2] .

وأمثال هذه الابتهالات القرآنية على لسان البشر كثير يعرفه التالون ، وما إليها نقصد فى كتابة هذا الموضوع ، إنما نشير هنا إلى أن الرسول ﷺ كان أول من استجاب إلى نداء ربه حين رفع إلى مقامه الأعلى آخر الأدعية وأحسن الابتهالات فى بيان خلاب .

ولئن كان رسول الله المثل الأعلى للمؤمن الحقيقى ، فإنه لا محالة ذاكر ربه فى كل طرفة عين ، متجهًا إليه مع كل خفقة قلب ، فهو يسبحه ويدعوه إذا أصبح ، وإذا أمسى ، وإذا نام ، وإذا استيقظ ، وإذا سافر ، وإذا رحل ، وإذا أكل ، وإذا شرب، وإذا سمع الرعد ، وإذا نزل المطر ، وإذا هبت الريح ، وإذا أشرقت الشمس، وإذا بزغ الهلال ، وإذا مرض ، وإذا عوفى ، وإذا فزع ، وإذا أمن ، وله فى كل ذلك

(١) سورة إبراهيم : ٣٦ : ٤١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٩١ : ١٩٤ .

مأثورات رائعات مشهورات ترددها كتب الصحاح. وهى من الأدب الصميم لب اللباب ، ولابد أن نستعرض هنا نماذج من مأثوراته لنستشف طابعها الأصيل .

يدلف المساء إلى الكون برهبته ووحشته ، فيظلم الأفق بعد ضياء وتتجلى آية الله مكان آية ، وكل متأمل لابد أن يفكر طويلاً فى هذا الاختلاف الكونى بين الليل والنهار ، وما كان لنبى ذى رسالة واعية كنبى الإسلام أن يغفل الانتباه إلى هذه الظواهر المدهشة دون أن تأخذ جانبًا حيًّا من تفكيره ، إنه يستشف من ورائها عظمة الخالق المبدع فيرفع يده إلى السماء قائلاً :

« أمسينا وأمسى الملك لله ، والحمد لله ، لا إله إلا هو وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، رب ، أسألك خير ما فى هذه الليلة ، وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما فى هذه الليلة وشر ما بعدها ، رب ، أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر ، وأعوذ بك من عذاب فى النار وعذاب فى القبر» (١) .

دعوات بسيطة طاهرة ، يرفعها مؤمن تقى إلى خالقه عند المساء ، فإذا حان ميعاد النوم ، لم ينس رسول الله خطر الشرود الذهنى حين يتقلب الإنسان فى مضجعه قبل الرقاد ، ليسبح خاطره وحيدًا فى أمور مسفة من المكر أو الطيش أو تدبير السوء لبعض الناس ، وهى وساوس نفسية لابد أن تلج إلى الخاطر ، وقد تترتب عليها مهواة عميقة تزل بها الأقدام ، فليحصن الرسول أتباعه منها ، فيشير عليهم بالطهارة والدعاء قبل النوم إذ يقول :

«إذا أتيت مضجعك ، فتوضأ وضوءك للصلاة ، ثم اضطجع على شقك الأيمن ثم قل: «اللهم ، أسلمت وجهى إليك ، وفوضت أمرى إليك ، وألجأت ظهرى إليك ، لا ملجأ ولا منجاة منك إلا إليك ، اللهم ، آمنت بكتابك الذى أنزلت ، ونبيك الذى أرسلت ، واجعلهن آخر ما تتكلم به» (٢) .

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١١٢.

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٣.

أرأيت إلى هذا التحصين النفسى من الوساوس والنزعات ، إن المؤمن إذا توضأ قبل النوم ، ودعا ربه معلنًا أنه فوض أمره إليه فلا منجاة منه إلا إليه ، وأنه آمن بالنبى والكتاب ، فلن يسمح لخاطره بعد ذلك التطهير النبوى أن يكون مسرحًا للمؤامرة والاحتيال ، ثم ماذا نرى من البساطة الهادئة فى ألفاظ هذا الدعاء ، لقد جاءت هينة سهلة ليتمكن كل من يريد النوم أن يحفظها دون إجهاد ، وله بعد أن يدعو بها ربه أن يتقبل أطيب الرقاد ، أما إذا شد الموقف ، وشردت الخواطر ، واستولى الأرق بعد ذلك ، فإن الرسول لا يترك المؤمن نهب السهاد يقذفه من بيداء إلى بيداء ، بل يشير عليه أن يلتجئ إلى ربه ليقول فى دعائه :

«اللهم ، رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرضين وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارًا من شر خلقك كلهم جميعا ، أن يفرط علىّ أحد ، أو أن يبغى على ، عز جارك وجل ثناؤك ، ولا إله إلا أنت» (١) فإذا قام الإنسان فزعًا من النوم فليقل : «أعوذ بكلمات الله التامات من غضبه وعقابه وشر عباده ، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون» (٢) .

أما إذا أشرق الصباح ، فلابد من التجاء آخر إلى السماء نسألها العون والعافية ، والحفظ فى معترك النزاع بين الناس ، وذلك ما عبر عنه محمد إذ قال فى دعاء الصباح:

«اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، اللهم ، إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ، اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » (٣) .

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٥.
(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٤.
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١١٢.

إن المؤمن المثالى لابد أن يكون ربانيًّا متجهًا إلى السماء فى كل طرفة عين، ليستمد من قوتها القديرة مددًا لا ينفد، كذلك كانت جميع ساعات النهار لدى نبى الله مسارح للدعاء والابتهال، قال ابن عمر: قلما كان رسول الله يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات لأصحابه: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا، ومتعنا بأسماعنا، وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا، واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا» (١).

فماذا نرى فى هذه المعانى الحية «اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الحياة».. لو فكر كاتب كبير فيما يدعو به ربه أتراه يقع على أمثال هذه المعانى، وفى يسر هذه الصياغة وقوعًا هادئًا غير متكلف! أم أنها من السهل الممتنع نعجب ببساطتها ونعجز عن محاكاتها.

فإذا التزم السفر فى رحلة يجهل عقباها، فإنه يلتجئ إلى السماء مستنصرًا، فيكبر الله ثلاثًا ثم يقول: «سبحان الذى سخر لنا هذا، وما كنا له بمقرنين، وإنا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم، إنا نسألك فى سفرنا هذا البر والتقوى ومن العمل ما ترضى، اللهم، هون علينا سفرنا هذا، واطو عنا بعده، اللهم، إنك الصاحب فى السفر، والخليفة فى الأهل، اللهم إنى أعوذ بك من وعثاء السفر وكآبة المنظر، وسوء المنقلب فى المال والأهل» (٢).

أما إذا رجع فإنه يقول: «آيبون تائبون عائدون لربنا حامدون» (٣)، وإنه ليتجه إلى الأرض يزورها فى سفره لأول مرة فيقول لها من روعة: «يا أرض، ربى وربك

(١) «التاج»، ج ٥، ص ١٢٦.
(٢) «التاج»، ج ٥، ص ١٣.
(٣) «التاج»، ج ٥، ص ١٣٦.

الله ، أعوذ بالله من شرك وشر ما فيك ، ومن شر ما يدب عليك ، وأعوذ بالله من أسد وأسود ومن الحية والعقرب ، ومن ساكنى البلد ومن والد وما ولد» (١) .

فإذا هبت الريح رفع يديه قائلا: «اللهم ، إنى أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » (٢) .

ثم إذا سمع الرعد ، أعد له من الدعاء ما يناسبه إذ يهتف: «اللهم ، لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك ، وعافنا قبل ذلك» (٣) .

أما إذا أثمر الشجر فما أجمل ما تهدى إليه محمد فى قوله حين يراه: «اللهم ، بارك لنا فى ثمارنا ، وبارك لنا فى مدينتنا ، وبارك لنا فى صاعنا ومدنا ، اللهم ، إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك ، وإنى عبدك ونبيك ، وإنه قد دعاك لمكة وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك به لمكة ومثله معه ، ثم يدعو أصغر وليد يراه فيعطيه ذلك الثمر».

حتى الصلاة المفروضة ، وكلها تكبير وتحميد وتسبيح لا يتركها النبى دون دعاء يفسح له بين التكبير والفاتحة ، وإنه لذو نفحة بيانية مؤرخة تتجلى فى قوله عقب التكبير: «اللهم ، باعد بينى وبين خطاياى كما باعدت بين المشرق والمغرب ، اللهم ، نقنى من خطاياى كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس ، اللهم اغسلنى من خطاياى بالثلج والماء والبرد» (٤) .

لقد جمع الأستاذ «أحمد أمين» بأحد الأعداد الممتازة من مجلة « الثقافة » (٥) عدة ابتهالات نبوية رآها مما يحسن تقديمه للقراء ، فكان مما اختار من فرائد الرسول.

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٣٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٢.

(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٤٣.

(٤) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٨٩.

(٥) « الثقافة » ، العدد ٤١٣.

«اللهم ، إنى أسألك رحمة من عندك تهدى بها قلبى ، وتجمع بها أمرى ، وتلم بها شعثى ، وتزكى بها عملى ، وتلهمنى بها رشدى ، وترد بها ألفتى ، وتعصمنى بها من كل سوء.

اللهم ، أصلح ذات بيننا ، وألف بين قلوبنا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجنا من الظلمات إلى النور ، اللهم بارك لنا فى أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا وأزواجنا وذرياتنا ، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ، اللهم إنا نسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، والفوز بالجنة والنجاة من النار.

اللهم ، إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك لا أحصى ثناء عليك ، اللهم أنت خلقت نفسى وأنت تتوفاها ، لك مماتها ومحياها إن أحييتها فاحفظها وإن أمتها فاغفر لها».

هذا بعض ما اختاره الأستاذ أحمد أمين ، وأرى أن أضيف إليه دعاء الحفظ فإنه رائع جميل ، يقول رسول الله : «اللهم ارحمنى بترك المعاصى أبدًا ما أبقيتنى ، وارحمنى أن أتكلف ما لا يعنينى ، وارزقنى حسن النظر فيما يرضيك عنى ، اللهم بديع السموات والأرض ذا الجلال والإكرام ، والعزة التى لا ترام أسألك يا رحمن بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبى حفظ كتابك كما علمتنى ، وارزقنى أن أتلوه على النحو الذى يرضيك عنى ، اللهم أسألك أن تنور بكتابك بصرى ، وأن تفرج به عن قلبى ، وأن تشرح به صدرى ، وأن تغسل به بدنى ، لأنه لا يعيننى على الحق غيرك ولا يؤتيه إلا أنت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم» (١) قد يستكثر بعض القراء أن نسهب نوعًا ما فى نقل هذه الابتهالات ، إذ يرى بعضها مما ينوب عن البعض فى رسالة أدبية كهذه الرسالة.. ولكننا تعمدنا الإسهاب تعمدًا أن نشير إلى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٠.

حقيقة أدبية كبيرة ، هى أن الابتهالات النبوية كانت مصدر الأدب الصوفى فى اللغتين: العربية والفارسية وهى حقيقة مهمة نسيها الناقدون.

إن الأدب الصوفى بمعناه الصحيح فى الآداب الإسلامية - هو الأدب الذى يتجه به قائله إلى ربه نابعًا من مشاعره الحية وأحاسيسه الجياشة نحو السماء ، ومصورًا فى ابتهالات ضارعة تستمد العون من مقتدر قاهر ، خلق الخلق وأجرى الرزق ، ودبر المنشأة والمآل ، فهل ما نعرفه اليوم مما اصطلح عليه الناقدون فى الأدب الصوفى الإسلامى مما يتجه هذا الاتجاه؟

إن الأدب الصوفى الإسلامى قد اتجه فى مفهوم كثير من النقدة إلى حيز غريب عن الإسلام ، فهو لديهم أدب يتحدث عن وحدة الوجود ، والحلول ، والاتحاد ، وهى كلها أمور غريبة عن منطق الإسلام ، وقد ساعد المستشرقون على تأصل هذا الاتجاه فلم يتحدثوا عمن اشتق تعاليمه من القرآن والأحاديث ، من كرام المتصوفين إذ هو فى رأيهم غير متصوف ، أما الصوفى الحقيقى لديهم ، فهو الذى يلهى العقول بألغاز الاتحاد ، والحلول ، ووحدة الوجود ، ويغرق فى التهاويل والخيالات.

وحتى قصائد الغزل النبوية الصريحة تصير أدبًا صوفيًّا فى اتجاه هؤلاء؛ إذ إن ليلى ، وعزة ، وسلمى رموز إلى الحضرة الإلهية ، وإن ما تتصف به الحسناء من الحسن والسحر والجمال ، ومنه الحسى الصارخ كنضرة الخد ، وهيف القد ، وعذوبة الثنايا ، وليونة الأعطاف ، واسوداد الشعر ، واحورار الطرف كل ذلك مما يرمز إلى جمال الله، ونحن لا نرفض جملة كل غزل صوفى ، بل نميل إلى أن بعض المقطوعات الغزلية مما جعلت فيه صفات الحسناء رمزًا للجمال الإلهى قد تنصرف إلى الذات العلية ، إذا كانت الحسناء مجرد رمز معنوى يتحدث عن الجمال المطلق ، كما فى بعض أشعار ابن الفارض. أما أن تكون الأوصاف الحسية للعين ، والصدر ، والنهد ، والخصر ، والردف مما يتجه إلى جمال الخالق فذلك ما يصعب استشفافه لدى الأذكياء ، فكيف بعامة الناس؟

ثم لماذا نقصر الأدب الصوفى على الغزل الرمزى والشطحات الفلسفية ، فلا نتحدث فى مجال الأدب لدى المتصوفين إلا عن (ابن عربى ، وابن سبعين ، والبسطامى ، والحلاج) لنغرق فى أوهام الحلول ووحدة الوجود والاتحاد ، إنا نصارح بالحقيقة حين نعتبر أكثر ما قيل فى ذلك دخيلا على الأدب الصوفى الحقيقى، وهو الذى نبع من حقائق القرآن وتعاليم الحديث ، ثم تمثل أول ما تمثل فى ابتهالات رسول الله.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن هذه الابتهالات النبوية قد نمت وازدهرت فى الأدب العربى على مد عصوره ، بحيث كانت أصلاً ضخمًا امتدت منه فروع لا تحصى ، ففى كل عصر داعية مبتهل يرفع إلى ذات الله أجمل الأدعية وأخلص الابتهالات ومتى جمعت هذه الأدعية فى أسفار خاصة فقد أوجدت من الأدب الرفيع ما تتضاءل دونه دواوين الفخر والمدح والهجاء.

أتغمض العيون عن هذه الثروة الممتازة من البيان وقد ابتدأها الرسول ، ثم نهج نهجه عشرات الصادقين من البررة الأخيار ، وهى بعد لم تقبع فى حيز ضيق وزمن محدود ، بل أدركها التطور فأصبحت - على مر الزمان - تتلى فى صورة أوراد وأحزاب واستغاثات.

إن ما لدينا من ذخائر الأدب الصوفى الصحيح بابتهالاته ، وأوراده ، وأحزابه، واستغاثاته أوفى وأعظم وأبهر من أن يغفله التاريخ الأدبى ، فكيف أغفله مؤرخو الإسلام وقد بدأه رسول الله ؟

قد التفت الدكتور زكى مبارك إلى هذه الناحية الخطيرة فى الجزء الأول من كتابه عن التصوف الإسلامى ، فقال تحت عنوان: «ذخائر منسية فى الأدب الصوفى» ما نصه :

« نتكلم فى هذا الفصل عن طرائف من الأخيلة والمعانى والصور لم يهتم بها رجال الأدب ، ولم يحسبوا لها أى حساب ، ولعل السر فى إغفال مؤرخى الأدب

لهذه الفنون أنهم لم يضعوا البلاغة الصوفية فى الميزان ، لأن الصوفية انحازوا جانبًا عن صحبة الأدباء ، ولأن الأدباء أنفسهم أقبلوا على الصور الحسية إقبالاً شغلهم عن الأدب الذى يصور أحوال الأرواح والقلوب ، فظنوا أدب الصوفية بعيدًا عن المجال الذى تسابقوا فيه: مجال التشبيب ، والوصف ، والحماسة ، والعتاب ، ولو أن رجال الأدب وعلماء البلاغة نظروا فى الأدب الصوفى نظرة جدية لاتخذوا منه شواهد فى المجازات والتشبيهات ، ولرأوا فيه كلمات متخيرة تصلح نماذج لإصابة المعنى والغرض ، ولكنهم انصرفوا عنه فلم نر فى مؤلفاتهم النقدية غير شواهد من كلام الشعراء والخطباء والكتاب الذين سبقوا فى ميادين غير ميادين الأرواح والقلوب» [1] .

ومعنى كلام الدكتور زكى مبارك أن مؤرخى الأدب العربى لم يفهموا أن معنى الأدب فى صميمه هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، بل فهموا أنه فى الشعر مجموعة القصائد ذات الأغراض التقليدية ، وفى النثر رسائل وخطب تشغل شئون الناس فى أحوالهم العامة ، أما الابتهالات الصادقة فمما يجب أن يعكف عليه الوعاظ والنساك لا النقدة والأدباء ، وهو فهم قد هوى بكثير من الروائع الملهمة إلى دياجير النسيان ، بينما ارتفع بالهجاء والمجون والغزل بالذكر وما شابه ذلك إلى مشارق الترديد والاحتفاء ، وإلا فكيف جار أن يبتدع محمد ﷺ فن الابتهال فى الأدب العربى ، ويحاكيه عشرات من البلغاء على مد العصور الإسلامية فيأتوا بذخائر غالية من أحاسيس الملهمين ثم لا يلتفت إلى تقديرها النقاد.

ما الذى يمنع أن نتدارك ما فات من هذا الإغفال؟ فينهض ناقد مخلص بتأليف كتاب أدبى تحت عنوان: «فن الابتهال فى الأدب العربى ، يبدؤه بنشأة الابتهال الأولى فى دعوات الرسول ، ثم يتابع ما وليه من تلاميذ الدعوة الإسلامية ، فيتحدث عن ابتهالات أئمة البيت النبوى ، وأدعية الصحابة والتابعين ، وأوراد

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ١ ، ص ١١٣.

المتصوفين ، وأحزاب الذاكرين ، ثم يشخص السمات الفنية للابتهال فى كل عصر ، وسيجد أمامه نبعًا يتدفق وبحرًا لا يغيض.

يكفى فى مجال التقدير الأدبى لابتهالات محمد ، أنها ألهمت أئمة البيت النبوى – على سبيل المثال – أعذب ما يروى من الأدعية ، فسارت ابتهالاتهم تشق الصدور المؤمنة حتى تسكن فى الشغاف ، وتحلق فى الأجواز العالية حتى ترفرف فى عليا السموات.

أليس أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه تلميذ محمد؟ فبأى لسان رطب كان يصدح بصادق الابتهال ، وبأى شعور دفاق استلهم أستاذه وابن عمه حين قال فى دعوات الاستسقاء :

«اللهم ، قد انصاحت جبالنا واغبرت أرضنا ، وهامت دوابنا ، وتحيرت فى مرابضها ، وعجت عجيج الثكالى على أولادها ، وملت التردد فى مرابعها والحنين إلى مواردها ، اللهم ، فارحم أنين الآنة وحنين الحانة ، اللهم ، فارحم حيرتها فى مذاهبها وأنينها فى موالجها ، اللهم ، خرجنا إليك حين اعتكرت علينا حدابير السنين ، وأخلفتنا مخايل الجود ، فكنت الرجاء للمبتئس والبلاغ للملتمس ، ندعوك حين قنط الأنام ، ومنع الغمام ، وهلك السوام ، ألا تؤاخذنا بأعمالنا ولا تأخذنا بذنوبنا ، وانشر علينا رحمتك بالسحاب المنبعق ، والربيع المغدق والنبات المونق ، سحًّا وابلا تحيى به ما قد مات ، وترد به ما قد فات ، اللهم ، سقيا منك محيية مروية، تامة عامة ، طيبة مباركة ، زاكيًا إنباتها ثامرًا فرعها ناضرًا ورقها تنعش بها الضعيف من عبادك ، وتحيى به الميت من بلادك ، اللهم ، سقيا منك تعشب بها نجادنا ، وتجرى بها وهادنا ، وتخصب بها جناننا ، وتبقل بها ثمارنا ، وتعيش بها مواشينا ، وتندى بها أقاحينا وتستعين بها ضواحينا من بركاتك الواسعة ، وعطاياك الجزيلة على بريتك المرملة ، ووحشك المهملة ، وأنزل علينا سماء مخضلة مدرارًا هاطلة ، يدافع الودق منها الودق ، ويحفز القطر منها القطر ، غير خلب برقها ، ولا جهام

عارضها ، ولا قزع ربابها ، ولا شفاق ذهابها ، حتى يخصب لإمراعها المجدبون ، ويحيا ببركتها المسنتون فإنك تنزل الغيث بعد ما قنطوا وتنشر رحمتك وأنت الولى الحميد»[(١)] .

كيف ننسى أمثال هذا الابتهال ، وهو فى ميزان النقد الأدبى من أرفع أنماط البيان ، وللإمام علىّ أمثلة عدة من نوعه ، ولكن الفوارق الأدبية واضحة ما بينه وبين ابتهالات محمد ، فابتهالات الرسول ﷺ تعتمد على الإيجاز واللمح ، وتشير إلى الكثير ببعض القليل ، أما ابتهالات الإمام على فتعتمد على التشقيق والتفريع ، إذ إن من سماته البيانية لدى النقاد إشباع الفكرة بتذييلها وتوشيتها ، ولن يكون التلميذ نسخة متشابهة من الأستاذ فى كل الوجوه.

سيقول الذين فى قلوبهم مرض : أن يد (الشريف الرضى) وراء كل ما نشره فى نهج البلاغة منسوبًا للإمام ، ونحن نقول لهم: إن عليا كان أبلغ الخطباء بعد رسول الله ، ولن نستكثر عليه أكثر ما عزى إليه من «نهج البلاغة» مما توحى به طبيعة عصره وأفكار جيله : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾[(٢)] .

ومن غير على من بيت النبوة برز فى الابتهالات؟! إنه حفيده على بن الحسين المعروف بزين العابدين ، وله من الأدعية ما كاد يلحقه بجده الإمام براعة ، وتشقيق منطق ، وحرارة روح مما استلهم فيه جد أبيه محمدًا خاتم الأنبياء صلوات الله عليهم جميعًا.

لقد كان زين العابدين رضى الله عنه لا يقصر الابتهالات على المسائل الشخصية ، بل يقفز بها إلى الوضع السياسى فى عصره ، وهو فى ذلك مصيب ،

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ٢ ، ص ٦٠ عن نهج البلاغة .

(٢) سورة البقرة : ٤٢ .

إذ يعلم أن الله عز وجل وحده صاحب الكلمة العليا فى سياسة الناس وإليه يجأر المظلوم من الظالمين ، والذين يقصرون الابتهال على مسائل الآخرة دون مسائل الدنيا غافلون ساهون ، ويستطيع مؤرخ الابتهالات أن يضيف إليها الجديد إذا دقق فيما روى عن على وحفيده من شكاية الزمان ومحاربة الطغاة.

يقول زين العابدين على بن الحسين فيما روى عنه من الابتهال:

«اللهم وقد شملنا زيغ الفتن ، واستولت علينا عشوة الحيرة ، وقارعنا الذل والصغار ، وحكم فى عبادك غير المأمونين على دينك ، فابتز أموال آل محمد من نقص حكمك وسعى فى تلف عبادك المؤمنين فجعل فيأنا مغنمًا ، وأمانتنا ميراثًا ، واشتريت الملاهى والمعازف بسهم الأرملة واليتيم والمسكين فرتع فى مالك من لا يرعى له حرمة ، وحكم فى أبشار المسلمين أهل الذمة فلا زائد يذودهم عن هلكة، ولا راحم ينظر إليهم بعين الرحمة ، اللهم قد استحصد زرع الباطل وبلغ نهيته ، واستحكم عموده» (١) .

ولا ينكر نقمة زين العابدين على بنى أمية من يعلم أن الحسرة تشتعل فى صدره منذ رأى أباه الحسين ، جزر الرماح بكربلاء فى يوم يشيب فيه الولدان ، وتلك لحظة مفزعة لن يبرح هولها مخيلة الابن الملتاع.

ولن يطول بنا الاستطراد ، فنحصى من بيت النبوة من برع فى الابتهال ، ولكننا نختم القول بجعفر الصادق الإمام الصائم المعروف بالسجاد ذى الثفنات فإن ابتهالاته البارعة وحدها باب معلم فى دنيا البيان ، ولله ما أرق قلبه وأخلص نفسه وأنقى ضميره حين أخذ يسأل ربه فى ضراعة دامعة وابتهال كسير:

«أتراك تغل إلى الأعناق أكفًا تضرعت إليك ، واعتمدت فى صلاتها راكعة ساجدة بين يديك ، أو تقيد بأنكال الجحيم أقدامًا سعت إليك ، وخرجت من

---

(١) « التصوف الإسلامى » ، ج ٢ ، ص ٦٤.

منازلها لا حجة لها إلا الطمع والرغبة فيما لديك ، منًّا منك عليها سيدى لا منًّا منها عليك ، بل ليت شعرى ، أتراك تصم بين أطباقها أسماعًا تلذذت بحلاوة كتابك الذى أنزلت ، أو تطمس بالعمى فى ظلم مهاويها أبصارًا بكت إليك خوفًا من العقاب وفزعًا من الحساب ، أما وعزتك وجلالك ما أصغت الأسماع حتى صدقت ، ولا أسبلت العيون وأكف العبرات حتى أشفقت ، ولا عجت الأصوات إليك بالدعاء حتى أشفقت ، ولا تحركت الألسن ناطقة باستغفارها ، حتى ندمت على ما كان من زللها وعثارها».

وبعـد :

فلعلنا بعد هذا الاستعراض الأدبى لأفانين من الابتهال النبوى على لسان محمد وآله صلوات الله عليهم وسلامه ، نعترف بريادة نبى الإسلام لمن وليه من المبتهلين ، كما نلفت النقاد إلى إنقاذ غرض مهم من الأغراض الأدبية الجميلة كاد أن يعفى عليه النسيان ، وفى أوراد الصادقين من صوفية الشاذلية ، والبكرية ، والنقشبندية قد تراكمت لدينا تركة مثقلة تنتظر من يتقدم إليها بالتشريح والتحليل فينفى منها الدخيل المفتعل ، ويكشف عنها المموه المتكلف ، ثم يرد الفروع إلى أصولها والجداول إلى منابعها ، ويكتب تاريخ هذا الفن مبتدئًا بمحمد ﷺ ؛ إذ كان أول ملهم فى الإسلام ، تطلع إلى أنوار السماء فائتلفت فى قلبه نورًا ، وفاضت على لسانه ابتهالاً صادقًا ، ودعاءً يرتقى إلى سدرة المنتهى دون معراج.

* * *

سـمات الأسـلوب النبـوى

(أ) مقدمـة

أشرنا فيما تقدم من الفصول إلى بعض سمات البيان النبوى ، وفق الأبواب التى خصصت لدراسة فروع محددة من أدبه عليه الصلاة والسلام.

ففى باب: محمد الخطيب ، جعلنا من سمات الخطبة الغالية فى أدبـه : الإيجـاز ، وقوة الإقناع ووضوح العبارة ، وأشبعنا كل سمة منها بالتدليل والتمثيل.

وفى باب: الرسائل والوثائق ، جعلنا من سماتها الدقة الموجزة ومراعاة مقتـضى الحال ، والوضوح الصريح مع ترك اللغو والفضول.

وفى باب: الأقصوصة ، رأينا اعتماد الرسـول عـلى الوحـدة الفنيـة ، والهـدف الواضح ، واللفظ الموحى الموجز مع الاستثارة والتشويق.

وفى باب: محمد الداعية ، رأينا أدب الدعوة يعتمد على التكرار المعنوى ولياقـة العرض ، واستثارة الوجدان الإنسانى بتقديم ما يشبعه ويقنعه ويرضيه.

وذلك كله لا يغنى عن كتابة فصل خاص بتشريح : سمات الأدب المحمـدى ، على نحو كاشف بحيث تكون السمات السابقة جداول متفرعة من نهـر واسـع ، لـه خصائصه العامة فى البقاء والصفاء والتدفق والعمق ، وإن شاركته فروعها المختلفة كثيرًا من هذه الخصائص ، إلا أنه لها أجمع وعليها أدل.

وقد ألف بعض النقاد ، إذ يتحـدثون فى معـرض الحكـم الأدبـى عـلى الآثـار البيانية أن يرسلوا كلمات فضفاضة واسعة تتكرر فى كل نقـد أدبـى ، مـن مثـل قـوة الجزالة ومتانة السبك وشدة الأسر ، أو مثل إشراق اللفظ وحلاوة الوصف وبـديع الانسجام ، أو مثل عمق الفكرة ودقة المعنى وسعة النظرة ، ممـا يطلـق إطلاقًـا دون

تحديد ، حتى ليجوز فى مذهبهم المتساهل أن ينقل ما يقال عن أديب إلى أديب آخر ببعض التسامح ، إذ إن هذا الثوب الفضفاض فى اعتقادهم مما يجوز أن يرتديه أكثر الناس ، ولا عليهم إذا جاء الثوب لائقًا أو غير لائق ، وأظن أن تقدم النقد المعاصر لا يسمح لنا أن نتورط فيما تورط فيه المتساهلون، فلابد من تشريح دقيق لكل حكم، وتشخيص مكتمل لكل رأى حتى يطمئن القارئ المثقف إلى صحة الموازين.

ونحن نعلم أن عناصر الأسلوب كما حددها النقد المعاصر ثلاثة هى: الفكرة والصورة والعبارة ، أما العاطفة فقاسم مشترك بينها ، إذ إنها تتسرب إلى الفكرة فتذهب من جفافها ، وتلقى مزيداً من الضوء عليها فتظهر فى سياق واضح لا غموض به وتأتى إلى الصورة فتجعلها وافية بالغرض ، مجملة له ، وتبعد عنها كل تنافر فى الذوق ، أو ثقل فى اللون والظل ، فإذا تسربت العاطفة إلى العبارة ترقرقت فى ألفاظها فصارت سلسة مواتية وفى تراكيبها فأصبحت متآخية متماسكة ، وسبيلنا الآن أن نعرض إلى كل عنصر من هذه الثلاثة بالشرح والتمثيل.

* * *

(ب) الأفكار فى الحديث الشريف

تتصف الأفكار البليغة عادة بالقوة والجدة والتحديد والتسلسل ، فإذا عرضت هذه الأوصاف الجيدة على بيان محمد ﷺ فماذا أنت واجد؟

أما قوة أفكاره: فمما لا يرتاب فيه إلا خصومه ، لأن الذى ينقل الناس من الجاهلية إلى الإسلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، لابد أن يكون ذا فكر قوى غلاب ، وإذا كان البيان أكبر وسائله فى الإقناع والتأثير ، فلابد أن تكون الأفكار التى يصورها هذا البيان من القوة بحيث ترج العقائد المتأصلة فى النفوس رجًا عنيفًا بل تحطمها تحطيمًا لتبنى مكانها عقائد أخرى تكون على أتم ما يرجى لها من التأصل والرسوخ. يعرف هذا كل عاقل حصيف ، وإن كان أجنبيًّا عن العربية وعن أدبها ، فمتى قلت لأى مفكر فى شتى بلاد العالم ، إن رجلاً قاد الملايين بالمنطق المقنع من اعتقاد إلى اعتقاد مضاد ، فإنه سيقول لك دون حاجة إلى أمثلة وشواهد: لاشك أن هذا القائد النافذ مفكر دقيق !

أجل.. كان محمد صاحب فكر قوى متسع شامل ، فى وقت كان فيه مقاول المنابر بالجزيرة العربية لا يكادون يخرجون عن واقعهم الفنى المحدود ، فكل خطيب يجمع الناس ليترجم عن مشاعرهم فيما يقع من مجريات الحوادث والأحوال، وإذا ارتفع عن مستواهم قليلاً فإنه ارتفاع الطائر فى قفص مربع لا يتجاوز طوله ثلاثة أمتار ، فمهما اشرأب إلى السماء فهو مقيد بسقف لا يلبث أن يهوى إلى الأرض حين يصطدم به ، أما محمد ﷺ فمنذ تسنم منبر الدعوة ، وهو يحلق بأمته فى أفق لا يرتفع معه حيث يحلق ، وما كان هذا الارتفاع الشاهق إلا هتافًا بالمثل الإسلامية التى دعا إليها ، ليعيد إلى الإنسانية كرامتها ، وينأى بها عن حضيض الخرافة ، والفسق ، والوأد ، وعبادة الأوثان.

نطالع أفكار محمد التشريعية ، وأهدافه الخلقية ، وأحاديثه الإنسانية وأخباره الغيبية ، فنجد ما يؤلف فى عصره ولا يعهد فى قومه ، وإذا كان للتشريع ، والآداب الخلقية ، والأحاديث الغيبية أمكنتها الفسيحة فى كتب العلماء والمحدثين ، فإن المحلل الأدبى ينظر إليها من الوجهة الفنية فيجدها من ناحية الفكرة ذات قوة غالبة نفاذة تنبئ عن عقلية دقيقة واعية ، ومن هنا كثرت الحكمة فى البيان النبوى ، وتسابق البلغاء إلى اقتناصها ، لأن الحكمة لا تأتى إلا عن تجربة شاملة وفكر دقيق ، وفى كتاب «أدب الدنيا والدين» - مثلاً - (للماوردى) عشرات من الأحاديث النبوية متفرقة فى أكثر الفصول تصور الحكمة النبوية فى سياقها الرصين ، وكثرة الحكم المحمدية العاقلة فى هذا الكتاب وأمثاله ينبىء عن تلهف علماء الأخلاق والآداب على روائع الحكم الغالية عند عقلاء المفكرين ، لتكون موضع الاستدلال والتأييد.

على أن روعة هذه الأفكار تزيد قوةً وجلاءً إذا نظر الناقد إلى سياقها وطريقة عرضها ، إذ إننا نجد نفرًا من أدباء الفكرة يحاولون الاستعلاء فى أسلوبهم فيغمضون ويدقون ، ويرون أن من واجب القارئ أن يرتفع إليهم مندفعين بشعور من الكبرياء يوهمهم أنهم فى مستوى أرفع ، وقد كافأهم القراء بالقطيعة والانصراف ، حتى اضطروا إلى التراجع عن قلق وضيق ، أما الفكرة الدقيقة لدى محمد ، فتأتى فى مساق واضح سهل ، وهى على دقتها النافذة لا تتعدى فى كثير من أحوالها حديثًا سبق فى مجلس على ملأ من الناس ففهمه الجميع ، ولنا أن ننظر فى مجال التطبيق الأدبى إلى مقال مثل قوله ﷺ عن النعمان بن بشير:

«إن الحلال بيِّن ، وإن الحرام بيِّن ، وبينهما أمور متشابهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام: كالراعى يرعى حول الحمى ، يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك

حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب» [١] .

أسطر قليلة تعرِض عدة قضايا متنوعة يجمعها رابط دقيق ، فوضوح الحواجز بين الحلال والحرام لا يمنع وجود مشتبهات توجب اليقظة والحذر ، وتدفع إلى الاحتراز إذ إن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، وهذا تصوير محسوس لأمر عقلى يزيد به وضوحًا وجلاء.. أما الحمى المحظور فمحارم الله ، وأما القلب فهو مصدر الصلاح إذا بعد عن المحارم أو الفساد إذا وقع فيها.. فما رأى القارئ فى قوة هذه الأفكار وصوابها؟ أليست تحمل الطابع العام لبيان الرسول ، وهو الصدق الموجز دون تزيد أو فضول.

وهذا الحديث الثانى: «تعس عبد الدينار ، وعبد الدرهم ، وعبد الخميصة ، إن أعطى رضى وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه ، أشعث رأسه مغبرة قدماه ، إن كان فى الحراسة كان فى الحراسة ، وإن كان فى الساقة كان فى الساقة ، إن استأذن لم يؤذن له ، وإن شفع لم يشفع» [٢] .

كم من الصور الإنسانية أومأ إليها هذا الأثر الشريف ، عبد الدينار يرضى إذا أعطى ويسخط إذا منع ، والعبد المجاهد يأخذ بعنان فرسه مغبرة قدماه أشعث رأسه ، والعبد المتواضع فى أعين الناس يستأذن ويشفع فلا يؤذن له ولا يشفع ، وهو عند الله قوى مكين ، إن تجارب محمد مع البشر قد أسعفته بهذه الصور وأمثالها ، فهو يمنح من نبع فى نفسه لا يغيض ، على أنه يكتفى بالإيماء اللامح إلا الإسهاب الفاضح ، ليدعو السامعين إلى التفكير ، وتلك إحدى مزايا الإيجاز.

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢١٨.

(٢) « التاج » ، ج ١ ، ص ٢١٤.

وهذا الحديث الثالث :

«إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء ، حتى إذا لم يبق عالم ، اتخذ الناس رؤساء جهالاً ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا» (١) .

أى فكرة صائبة مجربة ، يسجلها هذا القول الحكيم ، العلم لا ينزع انتزاعًا بل يفنى بموت العلماء ، ومتى ذهبوا تصدر الجاهل فأفتى فضل وأضل ، دع الزمن يمر، واقرأ هذا القول على جيل بعد جيل ، فإنك واجد من يشد على يديك بالتأييد ، لأن الفكرة صائبة يعرفها السامع الذكى فيمن حوله من الناس ، وقد لمست مكمن الداء لتهدى إلى الطريق القويم متى تقال.

أما جدة الأفكار النبوية فهى أيضًا من المسلمات منطقيًّا إذ إن كل نبى يأتى بالجديد لا محالة ، وأذكر أننا قلنا فى باب محمد الداعية : إن التجاء الداعية الأعظم إلى التكرار والترديد لترسخ مبادئه وتتأصل تعاليمه ، كان يلزمه أن يجدد فى الصورة والإطار حتى يظل لحديثه رونقه الخالب ، وقد ضربنا بعض الأمثلة من بيانه شواهد على التكرار المعنوى حين يتحد الهدف والغرض ، ويتنوع اللفظ والتركيب ، فمحمد ﷺ حين يتحدث عن الغلول مثلا فى الحديث التالى:

يشقق القول ويفرعه بما يجعل كل معنى من معانيه يحمل من الجدة الطريقة ما يذكى فى النفوس شعورًا حارًّا يتقد ، وذلك حين قام ذات مرة – كما روى أبو هريرة – فذكر الغلول فعظمه ثم قال: «لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء يقول : يا رسول الله : « أغشى ، فأقول : لا أملك لك شيئًا ، قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء قوم القيامة على رقتبه فرس له حمحمة ، فيقول: يا رسول الله أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء يقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك

(١) « هدية البارى » ، ج ١ ، ص ٢١٤.

شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح ، فيقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك ، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت ، فيقول: يا رسول الله ، أغثنى ، فأقول: لا أملك لك شيئًا قد أبلغتك» [1] .

لنعرف أولاً أن قول أبى هريرة فى مبدأ الحديث: قام فينا رسول الله يدل على أنه كان يخطب ، وللخطابة سمتها الواضح من التكرار ، وضرب الأمثلة بما يهيج الانفعال ، ويذكى الإحساس ، فليس المجال مجال إيجاز دقيق يكتفى فيه باللمح بل مقام استعراض لأحوال مهمة من مشاهد الغلول ، ولكل مشهد صورة تختلف عن سابقه ولاحقه. هذا الاختلاف هو موضع الطرافة فى الفكرة ، فلو أن الرسول قال: إن الغلول حرام ، وإن الإنسان سيحاسب يوم القيامة عما غل ، ثم دعا إلى تقوى الله ومراقبته ، لفاتته الجدة الطريفة فى تعداد مشاهد تبعث التأثير الآخذ من منظر صارخ للهيف من ذوى الغلول ، وقد جثم على رقبته بعير له رغاء ، أو فرس له حمحمة ، أو شاة لها رغاء ، أو عبد له صياح أو ذهب يثقل بوزنه ، هذه الجدة قد أكدت الفكرة وجسمتها تجسيمًا حتى لتلمس باليد وترى بالنظر. وتلك بعض منافذ الإبداع فى بيان محمد.

لننتقل إلى شاهد آخر لهذه الطرافة الجديدة :

لقد كسفت الشمس ذات يوم ، فوقف رسول الله يصلى صلاة الكسوف ، متجهًا إلى ربه فبصر به أصحابه يتباعد قليلاً فى الصلاة عن مكانه.. ثم يعود إليه ثانية قبل أن يختم صلاته ، فسئل عن ذلك فقال فيما رواه مسلم :

«ما من شىء توعدونه إلا قد رأيته فى صلاتى هذه ، لقد جىء بالنار ، وذلكم حين رأيتمونى تأخرت مخافة أن يصيبنى من لفحها ، وحتى رأيت فيها صاحب

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٧.

المحجن يجر قصبه فى النار كان يسرق الحاج بمحجنه فإن فطن له قال : إنما تعلق بمحجنى ، وإن غفل عنه ذهب به ، وحتى رأيت صاحبة الهرة التى ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض ، حتى ماتت جوعًا ، ثم جىء بالجنة وذلكم حين رأيتمونى تقدمت حتى قمت فى مقامى ، ولقد مددت يدى وأنا أريد أن أتناول من ثمرها لتنظروا إليه ، ثم بدا لى ألا أفعل ، فما من شىء توعدونه إلا رأيته فى صلاتى هذه» (١) .

لك أن تعيد هذا الأثر مرة ثانية ، لترى كيف ضمن أفكارًا مهمة فى التنفير من الاحتيال على السرقة ، وتعذيب الحيوان الضعيف ، ومن تحقيق وجود الجنة والنار على وجه يقطع الشك ، وهذا كله لا يترك صداه البعيد فى النفس إذا سيق مجردًا من طرافته الجديدة ، إذ سيق فى مشهد يصور صلاة الرسول وقد تأخر قليلا حين لمس لفح النار وشاهد بعض المعذبين ، ثم تقدم حين رأى الجنة وهم أن يتناول من ثمرها فبدا له ألا يفعل.

وشاهدان آخران لهذه الطرافة الجديدة فى عرض الفكرة يتراءيان فى قوله ﷺ :

عن حذيفة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «تلقت الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم ، فقالوا: أعملت من الخير شيئًا؟ قال: لا ، قالوا: تذكر ، قال: كنت أداين الناس فآمر فتيانى أن ينظروا المعسر ويتجوزوا عن الموسر ، فقال الله تعالى تجوزوا عنه» (٢) .

وفى قوله عليه الصلاة والسلام :

عن أبى موسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدى ، فيقولون: نعم ، فيقول: قبضتم ثمرة فؤاده؛ فيقولون:

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣٣٧.

(٢) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٢٢٤.

نعم ، فيقول: ماذا قال عبدى فيقولون: حمدك واسترجع ، فيقول الله: ابنوا لعبدى بيتًا فى الجنة ، وسموه بيت الحمد » (١) .

فالشاهد الأول يشير إلى روح التعامل المتسامحة بين الناس فى البيوع والمعاملات ، والشاهد الثانى يدعو إلى الصبر عند الآباء ، ولكن سياقهما الأدبى كان من الطرافة بحيث جعل فكرتى الحديثين تتغلغلان فى النفس المؤمنة إلى أبعد مدى يستطاع .

ولعلنا نكتفى بما تقدم من الأمثلة الخاصة بطرافة الفكرة؛ لنستدل على تحديد المعانى ، وتسلسلها فى الآثار النبوية ببعض الآثار .

إن تحديد المعانى من سمات المفكر المطمئن الذى يجيل النظر طويلاً فى الأشياء والخواطر ، ليقرن النظير إلى النظير ، وليجمع بين الأمور المتقاربة فى أحكام تتشابه على قدر ما بينها من الاتفاق ، وصاحب هذا التحديد الدقيق فوق إدراكه القوى ، ونظره المحيط ذو خبرة حاذقة بدخائل النفوس ، فهو فى تحديده الضابط يختصر مسافات بعيدة من الفحص اليقظ والتتبع الدائب ، ليقدم خلاصتها الموجزة مركزة فى عدة نقاط متقاربة ، فأنت حين تسمع مثلا قول الرسول ﷺ :

الخيل ثلاثة : هى لرجل وزر ، وهى لرجل ستر ، وهى لرجل أجر ، أما التى هى له وزر ، فرجل ربطها رياءً وفخرًا على أهل الإسلام فهى له وزر ، وأما التى هى له ستر ، فرجل ربطها فى سبيل الله ثم لم ينس حق الله فى ظهورها ولا رقابها فهى له ستر ، وأما التى هى له أجر ، فرجل ربطها فى سبيل الله لأهل الإسلام فى مرج أو روضة ، فما أكلت من ذلك المرج أو الروضة من شىء ، إلا كتب له عدد ما أكلت حسنات وكتب له عدد أبوالها وأرواثها حسنات ، ولا تقطع طولها فاستنت شرفًا أو شرفين إلا كتب الله عدد آثارها وأرواثها حسنات ، ولا مر بها صاحبها على نهر فشربت ولا يريد أن يسقيها إلا كتب الله له عدد ما شربت حسنات (٢) .

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣٧٩.

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٥٥.

فمحمد ﷺ بهذا التحديد الدقيق لأنواع الخيل ، قد استعرض فى تأمل صامت أحوال ذوى الخيول ممن يناوئون بها الحق ، وممن يعملون بها لأنفسهم ، وممن يعملون بها لله ، ثم أفاض فى مزايا النوع الأخير لأنه الهدف الأول من مساق الحديث إذ هو فى سياقه النبوى دعوة صريحة إلى إعداد القوة الضاربة فى الإسلام ، وقد كانت الخيل من أعظم مظاهرها وأقواها تأثيرًا فى عصر الدعوة الإسلامية ، وأعتقد أن سامعى الحديث من الصحابة قد استعرضوا أنفسهم استعراضًا دقيقًا فى ضوء ما ذكر الرسول ، وقد فطنوا فى بصيرة مؤمنة إلى من ينطبق عليهم الوصف الأول من مجاوريهم من المنافقين أو المشركين ، وإلى من توسط فاكتفى بالستر عن الأجر ، ثم طمحت نفوسهم أن يكونوا بين من ربطوا خيولهم فى سبيل الله لأهل الإسلام ، وقد راعتهم بعد ذلك هذه الفراسة البصيرة فى استشفاف النفوس ، وهذه القدرة النافذة على التحديد والتشخيص .

وقريب من هذا الأثر الجامع المحيط قول النبى ﷺ فى أثر آخر:

عن قبيصة بن مخارق الهلالى رضى الله عنه قال: تحملت حمالة ، فأتيت رسول الله ﷺ أسأله فيها ، فقال: أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال: يا قبيصة ، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة ، رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ، ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجا فى قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش ، فما سواهن من المسألة يا قبيصة يأكلها صاحبها سحتًا [(١)] .

لا يدرك قيمة التحديد الدقيق فى هذا الأثر الكريم إلا من يعلم أن المال مهوى كل طامع ، وأن النفوس قد جبلت على حبه والاستزادة منه ، حتى لتشتط فترتكب ما نهى الله عنه فى سبيله ، وكم من أكاذيب منكرة اخترعت اختراعًا لا تزاره من

(١) « التاج » ، ج ٢ ، ص ٣٤.

الكرماء« و » الأنفس الشح ، والرسول فى مكان الزعامة من المسلمين فلا ينفك يأتيه الطارقون صباحَ مساءَ سائلين راغبين ، منهم الصادق ومنهم الكاذب. ولابد أن يرسم قانونًا دقيقًا للمسألة متى تحل ومتى تحرم ، ولابد أن يستعرض أحوال عصره من احتمال المغارم لدى الرؤساء واختراع الحيل لدى الطامعين ، والركون إلى الكسل دون العمل عند من يعشقون الفراغ ثم يتسولون فى الأندية ، أن يستعرض جميع ما مر عليه من أمور الناس ، وما يحتمل أن يمر عليه من صنوف السائلين ، ثم يحدد المسألة المشروعة فى ثلاثة أحوال عند تحمل الحمالات ، وعند نزول الجوائح ، وعند الفقر المعسر ، ولكن بعض الناس ينتهزون الفرص ليستولوا على المال من غير طريقة ، فلابد من تحديد آخر لهؤلاء ، فصاحب الحمالة تحمل له المسألة حتى يصيبها ويمسك ، لا أن يطوف بالناس فيجمع ويجمع بحجة أنه تحمل بعض الحمالات ، وقد أربى ما جمعه على ما أعطاه ، وصاحب الجائحة تحل له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش لا أن ينتهزها فرصة للاستجداء المتواصل ، وصاحب الفاقة لابد أن يشهد ثلاثة من ذوى الحجا ، على فاقته حتى تحل له المسألة منعًا للادعاء المنكر ، والإلحاف المهين فى غير حاجة.. وذلك بعض ما خطه هذا الأثر الحكيم .

ومن التحديد اللافت ما يتقدم به الحديث النبوى من ذكر العدد كأن يقول رسول الله: ثلاثة من كن فيه كان منافقًا خالصًا، أو اتقوا السبع الموبقات، أو لا حسد إلا فى اثنتين ، أو سبعة يظلهم الله فى عرشه يوم لا ظل إلا ظله ، ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ، إلى ما ينحو هذا النحو هو كثير فى الحديث الشريف ، وقد ألف الأصوليون أن يقولوا فى كتبهم إن العدد لا مفهوم له ، وهو قول له دلالته التشريعية دون نزاع .

ونحن هنا لا نبحث عن الدلالة التشريعية، ولكننا نبحث عن الدلالة التأثيرية، وهى المقصودة من الأسلوب الأدبى فى عالم البيان ، لأن السامع حين يسمع لأول وهلة قول الرسول : آية المنافق ثلاث ، لا ينصرف ذهنه إلى أن للمنافق أكثر من عشرين صفة يمكن إحصاؤها بسهولة ، ولكنه يتتبع الأمور الثلاثة المنصوص عليها

فى يقظة وحرص محاذرًا أن يكون على شىء منها وكأن هذه الثلاثة تسد عليه الأفـق فإذا وجد منها انفلاتًا ، فقد استراح ، وإذا وقف أمام بعض أبوابها فإنـه ليجتهـد أن يدفعه عن وجهه ، وهذا هو التأثير الجاذب لسطوة العدد يلقى فى مفتـتح الحـديث ، فهو لا محالة نوع من التحديد الفنى .

أما تسلسل الفكرة ، فما أشد وضوحه فى البيان النبـوى ، والمفكـر المـكين هـو الذى تتساوق أفكاره متتابعة وكأنها ماء يطرد فى نهر مستقيم القاع ، أما من يستعصى عليه التسلسل المطرد ، فهو لاقط مترصد يجمع شاردة مـن هنـا وواردة مـن هنـاك؛ ليملأ بها الوقت إن تحدث ويسود بها الـورق إن كتـب ، ولـن يجـد مـن الـسامع أو القارئ سوء الضيق فهو يتساءل نافرًا عن هـذه المعـانى يـزحم بعـضها بعـضًا دون ترتيب ، وإذا راقت النفس فكرة ثم وليتها فكرة أخـرى غير متجانـسة فـإن الثانيـة تعصف بمحاسن الأولى وتعفى عليها دون انتظار ، ولن نحتـاج فى مجـال الحـديث عن تسلسل البيان النبوى إلى غير الاستشهاد بقوله دون تعليق؛ لأن النـسق النبـوى فى اطراده المتسلسل وتلاحقه المتتابع لا يحتاج إلى تعقيب. فهو من وضوحه الـساطع بحيث تغمره أشعة الشمس بأمواج الضياء.. وإليكم بعض النماذج من المأثورات :

١ – عن أبى الدرداء قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سلك طريقًا يبتغى فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتهـا رضـاءً لطالـب العلم ، وإن العالم ليستغفر له من فى السموات والأرض حتى الحيتـان فى المـاء، وفضل العالم على الجاهل كفضل القمر على سائر الكواكـب ، إن العلـماء ورثـة الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا ، وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذ به أخـذ بحـظٍ وافر» [(١)] .

٢ – عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «من اغتسل يوم الجمعـة غـسل الجنابة ثم راح فى الساعة الأولى ، فكأنما قرَّب بدنة ، ومن راح فى الساعة الثانية

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٥٧.

فكأنما قرب بقرة ، ومن راح فى الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح فى الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح فى الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، فإذا خرج الإمام حضرت الملائكة يستمعون الذكر» (١) .

٣ - عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادى ، إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم ، يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم ، يا عبادى كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفرونى أغفر لكم ، يا عبادى ، إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ، ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئًا ، ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ما نقص ذلك فى ملكى شيئًا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى: إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها ، فمن وجد خيرًا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (٢) .

٤ - عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه ، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيا والآخرة ، والله فى عون العبد ما دام العبد فى عون أخيه» .

---

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ١٩٨.

(٢) « التاج » ، ج ٥ ، ص ١٥٦.

هذه بعض النماذج ، نقدمها لتسلسل الفكرة وترتيبها ، فى حديث الرسول ، ولنا بعد هذا التطواف أن نوجز ما شرحناه من خصائص الأفكار النبوية فى القوة والطرافة والتحديد والتسلسل مع الميل إلى الإيجاز المحكم ، وما كان من تكرار ينافى الإيجاز فى بعض الآثار النبوية ، فقد أوحى به الموقف الخطابى وحده وهو قليل فى غير الخطابة حتى ليكاد يعد عدًّا ، ومن هذا اشتهر محمد ﷺ بجوامع الكلم؛ إذ إن المقصود بهذه الجوامع: كل جملة قصيرة تضم معنى كبيرًا ، مثل : «إنما الأعمال بالنيات» (الدين النصيحة) ، (الضعيف أمير الركب) ، «إن من البيان لسحرًا» ، (خير الأمور أوسطها) ، (المرء مع من أحب) ، وما ينحو ذلك المنحى من كل قول قصير يرمز إلى معان تتسع لها النفس بما توحى وتشير ، ولا يعلم مزية الإيجاز فى موضعه غير من يعلم معابة الإطناب فى غير موضعه ، وإلى ذلك يشير الأستاذ أحمد حسن الزيات فى مقال له تحت عنوان: «البلاغة بين الإيجاز والإطناب» قال فيه :

«وملاك الإيجاز غزارة المعانى ووضوحها فى الذهن وطواعية الألفاظ ومرونتها فى اللسان ، وإنما يكون العى والثرثرة ومضغ الكلام من جدب القريحة أو قلة العلم أو سقم الذوق ، وقديما قالوا: «من ضاق عقله اتسع لسانه» لذلك كان الإسهاب أول ما يصاب به ناشئة الكتاب؛ لأن جهدهم القليل يضيق عن شرح الفكرة فيدورون حولها مجمجمين بالكلم الفوارغ ، والجمل الجوف إلى أن قال: «والإيجاز فى البليغ قوة وروية وجهد لأن الإيجاز غربلة ، ونخل ، وتصفية ، وتنقية ، وتصعيد ، وتركيز ، وذلك لا يتهيأ إلا بدوام النظر وطول التعهد ، وإن للكلمة الموجزة سحرًا يأخذ القلوب وشعرًا يجرى فى الشعور ، وقد قال فيها سيد البلغاء محمد بن عبد الله: «إن من البيان لسحرًا» وقال فى مقام الفخر والشكر: «أوتيت جوامع الكلم ، واختصر لى الكلام اختصارًا» [1] .

* * *

(١) « افتتاحية مجلة الأزهر » صفر سنة ١٣٨٤هـ.

(جـ) الصور البيانية فى حديث الرسول

حين نتحدث عن الصور البيانية فى أدب محمد ﷺ ، إنما نتحدث عن لون من ألوان الإبداع النبوى ، جاد على أكمل تمامه وأبهى أصباغه وأورف ظلاله ، وبه ارتفع أسلوبه إلى منزلة لم يبلغها أديب فى العربية ، ولن نرسل القول دون تدليل ، فإن المتتبع للآثار النبوية يجد صورها الفنية من أحسن المثل لما تنجذب إلى النفوس من القول ، لما فطر عليه ﷺ من معرفة عناصر التأثير فى البيان ، وأوجه الجمال فى اللسان ، فجاء حديثه النبوى من البلاغة العالمية فى موضع تتطلع نحوه الأبصار ، وتتقاصر دونه الأعناق .

لقد أتعب البلاغيون أنفسهم فى تحليل الصور البيانية ، وجنح بهم حب الاستقرار إلى تفصيلات مختلفة عن التشبيه الحسى والعقلى والخيالى والمفرد والمركب والمتعدد ، وجاء النقد المعاصر ليقتضب كثيرًا من ذلك مرجعًا حقيقة التشبيه الجيد إلى إدراك ما بين الطرفين من صلة صادقة تؤثر فى النفس ، فالتشبيه الملفق من أجزاء توجد فى الخارج ، وقد جمعت بتحايل عقلى مفتعل على نحو ما قال الشاعر :

وكأن محمر الشقيق إذا ... تصوب أو تصعد
أعلام ياقوت نشرن على ... رماح من زبرجد

والتشبيه الذى أغفلت فيه مشاعر النفس ، واقتصر على مجرد تشابه المنظر البصرى من مثل قول الشاعر:

ولازوردية تزهو برونقها ... بين الرياض على حمر اليواقيت
كأنها فوق هامات ضعفن بها ... أوائل النار فى أطراف كبريت

والتشبيه الذى تستجاد فيه الصورة ، لدلالتها على أشياء مترفه ثمينة ، دون أن تلمس شغاف النفس بما تترك من تأثير قوى فى مثل قول ابن المعتز - على شهرته وافتتان أكثر القدماء به :

وبدا الهلال كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

كل هذه التشبيهات وعشرات تنحو نحوها ، قد فقدت مكان الاعتزاز لدى النقد المعاصر ، لأنها جعلت التشبيه مجال احتيال عقلى بعيد عن أطواء النفس ، وقد نسى أصحابها أن التشبيه يأتى ليزيد المعنى جمالاً وصقلاً يتركان تأثيرهما فى نفس ذات إحساس ، فليست مسألة التشبيه معركة ذهنية تبعث بالعقل إلى تتبع المتقاربات فى الحجوم والألوان ، لتقرن الشىء منها بالشىء الآخر ، إنما المسألة فى التشبيه مسألة نقل إحساس الأديب إلى القارئ لينفعل به نفسيًا ، ويتأثر وجدانيًا ، وقد أصبح ذلك من بدائه القول ومسلماته لدى الناقدين ، ولعل أول ناقد معاصر حمل قلمه الثائر لتصبح المفهومات البلاغية فى التشبيه هو «الأستاذ عباس محمود العقاد» إذا واجه «شوقى» بقوله عن الجزء الأول من الديوان:

«اعلم أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء لا من بعددها، ويحصى أشكالها وألوانها ، وأنه ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول لك ما هو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ، وليس هم الناس أن يتسابقوا فى أشواط البصر والسمع ، وإنما همهم أن يتعاطفوا ، وأن يودع أحسهم وأطبعهم فى نفس إخوانه زبدة ما رآه وما سمعه ، وخلاصة ما استطابه أو كرهه ، وإن كان كذلك من التشبيه أن تذكر أحمر ثم شيئين أو أشياء مثله فى احمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شىء واحد، ولكن التشبيه أن تطبع فى وجدان سامعه وفكره صورة واضحة مما انطبع فى ذات نفسك ، وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان؛ فإن الناس جميعًا يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه

الأشكال والألوان من نفس ، وبقوة الشعور ويقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه ، ولهذا لا لغيره ، كان كلامه مطربًا مؤثرًا ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه؛ لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نورًا ، فالمرآة تعكس على البصر ما يرد عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه ، والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموجود وجودًا إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساسًا بوجوده ، وصفوة القول: إن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإذا كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس ، فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعورًا حيًّا ووجدانًا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر ، ذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية ، وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة وما إخال غيره كلامًا أشرف منه إلا بكم الحيوان الأعجم»

هذا كلام العقاد عن التشبيه ، وهو ينطبق على النثر الأدبى كما ينطبق على الشعر سواء بسواء ، لأن كليهما يسع من العاطفة مستمدًا معانيه وصوره من مدركات الحواس وانطباعات الثقافة.. ولو أردت أن تطبق قواعد التشبيه الصائبة فى النقد المعاصر على ما لدينا من أدب الرسول ، لراعك أن تجد الصورة البلاغية فى أدب محمد ﷺ مما يشرف البيان العربى فى جميع عصوره ، بل مما تتخذ نمطًا عليًّا يحتذى به عند الاقتداء لأنها فى لبابها الصميم صور حية وإبداع ملهم مطبوع لا صنعة متكلف يتفاصح ، وسبيلنا الآن أن نخصها ببعض التحليل .

نعرف أن عالم الحس هو الحقائق الماثلة التى ندركها بحواسنا ، وعالم الخيال هو هذه الصور الذهنية التى ترتسم على صفحات عقولنا وتختزن فى ذاكرتنا ، وهى التى تنشئ منها الجديد من الأشكال والمظاهر[1] وأن استعادة هذه الصور لا تكون

---

(١) « الأصول الفنية للأدب » ص ٩١ للأستاذ عبد الحميد حسن .

بهيئتها المختزنة دون تغيير ، وإلا ما كان للأديب فضل كبير فى الإبداع ، لأن لكل إنسان صورًا مختزنة كثيرة يستطيع أن ينقلها كما أحس بها دون جهد ، إنما الفضل كل الفضل فى إبراز هذه الصور المختزنة بعد اختيار للجيد ، ونفى للردىء ، وحذف للعناصر النافعة وإثبات للعناصر الحية ، هذه العملية الإبداعية الكبيرة هى ما يسمى بالخيال الفنى، فالخيال لدى الأديب أولاً لا يوجد من العدم، بل مما اختزن فى أعماق النفس ، ولا يأتى ثانيًا بصوره المختزنة كا هى فتتضاءل مزيته عن سواه ، بل يخضع لتنسيق فنى تراعى فيه أوجه التقارب والتشابه ، ويتوقف نجاح الأديب على حس اختياره للصور التى تجلو معانيه ، وتغمرها بالوضوح والإشراق ، فالصورة المنسقة البارعة هى التى تزيد المعانى جمالاً به يقترب البعيد ويجلى الغامض، فينتقل الشعور به إلى النفس حيًّا قويًّا ممتازًا ، وعلى قدر هذا الانتقال الحى النافذ من الكاتب إلى القارئ يكمن إبداعه وتوفيقه قوة وضعفًا وتحليقًا وانحدارًا ، وإذا كان الأمر فى الخيال الأدبى لا يكتمل بغير ذلك فلننظر إلى ما لدينا من أدب النبوة التصويرى فى ضوء هذه المسلمات .

لقد أراد محمد ﷺ أن يقرر: أن الناس يختلفون فى تلقى الهدى والعلم عن الرسول ، فمنهم من تشبع نفسه بالهداية النبوية ، فتزكى روحه وتصقل نفسه ، ثم ينفع غيره بما لديه فيفىء إليه الناس يعملون ويهتدون ، ومنهم من يحفظ العلم فينقله إلى غيره فينتفع به الناس دون أن يمس شغاف نفسه أو يلج أطواء روحه ، ومنهم – وهو موضع الذم القادح من هؤلاء الثلاثة – من أعرض ونأى فلم ينفع ولم ينتفع.. هذا الأسلوب التقريرى فى حاجة إلى صورة بيانية جامعة تزيده إيضاحًا وتأثيرًا كى يتأصل فى النفوس تأصلاً تمليه الروعة البيانية ، فلابد من هيئة جامعة تندرج فيها هذه الأنماط المختلفة ، هنا يلجأ الأديب إلى الصور المختزنة فى عقله؟ ولكن أية صورة؟ إنها التى تتطابق وتتفق اتفاقًا يوضح الحقيقة ويزيد ضياءها سطوعًا وإيمانًا ، فلابد من تنسيق وصقل واختيار ليأتى الثوب دقيقًا أنيقًا ، والماء فى

رأى أديب مما يناسب أن يشبه به العلم ، إذ هو مصدر الحياة للناس كما أن العلم حياة العقول والأرواح ، والماء ينهمر على الأرض ، فمنها ما يخصب وينبت ، ومنها ما يحفظ ، ومنها ما يبدد ، كما أن من النفوس ما ينتفع وما ينفع ولا ينتفع ، وما لا ينتفع ولا ينفع.. لقد اقتربت الصورة العامة ، ولم يبق على الأديب المبدع إلا أن يصوغها صياغة نفاذة ملهمة إذ يقول :

«عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به» رواه الشيخان[(١)] .

هذا المثل الأدبى الرائع قد جلا المعانى الخاصة بالانتفاع بالهدى والعلم جلاء مؤثرًا ، فأضاف إلى الحقيقة الفكرية بمدلولاتها الثلاثة صورة جعلتها تختال أمام العيون فى ثوب بهيج ، ولاشك أن سامعه سيقارن بين الشبه والشبيه فيزداد تأثرًا وانفعالاً بما سمع ، ثم يندفع إلى التفكير فيما يسمع مدققًا محللاً إذ مس أوتار قلبه مسًّا حيًّا ، وإذا بلغ الأديب بتصويره مبلغ التأثير القوى فقد أدى رسالته البيانية على أكمل ما يراد .

إنك لتبحث عن نظير لهذه الصورة النبوية فى كلام البشر فلا تجد ، ولكنك تجد مثلاً لها وأقوى منها فى قول الله عز وجل : ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا

(١) « التاج » ، ج ١ ، ص ٦٢.

مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾[1] .فإن الانتفاع بالماء عند قوم وضياعه هباء عند آخرين فى الصورتين: القرآنية والنبوية معاً مما قوى به المثلان قوة مؤثرة ، والقرآن أستاذ محمد فهو يستلهمه ويستهديه .

هذه صورة نبوية رائعة نتبعها بغيرها فى مجال التشريع .

أراد رسول الله ﷺ أن يحدد الحرية الشخصية للفرد بما لا يعقبه ضرر الجماعة ، وهو مبدأ معروف فى جميع الشرائع الدولية ، فلم يقل فى أسلوب تقريرى إن الفرد مقيد بمصلحة أمته ، فلو أتى من الأشياء ما يسىء إليها كان موضع المؤاخذة. بل لجأ إلى الصورة الأدبية لتلقى ضياءها الكاشف على هذه الحقيقة. فتصور سفينة تسبح بالناس فوق الموج ، وقد أخذ كل راكب مكانه على حذر فجلس قوم فى الأعلى ، وجلس آخرون فى الأسفل ، فكان الجالسون فى الأسفل يضطرون إلى الذهاب للناحية الأخرى كى يستقوا من النهر ، وقد عدوا ذلك مشقة مرهقة ، ثم بدا لهم أن يخرقوا مكانًا فى موضعهم ليصلوا إلى الماء مباشرة ، وذلك موضع الخطر على الراكبين جميعًا ، إذ إنه سيهوى بهم لا محالة فى القاع. فلا بد أن تهب الجماعة لدرء هذا الشر ، وإلا هلكوا جميعًا. فحرية الفرد إذًا مقيدة بمصلحة الجماعة ، وعليه أن يتحمل بعض المشاق الخاصة منعًا لضرر خطير يلحق الجميع ، كم تروعك هذه الحقيقة الباهرة مصورة فى قول محمد ﷺ :

«مثل القائم على حدود الله والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا جميعًا»[2] .

(١) سورة الرعد : ١٧ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٦ .

ومزية أخرى للتمثيل الأدبى الجيد هى أنه لا ينطبق على المعنى المراد توضيحه وحده بل يتعداه إلى أمور بعيدة عن نصه ، ويمكن أن تندرج فى فحواه ، فإذا كانت الصورة الأدبية فى حديث السفينة قد ألقت ضوءها النافذ على مشكلة الحد من الحرية الشخصية ضمانًا لسلامة المجموع ، فجعلت هذا المبدأ بما ألقت من الأشعة والظلال بمنزلة المقررات البدهية التى لا يتمارى فيها المجادلون ، فإن القارئ الناضج هو الذى يسبح بتفكيره ، فيضم إلى الصورة الفنية أمورًا أخرى يمكن أن تندرج تحتها لبعض وجوه التشابه القريب ، ومثال ذلك ما بسطه الأستاذ مصطفى صادق الرافعى فى قوله تعليقًا على الحديث المتقدم :

«كان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ويسمون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف كحرية الفكر ، والغيرة والإصلاح ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا بفأسه أى بقلمه زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ويتولاه ، كيف أراد موجهًا لحماقته وجوها من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة جاهلاً أن القانون فى السفينة إنما هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه كما يحكم على الأعمال الأخرى ، بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على الشروع فيه ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة ، أو يمسه من قرب أو بعد بعد مادامت ملجحة فى بحرها ، سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة أصغر من خرق ، ليس لها إلا معنى واحد هو أوسع من قبر إلى أن قال الأستاذ الرافعى: «هكذا يجب تأمل الجمال الفنى فى كلامه ﷺ كلما زدته فكرًا زادك معنى وتفسيره قريب كالروح فى جسمها البشرى ، ولكنه بعيد كالروح فى سرها الإلهى ، فهو معك على قدر ما أنت معه إن وقفت على حد وقف ، وإن مددت مد ، وما أديت به تأدى»[1] .

(١) « وحى القلم » ، ج ٣ ، ص ٨ .

ولعل بعض أسباب هذه الروعة فى التصوير النبوى ترجع إلى ما تتضمنه الصورة من الإيجاز البليغ ، إذ إن هذا البيان الذى يفتح لأمثال الأستاذ الرافعى هذه الآفاق لم يذهب فيه قائله مذهب الإطناب حتى تنفرج كثرة القول عن مسائل كثيرة.. ولكنه الإيجاز بحيث لا يتجاوز كلمات معدودات أحكم محمد وضعها حيث تشع كل كلمة ببدائع الفكر وروائعه.. ولو سلك به القائل ﷺ مسلك الأسباب ما كان له هذا السطو الأخاذ.. فهو أدرى بمناحى الروعة ومثارها لدى النفوس ، لذلك نراه عليه الصلاة والسلام يوجز ويوجز ، حتى فى مجال التصوير الأدبى حيث يتوهم بعض الناس أن روعة الصورة البيانية لا تكتمل إلا بانفتاق القول واتساع الحديث.. وها نحن أولاء نرى السطر الواحد من بيان محمد يسع حشودًا ، ولدينا مع ما تقدم مثل آخر :

١ - روى أبو هريرة عن النبى ﷺ أنه قال: «مثل البخيل والمنفق ، كمثل رجلين عليهما جبتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما ، فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت أو وفرت على جلده حتى تخفى بنانه وتقفو أثره ، وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئًا إلا لزقت كل حلقة مكانها فهو يوسعها فلا تتسع»(١) .

٢ - روى أبو موسى الأشعرى عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع من حيث أتتها الريح كفأتها ، فإذا اعتدلت تكفأ بالبلاء ، والفاجر كالأرزة الصماء معتدلة حتى يقصمها الله إذا شاء»(٢) .

فالشاهد الأول يتحدث عن الإنفاق ، وحب المال جبلة فى النفس فهو منها بمنزلة مكينة قابضة لا تسمح له بالانفلات ، وقد لجأ القرآن إلى التصوير البيانى فى مواضع كثيرة ليدفع هذه الأنفس الشح إلى التصدق ابتغاء مرضاة الله فوالى الأمثلة

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٥.

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٦.

التصويرية مثالاً خلف مثال من نحو : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾(١) ، ونحو : ﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ﴾(٢) إلى آخر ما تعلم من كتاب الله ، وجاء محمد ليهتدى بهدى القرآن ، فيضرب المثل المعبر عن حالتى: الجواد والبخيل ، فالكريم إذا أراد النفقة والتصدق كانت نفسه راضية قريرة فهى تدفعه إلى الخير مستريحة مسرورة ، وإذ ذاك يتقبل الله معروفه فيمحو به ما أسلف من السيئات ، أما البخيل فيستمع إلى داعى الخير ما يستمع حتى إذا ألح الطرق على سمعه وهم بعض التصدق ثار عليه شحه.. فقبض يده عن المعروف ، وما أشبه الأول بمن يرتدى درعاً فضفاضة تتسع له فى تمام وطول حتى تغمر جسمه وتتجاوزه إلى أثره على الأرض فتمحوه ، وذلك كناية عن محو الآثار لأن الحسنات يذهبن السيئات.. أما الثانى فقد لزقت كل حلقة من حلقات الدرع مكانها فهو يوسعها فلا تتسع ، إن التعبير بقوله لزقت ليصور من معانى القبض والشح والكزازة شيئًا كثيرًا لا تتسع له الصفحات ، وإذا كانت الحلقات الملتصقة من حديد فما ظنك بثقلها وضيقها وأخذها بالمخانق والأوصال ، أترى تصويرًا رائعاً للمتناقضين من الكرماء والبخلاء يبلغ موضع هذا التصوير الحى فى التمثيل النبوى المبين؟

أما اختياره الخامة من الزرع للمؤمن فى الشاهد الثانى ، فما أصدقه وأدقه ، جل بذهنك فيمن تعرف من أصدقائك المبتلين ، وتذكر صديقا مؤمنًا لا يكاد ينجو من مأزق فى نفسه أو أهله أو ماله إلا ارتطم بمأزق ، فهو دائم الوقوع والاعتدال ، إن الضيق ليبلغ به أعنف مبلغ ، إذ يرى نفسه هدفًا للقدر ينوشه أنى سار ، وهو بعد ملتزم حدود دينه كبير الأمل فى ربه ، فى حين يرى جاره الفاجر يعب وينهل من

(١) سورة البقرة : ٢٦١ .

(٢) سورة البقرة : ٢٦٥ .

المحرمات دون أن تعثر به قدم.. لاشك أنه سيقارن ويوازن وقد يغشى روحه ضباب الشك لحظات مريرة فيرتاب فى مسلكه النزيه ، فإذا تلوت عليه حديث محمد بتصويره الملهم فسيرى نفسه كمثل الخامة من الزرع تكفأ وتعتدل ، فإذا اعتدلت ذهبت بالبلاء ومحقت ما أسلف من الأوزار .

وسيبلغ البيان النبوى من نفسه مكان الرضا والاستبشار ، بل إن شعوره نحو جاره الفاجر لينقلب من الحسد إلى الرثاء إذ يراه يوشك أن يقصم كالأرزة الصماء فلا تنهض له قائمة متى شاء الله؟ أى سحر يبثه هذا البيان!

إن التمثيل الأدبى أرقى ما تعرف من صور البيان ، وللقرآن الكريم والحديث النبوى منه مالا يتعلق بغبارة متعلق ، وقد أجاد نابغة البلاغة العربية «الشيخ عبد القاهر الجرجانى» فى وصف تأثيره النفسى ، إذ خصه بفصل رائع فى أسرار البلاغة قال فى مفتتحه» [(١)] :

«واعلم أن مما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء فى أعقاب المعانى أو برزت هى باختصار فى معرضه ، ونقلت عن صورها الأصلية فإلى صورته كساها أبهة وكسبها منقبة. ورفع من أقدارها ، وشب من نارها ، وضاعف قواها تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستنار لها من أقاصى الأفئدة صبابة وكلفًا ، وقسر الطباع على أن تعطيها محبة وشغفًا .

فإن كان مدحًا كان أبهى وأفخم ، وأنبل فى النفوس وأعظم ، وأهز للعطف وأسرح للإلف ، وأجلب للفرح وأغلب على الممتدح ، وأوجب شفاعة للمادح وأقضى له بغر المواهب والمدائح ، وأسير على الألسن وأذكر ، وأولى بأن تعلقه القلوب وأجدر .

وإن كان ذمًّا كان مسه أوجع ، وميسمه ألذع ، ووقعه أشد ، وحده أحد وإن كان حجاجًا كان برهانه أنور ، وسلطانه أقهر ، وبيانه أبهر .

(١) « أسرار البلاغة » ، ص ٩٢ .

وإن كان افتخارًا كان شأوه أبعد ، وشرفه أجد ، ولسانه ألد .

وإن كان اعتذارًا كان إلى القبول أقرب ، وللقلوب أخلب ، وللسخائم أسل وللغضب أفل ، وفى عقد العقود أنفث ، وعلى حسن الرجوع أبعث ، وإن كان وعظًا كان أشفى للصدر وأدعى للفكر ، وأبلغ فى التنبيه والزجر ، وأجدر أن يجلى الغيابة ، ويبصر الغاية ، ويبرئ العليل ، ويشفى الغليل» .

ثم مضى الشيخ يستعرض لذلك أمثلة من الشعر العربى مما قال: «البحترى وابن الرومى وأبو تمام والمتنبى وغيرهم».. فاضطر السيد «رشيد رضا» - ناشر الكتاب - أن يذكر فى هوامش الفصل أمثلة من القرآن تبلغ الغاية فى التدليل من مثل قول الله : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾، وقوله : ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، أو : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ﴾ ، أو ﴿ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾، أو : ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ ، أو : ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ، أو : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ، أو : ﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ﴾ ، أو : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴾ ، وهو جهد موفق قام به صاحب المنار ليشير إلى أن كتاب الله أولى بالصدارة والاستشهاد والتمثيل .

وقد كان على السيد رحمه الله أن يذكر أمثلة أخرى من روائع الحديث النبوى ، وليس ذلك بمعجزه فى شىء ، فالرجل محدث حجة حافظ ، وهو يعلم أن ضروب التمثيل الأدبى فى البيان النبوى مما يتقاصر عنه أكابر الشعراء الذين اهتم بهم الشيخ عبد القاهر ، وقد آن لنا أن نطرف القارئ ببعض هذه الروائع عن رسول الله :

١ - مثل الجليس الصالح والسوء كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك وإما أن تبتاع منه ، وإما أن تجد منه ريحًا طيبًا ، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك ، وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة(١) .

٢ - مثل المؤمن الذى يقرأ القرآن مثل الأترجَّة ريحها طيب ، وطعمها طيب ، ومثل المؤمن الذى لا يقرأ القرآن مثل التمرة لا ريح لها ، وطعمها حلو ، ومثل المنافق الذى يقرأ القرآن مثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذى لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة لا ريح لها وطعمها مر(٢) .

٣ - أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا ، ما نقول ذلك يبقى من درنه قالوا: لا يبقى من درنه شىء ، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بها الخطايا(٣) .

٤ - مثلى ومثل ما بعثنى به الله كمثل رجل أتى قومًا ، فقال: رأيت الجيش بعينى ، فأنا النذير العريان ، فالنجاء ، فأطاعته طائفة فأدلجوا على مهلهم فنجوا ، وكذبته طائفة ، فصحبهم الجيش فاجتاحهم(٤) .

٥ - إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى ، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله ، إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ، ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين(٥) .

٦- إنما مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد نارًا ، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التى تقع فيها ، فجعل ينزعهن ويغلبنه ، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقتحمون فيها(٦) .

---

(١) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٧.
(٢) « التاج » ، ج ١ ، ص ٣ .
(٣) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٥٥ .
(٤) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٢٩ .
(٥) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٣٧ .
(٦) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

٧ - إنما صاحب القرآن كـصاحب الإبـل المعلقـة: إن عاهـد عليهـا أمـسكها ، وإن أطلقها ذهبت[١] .

٨ - مثل المسلمين واليهودوالنصارى ، كمثل رجل استأجر قومًا يعملون لـه عمـلاً يومًا إلى الليل على أجر معلوم ، فعملوا له إلى نصف النهار ، فقـالوا: لا حاجـة لنا إلى أجرك الذى شرطت لنا وما عملنا باطل ، فقال: لا تفعلـوا أكملـوا بقيـة عملكم وخذوا أجركم فأبوا وتركوا ، واستأجر آخرين بعدهم ، فقال: أكملـوا بقية يومكم هذا ولكم الذى شرطت لهم من الأجر ، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا لك ما عملنا باطل ، ولك الأجر الذى جعلت لنا فيه ، فقال لهم: أكملوا بقية عملكم ، فإنما بقى من النهار شىء يسير فأبوا ، فاستأجر قومًـا أن يعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس ، فاستكملوا أجر الفريقين كليهـما ، فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من النور[٢] .

٩ - ينام الرجل فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرهـا مثـل أثـر الوكـت ، ثـم ينـام النومة فتقبض فيبقى أثرها مثل المجل ، كجمر دحرجته على رجلك فنفط فتراه منتبرًا ، وليس فيه شىء ، فيـصبح ا لنـاس يتـابعون فـلا يكـاد أحـدهم يـؤدى الأمانة ، فيقال: إن فى بنى فلان رجلاً أمينًـا ، ويقـال للرجـل مـا أعقلـه ، ومـا أظرفه ، وما أجلده ، وما فى قلبه حبة من خردل من إيمان[٣] .

١٠ - إن مما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينها ، فقـال: رجل: يا رسول الله ، أو يأتى الخير بالشر ، فسكت النبى ﷺ فقيل له: ما شأنك تكلم النبى ﷺ ولا يكلمك ، فرأينا أنه ينزل عليـه الـوحى قـال: فمـسح عنـه الرحضاء ، فقال: أين السائل؟ وكأنه حمده ، فقال: لا يأتى الخير بالشر ، وإن مما

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٥٢ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ١٢٩ .

(٣) « هداية البارى » ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ .

ينبت الربيع يقتل أو يلم ، إلا آكلة الخضراء أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت ، وإن هذا المال خضرة حلوة ، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين ، وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذى يأكل ولا يشبع ، ويكون شهيدًا عليه يوم القيامة[1] .

هذه عشرة أحاديث تتضمن عشر صور بيانية جامعة ، ولو ذهبنا بها مذهب التحليل الأدبى على نحو قريب مما سبق لطال القول ، ولكننا نكتفى بأن نقول: بأنها تلج بالمعنى إلى شعاب النفس؛ فتزيده وضوحًا فى الخاطر وجلاء فى الذهن ، لتستحيل أفكاره الهادية دمًا خالصًا يترقرق فى عروق المسلم ، ونورًا يمتد فى عقله وبصره ، ونفسًا يتردد فى رئتيه ، وذلك بعض ما يفيض البيان الساحر والأدب الرفيع .

وقد يرى القارئ ، أن ما اخترته آنفًا من الآثار البيانية للرسول ، يشير إلى الصور الكلية لا الجزئية ، وهذا حق ، إذ إنى تعمدت ذلك نظرًا لأن الصورة الكلية أشق تركيبًا وأدل على المقدرة والافتنان من صورة جزئية تقع فى تشبيه مفرد بمفرد ، أو فى استعارة تصريحية أو مكنية ، ولسنا بذلك نضائل من القيمة الفنية للصور الجزئية فهى جهد أدبى له تقديره ، لأن المجاز - أيًا كان نوعه - يرتكز على أساس عكسى شاق وهو: وضع صورة أو معنى أو حالة مكان شىء آخر ، وإن من أعظم الأشياء كما قال «أرسطو»: أن تملك زمام المجاز على جه يبعث الانشراح ، فحينما تكون فى عقلنا فكرتان مختلفتان تعملان معا تحت كنف عبارة واحدة ، أو حينما ندرك شيئًا أو نحس به عن طريق شىء آخر يتسنى للأديب أن يبدع المجاز كما يريد، فالحالة الأولى تتهيأ - مثلاً - حين يرى الأديب الفتاة فى صورة قمر ، والحالة الثانية تتهيأ حين يخلع على الشجرة أو الحيوان بعض صفات الإنسان[2] ، ومن هنا كان

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٤٢ .

(٢) « الأصول الفنية للأدب » ، ص ١٠٨ .

المجاز مجالاً لاندماج فكرتين تدل عليهما كلمة واحدة لا كلمتان ، ومرد ذلك إلى: الخيال ثم إلى القدرة على الصياغة اللغوية ، فالصورة البيانية كلية أو جزئية ، تحتاج إلى جهد لا محالة ، ولكن الأديب المطبوع يسهل عليه منها ما لا يسهل على غيره ممن يتكلفون أوجه البيان على غير فطرة موهوبة ، وإذا كانت العلاقة فى التعبيرات المجازية قائمة على مدى الترابط بين الحقيقة والمجاز ، فإن هذه الروابط قد تتشابك وتتعدد وتتكدس ، فإذا وفق الأديب فى إيجاد انسجام قوى بين هذه الروابط المتشابكة بحيث تكون صورتها زاهية منسقة ، فقد بلغ التوفيق كما نرى فى الصور الكلية من البيان النبوى التى ألمعنا إليها بالتحليل ، إذ إن الصورة الواحدة تضم فى إطارها شيئًا من الصور المتناثرة ، وقد خضعت إلى نظام من التناسق يؤلف بينها ويجعل منها خطوطًا ملتحمة لصورة واحدة ذات ملامح ، وسمات ، وهذا بعض ما يشير إليه صاحب الأصول الفنية للأديب حين يقول :

«إن الأعمال العقلية التكوينية يمكن أن تستخدم فيها الروابط الضعيفة بين الأشياء لتحقيق الانتقال من فكرة إلى أخرى ، وقد تتشعب هذه الروابط وتسلك مسالك ملتوية ، فينشأ عن ذلك تكوينات وصور عقلية جديدة متكدسة ، وعلى قدر هذا التكديس تكون غزارة الإشارات والمجازات وقوتها الشعرية ، ولهذا يرى علماء البيان أن أقوى صور التشبيه والمجاز والاستعارة ما كان متنوعًا من متعدد سواء فى طرفى التشبيه أم فى وجه الشبه»..؟

وما يقوله علماء النقد المعاصر هو فى لبابه ما عناه فارس البلاغة العربية ، «عبد القاهر الجرجانى» حين قال: عن التمثيل ما سطرناه من قبل ، وهذا الاحتفاء البالغ حديثًا وقديمًا بالصور الكلية فى البيان.. لا يمكن أن نهمل معه ما جاء فى الحديث النبوى من الصور الجزئية الرائعة ، بل إن مما يضاعف منزلتها فى حديث رسول الله أنها سنحت عفوًا لخاطر فى كلامه العادى بين الناس ، لأنك إذا أردت أن تستعرض صورًا بيانية لشاعر أو ناثر غير رسول الله ﷺ فإنما تستعرض صورًا بيانية

من أدب بذل صاحبه جهدًا كبيرًا ، وقضى وقتًا حافلاً فى تدبيجه ، ولكن الرسول لأمر أراده الله لم ترو عنه أكثر خطبه التى يتسلسل فيها القول بعد نوع من الإعداد النفسى ، والتهيئة لما يناسب المقام فى كثير من الأحوال ، إنما رويت أحاديث قالها فى المسجد ، وفى المنزل ، وعلى قارعة الطريق ، مطبوعًا غير متكلف ، فإذا حفلت بعد ذلك بأطايب الصور من كلية وجزئية فلله ما أروع وما أبدع!

لنا أن نشير إلى بعض التشبيهات من الصور الجزئية فى أدب الرسول بمثل قوله:

١- الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية .

٢- الناس كمعادن الذهب والفضة ، خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا .

٣- المؤمن هين لين ، كالجمل الأنف إن قيد انقاد ، وإن استنيخ على صخرة استناخ .

٤- المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا .

٥- المرأة كالضلع العوجاء ، إن قومتها كسرتها ، وإن داريتها استمتعت بها .

٦- لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا.

٧- المتشبع بما ليس فيه كلابس ثوبى زور .

٨- أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره .

٩- مثل المؤمن كالسنبلة تميل أحيانًا وتعتدل أحيانًا .

١٠- عمالكم كأعمالكم ، وكما تكونوا يول عليكم .

وهذه الأحاديث العشرة مما اختاره الأستاذ «على الجندى» فى ص ٢٧ من الجزء الثانى من كتابه «فن التشبيه» ، وإليه يرجع فى استقاء مصادرها من الكتب الصحاح.

أما نماذج الاستعارة والكناية فنضرب بها الأمثلة مما اختاره «الشريف الرضى» فى المجازات النبوية وكلها روائع أخاذة لا يغنى بعضها عن كلها ، ولكننا ننقل منها عشرة أحاديث أخرى دون اختيار متعمد؛ إذ نسطر بعض ما وقعت عليه العين فى القراءة الأولى دون ترجح ومنه ما يلى :

١- اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع .

٢- إنى ممسك بحجزكم ، هلموا عن النار وتغلبوننى ، تقاحمون فيها تقاحم الفراش والجنادب ، وأوشك أن أرسل حجزكم .

٣- لا يلقى الله عبد لم يشرك بالله شيئًا ولم يتند بدم حرام إلا دخل من أى أبواب الجنة شاء .

٤- خير المال: عين ساهرة لعين نائمة .

٥- يمين الله ملأى سحاء لا يغيضها الليل والنهار .

٦- عائد المريض على مخارف الجنة .

٧- ليس أحد يدخل الجنة بعمله ، قيل: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمته .

٨- اعلموا أن الجنة تحت البارقة .

٩- اللهم ، إنا نعوذ بك من وعثاء السفر ، وكآبة المنظر ، وسوء المنقلب فى المال والأهل .

١٠- من بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه ونخيلة صدره فليطعمه ما استطاع.

تلك نماذج للصورة الجزئية من البيان المحمدى ، يكتمل بها الحديث عن مبين ملهم واتته الفصاحة ، فكان سيد البلغاء .

* * *

(د) ناحية التعبير من الحديث

نفى الله عز وجل عن رسوله ﷺ التكلف حين قال على لسانه: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴾[1] لأن التكلف فى كل أمر يحبط تأثيره، ويلقى على صاحبه ظلاًّ من الكراهية والاستثقال، وأظهر ما يكون التكلف فى قول يقال؛ لأن السامع لا يفتح صدره لمن يلمس فيه هذا الخلق الثقيل، ومهما كان قوله صائبًا صحيحًا، فإن مسحة التكلف تلقى عليه ظلالاً بغيضة تجعله أشبه بالقول المخطئ، وما هو به، لأن الروح التى يصدر عنها لا تظهر صافية مطبوعة، بل تعانى من آصار التكلف والتصنع ما يكاد يعصف بما لديها من السداد والإصابة. لذلك كان بيان محمد ﷺ سهل المأخذ قريب المتناول، موجز العبارة لو عده العاد فى مجلس من مجالسه لأحصاه. ومن هنا كره الرسول الثرثرة ونهى عن التشدق لما يعرفه من مجانبة الثرثارين والمتشدقين للنهج الأصوب، ولما يعلم عن نفوس السامعين إذ تزور عن الافتعال والتفاصح. وتلك فطرة فطر الله عليها الكثرة الكاثرة من الناس، ، وقد سبق أن أشرنا فى بعض الفصول إلى قول عائشة رضى الله عنها: «ما كان رسول الله يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصل يحفظه من جلس إليه»، وفى رواية أخرى «كان رسول الله ﷺ يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه». وإذا عرف أن محمدًا فى صميم رسالته مبلغ يأمر الشاهد أن ينقل عنه إلى الغائب، فإن هذا مما يدعوه إلى الإيضاح الكاشف فى القول واليسر الموجز فى الحديث كيلا ينقل عنه

---

(١) سورة ص: الآيات ٨٦: ٨٨.

القول على غير ما أراد ، ومن هنا كان الرسول الأعظم حسن الترتيل سهل العبارة ، لا يتكلم فى غير حاجة ، بل ربما أعاد الحديث فى المجلس الواحد ليرتسم فى الأسماع كما جاء .

أول صفات التعبير لديه: سهولة المأخذ وقرب المتنازل ، فإذا أتى السامع حديثه ﷺ ظل لسلامته ويسره أنه مما تسهل محاكاته ، فإذا أراد أن يأتى بمثله طاش وحار. وليس اليسير السهل مما يمل على التكرار ، ولكنه يتردد ويظل محتفظا بجدته الطريفة ، إذ إن وراءه فكرًا دقيقًا يزن الرأى السديد ميزانًا تامًّا ثم يعرضه فى يسر قريب المتناول .

يقول ﷺ : «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». كم سمعنا هذا الحديث وكم تلوناه ، أيجوز أن نقول إنه يفقد رونقه بالتكرار؟ لقد جاء سهلاً سلساً قريب المأخذ يفهمه كل إنسان مهما كانت درجة عقله من التفكير. ومع هذه السهولة اليسيرة فإن صياغته الأدبية ترمز إلى عقل دقيق خبر أحوال الناس وعرف اختلافهم فى القدرات والأعمال ، فمنهم من يستطيع مواجهة الباطل بقوته ، ومنهم من تعوزه القوة دون الكلمة ، ومنهم من لا يستطيع قوة أو كلاماً ، ولكل وظيفته الخاصة أمام المنكر ، فهل كانت سهولة التعبير مانعة سداد الرأى وبعد النظر ، وصحة التقسيم .

أتدرون لماذا اتسم أدب محمد بالإيضاح والإشراق؟ إن فريقا من أساتذة النقد يقولون: إن المعانى الغامضة التى يفاجئنا بها نفر من الكاتبين فى مؤلفاتهم العويصة لا تدل على العمق والقوة قدر ما تدل على العجز والعمى ، لأن المعنى إذا كان واضحًا فى نفس الكاتب ، بارز الجوانب فى تصوره انقاد له اللفظ انقيادًا ، فجاءت الألفاظ سلسة طائعة تصور ما بنفسه من الأفكار الواضحة التى يراها دون حجاب، أما إذا كان المعنى لا يزال غامضًا فى تفكيره لم تتحدد معالمه على وجه ساطع فإنه يتعثر فى التعبير عنه يطلب اللفظ الملائم فلا يوافى ، فيلجأ إلى عبارات

غامضة كمعانيه المبهمة يسطرها فى جهد ومشقة ، فإذا طالعها القارئ ، عجز عن اجتلائها وتلبث لا يستطيع الوصول ، ودونه ضباب غائم لم يتضح فى نفس قائله ، فأنى له أن يتضح لدى القارئين ، فإذا أشرق بيان محمد فى نفوس قارئيه وسامعيه فإنما تشرق معانيه الواضحة ، وتفكيره الساطع ، ورأيه الجهير .

إذًا ، فوضوح التركيب ويسر مأخذه وسهولة تناوله ، أقرب الخصائص العامة إلى تعبير محمد ، وإذا كانت موسيقى النثر الأدبى من أوضح الدلائل الفنية على جودته ، فإننا سنشير إليها ببعض القول حتى يتسنى لنا أن ننتقل إلى التطبيق عليها من البيان الشريف .

يظن بعض الناس أن الموسيقى النثرية لا تكون إلا بالمحسنات البديعية من سجع وازدواج وجناس ، وهذا بعض الحق لا كله ، لأن الموسيقى النثرية قد تكون بهذه المحسنات إذا أتت عن طبع وصدرت عن أصالة وقد تكون بغيرها ، إذا رتب الكلام ترتيبًا نفسيًّا يوافق اهتزاز المشاعر ، وتموجات النفس بأن يعبر الأديب عن خواطر تطرد وتتدفق منسجمة فى نسق خاص ، فكأن سلكاً خافيًا ينظمها نظم الدر، وهذا ما يعرف بالموسيقى الخفية ، وأماراتها أن تستمع للأثر الأدبى يتلى عليك، ومن ورائه أذنك المرهفة تصغى لنظم قد تماسك والتحم معنى ومبنى ، بمعنى أن القارئ لو سكت فجأة دون إتمام مقاله الأدبى لشعرت أن نشازاً حدث فانبترت الموسيقى انبتارًا قاطعًا ، فإذا أتم الحديث لغايته فقد بلغ بك الطرب النفسى أقصاه ، إذ رويت ظمأك بما ينقع الغليل ، ومن المعلوم أن تسبق الألفاظ تنسيقًا فنيًّا يكسبها معانى جديدة ليست لهذه الألفاظ إذا كتبت كما يتفق دون تنسيق، كما أنه يجعل القارئ حريصًا على تتبع المعنى ومستشرفًا له لأن الموسيقى الخفية التى تطرد وراء الألفاظ تبنىء عن مدى انتهائها وترسم فى نفس السامع أبعادًا يطمح إليها فهو يستقبل ما يأتى من القول استقبال المستشرق المترقب ، ولك أن تلمس تطبيق ذلك فى نحو قول رسول الله ﷺ :

«عن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: عليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا»[1] ، فأنت إذا نظرت إلى هندسة هذا الحديث تجده صيغ صياغة فنية بحيث لو تقدمت جملة على جملة لاختل استواؤه الأدبى ، وهو مع ذلك يترقى بك من معنى إلى معنى فى سلم تنتظره وتحس كمال إتقانه ، لأنه يصعد بالمعانى وفق ما يتصور الذهن وما يناسب الإحساس ، ومن هنا كانت الموسيقى الخفية وليدة هذا التنسيق المحكم للمعانى فى معرض دقيق من الألفاظ .

جاء فى الجزء الثانى من كتاب «النقد والبلاغة» ما نصه[2] :

«الموسيقى النثرية ليست حركة لفظة ، وإنما هى كالموسيقى الشعرية صورة حركة نفسى أو هى ترجمة صوتية عن تجربة للكاتب من شأنها أن تعين اللغة والكلمات على أداء المضمون الروحى للكاتب ، وبعبارة أخرى أن تعبر الألفاظ عن المعانى بذواتها ، فإذا نسقت هذه الألفاظ تنسيقًا خاصًّا اكتسبت من موسيقاها معانى جديدة ، وهذا هو الذى يقصده البلاغيون من ألفاظ العذوبة والرقة والجزالة والفخامة ، والطلاوة والسماحة التى تفصح عن موسيقى الأدب وأثرها فى نفوسهم.

ومن الخطأ « أن تصبح الموسيقى أداة فاعلة يوجه بها الكاتب معانيه توجيهًا واعيًا ، فإن الموسيقى حينئذ تستحيل إلى ضريبة مفروضة كالبديع الذى التزمه بعض الكتاب والشعراء لتوهمهم أنه قدر ضرورى لعلاج الكلام وجماله ، وليست الموسيقى فى النثر دائمًا رهينة السجع والازدواج ، كما قد يتبادر إلى الذهن ، ولكنها

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٥٦.

(٢) ص ١٥ للدكتور محمد مهدى علام وزميليه .

فن أخفى من ذلك. فمن الصحيح أن الكاتب قد يعتمد على توازن بين العبارات لكن هذا التوازن ليس مطلبًا أساسيًّا ، وربما كان التعبير عن حركة عاطفية قوية لا تستلزمه » .

هذا القول فى صميمه يعطينا مفتاحًا صادقًا لما يراد بالموسيقى النثرية ، فهو يبعد عنها كل مفتعل من المحسنات ، ويقرب إليها ما يترجم عن تجربة الأديب التى تحمل للسياق أشعة وظلالاً توحى بهما الكلمات إذا اطردت على نسق خاص ، وتتجرد عنهما إذا جانبت هذا النسق ، كما أن الموسيقى النثرية ليست رهينة السجع والازدواج إذا أحسن استخدامها ، فيحدثان من الموسيقى ما ترتاح له النفس ، وقد لا يعتمد على شىء منهما ويجىء أسلوبه مليئًا بالموسيقى الخفية؛ لأنه يصور حركة نفسية قوية .

وسبيلنا الآن أن نضرب الأمثلة من بيان الرسول لما نشأت فيه الموسيقى النثرية من اطراد النسق الفنى فى تدبيج المعانى وفق الحركات النفسية ، ولما نشأت فيه الموسيقى النثرية من اصطناع المطبوع غير المتكلف من المحسنات .

١- فمن الأول ما روى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: يخرج فى آخر الزمان رجال يختلون الدنيا بالدين ، يلبسون للناس جلود الضأن من اللين ، وألسنتهم أحلى من السكر ، وقلوبهم قلوب الذئاب يقول الله عز وجل: «أبى يغترون أم علىّ يجترئون ، فبى حلفت لأبعثن على أولئك منهم فتنة تدع الحليم حيران» (١) .

٢- ومنه ما روى عن رسول الله قال: أتانى الليلة آتيان ، فابتعثانى فانتهيا بى إلى مدينة مبنية بلبن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء وشطر كأقبح ما أنت راء ، قالا لهم: اذهبوا فقعوا فى ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا إلينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا فى أحسن صورة،

---

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢١٥ .

قالا لى : هذه جنة عدن ، وهذا منزلك أما القوم الذين كان شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح ، فإنهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئًا تجاوز الله عنهم[١] .

٣- يجاء بالرجل يوم القيامة ، فيلقى فى النار فتندلق أقتابه فى النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون: يا فلان ، ما شأنك ألست كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: «كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه ، وأنهاكم عن المنكر وآتيه».

هذه ثلاثة أمثلة لما تتضمن الموسيقى الخفية من نثر الرسول. تقرأ المثال الأول فترى الانسجام فى تأليف ألفاظه ، رجال يختلون الدنيا ، ويلبسون جلود الضأن ألسنتهم أحلى من السكر ، قلوبهم قلوب الذئاب يبكتهم الله ، فيقول: أبى يغترون أم علىَّ يجترئون ، ألا يحس القارئ أنه يسير مع الحديث فى طريق منسجم لا ارتفاع ولا انخفاض ، ثم ألا يرى لكل كلمة إيحاءً خاصًّا تجيش به المشاعر وتهتز ، هذا أثر الموسيقى الخفية ، والحديث الثانى أليس فى تكامله وانسجامه يكون مشهدًا من قصة تقع أحداثها فى مدينة بنيت من ذهب وفضة ، وقد قسم الناس شطرين على شفتى نهر.. ثم نزل إليه بعضهم فعاد أقبحهم جمالاً ، هل تستطيع أن تقطع الحديث قبل أن تتمه.. لو فعلت لانبترت موسيقاه الخفية التى اتصلت فى سلك مستتر لتصل ما بين البدء والختام .

والحديث الثالث يتضمن مشهدًا مؤثرًا لرجل يدور يوم القيامة بأمعائه كما يدور الحمار برحاه ، وكان عند الناس وجيهًا فى الدنيا فأقبلوا يسألون عن مصدر بلواه ، فعلموا أنه كان ينهى عن المنكر ويأتيه ويأمر بالمعروف ولا يفعله . أليست كلمات الحديث مترابطة يشد بعضها بعضًا ، وبينها من التماسك ما لا يعصف به أقوى الزعازع ، هذا الترابط المتماسك المنسجم لفظًا ومشهدًا وحوارًا هو ما تتدفق فيه الموسيقى الخفية فتبعث تأثيرها فى النفس كأعنف ما يكون التأثر .

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١١ .

نستطيع أن نترك اللون الأول مما انبعثت فيه الموسيقى النثرية من اطراد النسق الفنى فى تصوير المعانى ، وفق الحركات النفسية إلى اللون الثانى ، مما نشأت فيه الموسيقى من ازدواج وسجع وبعض المحسنات .

لقد أصبح من نافلة القول أن نذكر أن التكلف فى اصطناع البديع قد هوى بالأدب إلى أحط الدركات فى عصور الانحطاط يوم كان أدباء العصر المملوكى ومن شابههم ، يجعلون رسائلهم الأدبية تطبيقات بلاغية للسجع والطباق والتورية والجناس. وقد ذهب الزمن بأكثر ما سطر هؤلاء ، ولم يبق من أدب البديع إلا ما تحدر عن طبع رائق ، ونبع عن ذوق سليم ، وما نتذكره من أدب النبوة فى ذلك هو أرقى ما سمح به الذهن البشرى من إبداع ، ومن المنتظر أن يكون أدب الرسول مما اتجه إلى اللون البديعى قليلاً إذا قيس بأدبه المترسل ، لأن الذى يكثر من البديع أديب يتعمده ويترصد له الطرق.. وما هكذا كان الرسول ، إذ إن البديع كان يسنح على لسانه فطريًّا عفويًّا دون ارتصاد. وأكثر ما جاءه فى ذلك ما كان من الازدواج ، وأقله ما كان من السجع أو المطابقة والجناس. والازدواج فى أحاديث الرسول تنسيق للمعانى قبل أن يكون تنضيدًا للألفاظ ، بحيث يشعر القارئ ، أنه يترقى من فكرة إلى فكرة ، لا أنه يدور فى فلك لفظى يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع، ونضرب له الأمثلة بهذه الآثار النبوية :

١- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد من النار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس قريب من النار ، ولجاهل سخى أحب إلى الله من عابد بخيل[1] .

٢- عن أبى هريرة عن رسول الله قال على لسان ربه: ما يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٧٠ .

يبصر به ، ويده التى يبطش بها ورجله التى يمشى بهـا ، وإن سـألنى لأعطينـه ، وإن استعاذنى لأعيذنه ، وما ترددت عـن شـىء أنـا فاعلـه تـرددى عـن نفـس المؤمن، يكره الموت ، وأنا أكره مساءلته[1] .

٣- عن أبى هريرة عن رسول الله قال: «ستكون فتن ، القاعد فيها خير من القـائم ، والقائم فيها خير من الماشى ، والماشى فيها خير من الـساعى ، مـن تـشرف لهـا تستشرفه ، ومـن وجـد فيهـا ملجـأ أو معـاذا فيـه فليعـذ بـه»[2] فـالازدواج فى الأحاديث الثلاثة أوضح من أن يدل عليه. ومازلت أقول إنـه تنـسيق للمعـانى قبل أن يكون تنضيدًا للألفاظ بحيث يشعر القارئ أنه يترقـى مـن فكـرة لا أنـه يدور فى مجال لفظى يتعمد فيه القائل إظهار البراعة والإبداع .

أما السجع فى البيان النبوى فما أكثر ما قيل فيه ، لقد وردت عن رسول الله آثار بيانية تتضمن السجع ، وكان على النقاد أن يمروا بها دون جدال يحتدم ، لأن السجع فى البيان النبوى مما أوحته الفطرة وتطلبه الموقف ، ولكن السجع نفسه كـان محـور نقاش بين محبذ له ومعارض ، فتطلب الأمر أن يكون رأى الرسول فى السجع مجـال نقاش بين المحبذين والمعارضين ، فالمحبذ يستشهد ببعض الآثار النبوية المسجوعة ، والمعارض يستند إلى أقوال نبوية ربما أخذ منها ما ينقص الأسـجاع ، وهكـذا دارت المعركة حول الرأى النبوى فى الأسجاع بين الناقدين .

لقد أمر رسول الله ﷺ أن تكون ديـة الجنـين غـرة عبـد أو أمـة ، فقـال بعـض السامعين: أأدى من لا شرب ولا أكل. ولا نطق ولا استهل ومثل ذلك يطل. فقـال له الرسول منكرًا: «أسجعا كـسجع الكهـان» أي: أتتبـع سـجعًا كـسجع الكهـان ، وفهم القول لدى بعض الناس على كراهية السجع فانبرى النقاد لتخـريج الحـديث النبوى كل بما يعنّ له من التخريج » . وإنما أنكر النبى ﷺ ذلك لأنه (الرجـل) أتـى

(١) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٢١٩ .

(٢) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ٢٤٣ .

بكلامه مسجوعًا كله وتكلف فيه السجع تكلف الكهان ، وأما إذا أتى به فى بعض كلامه ومنطقه ، ولم تكن القوافى مختلفة متكلفة ، ولا متمحلة مستكرهة ، وكان ذلك على سجية الإنسان وطبعه ، فهو غير منكر ولا مكروه بل وقد أتى فى الحديث: «مثل ويقول العبد مالى مالى ، وماله من ماله إلا ما أكل أو لبس فأبلى أو أعطى فأمضى» .

(فقدامة بن جعفر) فى نقد النثر[1] يقول: تعليقًا على الحديث المتقدم[2] أتى بالسجع فى جميع كلامه فأبان عن تكلف ، ولو أنه تخفف من بعضه فى عبارته لـه لحق سجعه الاستكراه ولكن (ضياء الدين بن الأثير)، يرى أن سجع الرجل حسن لا بأس به ، وأن المنهى عنه ليس السجع وإنما هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ، وقد فصل ذلك حين قال :

«لو كره النبى ﷺ السجع مطلقًا لقال: أسجعا ثم سكت ، وكان المعنى يدل على إنكار هذا الفعل لم كان؟ فلما قال: أسجعًا كسجع الكهّان؟! صار المعنى معلقًا على أمر ، وهو إنكار الفعل لم كان على هذا الوجه ، فعلم أنه إنما ذم من السجع ما كان مثل سجع الكهّان لا غير ، وأنه لم يذم السجع على الإطلاق ، وقد ورد فى القرآن الكريم ، وهو ﷺ قد نطق به فى كثير من كلامه حتى إنه غير الكلمة عن وجهتها اتباعًا لها بأخواتها من أجل السجع فقال لابن ابنته عليهما السلام :

«أعيذه من الهامة والسامة ، وكل عين لامة» وإنما أراد ملمة لأن الأصل فيها من ألم فهو ملم ، وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ارجعن مأزورات غير مأجورات» طلبًا للتوازن والسجع ، وهذا مما يدلك على فضيلة السجع[3] .

(١) « نقد النثر » ، ص ٩٤ المنسوب لقدامة ، وقد ترددت نسبته لسواه بمجلة المجتمع العلمى بدمشق ، عن بحث جيد نشره الدكتور على حسن عبد القادر ، وارتضاه الدكتور شوقى ضيف فى كتابه «البلاغة تطور وتاريخ» .

(٢) حديث (دية الجنين) .

(٣) « المثل الثائر » ، ج ١ ، ص ١٩٥ .

إلى أن قال ابن الأثير :

«فالسجع إذًا ليس بمنهى عنه ، وإنما المنهى عنه هو الحكم المتبوع فى قول الكاهن ، فقال رسول الله ﷺ : أسجع الكهان؟ أي: أحكما كحكم الكهان؟ ، وإلا فالسجع الذى أتى به ذلك الرجل لا بأس به لأنه قال : « أأدى من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استهل ، ومثل ذلك يطل ، وهذا كلام حسن من حيث السجع ، وليس بمنكر لنفسه ، وإنما المنكر هو الحكم الذى تضمنه فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة»(١) .

وقول ابن الأثير الأخير: «فى امتناع الكاهن أن يدى الجنين بغرة عبد أو أمة» غريب عجيب ، لأن كاهنًا مالم يمتنع عن ذلك فيما تعلم ، ولعله أراد الساجع فسبق قلمه إلى غير ما يريد ، أما أن سجع المعترض حسن لا بأس به ، فهذا ما تفرد به ابن الأثير؛ لأننا نحس مع «قدامة بن جعفر» ثقل العبارة الأخيرة بالقياس إلى السابقتين، ومن أجلها كان الكلام شبيهًا بسجع الكهان لدى الرسول ، فالأولى أن يقال: إن المكروه هو السجع المتكلف ، وإليه اتجه الإنكار النبوى ، أما الحكم فباطل من أساسه لأنه صدر فى اعتراض سامع غير مسئول .

وقد استشهد (أبو هلال العسكرى) بآثار مسجوعة من البيان النبوى ، وتابعه (ابن الأثير) فمما قاله أبو هلال فى ذلك :

«وكيف يذمه الرسول» ويكرهه وإذا سلم من التكلف وبرئ من التعسف ، لم يكن فى جميع صنوف الكلام أحسن منه. وقد جرى عليه كثير من كلامه عليه الصلاة والسلام ، فمن ذلك ما حدثنا به يوسف الإمام بواسط قال: حدثنا محمد بن خالد بن عبد الله أبو شهاب عن عوف عن زرارة بن أوفى عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبى ﷺ المدينة انجفل الناس قبله ، فقيل: قدم رسول الله ، فجئت فى الناس لأنظر إليه ، فلما تبينت وجهه عرفت فيه أنه ليس بوجه كذاب ، فكان أول شىء

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٩٦ .

تكلم به أن قال: أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام[1] .

فالسجع كثير فى البيان النبوى وهو قريب المأخذ صادق الطبع ، ومثله ما ورد من ألوان المحسنات الأخرى كالمطابقة والتجنيس ، وقد استشهد أبو هلال العسكرى للنوع الأول بقول الرسول مخاطبًا الأنصار: «إنكم لتكثرون عند الفزع ، وتقلون عند الطمع» وقوله ﷺ : «خير المال عين ساهرة لعين نائمة» ، وقوله: «إياكم والمشادة فإنها تميت الغرة وتحيى العرة»[2] كما استشهد للنوع الثانى بقوله ﷺ : «الظلم ظلمات يوم القيامة» وقوله: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده» وقوله عصية عصت الله ، وغفار غفر الله لها ، وأسلم سالمها الله[3] ، وفى كتب الأدب شذرات كثيرة من قوله عليه الصلاة والسلام تريك سماحة البديع ودماثته ، وتنزى به عن كل مستكره بغيض ، سجعًا كان أو ازدواجًا أو مطابقة وتجنيسًا ، وأكثرها جاء فى حديثه العادى لم يترصده فى موقف كما نسمع نحن الآن فى الطريق عبارات ذكية لبعض النابهين من المتكلمين لم يتعمدوا مواقع الحسن فيها ، إنما انطلقت بها ألسنتهم كما تنطلق لهوات البلابل بالتغريد .

وإذا كنا قد قصرنا هذا الفصل على الناحية التعبيرية فى بيان الرسول ، فلابد من التعرض إلى ما روى من حديثه ﷺ من الغريب ، إذ إنه يناقض ما اتسم به أكثر التعبير النبوى من وضوح اللفظ ، وقرب المأخذ ، وسهولة المتناول لفظًا وتركيبًا ، فكيف وجد هذا ضرب من العويص فى كلام أفصح مبين؟

من المسلم به أن اللغة كائن حى ينمو ويتجدد بتطور الزمان وتراميه ، فقد تستعمل كلمات ذائعة فى عصر متقدم ، ثم تمضى الأيام عليها دون أن تجد لها ذيوعاً فى عصر تال ، فيخيل لمن يقرؤها فى العصر الأخير ، أنها غريبة تكلفها القائل ،

(١) كتاب « الصناعتين » ، ص ٢٦١ .

(٢) « الصناعتين » ، ص ٣٠٩ .

(٣) « الصناعتين » ، ص ٣٢٣ .

ولو تأمل لعرف أنها غمضت بتغير العصر ، فانطفأت بعد إشراق ، ولو كانت لدينا معاجم تتبع تطور الكلمات من زمان إلى زمان ، لعرفنا كيف ماتت مئات الكلمات فى عصر واستحدثت مئات أخرى فى عصر آخر ، وأكثر ما نشاهد من الغريب فى حديث الرسول كان مأنوسًا فى عصره ، لأنه لا يتكلف ولا يتعمل ، وقد نهى عن التشدق والتفاصح ، فأحرى به ألا يأتى بالغامض العويص ، وقد كان اهتمام العلماء عظيمًا بما ورد من الغريب عن رسول الله فأفردوا له المعاجم ، وكتب الخطابى ، والزمخشرى ، وابن الأثير فى غريب الحديث مؤلفات جامعة نقرؤها الآن فنقدر لهؤلاء الأماثل إخلاص المجاهد وحرص الأمين. على أن مما نفع الله به الناس فى بيان رسول الله أن الكلمة الغريبة فى الحديث الشريف كثيرًا ما تفهم من السياق ؛ بحيث يستطيع قارئ العصور المتأخرة أن يصل إلى مدلولها بجهد قريب ، وليس معنى ذلك أن كل ما ورد من الغريب فى حديث محمد كان مأنوسًا فى عصره ، لدى جميع الناس ، إذ إن الأديب المكين قد يضطر إلى استعمال لفظ خاص مهما غمض لدلالته وحده على ما يريد من معنى ، ومن تمرس البيان يعلم أن لكل لفظ من معجم الكاتب مكانة خاصة فى نفسه ودلالة خاصة توجب عليه أن يلتزمه فى وضع معين ليحمل إلى الناس ما يريد أن يقول ، وتلك حقيقة أشار إليها جهابذة النقد الحديث وعبّر عنها (هـ . ب تشارلتن) حين قال فى كتابه: «فنون الأدب» :

«يلجأ الشعراء أحيانًا إلى اللفظ الغريب للزيادة من قوة التأثير ، ولا سيما إذا كانت الصورة المرسومة مما لا يألفه الناس فى الحياة الجارية ، فإذا رأيتهم يطلقون على الأشياء غير أسمائها ، فاعلم أنهم لا يصنعون ذلك عبثًا ، ولو أرادوا الأسماء المعروفة للأشياء لأطلقوها ، إذ يجب أن يكون الشاعر صادقًا فى التعبير عن شعوره، فإذا أراد شيئاً مألوفًا فليطلق عليه اسمًا مألوفًا ، أما إذا أراد صورة فيها شئ من الغرابة لأنه أحس فى نفسه أنها غريبة ، فيجوز أن يلجأ إلى اللفظ الغريب المبهم»(١) .

(١) « فنون الأدب » ، ص ١١ ترجمة الدكتور زكى نجيب محمود .

والناثر مماثل للشاعر فى هذا الوضع ، لا سيما إذا كان الناثر يعبر دائمًا عن الجديد غير المألوف ، وقد كانت أفكار محمد ﷺ من الجدة والطرافة والابتكار بحيث كان كل حديث من كلامه عليه الصلاة والسلام فتحًا لأفق جديد من التفكير ، فإذا جاء لفظ غريب يكمل به المعنى فى رأيه ، فقد جاء فى موضعه ، وهو فى مكانه أصيل دقيق .

كل هذا يقال عن الغريب الذى يتناثر تناثرًا فى قول الرسول على أبعاد تطول؛ إذ إن مثل هذه الألفاظ الغريبة لا تخرج عن حالتين ، إما أنها كانت مفهومة مألوفة فى العصر النبوى ، ثم غمضت من بعد فلا مجال للحكم عليها بالغرابة من غير المعاصرين ، وإما أنها كانت غريبة ، وجاء بها القائل لتسد مسدًّا لا تفى به الكلمة المأنوسة. وهنا تكون الغرابة على ندرتها القليلة مما يحمد؛ لأنها فتح جديد للفظ جديد يأخذ طريقه كى يسير ، وكل ذلك نادر ، نادر إذا قيس بما نتداوله من أدب محمد وجله مشرق أنيس .

وهناك ضرب ثالث من ضروب الغرابة غير هذا وذاك ، سيق إليه الرسول سوقًا واضطر إليه اضطرارًا ، وهو ما تحدث به محمد ﷺ أو كتب به رسائله وعهوده إلى القبائل النائية فى بطن الجزيرة ، ممن لا ينطقون بلغة قريش ، إذ إن لهم معجمهم الخاص مؤلفًا من كلمات لا يتداولها المكيون أو المدنيون ومن حولهم من الأعراب ، وهنا تظهر القدرة الكامنة فى بيان الرسول ، إذ يحيط علمًا بألسنة أناس لم يكتب له عليه السلام أن يشافههم أو يشافهوه ، وقد علم الناس جميعًا أنه لم يرحل إلى مطارحهم النازحة يومًا فيعى من ألفاظهم لا القليل ولا الكثير.. ومن هنا كان موضع العجب من أصحابه إذ يرونه يفهم عن الغرباء مالا يفهمون ، ويحادثهم بما لا يستطيعون أن يقولوه ، حتى قال له على بن أبى طالب كرم الله وجهه وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد: يا رسول الله ، نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، فقال عليه السلام: «أدبنى ربى ، فأحسن تأديبى»[1] .

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٥٠ للرافعى .

ونستطيع أن نمثل بعض ذلك بما كتبه ﷺ (لوائل بن حجر الكندى) أحد أقيال حضرموت ومنه :

«إلى الأقيال العياهلة والأرواع المشابيب ..

وفيه فى التبعة شاة لا مفورة الألياط ، ولا ضناك ، وأنطوا الثبجة ، وفى السيوب الخمس ، ومن زنى ممن بكر فاصفعوه مائة ، واستوفضوه عامًا ، ومن زنى مم ثيب فضرحوه فالأضاميم ولا توصيم فى الدين ، ولا غمة فى فرائض الله تعالى ، وكل مسكر حرام ، ووائل بن حجر يترفل على الأقيال» .

قال الأستاذ مصطفى صادق الرافعى[1] فى هامش كتابه: وتفسير هذا الكتاب على نسق ألفاظه ما يأتى :

الأقيال: جمع قيل وهو: الملك من ملوك حمير وحضرموت ، العياهلة: المقرون على ملكهم فلم يزالوا عنه ، والأرواع: الذين يروعون بالهيبة والجمال ، والمشابيب: جمع مشبوب وهو الجميل الزاهر اللون ، والتيعة؛ أربعون شاة تطلق على ما تجب فيه الصدقة من الحيوان ، والمفورة الألياط: المسترخية الجلود ، والضناك الموثقة الخلق السمينة يريد أن شاة الصدقة لا تكون من المهازيل ولا من الكرائم بل تكون وسطًا، وهو المراد بقوله: وأنطوا الثبجة: أى أعطوا بلغتهم إذ يبدلون العين نونا ، والثبجة الوسط ، ومنه ثبج البحر ، والسيوب: جمع سيب وهو العطية ، والمراد به الركاز وهو دفين الجاهلية ، ومم بكر وممن ثيب أى من بكر ومن ثيب وهى لغتهم فى إبدال النون ميما ، والصقع: الضرب ، والاستيفاض : النفى والتغريب ، والأضاميم: الحجارة الصغار ، والتوصيم الفترة والتوانى ، ويترفل: يترأس .

وفى «المثل الثائر» لابن الأثير ص ١٥٨ وما بعدها من الجزء الأول حديث (طهقة بن أبى زهير النهدي) حين قدم على رأس وفد قبيلته من غورى تهامة إلى

(١) « الإعجاز » ، ص ٣٥٢.

رسول الله ﷺ : وكله غريب معضل كهذا الذى سبق المثال به من كتاب محمد ﷺ ، وقد أعقبه الرسول برد نحا فيه منحاه من الغريب ليفهم بنو نهد ما يقول ، ولا نحب أن نشق على قارئ القرن العشرين بعويصة الدقيق ، ولكننا نذكر ما قاله ابن الأثير تعقيبًا عليه ولنا فيه مقال :

قال صاحب المثل الثائر[1] «وفصاحة رسول الله ﷺ لا تقتضى استعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابًا لمن يخاطبه بمثلها كهذا الحديث وما جرى مجراه ، على أنه كان فى زمنه متداولاً بين العرب ، ولكنه ﷺ لم يستعمله إلا يسيرًا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح» ، وموضع النظر فى كلام (ابن الأثير) أنه زعم أن الغريب الذى رد به الرسول على (طهفة النهدى) كان متداولاً فى زمنه ، إذ لو كان الأمر كذلك ما قال على بن أبى طالب حين سمعه يخاطب وفد بنى نهد : نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره ، وعلى كرم الله وجهه هو البليغ الثانى فى العربية بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه فكيف يكون الغريب متداولاً ، ولا يفهمه على ، ثم إذا تقاصر عن إدراكه أمير المؤمنين فما ظنك بسواه؟ الحق أن ابن الأثير قد أخطأ فى زعمه هذا أما الذى أصاب شاكلة الصواب فهو الأستاذ مصطفى صادق حين قال فى حديثه عن الغريب فى «أدب النبوة»[2] .

«ومن ذلك كتبه التى كان يمليها ويبعث بها إلى القبائل يخاطبهم فيها بلحونهم، ولا يعدو ألفاظهم وعباراتهم فيما يريد أن يلقيه عليهم ، وهى خاصة بهم وبمن يداخلهم ويقاربهم لا تجوز فى غير أرضهم ولا تسير عنهم فيما يسير من أخبارهم ، ولا تأتلف مع أوضاع اللغة القريشية ، فما تدرى أى ذلك أعجب؟ أن ينفرد النبى ﷺ بمعرفة هذا الغريب من ألسنة العرب دون قومه وغير قومه ممن ليس ذلك فى لسانه عن غير تعليم ولا تلقين ولا رواية ، أو أن يكون قومه من قريش قد ضربوا فى

(١) « الإعجاز » ، ص ٣٥٢.

(٢) « المثل الثائر » ، ج ١ ، ص ١٦٢ .

الأرض للتجارة حتى اشتق اسمهم منها ، وخالطوا العرب وسمعوا مناطقهم فى أرضهم ، وحين يتوافدون إليهم فى موسم الحج ، وهم مع ذلك لا يعلمون من الغريب بعض ما يعلمه ، ولا يديرونه فى ألسنتهم ولا يورثونه أعقابهم فيما ينشئون عليه من السماع والمحاكاة ، حتى كان هذا الباب فيه ﷺ باب على حده كما يؤخذ كل ذلك من قول على »[1] ... هل لنا بعد أن أوضحنا الرأى فيما اصطبغ بحلية بديعية مطبوعة من أدب رسول الله ، وفيما جاء من الغريب فى حديثه ، أن نقول إن الطابع العام للتعبير النبوى هو الوضوح وقرب المتناول وروعة الإيحاء مع التناسق الموسيقى المطبوع ، أما ما نحا منحى الغرابة فقد وافق مقتضى الحال فى إغرابه ، فدل بهذه الموافقة على مواءمته الدقيقة لأشهر التعريفات العلمية لدى البلاغيين .

* * *

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٥١ .

رسالة الأديب كما حققها الرسول

قد يتوهم بعض الناس أن فى وصف النبى محمد ﷺ بالأديب نزولاً عن رسالته الخالدة ، وهذا غير الواقع لأنه نبى معجزته البيان ، وقد نزل عليه أفصح كتاب فى العربية ، فتولى تبيينه وإيضاحه ، ودعا إلى ما يدعو إليه فى نصاعة وبراعة ، وأكثر ما كان ذلك بلسان الأديب ، وإذا كنا نعرف أن الأدب هو التعبير الجميل عن الخاطر الجميل ، فإن تعبير رسول الله البيانى كان فى أرفع درجات الجمال ، وإن خواطره من الكمال والجمال والقوة والإقناع بحيث لا تسمو إليها خواطر إنسان ، فمحمد بهذا الاعتبار أديب عظيم ، لا مراء .

ثم إن الأدب فى أرفع مجالاته يلتقى بالدين لا محالة ، إذ إن نبل الشعور وسمو الأخلاق ، وحب الإنسانية والخير والعدل مما يرفع رسالة الأديب المثالى ، وليس الدين فى لبابه إلا دعوة صريحة إلى الخلق العالى ، والإنسانية الكاملة والحق النزيه ، والعدل المنصف والجمال الصريح ، فالدين والأدب يلتقيان لا محالة إذا طمح الأدب إلى أسمى الرسالات فى الحياة.. وهكذا كان الأدب على لسان محمد بن عبد الله .

يقول الأستاذ توفيق الحكيم تحت عنوان: «السماء هى المنبع» :

«هنالك صلة فى اعتقادى بين رجل الفن ورجل الدين ، وذلك أن الدين والفن كلاهما يضىء من مشكاة واحدة ، هى ذلك القبس العلوى الذى يملأ قلب الإنسان بالراحة والصفاء والإيمان ، وإن مصدر الجمال فى الفن هو ذلك الشعور بالسمو الذى يغمر نفس الإنسان عند اتصاله بالأثر الفنى ، من أجل هذا ، كان لابد للفن أن يكون مثل الدين قائمًا على قواعد الأخلاق» [1] .

(١) « فن الأدب » ، ص ٧٦.

وسبيلنا الآن أن نوضح كيف كان رسول الإسلام أول من سما برسالة الأديب فى الأدب العربى الذى نزل بلغته أفصح كتاب ، ولن نرسل الحديث فى تحمس المسلم العاطفى الذى يهيم بنبيه هيامًا يشغله عن إيضاح الأدلة وسرد البراهين ، فإن الاندفاع العاطفى لا يغنى عن الحق شيئًا إذا فقد الدليل المقنع ، ودليلنا المقنع فى هذه القضية هو الموازنة بين الأدب الجاهلى فى شتى مناحيه ، وما أضافه نبى الرسلام إلى مفهوم الأدب من أغراض وأفكار كانت تعوزه أشد الإيعاز .

ماذا كان الأدب العربى قبل نبى الإسلام؟ إنه كان شعرًا ونثرًا ضاع أكثرهما وبقى أقلهما ، ولكن ما بقى منهما يعطى صورة عن الغائب المفقود؟ فأى شىء كان شعر الجاهلين الذائع ، وأى شىء كان نثرهم الشهير؟ كان الشعر الجاهلى صدى عامًّا لإحساس القبيلة فيما يتعلق بالفخر والمديح والهجاء ، فالشاعر العبسى يترنم بقوة قومه ومفاخر قبيلته ، والشاعر الأسدى يعدد غزوات آبائه ، وتراث أجداده ، فإذا انتقل الحديث إلى الغزل والخمر واللهو ، رأيت مشاعر عادية تمثل الغرائز المتواثبة ، وقل أن تلمس تحليقًا رفيعًا يرتفع عن دنيا الدم واللحم إلى آفاق الروح ، وإذا كانت المعلقات من أظهر أبيات الشعر الجاهلى ، فإنك تقرؤها جميعا فتلمس روحًا تكاد تكون واحدة لدى الشعراء ، فكلهم أبناء واقعهم المحدود ، يتحدثون عن المرأة والأطلال والنوق والرياح والبادية ، ثم يعرجون إلى ممدوح يخصونه ببعض الثناء.. ولكن أين هو الشاعر القائد الذى حمل رسالة عالية فى شعره تبشر بالخير والنور من هؤلاء .

قد يقول قائل: إنه (زهير بن أبى سلمى) فى دعوته للسلام ، وقائل ثان: إنه (عدى بن زيد) فى دعوته إلى التساؤل عن المصير؟ وقائل ثالث: إنه (أمية بن أبى الصلت) فى التفاته إلى الحساب والجزاء وسير المتقدمين ، ولكن الواقع الملموس من شعر هؤلاء لا يعطيهم جميعا ما يود لهم القائلون.

إن (زهيرًا) دعا إلى السلام وذم الحرب عرضًا فى معلقة طويلة جعلت مديحًا لكريمين تحملا الديات ، وأنهيا الحرب وأقرا السلم لمدة وجيزة ، وقد طمع الشاعر فى مال أحدهما وكان موكلاً بمديحه ، فاضطر إلى التغنى بمفاخره .. وإذا كان من أبهرها إقراره السلام فهو لا محالة مسوق إلى تحبيذ السلام الذى صنعه صاحبه ، وتبغيض الحرب التى قضت عليها مكارمه فى عدة أبيات معدودات .

أفكان زهير إذاً ، صاحب رسالة كبيرة فى عالم الأدب وحاله تلك؟ أم أن صاحب الرسالة بطل مكافح يرسل قصائده المتوالية فى هدفه الأسمى ، لا أن يسير فى ظل كريم يترسم خطاه لينقلها إلى الحروف والكلمات؟.

أما (عدى بن زيد) فقد ظل حليف غزل وخمر ولهو ، حتى وقع فى سجن النعمان ، ورأى الشر فى عين المليك الغادر ، ثم وازن بين أمسه الزاهر فى إيوان كسرى ، وغده المرتقب فى ظلمات القبر بعد الاغتيال فأرهبه المصير ، جعل يعتذر إلى النعمان بقصائد يبكين الجماد حتى إذا استيأس وترقب الهلاك ، دعا إلى الزهد ، وتحدث عن قصص بعض السالفين فى نحو قوله :

وتذكر رب الخورنق إذ فكر يومًا وللهدى تفكير
غره ملكه وكثرة ما يملك والبحر معرضًا والسدير
فارعوى غيه وقال وما غبطة حى إلى الممات يصير
ثم صاروا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور

فماذا فى أمثال ذلك من قيام برسالة مهمة فى دنيا الآداب - ولنترك هذين إلى (أمية بن أبى الصلت) ، فمن المعروف الذائع عن تاريخه أنه قام برحلات كثيرة فى ديار اليمن والشام والعراق ، وأنه اتصل بالأحبار وأخذ عنهم ما ينفرهم من عبادة الأوثان. فمصادره العلمية تنحصر فيما وعاه من الرحلات ، وما سمعه من الرهبان. وقد يكون لبعض الحنفاء من العرب (كزيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل) وغيرهما أثر فى جذبه إلى التأله؛ لأن تأثيرهم وهم أبناء موطنه القريب أدعى إلى

النفاذ والقوة من تأثير الغرباء ، ولكن هذا المتحدث الذى حرم الخمر على نفسه ، ونبذ عبادة الأصنام قد هدم كيانه الدينى هدمًا أتى عليه من القواعد حينما انضم إلى مشركى مكة من أعداء محمد ، وتطوع برثاء قتلى بدر كأبطال استشهدوا فى قضية توجب الرثاء ، ولو سلك سبيلاً حياديًّا بين محمد ومناوئيه لقلنا إن الرجل قد خضع إلى نوازع الضعف الإنسانى حين أبطأ عن تأييد محمد ، وهو يعلم ما جاء به من الحق ، ولكنه اشتط وبالغ حتى صار الضعف الإنسانى لديه جنونًا يدفعه إلى البكاء على شهداء الأصنام ، ونحن هنا فى معرض السؤال عن رسالته الأدبية التى يمكن أن يكون بها صاحب دعوة تحرير. فإذا كانت هذه الرسالة فيما قاله من الأساطير والأنباء عن سفينة نوح. وتطويق الحمام ، وقصة الغراب ، والديك ، وخراب سدوم، وقزعة الهدهد ، فكل ذلك مقتبس من التوراة المحرفة. ومعلومات شائعة لدى الأخبار ، وقد دعا الغرض الفاضح المستشرق الفرنسى (كليمان هبوار) إلى القول بأن شعر أمية من مصادر القرآن ، وأن الرسول ألفه متأثراً بثقافات أمية الدينية ولكن الفرق الواضح بين قصص التوراة وقصص القرآن يأتى على هذا الزعم من القواعد ، فهل زنى لوط؟ هل فسق داود؟ هل افترى إبراهيم كل ذلك فى التوراة ، وليس فى القرآن مما يؤكد اختلاف المصدرين لا محالة. وماذا نقول فى قصة عاد وهود التى لم ترد فى غير القرآن وقد صدقتها المكتشفات الأثرية الحديثة فى منطقة الأحقاف.. إن مجرد ذكر أساطير التوراة فى شعر أمية لا يجعله صاحب رسالة أدبية إلى السمو ، وإذا لم يستطع أن يرتفع بنفسه إذ هبط إلى البكاء على شهداء الأصنام ، أفيكون ذا رسالة أدبية كبرى تؤثر فى الناس بالبيان؟

فإذا تركت الشعر إلى النثر ، فأنت واجد لا محالة عشرات النصوص المحفوظة عن المفاخرة والمنافرة ، والموازنة بين أب وأب ، وجدٍّ وجد ، وحرب وحرب مع النظرة الضيقة إلى قيم الرجال إذ ذاك من اعتزاز بالعصبية ، وافتخار بالسلب والنهب وقطع الطريق. إن شيخ القبيلة ليصبح سيدًا مطاعًا ، لأنه أغار على قبيلة أخرى غاب رجالها فاستاق إبلها وأسر نساءها ، وأصبح ذا مال ، ثم يجلس فى ناديه

ليخطب ، ولتكال له الأمداح نثرًا وشعرًا ، أما سجع الكهان وخطب الزواج فما أظن المشتهر منها يصلح لأن يكون أدبًا تترنم به الأفواه .

اقرأ «الشعر الجاهلى» فى دقة ، واقرأ ما بقى من «النثر الجاهلى» فى دقة أيضًا ، ثم قل لى أى صاحب رسالة أدبية عالية نهض قبل محمد من دنيا البيان العربى ، فإذا أعوزك أن تجد أديبًا ذا رسالة قوية قبل محمد فأنت معى على الطريق .

تحدث النبى بالقرآن ، فلفت الناس إلى أمور جديدة لا عهد لهم بها ، لفت الناس فى بيان القرآن المعجز عن مكارم الأخلاق والحرية والإخاء والمساواة ، ودعا العقول إلى التفكير فى العوالم الكونية من ليل ونهار ، وبحر وشجر ، وسماء وأرض ثم وجهها إلى أطواء النفس وما يمور بها من مشاعر وأحاسيس. حتى جعل الفكر العربى شيئًا ذا قيمة ، بل إنه أوجده إيجادًا بعد أن كان تفاصحًا خلابًا بالألفاظ لا معانى زاهية فى أبهى البرود.. وإذا كان القرآن من عند الله وليس من عند محمد.. فهل تقوم المعجزة الخارقة دون نبى شارع يسر الله الذكر على لسانه فملأ صدره بالينابيع ، فإذا هتف برسالة القرآن وجد منها السلسل الفياض .

كان القرآن صيحة أولى فى الفكر العربى جاءت على لسان محمد ، وتبعتها صيحة ثانية من هذا الذى نزل القرآن على قلبه توضح ما غمض وتفصل ما أجمل ، وتحلل ما أوجز ، ومن ذلك كله كان نبى الإسلام صاحب رسالة كبرى فى دنيا البيان.

ثم ماذا؟ أكان محمد أديب ملإ محدود فى أرض الحجاز! أم كان أديب الناس أجمعين!..

إن أحاديثه انتقلت إلى ممالك نائية وأمم بعيدة ، فأحدثت تأثيرها الكبير ، وإن الذين يترجمونها اليوم من المستشرقين وغيرهم يقفون عندها متأملين ، ثم يفسحون المجال لنقاش ما تتضمنه من المبادئ والأغراض؟ أيكون محمد بعد ذلك أديب ملإ محدود فى أرض الحجاز..؟

لقد كانت أول كلمة نزلت عليه (اقرأ) لتلفته بادئ ذى بدء إلى المعرفة والعلم ، ومتى كملت المعرفة لإنسان ، فسيسير مع محمد فى كل اتجاه.. لأن الذى يدرك حقائق العلم سيتطهر لا محالة من أدران الجاهلية ، فلا يسجد لوثن ولا يئد بنتًا ، ولا يشرب خمرًا ولا يسعى فى الأرض بالفساد... ومن هنا دعا محمد إلى التفكير ، وكان فيما أنزل عبرة لأولى الألباب ، وآيات لقوم يعقلون أو يعلمون أو يتفكرون على نحو ما تحدث به القرآن .

ومن هنا حرص محمد على صحة الكلمة أدق الصحة وحريتها تمام الحرية ، وصوابها أكمل الصواب فكان فيما قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت. إن الرجل ليلقى بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالاً يهوى بها سبعين خريفا فى جهنم ، وهل يكب الناس على مناخرهم فى نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم» وسئل ما الجمال فقال: فى اللسان .

كما كانت بلاغة الصدق لديه هى العليا ، يبغض الثرثارين ، والمتشدقين ، والمتفيهقين ، لأن الحق يضيع بين الثرثرة والتصايح.. ولكن جمال البيان فى الهدوء والدقة والإقناع .

جاء نبى البيان بهذه المثل الأدبية لقوم بلغ القريض عندهم مبلغه من القوة والإتقان فماذا كان موقف الشعر أمام هذا الاتجاه .

إن مؤرخى الأدب يعترفون بأن الشعر قد ضعف فى صدر الإسلام ، ويعلل الأصمعى ذلك بأن الشعر نكد لا يقوى إلا فى الشر ، وقد جاء الإسلام محرماً رذائل الجاهلية ، مما تمدح به الشعر من وصف للخمر وهجو للمحصنات ، ودعوة إلى الشقاق وغزل فاجر فاسق ، فضاق المجال فجأة أمام الشعراء .

ولكن تعليل الأصمعى لم يأت بالقول الفصل ، فإن ضعف الشعر فى صدر الإسلام كان سكتة مذهلة أمام أغراض جديدة جاء بها نبى البيان ، فما قبل أن ترتد إلى الوراء ثانية ، ولا استطاع أن يعيش التجربة الجديدة فى وهج من النور ، ولو لم

يسكت الشعر هذه السكتة لانطلق يتحدث عـن مكـارم الأخـلاق وحـب الإخـاء والمساواة ، ويبشر بعالم جديد بزغ عن نور القرآن .

سيقولون إن حسّانًا وأضرابه قد دافعوا عن حـزب الله.. ولكـن الموقـف كـان أكبر من حسان.. كان يتطلب شاعراً كبيراً يـصور محاسـن الإسـلام تـصويراً يأخـذ بالألباب ، ومازال هذا الشاعر فى ضمير الغيب لم تسعد به العربية ، وإن سعدت بـه الأرديّة والفارسية على لسان إقبال .

كان التقليد الكلاسيكى غلًّا ثقيـلاً أمـام شـعراء الإسـلام فلـم يتمكنـوا مـن الانطلاق من آصاره وإنها لثقـال ثقـال ، وإلا فـماذا نقـول فى أكـبر شـعراء الـدعوة الإسلامية وقد تعرض لتأييد الإسـلام فى بعـض قـصائده الجهيـزة فأوقعـه تقليـده المنهجى فى مجافاة ذوقية ثقيلة ، إذ إنه بعد أن تغـزل وبكـى الطلـل قـال عـن راحـه المعتقة..

إذا ما الأ شربات ذكرن يومًا　　　فهـن لطيب الراح الفـداء

وهو يعلم أن رسول الله لم يكن ممن يشربون الخمر ، وإذا كان تحريمها قد جـاء بعد إنشاء هذه القصيدة ، فإن مجرد امتناع نبى الإسلام عنها ما كان يجيـز لـشاعر أن يمدحها فى قصيد يتوجه بها إلى من حرم على نفسه الصهباء .

على أن موضع العجب فى هذا النبى البليغ: أن ثقافته العظيمة كانت مـن ذات نفسه لم يتأثر بأدب أجنبى ، ولم يقرأ تاريخًا لأمـم غـابرة ، ولم يخـبر سياسـات الأمـم القريبة والبعيدة ، ثم جاءت أحاديثـه بعـد ذلـك أحاديـث قـارئ التـاريخ ، وعـالم السياسة ، ودارس الآداب .

وإذا كان تحرير العقول أول ملهم الأديب الرائد ، فبأى سلاح حرر محمـد ﷺ العقل العربى من الخرافات؟

بأى سلاح أزال عن العقل العربى أوهام الطيرة ، والتشاؤم ، والاقتسام بالأزلام ، والتداوى بالتمائم ، وتأليه الجن ، والكواكب ، والأصنام ، ثم وجهه إلى الطريق المنهجى فى الاهتداء بالنظم ، وربط المسببات بأسبابها الصحاح .

اقرأوا ما قال نبى الإسلام فى ذلك فإن الجامع الصحيح وغيره مما يشرق بنوره قد سجل لمحمد ﷺ أبدع الآثار.. فكان أكبر أسلحته سلاح البيان .

إن هذا النور البيانى الذى انبثق من لسان محمد قد زاد من تأثيره ، إنه انبثق من لسان نبى متواضع غير مغرور ، ونحن نرى نفرًا من الأدباء يشمخون بآثاره ويبلغ بهم التطاول حدًّا يدفعهم إلى المباهاة. وهم بعد أدباء زمنيون يؤثرون فى جيل واحد، وإقليميون يؤثرون فى قطر واحد ، ثم تأتى الأيام بما يزلزل إنتاجهم من القواعد ، ولكن نبى البيان يأتى بأدب خالد إلى زمن غير محدود ، ثم يضرب المثل فى تواضعه فيتحدث فى هدوء ، ويجيب وكأنه يسأل ويفيد وكأنه يستفيد .

ما ذلك إلا لأنه عند نفسه ، وبالقياس إلى رسالته أعظم من أن ينحدر إلى ادعاء، تكلم رجل عنده فأطال فى غير طائل ، فسأله رسول الله فى هدوء: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاى وأسنانى فقال الرسول: إن الله يكره الانبعاق فى الكلام ، فنضر الله وجه رجل أوجز فى كلامه واقتصر على حاجته وبذلك هداه الصواب .

وقد ترك محمد مدرسة بيانية من صحابته وأتباعه ، فجاء أدب أبى بكر وعمر وعلى مستلهمًا من نبعه ، وتوالى دعاة الخير ، والمعروف من رجال الإسلام يملئون مسامع الكتب بأدب الإرشاد والتوجيه.. وذلك ما يجدر أن نسميه صادقين بأدب الإسلام .

إن التسمية الإصطلاحية فى تاريخ الأدب قد وضعت بعض الأشياء فى غير موضعها الصحيح ، فمؤرخو الأدب العربى مثلا حين يعنون الأدب الإسلامى إنما يضعونه فى كفة تجاه الأدب الجاهلى ، وهم بناء على ذلك يعدون أدب الهجاء ،

والمناقضات ، وخمريات الأخطل ، وأبى نواس ، وكل ما دار هذا المدار يدخل فى نطاق أدب الإسلام ، وإذا كنا نعرف أنه لا مشاحة فى الاصطلاح ، فإننا نرى أيضًا أنه لا مانع من تعديل بعض المصطلحات الواهنة تعديلاً يرتفع بها إلى القوة الصحيحة فيكون المراد بالأدب الإسلامى حينئذ كل مانحا نحو الإسلام مما جاء به محمد ، ودعا إليه صحابته المخلصون ، أما غير ذلك فيسمى باسم عصره ، فيقال: أدب أموى وأدب عباسى ، وأدب مخضرم فأنت مع اصطلاح القوم تجعل خمريات الأخطل ، ونقائض الفرزدق ، وجرير أدبًا إسلاميًا ، وفى الاصطلاح الذى أدعو إليه تنأى بها عن ذلك ، ومهما ارتفعت أصوات الاعتراض على هذا القول ، فأنا أدعو إلى أن نتحدث من جديد عن تاريخ جزئى لأدب الإسلام ، يبتدئ بمحمد ثم يتسلسل بمن تبعه من ذوى البيان الهادى والمنطق الموجه السديد .

إننا نسمع بين الآونة والأخرى إنكارًا صارمًا على من ينادون بتجديد وجهة الأديب؛ إذ يرى المنكرون أن الأدب غاية لا وسيلة ، فليس لك أن تهدف بأدبك إلى رسالة خلقية أو اجتماعية ، وإنما الفن للفن كما يقولون ، بينما ترتفع أصوات أخرى تعلن: أن الأدب للمجتمع ، فلا ينبغى أن يكون الأديب الكبير بمعزل عن قومه يقبع فى برجه العاجى بعيدًا عن مشكلاتهم وأحلامهم لينظم قصيدة ذاتية أو يكتب قصة شخصية.. وكثيرًا ما تطاحن الرأيان على صفحات المجلات وتشيع إلى كل رأى فريق.. فما موقفنا من ذلك ونحن نتحدث عن رسالة أكبر أديب مصلح وجه بيانه وجهة الهداية والإصلاح .

لقد دافع (تيودور جويتيه) [1] عن قضية الفن للفن دفاعًا حارًا ، فأعلن أن الآداب القديمة كانت جميلة ، لأنها فن طليق حر لا يعرف المنفعة وإنما يعرف الشعور وذاتيته ، والأدب الملفف فى أثواب الفضيلة أدب يلتوى الفهم فيه

(١) « تيارات أدبية » للدكتور إبراهيم سلامة ، ص ٣٤١ .

فلا ندرى إذا كنا بصدد أدب أم إذا كنا بصدد قواعد وسلوك ومسائل تتصل بالأخلاق.

قال (جويتيه) ذلك ونسى شيئًا مهمًّا ، نسى أن الأدب لا يهز الشعور الإنسانى الحى إلا إذا اتجه إلى تصوير الفضائل والمثل الرفيعة اتجاهًا يرضى الضمير المستقر فى نفس كل إنسان وإن نام أحيانًا ، أما إذا اتجه إلى المنحدرات الساقطة فقد يروق ببراعة تصويره ، ولكنه لا يستجيش الإعجاب الدائم من نفس ذات وجدان رفيع ، فقد يتعرض قصاص إلى تصوير شخصية هابطة ولا معابة عليه فى اختياره إذ إن تأثير التصوير فى نفس القارئ هو أساس الحكم ، فإذا ترك بها اهتزازًا عنيفًا لانهيار المثل ، فإن التصوير فى هذه الشخصية الهابطة قد أفاد الفن العالى من ناحية هذا التأثير ، أما إذا صورها فى براعة دون أن يترك صدى المأساة فى نفس القارئ فهو شيطان يتستر باسم الأديب ، ولا يمكن من وراء ذلك أن يعجب به قارئ يستشرف الآفاق الرفيعة لأن الفضيلة نهب مشاع بين الناس ، سواء من يعملون بها ومن لا يعملون - فالذين يعادونها يحسون فى أعماقهم حنيناً لها ورغم انفصالهم الظاهر عنها ، ومن هنا كان إعجابهم بالأدب الهابط لا يتعدى أوقاتًا محدودة يغفو فيها الرقيب الداخلى لحظات ثم يصحو ليعصف بكل منحدر هابط .. وإذًا ، فليس لدينا مشكلة غامضة تتعلق بغاية الأدب ووسيلته ، حتى نكثر من اللجاج فى كل مناسبة ، إذ إن التأثير النهائى - ويتوقف عليه تقدير الأديب - رهن بارتباط الكاتب بالمثل والأخلاق شاء أم أبى - ولعل الأستاذ «توفيق الحكيم» قد أحسن التعبير عن ذلك كله حين قال(١) :

« إنى لأشد الناس تمسكاً بحرية الفن ، وإدراكاً لقدسية هذه الحرية ، ولا أتصور فنًّا لا يصور الرذيلة كما يصور الفضيلة ، ولا يبرز القبح كما يبرز الحسن،

(١) « فن الأدب » ، ص ٧٧ .

وإن الدين يبرز لنا فضل المؤمنين وإحسان المحسنين ، ولكن المقصود ليس حرية التصوير فهى مكفولة فى الفن ملحوظة فى الدين ، إنما المقصود هو ذلك الإحساس الأخير الذى ينقله الفن والدين إلى النفوس ، ثم يقول الكاتب بعد ذلك مستطردًا بقول (جوبو): إن الروح الأخلاقى عند الفنان كعبقريته يجب أن ينبعا معا وفى وقت واحد من أعماق طبيعته ، وإن الفن غير الأخلاقى هو على كل حال أحط مرئية حتى من وجهة النظر الفنية الخالصة ، ذلك أن الفن العالى ليس هو الذى يثير فى النفس أحر المشاعر وأعنفها فحسب ، ولكنه ذلك الذى يثير فيها أكرم المشاعر وأرحمها ، إن خطر الفن يرجع إلى تلك القدرة العجيبة تلك التى يستطيع بها أن يستدر عطفك على مخلوقاته ويستلب إعجابك بصورة ، وإن العطف والإعجاب يعديان كالمرض، فإذا أبدع الفن فى تصوير نوع من الشذوذ أو الانحطاط وحملك بهذا الإعجاب على أن تعطف على الانحلال ، فإن مجتمعًا بأسره يمكن أن تسرى فيه العدوى عن طريق هذا الفن» .

وإذا كان الروح الأخلاقى مثار الإعجاب والتأثير ، فإن الأديب المصلح قد دخل باب الأدب من أوسع أبوابه ، وقد أصبح بيانه صاحب رسالة مثلى لا يمكن بأن يلحق به أديب ويكتب دون أهداف. وأحط منه ذلك الذى يكتب لأهداف هابطة تورث الانحلال والتهور فى مجتمع تسرى فيه العدوى الوبيئة من كتاب غير أمناء ، ومن هنا كانت الضرورة ملزمة إلى إيجاد مختارات من الأدب الإسلامى كما نعنيه لتظل مثالاً تشرئب إليه الأعناق فى تطلع ، ولا ريب أن أفضل هذه المختارات يفد إلينا من كتاب الله ومن حديث محمد ، ثم ممن استلهموا الحديث والقرآن .

لقد اقتعد محمد ذروة الفكر العربى حين تحدث لأول مرة فى العربية عن المصير الإنسانى المحتوم وعن مشكلات القدر والقضاء والكائنات ، فأوجد بذورًا صحيحة لفلسفة إسلامية رفيعة أتى بها نبى الإسلام ، ولكننا واحسرتاه إذا تحدثنا عن الفلسفة الإسلامية لم نتحدث عن آراء محمد فى التشريع والقانون والاجتماع ،

وعن رأيه فى ذات الله وصفاته ، والبعث والجزاء والعقاب ولكننا نتحدث عن ابن سينا ، والفارابى ، وابن رشد وكلهم يدور فى فلك الفلسفة الإغريقية ، فصرنا بذلك نرى الكتَّاب من شرق وغرب يجزمون بأن الفلسفة الإسلامية لدينا نقول مشروحة من كتب الإغريق ، فنحن فى الفلسفة ذيول لا رءوس ، ولو أمعنا النظر فى هذه القضية لجعلنا نصوص القرآن وأحاديث محمد وتابعيه نواة لفلسفة عربية إسلامية ، تستند أساسًا إلى أفذاذ أئمة حفظ لهم الإسلام كرامة العقل ، فكان لهم نظرهم الخالص دون احتذاء ، وذلك بعض ما أفاد الفكر العربى من محمد ، وعجيب ألا يلتفت إليه الناس .

لقد اكتملت فى نبى البيان رسالة الأديب المفكر المتأمل ، وإذا كانت الأعمال بنتائجها الحاسمة فإننا نترك الأستاذ «درينى خشبة» أن يحدثنا عن القيمة العليا لرسالة محمد الأديب العظيم حين يعقد مقارنة بين رسول الله ، وبين كبار الأدباء فى أوروبا المتحضرة ، فيرى كفة محمد ترجح ، ولن نستطيع أن نقل بحثه العظيم على أهميته فهو ضاف شاف بمجلة الرسالة العدد (٢٩٧) ولكننا نجتزئ بفقرات منه بعد أن وازن بين (ديموستين ، وشيشرون ، ودانتى ، وملتن ، وبيكون) ، وبين رسول الله كأدباء ، ثم قال متجها إلى سواهم من الأفذاذ :

«هؤلاء الأدباء العظام فى عصر لويس الرابع عشر (بيير كورنيل ، وديكارت ، وموليير ، وراسين ، ولافونتين). إننا نقولها كلمة حق لا تصدر عن حماسة فحسب ، بل عن تروية ويقين ، إن المثل الرائعة التى زاد بها هؤلاء فى تاريخ الفكر الإنسانى والثقافة الإنسانية هى قليل من كثير مما ضاعف به النبى هذا التراث ، ونحن نقول المثل لأن النبى لم يكن ضحاكًا كموليير ، ولا فيلسوفًا كديكارت ، ولا مؤلف درامات كراسين ، بيد أنه مع ذلك أنشأ للإنسانية مثلاً أسمى مما أنشأ هؤلاء ، وأنشأها كلها عن طريق الأدب» .

والأدباء الذين مهدوا للثورة الفرنسية: فولتير ، وديدور ، وبورمارشيه ، وروسو ، هل أنشئوا ثورة كهذه الثورة التى أنشأها محمد بن عبد الله وقام بها وحده، وأين هى الثورة الفرنسية التى انتهكت فيها الحريات ، باسم الحرية ، وخضعت فيها الكرامات والشرائع لجنون الشعب وعربدة النساء ولوثة الأوشاب ، من تلك الثورة العظيمة فى سبيل الحق وخير الإنسانية وانتشال العقل من براثن الأغوال الحجرية التى كان يعبدها الناس ، أى الثورتين كانت أعود بالخير على الناس وعلى الأفهام؟

لقد كتب «روسو» إنجيل الثورة ، فهل رسم فيه ما رسم القرآن للناس أجمعين فى كل العصور ، وهل كان إنجيل الثورة كهذا الوحى الذى يسره الله بلسان محمد .

ثم هؤلاء منشئو الأدب الألمانى (جوتة) صاحب فاوست ، و(شيللر) صاحب وليم تل ، و(ولسنج) مؤلف لاوكوف ، وهم الذين أعدوا الذهن الألمانى إعداده الذى غير عليه قرن ونصف قرن ، الإعداد الذى لا يعرف شيئًا هو المثل الأعلى غير القوة والغلب ، هل جعلوا ألمانيا تقهر العالم فى أقل من عشر سنين كما جعل محمد أمته تصنع ذلك ، هل كانت ألمانيا تنشر الأمن والطمأنينة والعلم والنور ودين الحق بالسلام ، كما نشر العرب ذلك جميعًا فى ربوع العالم أم أنها تستعبد الناس وتذلهم وتقول لهم: أنتم ساميون وحاميون وآريون ، أما نحن فآريون نورديون ، فى حين يقول محمد للناس : لا فضل لعجمى على عربى إلا بالتقوى .

أم أدباء روسيا (لرمنتوف ، وجوجول ، وتولستوى ، ودستوفسكى ، وترجينيف ، وبوشكين ، وجوركى) ، ماذا أسلف هؤلاء جميعًا ، لقد مهدوا بأدبهم الباكى البائس الغارق فى الدموع لشيوعية خربة مستبدة تستبد بالناس وتسومهم الخسف ، وتهدم مساجدهم وكنائسهم وبيعهم ، وتبيح نساءهم باسم الدولة فكأنهم تخلصوا من (راسبوتين) ، ليقعوا فى براثن (ستالين) .

ثم قال الأستاذ درينى خشبة رحمه الله موضحًا فصل الخطاب :

«نحن لا نحصى أدباء العالم هنا لنوازن بين ما انتهى إليه أدبهم وما انتهى إليه أدب القرآن الكريم ، ونحن لا نغض من الآداب الرائعة التى لها قيمتها ، ولها أثرها لنرفع أدب نبينا بغير الحق ، بل نحن نوازن بين مثل ونقارن بين خير كثير أصاب الإنسانية على يد رجل واحد ، وخير كثير أصابها على أيدى كثيرين ، وشتان بين الأدبين» .

ولعلّ الذين يشكون بعد ذلك فى أن محمدًا كان أديبًا عظيمًا لا يجوز أن يقاس به سواه ، يرون الضوء فيبصرون .

* * *

نماذج من التفسير النبوى للقرآن

لم يتحدث رسول الله ﷺ - فيما نقل لنا عنه - كثيرًا عن شعراء الجاهلية وخطبائها إلا بضعة أقوال متناثرة ، لا تتيح لنا أن نعرف حكمه المسهب على النصوص الأدبية المشتهرة ، لأن أعباء الدعوة الإسلامية لم تترك لديه فراغًا يفسح مجال القول فى أدب السالفين ، ولكن ما فاتنا من رأيه الفصل فى الأدب الجاهلى لا يعد شيئًا ، جوار ما تركه ﷺ من الحديث عن كتاب الله وهو أروع نص أدبى عرفته العربية فى القديم والحديث.. لذلك.. كان على الباحث المنقب عن إبداع محمد الأدبى ألا يمر بتفسيره ﷺ للقرآن الكريم دون أن يستنبط منه ما ينبئ عن حاسة التذوق الأدبى لدى رسول الله ، حيث كان مذاقه الخاص لكتاب الله من السمو والروعة مما يحسب له فى مجال التقدير الأدبى ، وإذا كان الله عز وجل قد يسر القرآن للذكر ، فإن آثار هذا التيسير من السهولة والنصاعة والوضوح وقوة الحجة مما جعلته ساطع البرهان ، مضيء الدلالة رائع التأثير لدى سامعيه المعاصرين ، وهم أفصح أهل العربية بيانًا ، بحيث كان ألد أعدائه يتسلل فى ظلمات الليل ليسمعه فى خفية عن الأنظار ، وبحيث نقل لنا التاريخ عن أحدهم وقد كان شديد الخصومة للإسلام ، قوى اللدد لمحمد ، وأنه استمع ما استمع إلى آيات متصلة من القرآن ، ثم رجع إلى قومه ليقول عنه: «إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق» .

وإذا كان خصوم الإسلام قد دهشوا لروعة القرآن ، فإن محمدًا ﷺ كان أشد الناس تأثرًا بمنطقه ، وكان يتلوه تلاوة تظهر معانيه ظهورًا رائعًا أخاذًا ، قال جبير ابن مطعم رضى الله عنه: سمعت النبى ﷺ يقرأ فى المغرب بـ «الطور» فلما بلغ هذه

الآيات : ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴾[1] . كاد قلبى أن يطير[2] فهذا صحابى كريم كاد يطير قلبه من تأثير قراءة محمد ﷺ بعض آيات من سورة الطور ، وبلاغة الترتيل لدى محمد نابعة من قوة يقينه ، وشدة إيمانه بما يقرأ ، ولا ريب فى أنه كان دائم التفكير فى هذا البيان المعجز الذى نزل على قلبه ، وكان يزن كل آية بميزان دقيق بحيث تنكشف له عن دلائل عميقة لا يلمحها سواه، لذلك.. كان دائم الخشوع ، غزير الدمع حين يتلو القرآن وحين يسمعه ، قال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لى النبى ﷺ : اقرأ علىَّ قلت: أقرأ عليك وعليك نزل ، قال : فإنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾[3] .. قال: أمسك ، فإذا عيناه تذرفان[4] .. وكان فى ذهابه وإيابه وقيامه وقعوده يفكر فى القرآن ويستحضر آياته فى كل موقف يمر به ومن ذلك ما حدثت عنه عائشة حين قالت :

كان محمد ﷺ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف فى وجهه ، قلت: يا رسول الله ، إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا ، رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ، فقال: يا عائشة ، ما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا[5] ، إشارة إلى قوله تعالى

(١) سورة الطور : ٣٦، ٣٧ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٣) سورة النساء : ٤١ .

(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٩٦.

(٥) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٤٠ .

عن قوم عاد : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ ﴾[١] .

فرسول الله كان يتذكر من آيات القرآن فى كل موقف ما ينـد عـن غيره مهـما أمعن وتدبر ، وذلك لطول تأمله ومعاودته ، وانطباق لبه على كلماته وحروفه فضلاً عن أغراضه ومعانيه.. ولا ريب أنه فسر كـثيرًا مـن كلماتـه وكـشف عـن غوامـضه تـصديقًا لقولـه تعـالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٢] .

ولن نتعرض هنا لما ناقشه الأصوليون من اجتهاد الرسول ، إذ ذهب فريـق إلى أنه ﷺ ليس له أن يجتهد بدليل قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴾[٣] كـما يـذهب الجمهـور مـن العلـماء إلى أن الاجتهاد من حقه ﷺ بدليل قوله تعـالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾[٤] أى بما جعله لك رأيًا كما قال أبـو يوسـف رحمـه الله ، أقول: لن نتعرض لذلك ، لأن اجتهاد الرسول أوضح من أن يختلف فيه ، بدليل أن القرآن كان يراجعه فى بعـض مـا اجتهـد فيـه ، كموقفـه مـن أسرى بـدر فى سـورة الأنفال، ومن ابن أم مكتوم فى سورة عبس ، وبدليل أن القرآن جعل الاجتهـاد مـن حق العلماء فى مثل قوله : ﴿ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[٥] فأولى أن يكـون مـن حـق

---

(١) سورة الأحقاف : ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) سورة النحل : ٤٤ .

(٣) سورة النجم : ٣ : ٥ .

(٤) سورة النساء : ١٠٥ .

(٥) سورة الحشر : ٢ .

الرسول ، لذلك كان تفسير رسول الله للقرآن ، من وحى اجتهاده ، وإذا علم أن الاجتهاد الصائب نوع من الإلهام الصادق فقد اقتربت شقة الخلاف .

على أننا لا نتحدث هنا عن التفسير النبوى ، لنبحث الجانب الفقهى منه ، أو التاريخى أو التوحيدى ، فذلك ما تتكفل به كتب العلماء والمفسرين ، ولكننا نذكر هنا نماذج من الشرح النبوى لنعرف كيف كان محمد يفهم النص الأدبى فى أفصح كتاب يتلوه الناس .

إن الذى يتأمل أقوال محمد ﷺ عن القرآن يدرك أنه كثيرًا ما كان يقدر الوحدة الموضوعية للنص فهو ينظر عليه الصلاة والسلام إلى السياق نظرة كلية متصلة ، بحيث لا يقتصر على الكلمة الجزئية أو الآية الواحدة صارفًا النظر عما يحيط بها ، كما تعودنا ذلك من بعض المفسرين ، هذه النظرة الكلية يفصح عنها حديث أبى هريرة حين روى عن النبى ﷺ أنه قال: قال الله تعالى: قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدنى عبدى ، وإذا قال الرحمن الرحيم قال: أثنى على عبدى ، وإذا قال: مالك يوم الدين قال تعالى: مجدنى عبدى ، وقال مرة فوض إلى عبدى ، فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين قال: هذا بينى وبين عبدى ، ولعبدى ما سأل ، فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين قال: هذا لعبدى ، ولعبدى ما سأل[١] .

فإن هذا الحديث ينبئ أن محمدًا ﷺ كان ينظر إلى أم الكتاب نظرة كلية بمعنى أن آياتها قد رتبت ترتيبًا متماسكًا يسلم أوله إلى آخره ، هذه النظرة الصائبة تدل على بصر كامل بالبيان الرفيع ، وتتخطى أزمانًا كثيرة لتثبت أمام النقد المعاصر ، أن ما يكثر الحديث عنه من وحدة الموضوع كان مفهومًا واضحًا لدى رسول الله .

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٧.

وقارئ النصوص التفسيرية المأثورة عن الرسول ﷺ يدرك أنها لم تكن فى أكثر حالاتها تفسيرًا لغويًا ، لأن القرآن قد خاطب العرب بما يفهمون ، وما نفذ الذكر الحكيم إلى شغاف قلوبهم إلا لوضوحه فى عقولهم ونصوعه فى أذهانهم ، وهم بعد أهل اللغة وخبراؤها الثقات. إلا ما وجد من كلمات يسيرة ، كانت تغيب معانيها عن فريق دون فريق مثل «بضع» فقد روى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «البضع» ما بين الثلاث والتسع [1] من السنوات ومثل كلمة «المهل» فقد روى أبوسعيد الخدرى عن النبى أنه قال : فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ ﴾[2] كعكر الزيت ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه [3] .. أما ما عدا ذلك وشبهه فليس بالتفسير اللغوى ، بل بما توحى به الدلائل ويكشف عنه السياق .

ولنا أن نقسم بعض ما نستشهد به من النماذج النبوية للتفسير القرآنى إلى ثلاثة أنواع: نوع يكشف عن المعانى المجهولة لألفاظ لا يوحى بها المنطوق ، ونوع ثان جاء تفسيره فى سياق إرشادى يمهد لمراميه ويكشف عن مدلوله ، ونوع ثالث أوحى به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال ، وكلها تصور وقوفه ﷺ على أسرار البيان الربانى ، وتشربه معانيه تشربًا لا يتاح إلا لعبقرى عظيم .

فمن النوع الأول هذه الآثار..

١ - عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال لما نزلت : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾[4] شق ذلك على المسلمين ، فقالوا يا رسول الله وأينا لا يظلم نفسه قال: ليس ذلك إنما هو الشرك ،

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٠٩.
(٢) سورة الكهف : ٢٩ .
(٣) « التاج » ، ج ٥ ، ص ٤٥٤ .
(٤) سورة الأنعام : ٨٢ .

ألم تسمعوا ما قال لقمان لابنه : ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ﴾[1] .

فواضح من تفسير الرسول أنه يقرر أن القرآن يفسر بعضه بعضًا ، فقد جاء بالنص الثانى من سورة لقمان ليفسر معنى الظلم فى النص الأول من سورة الأنعام ، وهى قاعدة أصبحت من المسلمات الآن. فأزال بذلك عناءً مرهقًا للنفس المؤمنة؛ إذ لا يخلو أى إنسان من ظلم نفسه فأراح التفسير النبوى من هذا العناء .

٢ - روى النعمان بن بشير عن النبى ﷺ أنه قال: الدعاء هو العبادة ثم قرأ : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2] .

وهذا تفسير معقول ، إذ إن قول الله عقب الأمر بالدعاء : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي ﴾ يكشف عن المراد من معناه وهو ما اهتدى إليه الرسول حين قرأ الآية جميعها ، وبذلك يخطئ من يظن أن كل دعاء مستجاب كما هو الظاهر من المعنى اللفظى .

٣ - ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[3]

قال أبو أمية الشعبانى: سألت أبا ثعلبة عن: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ ﴾ فقال: «أما والله لقد سألت عنها خبيرًا ، سألت رسول الله ﷺ فقال : بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحًّا مطاعًا ، وهوى متبعًا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك»[4] .

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ . سورة لقمان : ١٣ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ . سورة غافر : ٦٠ .

(٣) سورة المائدة : ١٠٥ .

(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١١٢ .

فالتفسير المحمدى إذًا ، لا يغفل الأهداف العريقة التى دعا إليها الإسلام من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقد يظن بعض السذج أن قول الله عليكم أنفسكم مما يدعو إلى التفات المرء لنفسه دون غيره ، بمعنى أنه لو رأى معصية ترتكب فلا ينهى عنها ، مادام هو فى ذاته لم يقارف إثمًا ، فجاء التفسير النبوى ليدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر قدر الاستطاعة ، حتى إذا ظهر اليأس من القدرة عن الصلاح كان على المؤمن أن يتولى أمر نفسه ، إذ لا يضره من ضل حين يلتزم جانب الهداية ، وأكثر ما روى من تفسير رسول الله لآيات الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يؤكد ذلك ، فقد روى أبو عبيدة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : إن بنى إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، فرذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، ونزل فيهم من القرآن : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[1] .

قال الراوى: وكان نبى الله ﷺ متكئًا فجلس ، فقال: لا حتى تأخذوا على يد الظالم فتأطروه أطرًا[2] .

---

(١) سورة المائدة : ٧٨ : ٨١ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٠٨.

وقد كان رسول الله ﷺ سريعًا إلى تصحيح ما يتوهمه المسلمون من الخطأ فى تفسير بعض آيات الله ، وإن كان فى صيغة سؤال؟ فما يكاد يصل إلى سمعه بعض ما جاء فى غير موضعه من القول ، حتى يبادر إلى إحقاق الحق ، فقد قرأت عائشة رضى الله عنها ذات مرة قول الله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[1] فسألت رسول الله : أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون، فقال: لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم [2] .. فكأن عائشة قد ظنت الوجل لدى هؤلاء من حدوث الذنب ، وغفلت عن سياق الآيات ، ولكن النبى المفكر لا يبتر قطعة من نص ليستشهد بها دون النظر إلى جميع الكلام ، فهو يعلم أن الآية سيقت فى مجال الحديث عن المؤمنين التقاة ، إذ يقول الله عنهم فى سورة «المؤمنون» : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴾[3] وواضح أن الذين يسرقون ويشربون الخمر ليسوا الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، وليسوا ممن يسارعون فى الخيرات ، ولو تدبرت عائشة النص الكامل ما سألت سؤالها البعيد ، أما الخوف والوجل مع هذه الأعمال الصالحة فخشية ألا يتقبلها الله ، وهذا ما عبر عنه القرآن بالإشفاق فى مجال آخر حيث قال عن المؤمنين فى الجنة : ﴿ وَأَمْدَدْنَـٰهُم بِفَـٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَـٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾

(١) سورة المؤمنون : ٦٠ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٩٠.

(٣) سورة المؤمنون : ٥٧ : ٦١ .

قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴾[1] .

وبعض الصحابة على حق ، حين يلتبس عليهم وجه الحق فى بعض الآيات ، فلكل تفكيره الخاص ، وفوق كل ذى علم عليم ، لذلك كان اهتمام الرسول يكشف الحقائق عن آيات الكتاب ، ومن يقوم بذلك غير عالم ناقد يفهم النصوص القرآنية فهمًا كليًّا مستوعبًا ، ثم يصدر عن فلسفتها العامة فى التخريج والتأويل ، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة من أنه حين نزل قول الله تعالى فى سورة النساء : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[2] . شق ذلك على المسلمين[3] ، وتربصوا بنفوسهم الشر؛ إذ إن لكل إنسان أخطاء مهما احترز ، فشكوا إلى النبى ﷺ فقال: قاربوا وسددوا ، ففى كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة أو النكبة ينكبها ، ثم ضرب الرسول فى رواية أخرى أمثلة لما يصيب المسلم من الحمى والنكبة حتى البضاعة يضعها فى كم قميصه فيفقدها فيفزع لها هى مكفرة الذنب ، كل ذلك فهمه محمد ﷺ من قول الله عز وجل : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ .

وفى القرآن ألفاظ مجازية تحتاج إلى الإيضاح أو صور تشبيهية تحتاج إلى المثال ، وهو ما تكفل به الرسول عليه السلام وقد صدر فى ذلك عن سلامة فهم ، وصحة تأمل ، ووقوف على أسرار العربية فى أساليبها المجازية والحقيقية على السواء ، ونشير إلى بعض ذلك بهذه الأمثلة :

(١) سورة الطور : ٢٢ : ٢٨ .

(٢) سورة النساء : ١٢٣ .

(٣) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٠٣.

١- لما نزلت آية الصيام ومنها : ﴿ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ﴾(١) سأل عدى بن حاتم أهما الخيطان ، فقال ﷺ لا ، بل سواد الليل وبياض النهار(٢) .

٢- حين قال الله عز وجل عن أوليائه : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾(٣) . سأل أبو الدرداء محمدًا ﷺ عن بشرى الحياة فقال: هى الرؤيا الصالحة ، يراها المسلم أو ترى له .

٣- قال الله تعالى فى سورة الواقعة : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾(٤) . ففسر النبى ﷺ الرزق بالشكر(٥) . وكأنه أخذ ذلك من سياق السورة ، إذ يسأل الله عز وجل : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ ﴾(٦) ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾(٧) ، ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ ﴾(٨) . إذ إن المشركين يكذبون ما يسمعونه عن نعم الله هذه .

فسيقت هذه الآية : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ ﴾ مساق التوبيخ ، عن الجحود والكفران .

---

(١) سورة البقرة : ١٨٧ .
(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٥٧.
(٣) سورة يونس : ٦٤ .
(٤) سورة الواقعة : ٨٢ .
(٥) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٦٠.
(٦) سورة الواقعة : ٦٣ ، ٦٤ .
(٧) سورة الواقعة : ٦٨ ، ٦٩ .
(٨) سورة الواقعة : ٧١ ، ٧٢ .

٤- قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٢٤ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴾[1] فقال ﷺ هى النخلة ، وقال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴾[2] فقال ﷺ هى الحنظل[3] .

٥- قال تعالى فى صفة أهل النار: ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴾[4] فقال ﷺ عن الوجه الكالح : تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخى شفته السفلى حتى تضرب سرته[5] .

هذه بعض الأمثلة لما يكشف به الرسول عن المعانى المجهولة لألفاظ قرآنية لا يوحى بها المنطوق ، أما أمثلة التفسير الذى يكشف عنه الرسول فى سياق الحديث العام عن طريق الاستشهاد بالآية فى موضع يدل عليها ، ويكشف عن مرماها فما أكثر ما روى منه ، والكشف عن نص من النصوص الأدبية من خلال السياق العام أمر تهش له الدراسات الحديثة وترحب به ، إذ إن المستشهد بالآية الكريمة إذا كان صحيح النظر كمحمد ﷺ يمهد لها بما يلقى الضوء الساطع على المراد منها ، فتنزل من السامع أو القارئ أحسن منزل وأرضاه ، ويكون مجرد الإتيان بها فى حديث متسلسل مطرد إيضاحًا قويًا لمدلولها المراد ، ولن يقدر على ذلك غير خبير فاحص متدبر قد ألم بالآيات القرآنية إلماماً دقيقًا ، ورزق من قوة الملاحظة ، واتساع الحافظة، وسداد الإصابة ما يجعل نصوص القرآن طوع بنانه متى أراد ، والكثرة الكاثرة منا يحفظون القرآن ثم لا يقدرون كثيرًا على الاستشهاد به دائمًا فى براعة وحدة كما يفعل

(١) سورة إبراهيم : ٢٤ ، ٢٥ .

(٢) سورة إبراهيم : ٢٦ .

(٣) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٥٨.

(٤) سورة المؤمنون : ١٠٤ .

(٥) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٩٠.

الرسول ، بل إن كثيرًا من المستشهدين بالقرآن لا يصيبون الآية بمذاقهم الخاص ، بل يتناقلونها مستشهدًا خلف مستشهد ، ومحمد المعلم الأول لم يكن لينقل عن أحد فى القول والفعل ، وأبيح لنفسى أن أشير إلى بعض هذه الاستشهادات المفسرة كما جاءت فى بيان رسول الله :

١- عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك ، فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فيعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فيتعوذ بالله من الشيطان الرجيم[(١)] ، قال تعالى : ﴿ **ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[(٢)] .

٢- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: قال الله تعالى وقوله الحق: إذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها له حسنة ، فإن عملها فاكتبوها له بعشرة أمثالها ، وإذا هم بسيئة فلا تكتبوها ، فإن عملها فاكتبوها بمثلها ، فإن تركها أو قال: لم يعمل بها فاكتبوها حسنة ثم قرأ : ﴿ **مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ** ﴾[(٣)] .

٣- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إنى قد أحببت فلانًا قال : فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله :

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٧١.

(٢) سورة البقرة : ٢٦٨ .

(٣) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٢٠ . سورة الأنعام : ١٦٠ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾[1] . وإذا أبغض الله عبدًا نادى جبريل ، إنى قد أبغضت فلانًا ، فينادى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض[2] .

٤- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : ما من مولود إلا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جدعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ، ثم يقول : ﴿ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] .

٥- عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال: لا يصيب عبدًا نكبة فما فوقها أو دونها إلا بذنب ، وما يعفو الله عنه أكثر ، ثم قرأ : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴾[4] .

٦- عن ابن عمر رضى الله عنه قال : خطب النبى ﷺ الناس يوم فتح مكة فقال : «يا أيها الناس ، إن الله قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية وتعاظمها بآبائها ، فالناس، رجلان: بر تقى كريم على الله ، وفاجر شقى هين على الله ، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[5] .

٧ - عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : يقول الله تعالى: أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ،

(١) سورة مريم : ٩٦ .
(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .
(٣) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٩٧ . سورة الروم : ٣٠ .
(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٢٠ . سورة الشورى : ٣٠ .
(٥) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٨٣ . سورة الحجرات : ١٣ .

ما أطلعتم عليه ، ثم تلا قول الله تعالى : ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾[1] .

٨- عن على رضى الله عنه قال: كنا مع رسول الله فى بقيع الغرقد فى جنازة ، فقال : ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده فى النار ، ومقعده من الجنة ، قالوا : يا رسول الله ، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل قال : اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما من كان من أهل السعادة فييسر لعمل أهل السعادة ، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشفاوة ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴾[2] .

٩- عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قد ينادى مناد: آن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا ، وآن لكم أن تحيوا فلا تموتوا ، وآن لكم أن تنعموا فلا تبتئسوا أبدًا ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[3] .

١٠- عن على عن أبى بكر أن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم فيتطهر ثم يصلى فيستغفر الله إلا غفر الله له ، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾[4] .

تلك عشرة أحاديث ، وما بنا أن نزيد .

(١) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٠٩. سورة السجدة : ١٧ .
(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٣٦. سورة الليل : ٥ : ١٠ .
(٣) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٢١. سورة الأعراف : ٤٣ .
(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٨٨. سورة آل عمران : ١٣٥ .

فإذا انتقلنا إلى النوع الثالث من التفسير النبوى ، وهو ما أوحى به المقام من توجيه سؤال أو واقع حال.. نجده مما يدل على مهارة فائقة فى الاستنباط والتخريج، لأن الصحابى العربى الذى يتقدم بسؤال عن آية من القرآن لا يكون سؤاله بدهيًا هينًا ، بل لابد أن يستعصى عليه وهو ابن اللغة وربيب الفصاحة ، فيتطلب إجابة صائبة من ذى فكر أكبر يتمتع باليقظة والدراية والثقوب ، وذلك بعض ما لدى محمد من مميزات ، إذ إن إجابته على الأسئلة القرآنية كانت دائمًا حسمًا للخلاف وكشفًا عن الباطن المستور .

قالت عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس أحد يحاسب إلا هلك ، قلت يا رسول الله ، جعلنى الله فداك ، أليس يقول الله تعالى : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾[1] . قال : ذلك العرض يعرضون ، ومن نوقش الحساب هلك[2] .

فسؤال عائشة فى موضعه لدى من يقفون بآية : ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾. وعند مدلول الحساب اللفظى ، ولكن الرسول بإدراكه الكلى للقرآن علم أن الحساب هنا العرض ، وفى موضع آخر يكون بمعنى المؤاخذة والمناقشة ، وهنا مظنة الخطر وتوقعه .

وقد سئل رسول الله ﷺ ذات مرة عن زكاة الحمر ، فقال: لم ينزل على فيها شىء إلا هذه الآية الجامعة الفاذة : ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ** ﴾[3] وصريح الاستدلال يدعو أصحاب الحمر إلى الزكاة عنها ، لأن كل إنفاق محسوب مدخر عند الله ولو كان مثقال ذرة ، ووصف الرسول

(١) سورة الانشقاق : ٧، ٨ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٩٠.

(٣) « التاج » ج ٤ ، ص ٣٠١ . سورة الزلزلة : ٧، ٨ .

للآية بأنها الجامعة الفاذة ، مما يلفت إلى عظيم خطرها ووجوب تدبرها ، فهو وإن لم يكن من قبيل التفسير للمعنى ، فقد ألقى عليها أشعة من الإجلال والاحتفاء .

ومثال ثالث: عن الزبير بن العوام رضى الله عنه قال: لما نزلت : ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾[1] قلت: يا رسول الله ، فأى النعيم نسأل عنه؟ إنما هما الأسودان: التمر والماء ، قل أما إنه سيكون[2] .

وبعض شراح الحديث يفهمون من قول الرسول أما إنه سيكون أن السؤال سيكون عن التمر والماء مهما قل شأنهما ، وأنا أفهم معنى آخر ، أفهم أن الرسول يتنبأ للمسلمين بالخير والنعيم حين تمتد راية الإسلام ، ويدخل الناس فى دين الله أفواجًا من جميع الممالك والدول ، وإذ ذاك يكون النعيم ، ويزداد الخير فيحاسب عليه المسلمون. وهذا ما كان فعلاً بعد اندحار الفرس والروم ، وغزو الهند ، وما وراء النهر ، وفتح الأندلس وصدق رسول الله .

ومثال رابع – وهو أيضًا مما يدل على التنبؤ المحمدى الصادق ، فيعزز رأينا فى الحديث السابق – عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كنا عند النبى ﷺ حين أنزلت سورة الجمعة فتلاها فلما بلغ : ﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] قال رجل: يا رسول الله: من هؤلاء الذين لم يلحقوا بنا؟ فلم يكلمه رسول الله ﷺ وسلمان الفارسى فينا فوضع رسول الله ﷺ يده عليه فقال: «والذى نفسى بيده ، لو كان الإيمان بالثريا لتناوله رجال من هؤلاء»[4] .

هذه أمثلة شتى لأسئلة الصحابة ، وقد يسأل رسول الله نفسه صحابته ليختبر مدارك سامعيه ، فإذا وجد الإجابة لا تقنع بادر بالقول المفيد؛ ليتعظ العاقل ويتنبه

(١) سورة التكاثر : ٨ .
(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٠٣.
(٣) سورة الجمعة : ٣ .
(٤) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

النائم ، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قرأ قول الله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾[1] فى سورة الزلزلة ثم قال: أتدرون ما أخبارها؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها تقول: عمل يوم كذا كذا ، فهذه أخبارها»[2] .

كما أنه ﷺ كثيرًا ما ينتهز مناسبة ما من مناسبة الحديث ، ليذكر ما يشير إلى موضوعها من القرآن الكريم ، فتتضح الآية اتضاحًا ساطعًا لانتهاز المناسبة ، ومن ذلك ما حكاه عبد الله بن مسعود حين روى أن حبرًا من الأحبار وفد على رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد: إنا نجد (أى فى التوراة) أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأرضين على إصبع ، والشجرة على إصبع ، والماء والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، فيقول أنا الملك «فضحك النبى ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول الحبر ، ثم قرأ قول الله عز وجل: ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[3] .

على أن لمحمد ﷺ من صدق الاستشفاف للكتاب ما ليس لسواه ، فقد قرأ ذات يوم قول الله عز وجل فى سورة الأنفال : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[4] فقال ﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعرى ، أنزل الله على أمتى أمانين ، فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة[5] ، أما سرعة انفعاله الشديد بما يقرأ من القرآن فما أكثر ما أشرنا إلى بعض

(١) سورة الزلزلة : ٤ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ٣٠١ .

(٣) « التاج » ج ٢ ، ص ٢٣١ . سورة الزمر : ٦٧ .

(٤) سورة الأنفال : ٣٣ .

(٥) « التاج » ، ج ٣ ، ص ١٢٨ .

شواهده ، ومن ذلك ما روى من أنه ﷺ حين نزلت هذه الآية : ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ ﴾[1] ، «قال رسول الله فى ضراعة» أعوذ بوجهك ، ثم سمع بعد ذلك : ﴿ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فكرر الاستعاذة ضارعًا ، ثم سمع بعد ذلك : ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ﴾ ، فقال : هذا أهون ، أو هذا أيسر[2] .

وقد اهتمت كتب الحديث برواية جميع ما نقل عن رسول الله من التفسير ، ثم جمعه الحافظ ابن حجر فى كتاب خاص ، وأحصاه الجزء الرابع من التاج فى باب التفسير ، ولمن يرجع إليهما أن يلمس صدق النظرة ، وسلامة الاستنباط ، وقوة الاستشفاف ، ودقة التحديد لمعانى الكلمات ومدلولاتها وذلك ما يعنينا هنا بصدد الحديث عن موقف محمد من تفسير القرآن باعتباره نصًّا أدبيًّا ، أما اعتباراته الأخرى من توحيد وتشريع وتاريخ ، فقد أوسعها العلماء شرحًا ودراسة وتأويلاً ، وكل ذلك مشتهر معروف .

* * *

(١) سورة الأنعام : ٦٥ .

(٢) « التاج » ، ج ٤ ، ص ١٥٥ .

بين إعجاز القرآن وإبداع الحديث

أسلوب القرآن معجز ، وأسلوب الحديث مبدع ، والفرق بين الأسلوبين أوضح من أن يدل عليه ، وقد أحسن أستاذنا العالم المفكر الدكتور «محمد عبد الله دراز» برد الله بالرحمة مثواه حين أجمل الحديث عن الأسلوبين بقوله فى كتابه (النبأ العظيم) ص ١٠٦ :

«ونحن نرى الأسلوب القرآنى فنراه ضربًا وحده ، ونرى الأسلوب المحمدى فنراه ضربًا وحده ، ولا يجرى مع القرآن فى ميدان إلا كما تجرى محلقات الطير فى جو السماء ، لا تستطيع إليها صعودًا ، ثم نرى أساليب الناس على اختلافها ضربًا واحدًا لا تعلو عن سطح الأرض ، فمنها ما يحبو حبوًا ومنها ما يشتد عدوًا ، ونسبة أقواها إلى القرآن كنسبة هذه السيارات الأرضية إلى تلك السيارات السماوية ، نعم لقد تقرأ القطعة من الكلام النبوى فتحاول اقتناصها كما تطمع فى اقتناص الطائر أو مجاراته ، ولقد تقرأ ا لكلمة من الحكمة فيشتبه عليك أمرها ، أمن كلمات النبوة: أم من كلمات الصحابة ، أم من كلمات التابعين؟ أما الأسلوب القرآنى فإنه يحمل طابعًا لا يلتبس معه غيره ولا يجعل طامعًا يطمع فى أن يحوم حول حماه» .

هذا التحديد الحاسم الذى وضحه أستاذنا الدكتور « محمد عبد الله دراز » ، قد أوضح الفوارق الطبيعية بين أسلوب القرآن المعجز ، وأسلوب الحديث المبدع ، ونقول الفوارق الطبيعية لأنها فوارق منطقية عاقلة لا نشاز بها ، وليس ما يدرك منه رائحة الانتقاص للبيان النبوى فى شىء ، إذ إن بيان محمد ﷺ شعاعٍ من شمس القرآن ، يترسمه ويستهديه ثم لا يحاول اللحاق به إذ كان تنزيلاً من حكيم حميد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، أما محمد فهو وإن كان خاتم الأنبياء ،

يعترف بأنه بشر يوحى إليه ، ويقول فى بعض ما روى عنه: «إنما أنا بشر ، وأنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم يكون أبلغ من بعض ، فأحسب أنه صدق فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار ، فيأخذها أو ليتركها»(١) .

وهذا القول لا يصدر عن إنسان يدعى ما ليس فى طوقه ، بل بقوله ﷺ مؤكدًا طابع البشرية فى نفسه ، وحسبه أن يكون بيانه أرقى بيان بشرى ، وأن المبدعين من بنى الإنسان إذا قيس بيانهم ببيانه ، جاء أدبه النبوى مجليًا وجاءوا لاحقين .

هذا التحديد الذى وضحه الدكتور دراز قد أشار إلى مضمونه مدره الإسلام «مصطفى صادق الرافعى» بأسلوبه القوى المفحم حين قال فى هذا المجال(٢) :

«على أن أعجب شىء ، أنك إذا قرنت كلمة من تلك البلاغة (النبوية) إلى مثلها مما فى القرآن ، رأيت الفرق بينهما فى ظاهره كالفرق بين المعجزة وغير المعجزة سواء ، ورأيت كلامه ﷺ فى تلك الحال خاصة مما يطمع فى مثله ، وأحسست أن بين نفسك وبينه صلة تطوع لك القدرة عليه ، وتمد لك أسباب المطمعة فيه ، بخلاف القرآن فإنك تستيئس من جملته ، ولا ترى لنفسك إليه طريقًا ألبتة ، إذ لا تحس منه نفسًا إنسانية ، ولا أثرًا من آثار هذه النفس ، ولا حالة من حالاتها حتى نأنس إلى ذلك على التوهم ، ثم نتوهم الطمع والمعارضة من هذه المؤانسة فتمضى عزمك ، وتقطع رأيك وتبت القول فيه ، كما يكون لك فى قراءة الكلام الإنسانى ، فإن لجميع هذا الكلام الآدمى منهاجًا ، ولجملته طريقًا ، وحدود البلاغة التى تفصل بعضه عن بعض كلها مما يوقف عليها بالحس والعيان ، ويقدر فوق ما بين بعضها إلى بعض مهما يوقف عليه بالحس ، ومهما بلغ من تفاوتها واختلافها فى الصنعة والغرابة، بيد أن ذلك مما لا يستطاع فى القرآن ، ولا وجه إليه بحال من الأحوال ، فما هو إلا أن تقرأ الآية منه حتى تراها قد خرجت من حد المألوف وانسلت منه ،

(١) « هداية البارى » ، ج ١ ، ص ١٤٩ .

(٢) « إعجاز القرآن » للرافعى ، ص ٣٦٦ .

وفاتت سمت ما قدرت لها من مطلع ومقطع ، فمهما وجدت لا تجد سبيلاً إلى حدها ، ومهما استطعت لا تستطيع أن تقرن بها كلامًا نعرف حده فى البلاغة إن لم يكن بالصنعة فبالحس» .

وإذًا ، فكلام محمد ﷺ على إبداعه لا يمكن أن يشتبه بكلام القرآن على إعجازه ، ومن قرأ القرآن قراءة منصفة لا تميل إلى الهوى ، ثم قرأ الحديث النبوى قراءة منصفة لا تميل إلى الهوى كذلك ، وكان لديه أقل بصر بأساليب الفصحى ونظمها البلاغى ، لن يقول إن القرآن صادر عن محمد.. فبينه وبين كلام محمد بون أى بون .

هذا البصر النافذ بأساليب الفصحى ، قد أعوز كثيرًا من المستشرقين ، فطفقوا يتحدثون عما أسموه بمصادر القرآن التى رجع إليها محمد فى تأليفه باعتباره فى زعمهم من وضعه ﷺ ، فمرة يجعلون يهود المدينة وما لديهم من التوراة أحد هذه المصادر ، ومرة يجعلون لقاء بحيرى الراهب موجهًا لمحمد وجهة قوية فى التفكير الإلهى ، ومرة يزعمون أن حنفاء الجاهلية من أمثال زيد بن عمرو ، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة قد جابوا بلاد النصرانية ثم رجعوا بتعاليمها إلى مكة فأخذ عنهم محمد ، ومرة يكون أمية بن أبى الصلت بما ساق من قصص السفينة والهدهد وبدء الخليفة مصدرًا أساسيًّا للتفكير النبوى فى صياغة القرآن ، ولو رزق واحد منهم معرفة الناقد بما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق ما تورط فى هذه الادعاءات التى تساق سوقًا عن غرض مريض ، ولكنهم - فى الأعم الأغلب - قد عرفوا اللغة العربية عن المعاجم وحدها ، ومن أساطينهم من لا يستطيعون أن يفرقوا بين أسلوب كاتب كابن المقفع ، وكاتب كبديع الزمان الهمذانى ، على بعد ما بينهما فى التفكير والتعبير ، فكيف يتبينون مع هذه الأعجمية الكثيفة فروقًا ما بين أسلوبى القرآن والحديث .

ولكن الداهية الدهياء هى ثقة بعض الكاتبين لدينا فى أقوالهم المريضة ، يأخذونها مسلمة مصدقة لا تقبل الجدل ، ومن هؤلاء من رزقوا حظًّا كبيرًا من صدق النظرة وسلامة الذوق ، ولكن الإعجاب المفرط بأساتذة الاستشراق قد غطى على عقولهم فحجب عنها الضياء ، ولو لم يخدرهم هذا الإعجاب المفرط ما قال ناقد حصيف كالدكتور « طه حسين » قولته الجريئة فى بعض دروسه الجامعية بكلية الآداب :

«كما أن هذا القسم (المدنى من القرآن) ينفرد بالتشريعات الإسلامية كالمواريث، والوصايا ، والزواج ، والطلاق ، والبيوع ، وسائر المعاملات ، ولاشك أن هذا أثر واضح للتوراة والبيئة اليهودية التى ثقفت المهاجرين إلى يثرب ثقافة واضحة يشهد بهذا التغيير الفجائى الذى ظهر على أسلوب القرآن»[(1)] .

كبرت كلمة ، فالبيئة اليهودية لم تثقف المهاجرين فى شىء ، ولم يكن الرسول صانع القرآن حتى يتأثر بثقافة اليهود تأثرًا يحدث ما سماه الدكتور بالتغيير الفجائى ، وقد أحسن أستاذنا الكبير الشيخ «محمد أحمد عرفة» حين عمد إلى هذه المزاعم ، فأتى على بنيانها من القواعد ، فى منطق دقيق وفهم عاقل ، فبين فى كتابه القيم «نقض مطاعن فى القرآن الكريم» الحكمة فى خلو القسم المكى فى القرآن من التشريعات الجزئية ، وعنايته بإثبات العقائد الأصلية والتشريعات الكلية ص ٦٧ من طبعة المنار ، كما بين فى وضوح ناصع أن القرآن لم يتعلم من اليهود فى شىء ، لأن القرآن قد عابهم ورماهم بتحريف التوراة وتزييفها ، وبين كيف فقدوا الأمانة ، واستحلوا الخيانة والبهتان فهم سماعون للكذب أكالون للسحت ، كما يحسدون

---

(١) « نقد مطاعن فى القرآن الكريم » ، ص ٧٠ .

الناس على ما آتاهم الله من فضله ، لذلك كان موقف القرآن منهم موقف المعلم لا المتعلم ، قال تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ ﴾(١) فكيف تكون بيئتهم المدنية بعد ذلك مثقفة يستفيد منها القرآن(٢) .

لم يكن لمثل الدكتور طه وهو الخبير العارف بالأساليب العربية ، أن يجهل ما بين أسلوبى القرآن والحديث من فروق حتى يقيم حكمه المخطئ ، بأن اليهود قد ثقفوا المهاجرين ثقافة ظهر أثرها فى القرآن ، واتهام محمد باختلاق القرآن فرية قديمة تحدث عنها القرآن فى أكثر من موضع ، ورد عليه حين قال فى سورة هود : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٣) .

والحق.. أن أسلوب القرآن ينطق بنبوة محمد نطقًا جهيرًا لا لبس فيه ، فقد خطب الرسول أكثر من خمسمائة خطبة على الأقل بين قوم هم أرباب الفصاحة ، وأبناء اللغة ، ثم جاءهم بالقرآن يختلف اختلافًا تامًّا عن أسلوبه فى الخطابة والحديث .. فلو كان القرآن والحديث من منبع واحد لظهر بعض التشابه بينهما فى خطبة قيلت فى موقف فجائى ، أو حديث سبق عرضًا ينبئ عن طابع رجل يفصل بين قوليه. أما والفرق بين أسلوبى القرآن والحديث أوسع الفروق ، وأوضحها لدى المعاصرين من أرباب الفصاحة ولدى التالين من فاقهى العربية لغة وأسلوبًا ، فكيف يكون مصدرهما واحدًا عند المنصفين؟

---

(١) سورة المائدة : ٤٨ .

(٢) تراجع الصفحات من ٧١ – ٧٨ من كتاب نقض مطاعن للأستاذ محمد أحمد عرفة .

(٣) سورة هود : ١٣ ، ١٤ .

لقد شغل وجه الاختلاف بين أسلوبى القرآن والحديث نفرًا من ذوى البيان فى القديم والحديث ، وأتى كل بما لديه فى ذلك ، ولكنهم لم يصيبوا القول تمام الإصابة؛ إذ حاولوا أن يحددوا خصائص الإعجاز القرآنى فى مقررات علمية ، من نحو بلاغة النظم والإخبار بالمغيبات وقوة الجدل ، والتحدث عن السابقين ، وأحكام التشريع ، وذلك كله يغفل الروح الربانى المسيطر على الأداء سيطرة يعجز عن تحليلها أبلغ النقاد ، فأنت من القرآن فى روعة وجلال وسحر ، أما محاولة تشريح الأسباب الواضحة لهذه الروعة وهذا الجلال وهذا السحر فما لم يصل إليه ناقد بعد ، فكلها مظاهر ساطعة لشىء خفى ، كالكهرباء يدرك تأثيرها ولا يفهم كنهها ، ولعل الأستاذ العلامة «محمد فريد وجدى» رحمه الله قد قارب الحق حين أغفل[1] فى الحديث عن إعجاز القرآن ما يتردد من نحو بلاغة النظم ، وحسن الأداء وأحكام الفاصلة ، مما كرره البلاغيون بإفاضة وإسهاب ، ثم اتجه إلى القول بأن روحانية القرآن هى سر إعجازه ، وهى التى تشهد بآثارها ولا يعلم كنهها ، إنها من أمر الله وروح من روحه ، نقول: إن الأستاذ قد قارب الحق حين أغفل ما يتردد فى كتب القدماء من الحديث عن بلاغة النظم ، وحسن الأداء ، وأحكام الفاصلة ، لأننا نرى هذه الأوصاف مما يصادف أن يرد فى غير كلام الله ، ولو فى سطر أو سطرين أو ثلاثة ثم لا يكون معجزًا ، لأنه فقد الروحانية المهيمنة ، وهى أمر جامع عام يشمل الذكر الحكيم من ألفه إلى يائه ، بحيث أصبحت طابعًا مميزًا نعرفه بشدة النفاذ ، وقوة السطوة وباهر التأثير .

قال الأستاذ محمد فريد وجدى فى المجلد السابع من «دائرة معارف القرن العشرين» :

« حصر المتكلمون فى إعجاز القرآن كل عنايتهم فى بيان الإعجاز من جهة بلاغته ، فكتبوا عنه فى ذلك فصولاً ضافية الذبول ، وبعضهم خصها بالتأليف ،

(١) أغفل ذلك لكثرة ما قيل فيه وسعة تداوله فى كتب البلاغة ، وهو بلا شك مما يشير إلى بعض نواحى الإعجاز فى القرآن ، ولكنه لا يحصر كل النواحى ، وقد اعترف الأستاذ بذلك فيما سيجىء .

وإننا وإن كنا نعتقد أن القرآن قد بلغ الغاية من هذه الوجهة ، إلا أننا نرى أنها ليست هى الجهة الوحيدة لإعجازه ، بل ولا هى أكثر جهات إعجازه سلطانًا على النفس ، فإن للبلاغة على الشعور الإنسانى تسلطًا محدودًا لا يتعدى حد الإعجاب بالكلام والإقبال عليه ثم يأخذ هذا الإعجاب والإقبال يضعف شيئًا فشيئًا بتكرار سماعه ، حتى تستأنس النفس فلا يعود يحدث ما كان يحدثه فى مبدأ توارده عليها ، وليس هذا شأن القرآن ، فإنه قد ثبت أن تكرار تلاوته تزيد تأثيرًا ، ولكنه تسلط على النفس والمدارك ، فوجب على الناظر فى ذلك أن يبحث عن وجه إعجازه من مجال آخر ، يكفى لتعليل ذلك السلطان البعيد المدى الذى كان للقرآن على قلوب الملحدين .

والعلة فى نظرنا واضحة لا تحتاج لكثير من التأمل ، وهى: أن القرآن روح من أمر الله تعالى ، قال تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ** ﴾[1] ، فهو يؤثر بهذا التغيير تأثير الروح فى الأجساد ، فيحركها ويتسلط على أهوائها ، وأما تأثير الكلام فى الشعور فلا يتعدى سلطانه حد إطرابها والحصول على إعجابها ، فقوله تعالى : ﴿ **وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ** ﴾ يكفى وحده فى إرشادنا إلى جهة إعجاز القرآن ، وقصور الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وبقائه إلى اليوم معجزة خالدة يتلألأ فى نورها الإلهى ، وتتألق فى جمالها القدسى؛ ذلك لما كان القرآن روحًا من أمر الله فلا جرم كانت له روحانية خاصة هى عندنا جهة إعجاز ، والسبب الأكبر فى انقطاع الإنس والجن عن محاكاة أقصر سورة من سوره ، وارتعاد فرائص الصناديد والجبابرة عند سماعه ، وناهيك بروحانية الكلام الإلهى - ص ٦٧٧ من المجلد السابع «دائرة المعارف الوجدية». ثم قال :

(١) سورة الشورى : ٥٢ .

«ولا مشاحة فى أن القرآن فصيح ، قد أخرس بفصاحته فرسان البلاغة وقادة الخطابة ، وهو حكيم بهر سماسرة الحكمة والفلسفة ، وحير أراكين النظام والدستور، وهو حق ألزم كل غال الحجة ودل على كل باحث على المحبة كل هذه صفات جليلة تؤثر على العقل والشعور والعواطف والميول فتتحكم فيها تحكم الملك فى ملكه ، ولكنه فوق ذلك كله روح من أمر الله تصل من روح الإنسان ، حيث لا تصل إليه أشعة البلاغة والبيان ، ولا سيالات الحكمة والعرفان ، وتسرى من صميم معناه إلى حيث لا يحوم حوله فكر ولا خاطر ، ولا يتخيله خيال شاعر ص ٦٧٨ ج ٧ ثم قال :

«إن القرآن فوق البلاغة ، والعذوبة ، والحكمة ، والبيان روحانيةً يدركها من لاحظ له فى فهم الكلام وتقدير الحكمة وإدراك البلاغة ، ألا ترى أن الطفل والعامى كيف يعتريهما تهيب عند تلاوته ولو بغير صوت حسن ، حتى إنهما ليكادان يفرقان بين ما هو قرآن وما ليس بقرآن لو أراد التالى أن يغشهما ؟

وهذه الروحانية تظهر جليًّا عندما تكون آية من آياته جاءت على سبيل الاستشهاد والاقتباس فى صفحة كبيرة ، فإنك ترى تلك الآية تتجلى لك من بين السطور ، وخلال التراكيب كأنها الشمس فى رائعة النهار مهما كانت درجة تلك الصفحة من البيان ، ومنزلتها من جمال الأسلوب وجزالة الألفاظ» ص ١٧٩ ج ٧ .

نعلم من هذه المقتطفات: أن الأسلوب القرآنى قد امتاز بالروحانية الربانية التى تجعله نمطًا واحدًا من البيان العلوى ، وهذا سر إعجازه البليغ فى رأى العلامة الأستاذ «فريد وجدى» وهو ما يعوز أسلوب سواه ، وإن كان أبلغ البلغاء محمد ابن عبد الله ، والروحانية عند الأستاذ وجدى قريبة بعض الشىء من مدلول كلمة السحر التى عناها مناوئو القرآن من الجاهلين ، حين قالوا فيما يتحدث عنهم الذكر الحكيم : ﴿ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾[1] .

(١) سورة المدثر : ٢٤ .

حين أجبروا -كراهية - على الاعتراف بقوة تأثيره التى أشبهت تأثير السحر فى تقديرهم وسحر الأدب مما لا ينكر ، بعد أن قال محمد «ﷺ» : إن من البيان لسحرًا ، وأى بيان أروع من القرآن ، ولكن كلمة الروحانية نجد مدلولها العام ككلمة السحر: تطلق لتصور أقوى ما يحس به القارئ من التأثير دون أن تحدد أو تخصص ، وإذا كان لبعض أحاديث الرسول روحانية وضيئة ، فليس معنى ذلك أنها تشارك البيان القرآنى إعجازه ، ولكن روحانية الحديث أمر نسبى لا يرتفع إلى روحانية القرآن ، وقد كانت هذه الروحانية النسبية سر إبداعه لدينا كما كانت روحانية القرآن القوية الآخذة سر إعجازه لدى صاحب دائرة المعارف الوجدية رحمه الله .

ثم ماذا ؟

لقد حاول كثير من المفكرين - مع اعتقادهم الخالص بإعجاز البيان القرآنى - أن يعقدوا موازنة بين الأسلوب الربانى ، والأسلوب المحمدى وهذه الموازنة نافعة فى حد ذاتها - مهما تأكدت نتيجتها - لأنها ترد بالدليل المقنع على من يزعمون أن القرآن نمط من أنماط الأساليب المحمدية ، وهو زعم كاذب قد فضحه ما بين الإعجاز والإبداع من فرق شاسع فياح .

حاول أبو بكر الباقلانى - فى القديم - أن يوازن بين الأسلوبين ، فاستشهد بعدة أمثلة من كلام الرسول ، ولم يفصل القول فى كل مثال ، بل ذكره كما يجىء ، ليستدل من المجموع على أنه نمط آخر من البيان غير ما تعرف من نمط القرآن ، وقد بدأ هذه المحاولة بقوله[١] :

« والذى يصور عندك ماضمنا تصويره ، ويحصل لديك معرفته إذا كنت فى صنعة الأدب متوسطًا ، وفى علم العربية متبينًا أن تنظر أولاً فى نظم القرآن ، ثم فى شىء من كلام النبى ﷺ فتعرف الفصل بين النظمين ، والفروق بين الكلامين ، فإذا

(١) « إعجاز القرآن » للباقلانى ص ١٩٤ ، ط دار المعارف - تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر .

تبين لك الفصل ووقعت على جلية الأمر ، وحقيقة الفرق فقد أدركت الغرض ، وصادفت المقصد، وإن لم تفهم الفرق، ولم تقع على الفصل، فلا بد لك من التقليد ، وعلمت أنك من جملة العامة وأن سبيلك سبيل من هو خارج عن أهل اللسان .

ثم مضى الباقلانى يذكر النصوص الآتية من قول الرسول :

(أ) خطبة أولى مطلعها: «ألا أيها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا» ص ١٩٦ .

(ب) خطبة ثانية مطلعها: «أيها الناس إن لكم معالم فانتهوا إلى معالمكم» ص ١٩٧ .

(جـ) خطبة ثالثة مطلعها: «الحمد لله أحمده وأستعينه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا» ص ١٩٧ .

(د) خطبة رابعة مطلعها : «أيها الناس أتدرون فى أى شهر أنتم» ص ١٩٨ .

(هـ) خطبة خامسة مطلعها: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده» ص ٢٠١ .

(و) خطبة سادسة مطلعها: «نضر الله عبدًا ، سمع مقالتى فوعاها» ص ٢٠٢ .

(ز) خطبة سابعة مطلعها: «ألا إن الدنيا خضرة حلوة ألا وإن الله مستخلفكم فيها» ص ٢٠٣ .

(ح) كتابه ﷺ إلى كسرى عظيم فارس. ص ٢٠٣ .

(ط) كتابه ﷺ إلى النجاشى ملك الحبشة ص ٢٠٤ .

(ى) نسخة عهد الصلح مع سهيل بن عمرو عام الحديبية ص ٢٠٥ .

ثم ختم الباقلانى هذه المختارات النبوية بقوله ص ٢٠٦ :

«ولا أطيل عليك ، وأقتصر على ما ألقيته إليك ، فإن كان لك فى الصنعة حظ ، أو كان لك فى هذا المعنى حس، أو كنت تضرب فى الأدب بسهم، وإن قل هذا السهم أو نقص ذلك النصيب، فما أحسب أنه يشتبه عليك الفرق بين براعة القرآن ، وبين ما نسخناه لك من كلام الرسول ﷺ فى خطبه ورسائله .

فإن قلت: لعله أن يكون تعمل للقرآن ، وتصنع لنظمه ، وشبه عليك الشيطان ذلك من خبثه ، فثبت فى نفسك وأرجع إلى عقلك ، وأجمع لبك ، وتيقن أن الخطب يحتشد لها فى المواقف العظام ، والمحافل الكبار، والمواسم الضخام، ولا يتجوز فيها، ولا يستهان بها ، والرسائل إلى الملوك مما يجمع لها الكاتب جراميزه ، ويشمر لها عن جد واجتهاد ، فكيف يقع بها الإخلال ، وكيف تعرض للتفريط ، فستعلم لا محالة أن نظم القرآن من الأمر الإلهى ، وأن كلام النبى ﷺ من الأمر النبوى» .

هذا ما قاله الباقلانى ، نحن نصدق النتيجة التى انتهى إليها من أن نظم القرآن من الأمر الإلهى ، وأن كلام النبى ﷺ من الأمر النبوى ، ولكن المقدمات التى أفضى بها إلى هذه النتيجة لا تخلو من نظر ، فليس من الدقة الدقيقة فى مجال الموازنة الأدبية أن نذكر عدة نصوص نبوية كما اتفق دون أن تقرنها بنصوص قرآنية فى موضوعها ، ليتجلى للقارئ وجه الفروق بين الأسلوبين فى مجال واحد ، ولاشك أن القارئ المثقف يعرف هذه النصوص قبل أن يذكرها صاحب إعجاز القرآن ، وهو لا ينتظر منه فى مجال الموازنة بين القرآن والحديث أن يكتفى بالاستشهاد النبوى ، ليرى فى أسلوبه نمطًا يخالف نمط القرآن ، فهذا معلوم معروف ، وإذا اقتصر عليه الباقلانى فإنه فى اختياره السردى لم يأت بجديد على أن ما فات الباقلانى فى القديم لم يكن ليفوت باحثًا فاضلاً من المعاصرين تعرض إلى الموازنة الأدبية بين أسلوب القرآن والحديث ، فأتى بالنصوص المتفقة فى الموضوع من الجانبين ، ثم خلص إلى ما خلص إليه الباقلانى من النتيجة ، ذلكم هو العالم الأستاذ ، «مصطفى أحمد الزرقا» وزير العدل السورى الأسبق ، وأحد أساتذة الجامعة بدمشق ، حيث كتب بحثًا معتدلاً فى مقالين بمجلة لواء الإسلام عددى شعبان ورمضان سنة ١٣٧٩ تحت عنوان: «مقارنة بيانية بين أسلوب الحديث وأسلوب القرآن ، ونستأذن القارئ أن نطيل بعض الشىء فى اقتباس فقراته حيث ألم بالموضوع إلمامًا يغبط عليه ، وقد كان من السهل علينا أن نستعين بأفكاره مضافة إلى ما يتولد لدينا من الأفكار دون أن

نسرف بعض الشىء فى النقل عنه ، ثم نكتفى بالإشارة إليه كمرجع ، ولكن الاعتراف بالحق يدفعنا إلى أن نسجل للرجل فضله كاملاً غير منقوص ، ثم إلى أن ننقل الرائع من فقراته حيث يقول :

« فالحديث النبوى جاء كله على أسلوب المعتاد للعرب فى التخاطب: تتجلى فيه لغة المحادثة والتفهيم والخطابة فى صورها ومناهجها المألوفة لدى العرب ، ويعالج جزئيات القضايا والمسائل ويجيب عنها ، ويحاور ويناقش كما يتخاطب سائر الناس بعضهم مع بعض ، ولكنه يتميز من الكلام العربى المألوف بأن فيه لغة منتقاة غير نابية ، وأن فيه أحكامًا فى التعبير ، وجمعًا للمعانى بأوجز طريق وأقربه دون حشو ، مما استحق به التسمية بجوامع الكلم ، فهو كلام عربى من الطراز المعتاد المألوف ، ولكنه على درجة عليا من أساليب البلغاء المعهودة ، أما أسلوب القرآن فهو أسلوب مبتكر لا يجد الناظر فيه ، والسامع شبيهًا له فيما يعرف من كلام العرب ، وأساليبهم يعالج الأحكام ، ويضرب الأمثال ، ويوجه المواعظ فى عموم لا تشبهه العمومات المألوفة ، وخطاب فيه من التجويد ما يجعل له طابعًا خاصًّا منقطع النظير» .

ثم قال الأستاذ بعد جولة موفقة فى هذا المجال :

«فلو أننا أخذنا من القرآن آيات ، ومن الحديث النبوى أحاديث فى موضوع تلك الآيات نفسه ، لرأينا بهذه المقارنة من اختلاف الأسلوبين الحاكم باختلاف المصدر ما فيه البرهان الكافى» .

١- فلنأخذ مثلاً قول القرآن العظيم فى موضوع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[1] .

(١) سورة آل عمران : ١٠٤ .

وللنظر مقابلة فى المعنى نفسه قول النبى ﷺ :

« لتأمرون بالمعروف ولتنهون عن المنكر ، أو ليسلطن الله عليكم شراركم ، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم » .

٢- ولنأخذ مثلا فى موضوع الإخاء فى الدين قول القرآن العظيم فى سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١) .

ولننظر مقابلة فى نفس المعنى قول النبى ﷺ :

« المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ولا يسلمه ، ومعنى يسلمه: أن يتركه لعدوه ، فلا يحميه ولا يمنعه منه » .

٣- ولنأخذ أيضًا قول القرآن العظيم فى موضوع الإخاء الإنسانى العام ، والتآلف والتفاضل بالتقوى والصلاح ، لا بالعرق والنسب ، ولا بالمال والحسب :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(٢) .

ولننظر فى المعنى نفسه أقوال النبى ﷺ التالية :

« أيها الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى » .

«من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

«المؤمن إلف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف» .

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

(٢) سورة الحجرات : ١٣ .

٤- ولنأخذ أيضًا قول القرآن العظيم فى ارتباط صلاح الحياة الاجتماعية بنظام العقوبة على الجنايات :

﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[(١)] .

وللنظر فى مقابلة قوله ﷺ : «إقامة حد بأرض ، خير لأهلها من مطر أربعين صباحًا» .

٥- ولنأخذ أيضًا قول القرآن فى وجوب أداء الأمانة والحكم بالعدل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾[(٢)] .

وللنظر فى مقابلة أقوال النبى ﷺ :

«أد الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخن من خانك» .

«ما من أحد يكون على شئ من أمور هذه الأمة ، فلم يعدل فيهم ، إلا كبه الله فى النار..» .

« لا تقدس أمة لا يقضى فيها بالحق ، ولا يأخذ الضعيف حقه من القوى غير متعتع» .

ومضى الأستاذ فى بحثه المقارن إلى آخر الشوط فأمتع وأفاد ، وكأنه تعمد أن يسد ثغرة واضحة بدت فى دفاع الباقلانى السابق ، حين اقتصر على الاستشهاد بالحديث دون ما يتضمن الموضوع من كتاب الله ، وأذكر أن الأستاذ الباحث «عبد الرحيم فودة» قد تعرض إلى موازنة بارعة بين آية من كتاب الله هى قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ

(١) سورة البقرة : ١٧٩ .

(٢) سورة النساء : ٥٨ .

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1] وبين حديث نبوى هو قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر »[2] .

ثم أفاض فى تحليل النصين إفاضة شافية مستوعبة ، حيث وازن بين الكلمات كأجزاء ، والآية والحديث كمجموع ، وانتهى إلى مثل ما انتهينا إليه من الحكم بالطابع الإلهى للقرآن ، وبالسمة النبوية للحديث الشريف ، وما يسعنا أن ننقل ، فيكفى أن نشير .

هذا ولن يظن أحد أننا بهذه المقارنة الأدبية نحاول أن نغض قليلاً من البيان المحمدى ، فالأدب النبوى أرفع أدب بشرى تحدر عن لسان ناطق ، وله طابعه الإنسانى الناطق بكل ما يمس الإحساس البشرى الراقى من مؤثرات ، كما أن للبيان القرآنى طابعه الإلهى الذى ينطق بعظمة الله وسيطرته وقدرته وجبروته ، وإن اختلاف الطابعين لدليل على أصالة الأسلوبين كل فى بابه ، وقد استشهد الأستاذ مصطفى الزرقا بصدد اختلاف الشخصية فى الأسلوبين بروائع زاهرة من القرآن والحديث ، ولعلى أعذر حين أعود هنا إلى الاقتباس والاستشهاد عنه من مقاله الحصيف ، لأن مجال الموازنة بين أدبين مختلفين مظنة الشطط لدى الكثيرين ، فما ظنك بمجال الموازنة بين بيان القرآن وبيان الحديث؟ والإنسان ضعيف برأيه الخاص إذا انفرد به ، قوى كل القوة بغيره إذا وجد من مفكرى الكتاب من يؤكدون اتجاهه بدقة واستيعاب ، وفى مقدمتهم الأستاذ الزرقا إذ يقول :

«عندما تسمع القرآن تجلى لك من خلال كلامه ذاتية تتكلم من جو علوى ، وقوة ، وسطوة ، وقدرة ، وحكمة ورحمة ، وهذه الذاتية القوية العظمى التى تتجلى

(١) سورة القصص : ٨٣ .

(٢) « لواء الإسلام » رجب ١٣٧٩ .

من وراء أسلوب القرآن لا تضعف حتى فى المواطن التى تعبر فيها عن الرحمة ، وإن قوتها واحدة فى جميع سوره وآياته ، فهى ذاتية جبارة قوية قادرة منتقمة عادلة حكيمة رحيمة ، آخذة بزمامين من الترغيب والترهيب ذات سلطان مطلق ، تتصورها مثلاً من خلال الآيات الآتية :

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ ﴾[1] . ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا تَدْمِيرًا ﴾[2]. ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾[3] . ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[4].

«أما الحديث النبوى ، فإنك تشعر وراء أسلوبه بشخصية بشرية ، وذاتية يعتريها الضعف والقوة ، ولكن قوتها من لون آخر ، ففيها ضعف الذات العاجزة أمام الصعوبات القاهرة تارة ، وفيها قوة الثقة بالحق تارة أخرى ، فكثيرًا ما نشعر من أسلوب الحديث النبوى بشخصية تعتز بهذا الضعف الذاتى أمام الله ، إلى جانب

(١) سورة البقرة : ٢٥٥ .

(٢) سورة الإسراء : ١٦ .

(٣) سورة فاطر : ٤٤ ، ٤٥ .

(٤) سورة يس : ٧٧ : ٧٩ .

اعتزازها بقوة الأمانة والثقة بالحق ، ففيها ضراعة البشر وتواضع الزهاد ، إلى جانب حكمة العلماء وقوة المبلغين الأمناء ، فانظر وتصور هذه الشخصية فى لون قوتها من خلال قول الرسول عليه الصلاة والسلام حينما هددته قريش فنصحه عمه بترك الدعوة» :

« والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر، ما فعلت ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

وتصورها فى شعورها بالضعف الذاتى من خلال الأدعية المأثورة عن النبى ﷺ فى مناجاة ربه بعدما خرج لدعوة ثقيف وعاد بالأذى والخذلان :

« اللهم ، إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، إلى من تكلنى؟ إلى عدو يتجهمنى ، أم إلى قريب ملكته أمرى ، إن لم تكن ساخطًا علىّ فلا أبالى ، غير أن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الكريم الذى أضاءت له السموات والأرض ، وأشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل على غضبك أو تنزل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك»[١] .

هذه نماذج كاشفة توضح الفرق بين أسلوب وأسلوب ، وهى فى مجموعها تؤكد ما فصلناه فى فصل سابق تحت عنوان: «القرآن أستاذ محمد» بمعنى أنها توضح السمات البارزة لبيان الأستاذ وأدب التلميذ.. وفى ذلك غناء..

* * *

(١) « لواء الإسلام » ص ٣٥ ، عدد رمضان سنة ١٣٧٩ .

(1)
ثلاثة من القدماء
يتحدثون عن محمد الأديب

أجمع الكتّاب فى العربية على أن بيان محمد الذى تأكدت نسبته إليه فى أعلى الدرجات من سلم البلاغة العالية ، لا يفوقه غير كتاب الله فى لغة الضاد ، وقد أصبح هذا الإجماع من البديهيات التى لا تحتاج إلى برهان ، وكان على الناقدين من هؤلاء المجمعين على روعة البيان النبوى ، أن يملئوا الكتب ذات الصفحات فى تشريحه الأدبى وتحليله البيانى ، ولكنهم - مع إجماعهم التام على هذه القضية المهمة - يجملون القول فلا يفصلون وكأن ما تضمنه الأثر النبوى من التشريع قد صرفهم عن تفهم أسراره البيانية ، تفهمًا يقوم على الإسهاب الشارح والتفصيل الموضح ، وتلك كبيرة حقًا فى دنيا الأدب العربى الذى تراه يسمح لأدبائه أن يفردوا عدة مؤلفات لتقدير أديب كالجاحظ أو شاعر كأبى نواس ، ثم لا يسمح أن ينهض أديب جهير ليخص الأدب النبوى بكتاب حفيل. إلا ما كان من الشريف الرضى وحده حين أفرد كتابًا عن المجازات النبوية فى أدب محمد بن عبد الله وسلم به بعد حين .

هذا السهو غير المقصود ، ما كان من المنتظر أن يحدث. على أن مما يخفف وقعه قليلاً على النفس أن كبار الأدباء فى الغربة قديمًا وحديثًا ، قد وفوا البيان المحمدى بعض حقه فى فصول متناثرة بين كتبهم الذائعة ، فتحدثوا عن روعة الأسلوب المحمدى بما يكشف كثيرًا من خصائصه ، وقد اختاروا من الحكم النبوية لآلئ

فريدة فى مجال الاستشهاد الأدبى حتى اختص باب منها بمحمد ﷺ لا يتعداه وهو باب جوامع الكلم ، وهذا بعض الحق لا كله ، إذ لا يليق أن ينفرد أدب خطيب كالحجاج مثلا يكتب خاصة ، ثم يكون الحديث عن البيان النبوى نثارًا بين الصفحات .

ومحاولة استقصاء ما قيل عن البيان النبوى فى شتى الكتب العربية مما يعجز أقوى المطلعين صبرًا ، وأعمقهم دراية ، وأوفرهم اطلاعًا ، فلابد أن نختار من بين هؤلاء الدارسين فى القديم والحديث نفرًا لا يضيق بهم المجال فى مثل هذه الدراسة المتواضعة ذات الحيز المحدود ، اكتفاء ببعض القول عن جميعه ، وحثًّا لعشاق الأدب النبوى أن يبعثوا الهمم إلى البحث عن غير هؤلاء ليقفوا على آرائهم الصائبة فى البيان النبوى ، وقد عن لنا أن نختار من سالفى المتقدمين الجاحظ ، والشريف الرضى ، وابن الأثير ، ومن دارسى المعاصرين الرافعى ، والعقاد ، والزيات وهم جميعًا من قادة الأدب ، وحماة الفكر الإسلامى ، وما منهم إلا ذو الرأى الصائب والصوت الجهير .

وطبيعى أن نبدأ بالجاحظ لتقدم عصره ، ودوى صيته فقد أطلق لقلمه العنان فى الحديث عن بلاغة الرسول ، ووصف بيانه بما نقله عنه الكاتبون جيلاً بعد جيل، إذ جاءت عباراته من التدفق والانصباب بحيث تدفع القارئ إلى متابعتها فى إذعان، والجاحظ يتدفق فى البيان حيث يتحدث عن قضية صادقة يعتقدها فى نفسه ، فهو يوسعها بسطًا وتحليلاً وتمثيلاً بما يعبر عن اعتناق قوى للرأى ، وإخلاص عنيف للقول ، وهو مع هذا التدفق المنحدر لا يترك القارئ غريقًا فى موج من البيان يتقاذفه عن شمال ويمين فيحدد المعانى تحديدًا ، إذ يوقفك فى أثناء حديثه على خصائص البيان النبوى ، وطريقة الجدل المحمدى ، وسمات الألفاظ والجمل فى الحديث الشريف وطيب موقعها فى النفوس ، ثم يشفع ذلك بأمثلة من الأدب المحمدى كان أول من اختارها - فيما أعتقد - من الأدباء ، ثم جاء بعده من اقتفاه .

يقول الجاحظ فى الجزء الثانى من «البيان والتبيين»[1] :

«وأنا أذكر بعد هذا فنًا آخر من كلامه ﷺ ، وهو الكلام الذى قل عدد حروفه، وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصنعة ، ونزه عن التكليف وكان كما قال الله تعالى قل يا محمد : ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾[2] .

فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حف بالعصمة ، وشيد بالتأييد ، ويسر بالتوفيق ، وهذا الكلام الذى ألقى الله المحبة عليه، وغشاه بالقول ، وجمع بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام ، ومع استغنائه عن إعادته وقلة حاجة السامع إلى معاودته لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطىء ، ولا يعجل ولا يسهب ولا يحصر ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا ، ولا أصدق لفظًا ، ولا أعدل وزنًا ، ولا أجمل مذهبًا ، ولا أكرم مطلبًا ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجًا ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين فى فحواه من كلامه ﷺ » .

أرأيت هذا التحدى العاطفى المؤمن فى بيان الجاحظ ، هل أغفل أمرًا ذا بال من أدب محمد .

(١) ص ١٦ من « البيان والتبيين » ، ج ٣ .

(٢) سورة ص : ٨٦ .

إذا كنا نعرف من سماته الإيجاز ، فقد قال الجاحظ عنه هو الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، يبز الخطب الطوال بالكلام القصير ، وإذا كنا نعرف أن اللفظ النبوى سهل قريب المأخذ ، فقد قال الجاحظ عنه : جل عن الصنعة ، ونزه عن التكلف وعاب التشديق ، وجانب أصحاب التقعير ، وهجر الغريب الوحشى، ورغب عن الهجين السوقى ، وإذا كنا نعرف عنه الصدق فى القول ، فقد عبر عن ذلك شيخ الأدباء حيث قال ، لا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفلج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ، ولا يستعمل المواربة ، وإذا كنا نعرف قوة تأثيره وعظيم نفاذه، فذلك ما ألمح إليه الجاحظ حين قال: «هذا الكلام الذى ألقى الله عليه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له بين النهاية والحلاوة ، حف بالعصمة وشيد بالتأييد ويسر بالتوفيق ، وإذا كنا نعرف قوة منطقه وسداد حجته ، فقد عبر عن ذلك الكاتب حين قال: لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ، ولا بارت له حجة ، ولم يقم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، وليس يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم» .

أما ما استشهد به شيخ الأدباء من بيان النبوة خطبة وحديثًا ، فأكثر من أن يشار إليه؛ إذ إنه كرر الاستشهاد فى مواضع متعددة من الأجزاء الثلاثة ، وهو فى استشهاده ينبئ عن ذوق وافتنان ، ومما استشهد به مما لم أشر إليه فيما سبق قول رسول الله ﷺ : «يؤتى بالوالى يجلد فوق ما أمر الله به ، فيقول له الرب : عبدى ، لم جلدت فوق ما أمرتك به فيقول: ربى ، غضبت لغضبك ، فيقول: أكان ينبغى لغضبك أن يكون أشد من غضبى؟ ويؤتى المقصر فيقول: عبدى لم قصرت عما أمرتك به ، فيقول: ربى ، رحمته ، فيقول ، أكان ينبغى لرحمتك أن تكون أوسع من رحمتى ، قال: فيأمر فيهما بشىء قد ذكره لا أعرفه إلا أنه صيرهما إلى نار»[1] وهو حديث مصور ذو تأثير وعمق .

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٣٢.

على أن الجاحظ كان أول من يدل الأدباء على معان طريفة سبق لها نبى الإسلام جميع المتكلمين إذ يقول:

«وسنذكر من كلام رسول الله ﷺ مما لم يسبقه إليه عربى، ولم يشاركه فيه أعجمى، ولم يدع لأحد ولا ادعاه أحد، مما صار مستعملاً ومثلاً سائراً».

«فمن ذلك قوله: «يا خيل الله اركبى» ومن ذلك قوله: «مات حتف أنفه» ومن ذلك قوله: «ولا ينتطح فيه عنزان» ومن ذلك قوله: «ألا حمى الوطيس».

ومن ذلك قوله لأبى سفيان بن حرب: «كل الصيد فى جوف الفرا» ومن ذلك قوله: «هدنة على دخن» وجماعة على أقذاء» ومن ذلك قوله: «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» ألا ترى أن الحارث بن خدان حين أمر بالكلام عند مقتل يزيد بن المهلب قال: أيها الناس: اتقوا الفتنة، فإنها تقبل بشبهة وتدبر ببيان، وإن المؤمن لا يلسع من جحر مرتين، فضرب بكلام رسول الله ﷺ المثل»[1].

ولم يقتصر الجاحظ على عرض الأنماط البليغة من أدب رسول الله بل تعرض إلى أكثر ما يدور حول بيانه من أقوال، فسلط عليها مجهر بحثه، وتتبعها بالنقد معارضًا أو مؤيدًا، فحين وصل إلى سمعه أن أحد شيوخ البصرة لعهده، يزعم أن الله عز وجل خلق نبيه ﷺ أميًّا لا يكتب ولا يحسب، ولا ينسب، ولا يقرض الشعر، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة، ويقصره على معرفة مصالح الدين دون ما يتباهى به العرب من قيافة الأثر وعيافة الطير والعلم بالأنواء، والخيل والأنساب والأخبار حتى إذا واجه الناس بالقرآن كان ذلك أدل على أنه من الله عز وجل... حين سمع الجاحظ ذلك معزوًا إلى أحد شيوخ الأدب بالبصرة لم يشأ السكوت عليه، بل أعلن خطأه الظاهر، وأنه قال بمنتهى علمه فقط، لأن الرسول فى رأى الجاحظ لو كان غير أمى، وكان كاتبًا قارئًا حاسبًا شاعرًا ناسبًا

(١) «البيان والتبيين»، ج ٢، ص ١٦.

متفرسًا قائفًا ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعًا من وجوب تصديقه ولزوم طاعته والانقياد لأمره ، ولكنه أراد «ألا يكون للمشاعر متعلق عما دعا إليه ، كيلا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف فى المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التى كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما غير ذلك فإنه إذا شاء كان أنطق من كل ناطق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر وأداته أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أجدر ، وبين أن يضيف اليه العادة الحسنة وامتناع الشىء عليه من طول الهجران له فرق[1] .

فكان الجاحظ يرى أن إدراك الرسول يتسع لكل شىء مما ذكره الشيخ البصرى دون الشعر ، فلو شاء لكان أنسب وأقوف وأنطق ممن سواه ، ولكنه صرف عن ذلك لا لتكون أميته دليلاً على رسالته الإلهية ، بل لاهتمامه بما هو أولى وأجدر ، أما الشعر فقد نفى عنه كيلا يتوهم أحد أن ما جاء به من القرآن يشبه بعض ألوان الشعر ، وهذا ما عبر عنه الجاحظ حين قال: «حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق» إذ إن تحير السامعين بين بلاغة الشعر وسحر القرآن مما يجيز قيام هذا الحجاب الرقيق دون المعرفة الحقة برسالة محمد لدى بعض الناس .

وهذا كلام جيد النظر نوافق عليه ، وإن كنا نخالف ما سبق أن قاله تعقيبًا على قول الله : ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ ﴾[2] ، وقوله تعالى : ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴾[3] ؛ إذ قال صاحب البيان والتبيين: فمن الخصال التى ذمهم بها – الشعراء – تكلف الصنعة والخروج إلى المباهاة ، والتشاغل عن كثير من الطاعات ،

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٣٢.

(٢) سورة يس : ٦٩ .

(٣) سورة الشعراء : ٢٢٤ .

ومناسبة أهل التشديق ، ومن كان كذلك كان أشد افتقارًا إلى السامع إليه لشغفه أن يذكر فى البلغاء وصبابته باللحاق بالشعراء ، ومن كان كذلك غلبت عليه المنافسة والمغالبة ، وولد ذلك فى قلبه شدة الحمية وحب المحاربة ، ومن سخف هذا السخف وغلب الشيطان عليه هذه الغلبة ، كانت حالته داعية إلى قول الزور ، والفخر بالكذب وصرف الرغبة إلى الناس ، والإفراط فى مديح من أعطاه وذم من منعه[1] ، فكأن الجاحظ يريد هنا صراحة أن يقول: لو علم الرسول الشعر لكان ممن يذهبون إلى المباهاة والاحتياج إلى السامعين وهو ما تنزه عنه الرسول .

وقد نقلنا قوله الأخير فى باب (موقف الرسول من الشعر والشعراء) من هذه الرسالة وقلنا تعليقًا عليه ، وكلام الجاحظ لا يحمل على جميع الشعراء بل على من لا يلتزمون الصدق؛ إذ يهيمون فى كل واد ، على أنه لا يخص الشعراء وحدهم ، فخطباء الجاهلية مثلاً كانوا يتفاخرون بلسان القبائل حباً للغلبة ، وشغفاً بالتفاخر والمباهاة ، فصاروا كالشعراء أشد افتقارًا من السامع إلى السامع إليهم لشغفهم بادعاء الفصاحة وامتلاك الكلام ، وإذًا فليس ذم من ذموا من الشعراء لحاجتهم إلى الإعجاب والتفاف السامعين ، بل لخروجهم عن جادة القول السديد..

ومهما كان من اختلاف قولى الجاحظ فى تعليق ابتعاد الرسول عن الشعر ، فقد أدلى الكاتب الكبير بدلوه فى الدلاء مصورًا ما جاش بخاطره فى وقتين مختلفين ، وهو ما يحدث كثيرًا للكاتبين حين يعالجون مسألة واحدة فى موضوعين متغايرين ، إذ إن أوجه الرأى تتباعد وتتقارب دون أن يكون التباعد مصدر إنكاره يؤاخذ عليه، ودون أن يكون التقارب مدعاة التأييد المحتوم فى كل حال .

وكانت حساسية الجاحظ تدفعه إلى تفنيد كل شبهة تحوم حول البيان النبوى ، وإن كانت من التخاذل والضعف ، بحيث لا تحتاج إلى تنفيذ ، فقد أتاه أن

---

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

الأصمعى وابن الأعرابى ، رويا عن رجالهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنا معشر الأنبياء بكاء» وربما أوهم هذا القول أن البكاء ، يكون من جهة العجز ونقصان الآلة وقلة الخواطر ، وسوء الاهتداء إلى جياد المعانى ، ومن لديه أقل إلمام سيرة الرسول لا يمكن أن يسبق إليه هذا الوهم ، وهو يعلم ميراثه الحفيل فى دنيا البلاغة والبيان ، ولكن الجاحظ يخشى أن يمد الوهم حباله إلى بعض العقول من هذه الناحية فيتتبعها شرحًا وإيضاحًا ثم يستدل بموسى عليه السلام حين سأل ربه فقال: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴾[١] ويقول تعقيبًا على ذلك[٢] :

فلو كانت تلك القلة (فى الكلام) من عجز لكان النبى ﷺ أحق بمسألة إطلاق تلك العقدة من موسى؛ لأن العرب أشد افتخارًا ببيانها وطول ألسنتها ، وتصريف كلامها وشدة اقتدارها ، وعلى حسب ذلك كان زرايتها على كل من قصر عن ذلك التمام ، ونقص من ذلك الكمال ، وقد شاهدوا النبى ﷺ وخطبه الطوال فى المواسم الكبار ، ولم يطل التماسًا للطول ، ولا رغبة فى القدرة على الكثير ، ولكن المعانى إذا كثرت ، والوجوه إذا افتتنت كثر عدد اللفظ وإن حذفت فضوله بغاية الحذف ، ولم يكن الله ليعطى موسى لتمام إبلاغه شيئًا لا يعطيه محمدًا والذين بعث فيهم أكثر ما يعتمدون عليه البيان واللسن ، وإنما قلنا هذا لنحسم جميع وجوه الشعب لا أن أحدًا من أعدائه شاهد هناك طرفًا من العجز ، ولو كان ذلك مرئيًّا ومسموعًا لاحتجوا به الملأ ، ولتناجوا به فى الخلا ولتكلم به خطيبهم ، ولقال فيه عرف الناس كثرة خطبائهم وتسرع شعرائهم هذا على أننا لا ندرى أقال ذلك رسول الله ﷺ أم لم

---

(١) سورة طه : ٢٧ : ٣٢ .

(٢) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

يقله، لأن مثل هذه الأخبار يحتاج فيها إلى الخبر المكشوف والحديث المعروف ولكنا بفضل الثقة وظهور الحجة نجيب بمثل هذا وشبهه[١] .

هذا بعض ما تحدث به أديب العربية العظيم «أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ» عن محمد الأديب ، وهو حديث المعجب الطروب الذى أسكرته حلاوة البيان النبوى وهزته بلاغة الحديث المحمدى فجرى قلمه بما يعبر عن إكباره الزائد وإجلاله الكبير .

أما الشريف الرضى فكان المؤلف الذى أفرد بيان محمد ﷺ بكتاب خاص وقفه على تتبع ألوان المجاز فى كلامه ، فجمع ثلثمائة وستين حديثًا نبويًّا ليشرح ما فيها من ألوان المجاز ، ومع ميله إلى الإيجاز فى شرحه فقد دل على أسرار ذكية فى دنيا البيان ، وقد سبق أن نحا هذا المنحى فى مؤلف عقده عن مجاز القرآن أسماه: «تلخيص البيان عن مجازات القرآن» ، مما ينبئ عن ولوع الشريف بتتبع هذا الضرب من الأسلوب ، وما يفعل ذلك إلا أديب ذواق تملك مشاعره أفانين البراعة فى التعبير ، ويرى فى إعجاز القرآن وإبداع محمد أسمى ما يجب ، وأجل ما يريد ، ومع أن الشريف شاعر فحل يحتل مكان الصدارة بين معاصريه حتى غلبت شهرته الشعرية عليه ، فكادت تعصف بآثاره الأخرى لدى الكثيرين ، فإن آثاره القريبة فى عالم التأليف تدعو إلى المزيد من تقديره ، والفائق من احترامه ، وقد قال الدكتور زكى مبارك فى مؤلفه القيم عنه :

«ولو كان الشريف غير شاعر لاستطاع أن يزاحم أماثل العلماء ، ولكن عبقريته الشعرية جنت عليه ، فخف ميزانه فى الحياة العلمية بالقياس إلى بعض معاصريه ، ومنهم أخوه الذى أتى بالأعاجيب فى الفقه والتوحيد ، ولو أن الرضى وقف عند آثاره العلمية لكان له مكان بين أقطاب المؤلفين ، ولكنه شغل الناس

(١) « البيان والتبيين » ، ج ٣ ، ص ٣٣٨ .

بشعره الفائق فظنوه وسطًا بين الباحثين وهو عند التأمل من أساطين الفكر المنظم الدقيق[1] .

والحق أن الذى يقرأ حديث المؤرخين عن مؤلفات الشريف ، يروعه أن هذا الشاعر العملاق كان يقضى كثيرًا من أوقاته فى الدرس العلمى ، لأن الذى يؤلف كتاب «حقائق التنزيل ودقائق التأويل» فى حجم ضخم يبلغ تفسير أبى جعفر الطبرى أو أكثر[2] يظن به التفرغ للبحوث العلمية وحدها ، فإذا كان مع هذه السعة المفرطة فى الدراسة العلمية والتأليف الشامل من أكبر شعراء عصره ، فهو عجيبة العجائب حقًّا فى مضمار المواهب والملكات .

أما كتاب «المجازات النبوية» فقد قال عنه ناشره الأستاذ الكبير «محمود مصطفى» رحمه الله :

«لم يكتف (الشريف) بإيراد هذه الآثار سردًا لا تعقيب معه ، بل إنه جلى محاسن هذه الآيات بشرحها وبيان مبلغ البلاغة فيها ، ولقد جاء هذا الشرح فائدة كبرى للمطلع على الكتاب ، فهو لا يزال متقلاً من تحقيق لغوى ، إلى تطبيق على علم البلاغة إلى سياق الشاهد من كلام العرب ، وأما ما يجنيه القارئ من الحذق والتوسع فى الفهم والتقليب للأساليب على وجوهها المعتبرة فى نظر البليغ فذلك ما يتجلى فى هذا الشرح ، وأجدى ما يجديه المؤلف على الناظر فى كتابه فإنه يخرج من طول الممارسة للفهوم المختلفة من الأسلوب الواحد والموازنة بينها وتفضيل الفاضل منها ، والحكم على راجحها ومرجوحها ، ويخرج من كل ذلك بملكه صناع هى عدة الأديب فى ممارسة كلام العرب والتذوق لمحاسنه[3] .

(١) « عبقرية الشريف الرضى » ، ج ١ ، ص ٢٦٨ .

(٢) « المجازات النبوية » ، ص ٦ .

(٣) « المجازات النبوية » ، ص ٥ .

أما الشريف الرضى نفسه ، فقد أوجز خطته فى التأليف حين قال فى مقدمة «المجازات النبوية»[1] :

«وعملت بتوفيق الله على تتبع ما فى كلامه ﷺ وعلى آله من ذلك المجاز ، والإشارة منه إلى مواضع النكت ، ومواضع الغرض بالاعتبارات الوجيزة - والإيماءات الخفيفة على طريقتى فى الكتاب (مجازات القرآن) لئلا يطول الكتاب فيجفو على الناظر ، ويشق على الناقل ، فإن القلوب فى هذا الزمان ضعيفة عن تحمل أعباء العلوم الثقيلة ، لأنه لم يبق من الفضل إلا الدماء ، ومن الفضلاء إلا الأسماء ، ولله الحمد على السراء والضراء ، والبؤس والرخاء ولست شاكًّا فى أن ما يفوتنى من الجنس الذى أقصده أكثر من الحاصل لى والواقع إلى ، ولكنى أقتصر على ما تناله فى هذا الوقت يدى ، ويقرب من تصفحى وتأملى ، وإذا ورد بمشيئة الله من هذه الآثار ما فيه موضع مجاز قد تقدم الكلام على نظير له ، أو ما يقوم مقامه اقتصرت على القول الأول طلبا للاقتصاد ... إلخ» .

ونرى مما نقلناه من كلام المؤلف ، أنه كتب كتابه فى حالة نفسية منقبضة ؛ إذ راح ينعى على القارئين تقاصر الهمم والعزوف عن البحث ، فلذلك مال فى حديثه عن المجازات النبوية إلى الإيجاز واللمح دون الأسباب والاستطراد ، واقتصر على ما وقع تحت يده دون إجهاد فى الطلب قائلاً: إن ما يفوته من هذا الجنس أكثر مما يقع له ، وهذه حالة نفسية طارئة لا محالة؛ لأن كتابه «حقائق التنزيل» فى حجم كبير يماثل تفسير الطبرى ، ولن يفعل ذلك مؤلف متضايق يعرف عن القارئين تقاصر الهمم والرغبة عن المطالعة ، وتسجيل هذه الظاهرة مما يفيدنا فى تعليل ما نراه فى بعض الأحايين من اقتضاب الشرح اقتضابا يبعث على التساؤل ، ومن الاقتصار على موضع المجاز من الحديث دون تسطيره بأكمله ، مع أن النص الكامل أدل على البلاغة وأهدى إلى توضيح المعانى على وجهها الصحيح .

---

(١) « المجازات النبوية » ، ص ٢٠ .

ولعل الشريف كان معذورًا حين يبتر الأحاديث مقتصرًا على موضع الشاهد البلاغى ، لأن النظرة العلمية فى عصره وفيما وليه من عصور كثيرة للأساليب البيانية ، كانت تميل إلى التقسيم الجزئى من تشبيه أو استعارة أو كتابة ، غافلة عن التماسك التام بين النص الطويل من قصيدة أو خطبة أو أقصوصة ، وهو مما يعبر عنه فى الاصطلاح الحديث بالوحدة الفنية ، وتقدم شاهدًا على ذلك من صنع الشريف .

«قال المؤلف: ومن ذلك (المجاز) قوله عليه الصلاة والسلام فى ذكر الخوارج: «يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» الحديث بطوله إلى قوله: قد سبق الفرث والدم وفى هذا ا لقول مجاز لأنه عليه الصلاة والسلام شبه دخولهم فى الدين وخروجهم منه بسرعة من غير أن يتعلقوا بعقدته أو يعيقوا بطينته بالسهم الذى أصاب الرمية وهى الطريدة المرمية ، ثم خرج مسرعًا من جسمها ولم يعلق بشىء من فرثها ودمها ، وذلك من صفات السهم الصائب لأنه لا يكون شديد السرعة إلا بعد أن يكون قوى النزعة»[(١)] .

فهذا التعليق البديع قد اتضح للشريف؛ لأنه قرأ الحديث جميعه ، فاستطاع أن يوضح الصورة البلاغية تمام التوضيح ، ولكن ماذا يصنع قارئ المجازات الذى لا يرى أمامه غير ألفاظ محدودة قد بترت من نص واحد ، ويريد أن يتابع المؤلف متابعة الناقد الذى يرجع إلى النص متأملاً قبل أن يقرأ تعليق الشريف عليه ، لاشك أنه يعانى رهقًا فى الحكم إذا اقتصر على ما استدل به الشريف وحده ، ولعل الأستاذ محمود مصطفى قد انتبه إلى ذلك حين ألزم نفسه أن يذكر فى هوامش الكتاب بعض ما يقع عليه من النصوص التامة ، كما جاءت فى الصحاح مقدرًا قيمتها فى جلاء المرمى البلاغى ، وهو ما فات الشريف فلم يعن به ، وتمام الحديث السابق كما نقله الأستاذ محمود بهامش صحيفة «٣٥» :

(١) « المجازات » ، ص ٣٥ .

«عن أبى سلمة بن أبى سعيد قال : بينما النبى ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذى الخويصرة التميمى فقال: اعدل يا رسول الله ، فقال : ويلك ، من يعدل إذا لم أعدل، قال عمر بن الخطاب ، دعنى أضرب عنقه ، قال: دعه ، فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه ، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ، ينظر فى قذذه فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى نصله فلا يوجد فيه شىء، ثم ينظر فى رصافه فلا يوجد فيه شىء ، ثم ينظر فى نضيه فلا يوجد فيه شىء قد سبق الفرث والدم يخرجون على حين فرقة من الناس» .

والشريف مع اقتضاب الأحاديث لا يتحيف المعانى البلاغية فى شىء ، فهو يذكر للمجاز أكثر من تأويل إذا احتمل السياق ذلك ، ويدل على براعة خارقة فى استشفاف الأسرار البيانية استشفافًا لا يواتى غير من جبل على ذوقه وفطرته ونفاذه، وتزداد قدرة الشريف روعة ونبوغًا حين يعمد إلى الحديث الذائع المشتهر ، فيذكر ما اشتهر فى تأويله ثم يردف المشتهر بمعنى آخر لم يشتهر كاشتهار السابق ، مما يدل على أنه فى هذا المجال لا يعمد إلى الاقتصار بل يلتمس الإحاطة والاستيعاب ، إذ كان موضع التأويل بلاغيًّا يتصل بصميم الفكرة التى ألف من أجلها كتاب «المجازات» ، وهذا مثال لما نقول قال الشريف ص ٦١ من المجازات :

«ومن ذلك قوله: «إياكم وخضراء الدمن» ولهذا القول تعلق بباب المجاز ، وللعلماء فى تأويله قولان أحدهما أنه عليه الصلاة واسلام نهى عن نكاح المرأة على ظاهر الحسن ، وهى فى المنبت السوء أو فى بيت السوء ، فوجه المجاز من هذا القول أنه عليه الصلاة والسلام شبه المرأة الحسناء بالروضة لجمال ظاهرها ، وشبه منبتها السوء بالدمنة لقباحة باطنها ، والدمنة هى: الأبعار المجتمعة تركبها السواقى ويعلوها الهابى ، فإذا أصابها المطر أنبتت نباتًا خضرًا يروق منظره ويسوء مخبره ، فنهى عليه الصلاة والسلام عن نكاح المرأة إذا كانت مغموضة فى نفسها أو مطعونًا عليها فى نسبها ، لأن أعرق السوء تنزع إلى ولدها وتضرب فى نسلها قال الشاعر :

وأدركنـه خـلالاته فخـذلنـه   ألا إن عرق السوء لابد مدرك

والقول الآخر أن يكون عليه الصلاة والسلام إنما نهى فى الحقيقة عن تعـارض النفاق وتغاير الأخلاق وأن يتلقى الرجل أخـاه بالظـاهر الجميـل ، وينطـوى عـلى الباطن الدميم ، أو يخدعه بحلاوة اللسان ومن خلفها مرارة الجنان ، وإلى هذا المعنى ذهب الشاعر فى قوله :

وقد ينبت المرعى على دمن الثرى   وتبقى حزازات النفوس كمـاهيا

كأنه أراد وإن لقيناكم بظاهر الطلاقة والبـشر ، فإننـا نـضمر لكـم عـلى بـاطن الغش والغمر .

ومثل هذا قول الآخر :

وفينا وإن قبل اصطلحنا تضاغن   كما طر أوبار الجراب على النشر

وقال أهل العربية: النشر: أن ينبث دبر الـبعير وتحتـه داء العـر وهـو الجـرب ، فيرى كأن ظاهره سليم وباطنه سقيم .

فالشريف قد أتى هنا بمعنيين أحدهما ذائع وهو: النهى عـن نكـاح المـرأة عـلى ظاهر الحسن ، والآخر طريف جديد وهو: النهـى عـن مظـاهر النفـاق بـأن يلقـى الرجل أخاه بظاهر جميل وباطن دميم ، وأنا أميـل إلى تـرجيح التأويـل الثـانى دون الأول لأن النهى عن نكاح المرأة ذات المنبت الضعيف - كما أرى شخصيًّا - يـدعو إلى عدم إنقاذها من الوحشة التى شاء لها القدر أن تنبت فيها دون اختيار إرادى لها ، وإذا صار النهى أمرًا يلتزمه كل مسلم ، فليت شعرى ما يكون مصير هؤلاء؟ وليس لهـن ذنـب فى رد المنبـت ، أليـس الأولى أن نبـذل بعـض المحـاولات الفدائيـة فى إصلاحهن ، ومحاولة الارتفاع بهن فإذا أخفقت المحاولة كنا قد بذلنا الجهد الواجب على ذوى الشمم من أبناء الإسلام ، فعذرنا نفوسـنا أمـام ثـورات الـضمير ، أقـول

ذلك وأنا أعلم أن اعتراضات كثيرة ستوجه إلى ما أرجحه، يدفع إليها الحرص على وجوب الانتقاء والاختيار ويدعمها الاستشهاد بأمثال قول الرسول: «تخيروا لنطفكم»، ولكن المشكلة إنسانية قبل كل شىء، وترجيح المعنى الثانى الذى ذكره الشريف وهو النهى عن النفاق والرياء مما تميل إليه النفس نظراً لهذا الاعتبار.

وقد يأتى الشريف بأثر يتحمل معنيين فى رأيه، فينص عليهما كما فهم، ولكن النظرة الفاحصة تدل على أن أحد المعنيين بعيد لا يحتمل، وكان الأولى به أن يتبع طريقة الترجيح والموازنة بين التأويلات ليلقى الضوء الكاشف على القول الراجح، وليظهر مكان الضعف فى الرأى المرجح ولكنه يتناسى ذلك أو ينساه.

ونقدم مثالاً لذلك من كتاب المجازات.

قال الشريف ص ٥١:

«ومن ذلك قوله عليه الصلاة والسلام فى وصيته لأمراء الجيش الذى بعثه إلى مؤتة: «ستجدون آخرين للشيطان فى رءوسهم مفاحص، فاقلعوها بالسيوف» وهذه من الاستعارات العجيبة والمجازات اللطيفة، وذلك أن من كلام العرب أن يقول القائل منهم إذا أراد أن يصف إنسانًا بشدة الارتكاس فى وعيه، والارتكاض فى عنان بغيه: قد فرخ الشيطان فى رأسه، أو عشش الشيطان فى قلبه، فذهب عليه الصلاة والسلام إلى ذلك الوضع وبنى على ذلك الأصل، فقال للشيطان فى رءوسهم مفاحص، والمفحص فى الأصل: الموضع الذى تفحصه القطاة لتجثو عليه أو لتبيض فيه، وإنما قيل له مفحص لأنها لا تجثم فيه إلا بعد أن تفحص التراب عنه توطئة لمجثمها وتمهيدًا لجسمها، ويقال ما بقى لفلان مفحص قطاة إذا لم يبق له ريع يؤديه ولا جرىء «يكون فيه، فيحتمل قوله عليه الصلاة والسلام للشيطان فى رءوسهم مفاحص أحد معنيين أحدهما أن يكون أراد أن الشيطان قد بدأ يخدعهم ويغرهم ويستهويهم ويضلهم، ولم يبلغ من ذلك غايته ولا استوعب خديعته كالقطاة التى بدأت باتخاذ المفحص لتبيض به وترتب فراخها فيه، والمعنى الآخر أن

يكون أراد أن الشيطان قد استوطن رءوسهم فجعلها له مقيلاً ومبركًا ومعلمًا وتمحكًا كما تتخذ القطاة مفحصًا لتأوى إليه وتسجن فيه » .

والمعنى الثانى هو المراد لا غير ، إذ لو صح المعنى الأول بأن يكون الشيطان قد بدأ يختدعهم ، ويغرهم ويستهويهم ويضلهم دون أن يبلغ من ذلك غايته أو يستوعب خديعته ، كالقطاة التى بدأت باتخاذ المفحص لتبيض فيه وترتب فراخها فيه دون أن يتم ذلك.. لو صح ذلك ما جاز أن يقول الرسول عنهم فاقلعوها بالسيوف كناية عن القتل ، إذ القتل لا يكون بمجرد ابتداء خديعة الشيطان دون أن يبلغ بالمرء ما يريد. فتلك وساوس مبدئية لا تكون عقوبتها الاستئصال ، إنما يكون قلع المفاحص بالسيوف حقاً لمن استوطن الشيطان رأسه فجعلها مقيلاً لا يبرحه ، وإذ ذاك يكون الجزاء الصارم من جنس العمل الدنىء .

أما مواطن الإبداع فى المجازات فأكثر من أن تحد ، فقد كشف الشريف الحاذق البصير ، وافتن افتنانًا بديعًا فى أكثر ما أتى به ، وله من التخريجات العويصة والتأويلات العميقة ما يدل على ذكاء متوقد وذهن لماح ، وإذا شئنا الاستشهاد على ذلك فسنسرد أكثر صفحات الكتاب ، وذلك مالا يستطاع. ولقد أحسن الأستاذ محمود مصطفى تقديره حين قال فى مقدمته المانعة ص ٤ .

«وقد استطاع رضى الله عنه بما وهب من واسع العلم ووفير الفضل وحسن التتبع لكلام رسول الله أن يجمع من ذلك ثلثمائة وستين حديثًا ، وقد كنا قبل ذيوع هذا الكتاب ، لا يكاد الأديب مهما بلغ من سعة الاطلاع يجمع من ذلك عشرة أو دونها ، ألست تراهم فى مقام الاحتجاج لفضل رسول الله فى البلاغة ، وتصريفه لأعنة الفصاح لا يذكرون إلا قوله: «إياكم وخضراء الدمن» وقوله : «هدنة على دخن » وقوله «الآن حمى الوطيس» وقوله «إن من البيان لسحرًا» إلى قليل مما اقتصرت عليه الكتب المتداولة بيننا ، فأما هذه الكثرة المستفيضة فإنا لم نعهدها فى غير هذا الكتاب ، ولا لغير هذا العالم الجليل الذى رأى من الوفاء لجده أن يذيع فضله على هذا النحو الذى نراه فى كتابه» .

وهذا تقدير صائب للكتاب خطته براعة باحث كبير بذل جهدًا شاقًّا فى تصحيحه وتحقيقه ونشره حتى تتداوله الأيدى ، جميل الطبع ، بارع التحقيق .

ولنترك الشريف إلى ابن الأثير ، فنذكر أنه اهتم بأحاديث الرسول ﷺ فى كتابه المثل السائر اهتمامًا ينبئ عن تقديره وإكباره بحيث لا يكاد فصل من فصوله يخلو من استشهاد نبوى يقرن بالاستشهاد بكتاب الله وقد دل فى اختياره هذا على سعة التتبع، وسلامة الطبع ، وحسن الاهتداء إلى المراد من المعانى الدقيقة فى أحاديث محمد ابن عبد الله .

كما أنه أحسن تخريج طائفة من الأحاديث المحمدية التى تحتمل أكثر من معنى واحد مثل قول رسول الله : «إذا لم تستح ، فاصنع ما شئت»[1] وقوله : « ذلك رجل لا يتوسد القرآن »[2] وقوله : « أطولكن يدًا ، أسرعكن لحوقًا[3] بى »[4] وقوله فى الدعاء على بعض المشركين : « اللهم اقطع أثره »[5] وقوله : « من جعل قاضيًا فقد ذبح نفسه بغير سكين »[6] . إلى مانحا هذا النحو من المقال كما أفاض فى الاستشهاد بأحاديث الرسول فى أبواب الإيجاز والتشبيه والكناية والسجع والغريب ، وخص بابًا بجوامع الكلم النبوية أشار فيه إلى روائع مختارة من قلائد محمد ، وقد أدهشنى أن يقول ص ٤٩ أنه أول من نبه عليها ، وهى مشتهرة ذائعة فى كتب السابقين من أمثال الجاحظ ، وأبى هلال ، والشريف ، وكل ذلك لا يجعل ابن الأثير ، صاحب

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ٣٤ .

(٢) ص ٣٤ .

(٣) هذه رواية المثل السائر وروايات الصحاح هكذا : « أسرعكن لحاقًا بى أطولكن يدًا » - « التاج » ، ج ٣ ، ص ١٠٤ .

(٤) ص ٣٧ .

(٥) ص ٤٦ .

(٦) ص ٤٦ .

مزية كبرى فى الحديث عن بيان محمد ، فأكثر متحدثى الأدب والنقد فى الكتب القديمة يفعلون ما يفعل ، إنما الذى يوجب حمده الخاص بينهم هو اهتمامه الزائد بقضية الاقتباس من البيان النبوى ، فقد دعا إلى ذلك فى إلحاح متكرر ، وضرب عشرات الأمثلة عليه من رسائله وإنشائه ، وتلك التى توجب أن نقف لديها بعض الوقت دارسين .

نحن نعلم الآن أن الكتابة الأدبية تعبير لا اقتباس ، فإن الكاتب الحق هو الذى يعبر عن مشاعره بأسلوبه الخاص ، دون نظر إلى قول سابق إلا ما ندر من الاستشهاد بآية أو حديث أو حكمة. وإن محاولة الاقتباس من السابقين والمحاكاة للسائقين تضاءل كثيرًا من الشخصية الأدبية للكاتب البليغ إذا كثرت كثرة توجب النظر ، ولكن ما نعلمه الآن قد كان قريبًا أمرًا غير مسلم به من الكثيرين ، فمدرسة «عبد الله فكرى» التى تجمع أمثال «حفنى ناصف ، ومحمد المويلحى ، وتوفيق البكرى ، وإبراهيم اليازجى» من أساتذة النثر الأدبى فى مطلع عصر النهضة كانت تباهى بالاقتباس الكثير ، وتراه أدل على الاطلاع والثقافة ، وقد ألحف فى ذلك السيد توفيق البكرى إلحافًا جعل جل ما كتبه فى صهاريج اللؤلؤ يكاد يطير إلى أصوله الأولى بين آثار الفطاحل من أئمة العصور الزاهرة ، والسيد لا ينكر ذلك بل يباهى به فى مقدمة الصهاريج محتفلاً فاخرًا ، فإذا كانت هذه نظرة فريق من أدبائنا فى مفتتح هذا القرن إلى الاقتباس ، فإن نظرات السابقين من أمثال ابن الأثير إلى ضرورة الاقتباس الأدبى من الآثار السالفة ، لا تعتبر غريبة عجيبة ، وبخاصة إذا كان هذا الاقتباس الجيد من القرآن والحديث ، فإنه الشرف الذى لا يطاول والمجد الذى لا ينال ، ولكى ننصف ابن الأثير نعلن أنه احتاط فى الأمر فلم يدع إلى أن تكون الكتابة مجرد اقتباس ، بل قال فى يقظة داعية :

«ولا أريد بهذه الطريقة أن يكون الكاتب مرتبطًا فى كتابته بما يستخرجه من القرآن الكريم ، والأخبار النبوية ، والشعر ، بحيث إنه لا ينشئ كتابًا إلا من ذلك بل أريد أنه إذا حفظ القرآن الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار ، ثم نقب عن ذلك تنقيب مطلع على معانيه مفتش عن دفائنه ، وقلبه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف فيما ينشئه من ذات نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية[1] .

وقد فطن ابن الأثير الى اعتراض مهم يتعلق برأيه بالاقتباس الأدبى من الحديث النبوى فارقًا بينه وبين الاقتباس من القرآن ، إذ إن الذكر الحكيم قد حفظ جميعه فكل مقتبس منه معلوم ملحوظ ، أما الحديث المحمدى فإن الأدباء يجهلون منه أكثر مما يعلمون ، فربما كان فى الاقتباس من بعضه خفاء لا يدرك ، وقد أجاب عن ذلك بأن كتاب الشهاب فى الحديث مختصر مفيد فإذا أضيف إليه ما فى الصحاح من مجموعات البخارى ومسلم ، ومالك ، والترمذى ، والنسائى ، فقد وجد الكاتب زادًا لا ينفد ، ولا يجهل ، ثم شرع ابن الأثير يتحدث عن مقدرته على اقتباس الأحاديث وكيف أنه تحدى بعض آثار نبوية فأحسن الاقتباس منها ، وجاء غرة فى رسائله وكتبه ذاكرًا أن متحديه قد حسده على براعته وظهر أثر ذلك فى صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وقد أسهب الكاتب فى ذلك إسهابًا طويلاً ، وتلك شنشنة نعرفها من أخزم ، ثم أخذ يضرب الأمثلة على جودة اقتباسه من الحديث النبوى فأفرط وأطال حتى ملأ الصفحات ذوات العدد ، ونحن نختار نماذج مقتبساته كما رواها - قال ابن الأثير :

١ - فمن ذلك ما ذكرته فى دعاء كتاب من الكتب وهو أعاد الله أيامه من الغير ، وبين بخطر مجده نقص كل خطر ، وجعل ذكره زاداً لكل ركب ، وأنسا لكل سمر ، ومنحه من فضله مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر .

---

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ٧٨ .

وهذا المعنى مأخوذ من الحديث فى وصف الجنة فنقلته إلى الدعاء[1] .

٢ - ومن ذلك ما ذكرته فى النصرة على العدو فى موطن القتال وهو: أخذنا نسبة رسول الله فى النصر الذى نرجوه ونبذنا فى وجه العدو كفًّا من التراب ، وقلنا: شاهت الوجوه ، فثبت الله ما تزلزل من أقدامنا ، وأقدم حيزوم فأغنى عن إقدامنا» .

وهذان المعنيان أحدهما مأخوذ من حديث غزوة حنين ، وما فعله رسول الله ﷺ فى أخذ قبضة من التراب وإلقائها فى وجوه الكفار وقوله: «شاهت الوجوه» ، والمعنى الآخر المأخوذ من حديث غزوة بدر ، وذلك أن رجلاً من المسلمين لاقى رجلاً من الكفار ، وأراد أن يضربه فخر على الأرض ميتًا قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتًا من فوقه وهو يقول: «أقدم حيزوم» فجاء إلى النبى ﷺ وأخبره فقال: «ذلك مدد من السماء الثالثة»[2] .

٣ - ومن ذلك ما ذكرته فى ذم بعض البلاد الوخمة ، فقلت: ومن صفاتها أنها مدرة مستوبلة الطينة مجموع لها بين حر مكة ولأواء المدينة ، إلا أنها لم يأمن حرمها فى الخطفة ، ولا نقلت حماها إلى الجحفة ، وفى هذه الكلمات القصار آية من القرآن الكريم ، وخبران من الأخبار النبوية ، فالآية رقم «٦٧» من سورة العنكبوت ، وهى قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾ وهذا موضع يختص بالأخبار لا بالآيات ، غير أن الآية جاءت تبعًا ، وأما الخبران فالأول منهما قول النبى ﷺ: «ومن صبر على حر مكة ولأواء المدينة ضمنت له على الله الجنة ، وأما الثانى فقوله ﷺ فى دعائه للمدينة «اللهم حببها إلينا ، كما حببت إلينا مكة وانقل حماها إلى الجحفة» فانظر أيها المتأمل إلى

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٣٠ .

(٢) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٣١ .

هذه الكلمات حتى تعلم أن عدتها مصوغة من الآية والخيرين سواء بسواء ، وهنا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان[1] .

ثم استطرد الكاتب ينقل من إنشائه نماذج كثيرة لما اقتبسه من أدب الرسول ، وهو بذلك أول من بسط قضية الاقتباس من الأدب النبوى بسطًا لا مزيد عليه، وأوسعها شرحًا وتعليلاً ، وردًّا وتمثيلاً ، فاستحق بذلك أن نختاره من بين من تحدثوا بإفاضة عن بيان الرسول ، ولكنه كان فى حاجة ماسة إلى أن يتخلص من ادعائه العريض ولو فى تعليقاته على الاقتباسات النبوية على الأقل فلا يسئمنا دائمًا بمثل قوله ، وهذا طريق لو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان ، وغيره مما ينحو نحاه الادعائى ، إذ إن مجال التعليق على الاقتباس النبوى لا يستدعى هذا التبايه الزائد والغرور العريض ، وحسبه أن ملأ كتابه فى الأبواب الأخرى بما يدل على أنه كان مريضًا بعشق الذات - كما يقول العلم الحديث - إلى حد سئمته النفوس حتى أجاز لنفسه أن يقول فى غطرسة مضحكة .

«ولقد مارست الكتابة ممارسة كشفت لى عن أسرارها ، وأظفرتنى بكنوز جواهرها ، إذ لم يظفر غيرى بأحجارها ، فما وجدت أعون الأشياء عليها إلا جل آيات القرآن الكريم والأخبار النبوية وجل الأبيات الشعرية ، وقد قصرت هذا الفصل على ذكر وجوهها وتقسيمها وتمهيد الطريق إلى تعليمها ، فمن وقف على ما ذكرته علم أنى لم آت شيئًا فريًّا ، وأن الله قد جعل تحت خواطرى من الأفكار سريًّا، وهذه الطريق يجهلها كثير من متعاطى هذه الصناعة ، والذى يعلمها منهم يرضى بالحواشى والأطراف ، ويقنع من لآلئها بمعرفة ما فى الأصداف ، ولو استخرج منها ما استخرجت ، واستنتج ما استنتجت لهام بها فى كل واد ، وتزود إلى سلوك طريقها كل زاد» .

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

لو يسمعون كما سمعت حديثها   خـروا لعـزة ركعًا وسجـودًا[1]

وكان على ابن الأثير أن يستدل بمقتبسات غيره من الأدب النبوى كـما اسـتدل بمقتبسات نفسه ، ولكنه يغفل ذلك إغفالاً ليتسنى له أن يقـول: «وهـذا طريـق لـو ادعيت الانفراد بسلوكه لما اختلف على فى الاعتراف به اثنان» .

مع أن كبار الناثرين سواء كالجاحظ، وابن المقفع ، وأبى حيان ، والخـوارزمى، والهمذانى قد اقتبسوا جميعًا من أدب الرسول ، بل إن الشعراء أيضًا قد حـازوا هـذا الشرف ، وكنت أقرأ قريبًا كتاب «ديوان المعانى» لأبى هلال العسكرى فرأيته يـذكر نصوصًا كثيرة نثرية وشعرية ، ويشير إلى مصدرها من الأدب النبوى ، ومن ذلك فى باب الاقتباس الشعرى قول عمر بن أبى ربيعة :

خرجت غداة النحر أعترض الدمى   فلم أر أحلى منك فى العين والقلـب
فـو الله مـا أدرى أحـسنا رزقتـه   أم الحب يعمى مثل ما قيل فى الحـب

قال أبو هلال فإنه مـأخوذ مـن قـول رسـول الله ﷺ: «حبـك الـشىء يعمـى ويصم»[2] .

وقال الأشعر الجعفى فى وصف الخيل :

ولقد علمـت على توقـى الرّدى   أن الحصون الخيل لا مدر القرى

قال أبو هلال فقد قاله فى معنى قول رسول الله عن الخيل «ظهورها حرز»[3] .

وقال الشاعر :

وأغيبت الزيارة لا ملالاً   ولكن من محاذرة الملال[4]

(١) « المثل السائر » ، ج ١ ، ص ١٣٣ .
(٢) « ديوان المعانى » ، ج ١ ، ص ٢٢٨ .
(٣) « ديوان المعانى » ، ج ٢ ، ص ١٠٨ .
(٤) « ديوان المعانى » ، ج ٢ ، ص ٢٤٠ .

قال أبو هلال: وهذا من قول النبى ﷺ : « زر غِبًّا تزدد حُبًّا » .

وقال المرار الفقعى :

نقطع بالنزول الأرض عنا وبعد الأرض يقطعه النزول

فقال أبو هلال تعليقًا عليه: وهذا مأخوذ من قول رسول الله ﷺ : «ألا إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن المنبت لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى»[1] .

وغير ذلك كثير لدى أبى هلال .

حسب ابن الأثير أن أجاد عرض قضية الاقتباس من الأدب النبوى ، فبسط مضمونها ، وفند شبهها واستدل عليها ولو من إنشائه وحده.. ولهذا اخترناه .

* * *

(١) « ديوان المعانى » ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

(2)
ثلاثة من المعاصرين
يتحدثون عن محمد الأديب

ظل الأستاذ مصطفى صادق الرافعى يحمل راية القرآن الكريم فى الجبهة الإسلامية ، مدافعًا عن دينه ولغته وأدب عروبته طيلة حياته الأدبية ، وكان قلمه موهوبًا مهيبًا من الذين يلحدون فى آيات الله ، ومعجزات رسوله ، كما كان حييًّا قريبًا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فأولئك الذين هداهم الله ، ولقد ظفرت السيرة المحمدية فى هذا العصر بمؤلفات مجيدة لأفذاذ أماثل من رجال الأدب والتاريخ ، ولكن الذين كتبوا عن البيان النبوى قليلون قليلون ، ولا أدرى كيف يكتب مؤرخو السيرة النبوية فى عصرنا مجلدات مطيلة فى حياة صاحب الدعوة الإسلامية ، ثم لا يطلقون لأقلامهم العدل فى تحليل بلاغته عليه الصلاة والسلام ، وهم يعلمون مكانها من نجاح الرسالة وانتشار الدعوة ، ولعل هؤلاء الأفذاذ ظنوا ذلك من صنيع مؤرخ الأدب لا كاتب التاريخ ، ولو فطنوا إلى واجبهم الأكيد فى دراسة البيان النبوى باعتباره المعجزة الأولى لصاحب الدعوة لأفاضوا فى تحليل الأدب النبوى إفاضة شافية ، لا جملاً مقتضبة تساق استطرادًا دون أن تعقد لها الفصول ، ولعل من توفيق الله أن يكون الأستاذ مصطفى صادق الرافعى قد اختص البيان المحمدى بنحو سبعين صفحة ألحقها بكتابه الشهير «إعجاز القرآن» ، ثم عاود الكرة حين كتب فصلاً تحليليًّا بارعًا من الأدب المحمدى كان مفتتح الجزء الثالث من «وحى القلم» ، وهو صنيع مشكور ، لا يقاس به صنيع معاصر آخر ممن أولوا بيان محمد ﷺ جانبًا من الاهتمام .

بدأ الرافعى حديثه عن البلاغة النبوية بمقدمة لا يخطها فى العربية إلا أديب كبير من أولئك الذين اشتهروا بنمط خاص من البيان ، يرتفع ويحلق متخذًا جناحيه القويين من الإلهام النافذ والبيان الناصع ، فهو يقول فى نسق شعرى قد اشتهر به وعرف عنه: «هذه هى البلاغة الإنسانية التى سجدت الأفكار لآياتها ، وحسرت العقول دون غايتها ، لم تصنع وهى من الأحكام كأنها مصنوعة ، ولم يتكلف لها وهى على السهولة بعيدة ممنوعة .

الألفاظ النبوية يعمرها قلب متصل بجلال خالقه ، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه ، فهى إن لم تكن من الوحى ولكنها جاءت من سبيله ، وإن لم يكن لها منه دليل ، فقد كانت هى من دليله ، محكمة الفصول حتى ليس فيها عروة مفصولة ، محذوفة الفضول حتى ليس فيها كلمة مفضولة ، وكأنما هى فى اختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم ، وإنما هى فى سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ إن خرجت فى الموعظة قلت أنين من فؤاد مقروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح ، فى منزع يلين فينفر بالدموع ، ويشتد فينزو بالدماء ، وإذا أراك القرآن أنه خطاب السماء للأرض أراك هذا أنه كلام الأرض بعد السماء» .

كلام رائع ساحر يزينه أن جاء فى مقدمة بحث علمى عن أفصح البلغاء ، ولو تخفف الرافعى قليلاً من طريقته البلاغية فيما بعد المقدمة من الفصول العلمية لأفاد قارئه أكثر مما أفاد ، لأن الكاتب الكبير رحمه الله قد عالج الأسلوب العلمى فى مباحثه المحمدية بطريقته الأدبية ذات المعانى المتداخلة والتحليق الطائر ، إلى حيث لا تقتنص فوائده إلا بعد كد وامتناع ، وهذا ما جعل كتابته عن الإعجاز القرآنى والبلاغة المحمدية لا تفيض على القارئ بكل ما حملها الكاتب الضليع من أفكار.. وقد جاءه ذلك من طبيعته الأدبية التى تدق وتدق حتى لتخفى على النبهاء فضلاً عن المتوسطين ، وأذكر أن أستاذنا الدكتور «عبد الوهاب عزام» رحمه الله قد قال مرة عن أسلوب الرافعى: إنه يعلو عليه أحيانًا فلا يكاد يدرك إلا أنه مرتفع وأنه فى

السماء ، أما ما تضمن من جميع المعانى فذلك ما غاب عن عزام فما ظنك بسواه من أمثالنا[١] .

بدأ الرافعى حديثه بفصل من فصاحة محمد ﷺ ، فوازن بينه وبين فصحاء العرب ، إذ كانوا يهذبون الكلام ، ويبالغون فى تجويده عن نظر متقدم وروية مقصودة وعن تكلف يستعان له بأسلوب الإجادة التى لا تسلم حينًا من عيوب الاستكراه والزلل ومن كلمة غيرها أليف ومعنى غيره . أراد أما رسول الله فقد كان لا يتكلف ولا يقصد إلى ترتيبه ، ولا يبغى إليه وسيلة من وسائل الصنعة، ولا يجاوز به مقدار الإبلاغ فى المعنى الذى يريده ، ثم لا يعرض له فى ذلك سقط ولا استكراه ولا تستزله الفجأة وما بيده من أغراض الكلام عن الأسلوب الرائع وعن النمط الغريب وطريقته المحكمة بحيث لا يجد النظر طريقًا يتصفح منه صاعدًا أو منحدرًا، ثم أنت لا تعرف له إلا المعانى هى إلهام النبوة ، ونتاج الحكمة ، وغاية العقل ، وما إلى ذلك مما يخرج به الكلام ، وليس فوقه مقدار إنسانى من البلاغة والتسديد وبراعة القصد والمجىء فى كل ذلك من وراء الغاية[٢] .

وقد انتفع الرافعى فى حديثه عن الفصاحة بما قاله الجاحظ ، وأربى عليه بقوة التخريج وتعدد ضروب الافتتان ، لأن الجاحظ على تحدره وانصبابه لم ينبسط انبساط الرافعى فى القول بل طوى الكثير ، أما الرافعى فقد تحدث عن مولد محمد فى بنى هاشم ، وخئولته من بنى زهرة ، ورضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشئه فى قريش ، ومهاجرته إلى الأنصار مما يمد له من أسباب الفصاحة والإبداع ، وأذكر أنى فى باب (القرآن أستاذ محمد) من هذه الرسالة قد حكمت بأن ذلك كله من قبل العوامل المساعدة فقط ، فكم من العرب نشأ نشأة محمد ولم يبلغ درة من إبداعه البيانى ، فالله أعلم حيث يجعل رسالته ، ثم أفاض الرافعى فيما أفاض فيه الجاحظ

(١) « الأوابد » للدكتور عزام ، ص ٢٠٩ .

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣١٤ .

من أن العرب لسن مقاول ولو علموا عن الرسول شيئًا من العجز البيانى لنددوا به، وذهبت فى ذلك خطبهم وقصائدهم كل مذهب ، لاسيما وقد سفه أحلامهم ، وعاب آلهتهم ، والمولعون بالنقد الأدبى يجدون فيما تشابه من كلام الرافعى والجاحظ مجالاً للموازنة البارعة بين السابق واللاحق مما لا نطمع فيه الآن .

كما أسهب الأستاذ الرافعى فى الحديث عن صفات محمد الجسمية وحلاوة منطقه وبلاغة صوته ، ووشى ذلك بطابعه الأدبى المعهود ، إذ يقول عن محمد :

«وانظر كيف يكون الإنسان الذى تسع نفسه ما بين الأرض وسمائها ، ويجمع الإنسانية بمعانيها وأسمائها ، فهو فى صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، وفى صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك ، وما خص بتلك الصفات إلا ليملأ بها الكون ، ويعمه ، ولا كان فردًا فى أخلاقه إلا لتكون من أخلاقه روح الأمة» .

وإذا رجعت النظر فى تلك الصفات الكريمة ، واعتبرتها بآثارها ومعانيها رأيت كيف يكون الأساس الذى تبنى عليه فراسة الكمال فى نوع الإنسان من دلالة الظاهر على الباطن ، وتحصيل الحقيقة الإنسانية التى هى بطبيعتها روح الإنسان فى أعماله أو أثر هذا الروح أو بقية هذا الأثر ، فإذا تأملتها منسقة ، وتمثلتها قائمة فى جملة النفس ، وأنعمت على تأمل صورها الكلامية بالمعنى فإنك ستجد فى ذلك أبلغ ما أنت واجده من الأساليب العصبية فى هذه اللغة وأشدها وأحكمها مما يضطرب به الضعف ولا تزايله الحكمة ولا تخذله الروية ، ولا يباينه الصواب بل يخرج رصينًا غير متهافت ، ونسقًا غير متفاوت ، لا يغلب على النفس التى خرج منها بل تغلبت عليه ولا تسترسل به المخيلة بل يضبطه العقل ، ولا يتوثب به الهاجس بل يحكمه الرأى ، ولا يتدافع من جهاته ولا يتعارض من جوانبه ، بل تراه على استواء واحد فى شدة وقوة واندماج وتوثيق ، وهذا هو الأسلوب العصبى الممتلئ الذى قلما يتفق منه إلا القليل لأبلغ الناس وأفسحهم ، وقلما يكون أبلغهم وأفسحهم فى كل دهر إلا عصبياً على تفاوت فى نوع المزاج وحالته ، فإن من الأمزجة العصبى البحت ،

والمنحرف إلى مزاج آخر ولكل من النوعين حالة قائمة بالكلام ، وصف خاصة بالأسلوب(١) .

لقد أسرفت بعض الشيء فى الاقتباس من كلام الرافعى ، لأعطى القارئ صورة أمينة من أسلوبه العلمى ، وليرى معى كيف دق فى بعض المواضع دقة لم تسفر بجلاء عن كل ما يريد - ولو لمثلى - ممن لا يفهمون غير المطرد الصريح ، ولكل وجهة هو موليها .

أما ما ذكره الرافعى ابتداءً من صفحة ٣٢٧ عن إحكام منطقه ﷺ ، فقد جاء بديعًا صائبًا .

إذ علل صمت الرسول وتجمعه قبل الحديث تعليلاً نفسيًّا رائعًا ، فأبان كيف يمر منطقه ﷺ بالفكر قبل أن ينطلق إلى الفم، وأظهر أن العقل فيه من وراء اللسان، فهو غالب عليه مصرف له ، حتى لا يعتريه لبس ، ولا يتخونه نقص وليس إحكام الأداء وروعة الفصاحة ، وعذوبة المنطق ، وسلاسة النظم إلا صفات كانت فيه ﷺ عند أسبابها الطبيعية لم يتكلف لها عملاً ولا ارتاض من أجلها رياضة بل خلق مستكمل الأداة فيها ، ونشأ موفر الأسباب عليها كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية(٢) .

ثم عاود رحمه الله الكرة إلى الفرق بين فصاحة محمد وفصاحة سواه من جهة إحكام المنطق وامتلائه ، فإن أحدهم يكون مهيئًا لذلك من أصل الخلقة وبطبيعة النشأة ، بيد أن طباعه لا تتوافى إليه فى كل منطق وفى كل عبارة ، بل ربما غلبت خصلة على أختها ، ، وربما تخاذلت طبيعة من طباعه ، وربما ترك لفظه لبعض الضعف فى معناه فخرج من عادته فى النطق به ، وهذه كلها عيوب تلحق الفصحاء

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٢٤ .

(٢) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٢٩ .

من جهة النفس فى ضعفها واضطرابها وغفلتها ، ولكنها لن تكون لقوى النفس معتدلها متيقظها كالأنبياء وفى طليعتهم محمد .

وفى حديث الرافعى عن جوامع الكلم ، أبدع الكاتب ما شاء فى التعليل والتحليل ، وضرب الأمثلة واستعان بالجاحظ وسواه ، ثم تطرق إلى حديث مسهب عن نفى الشعر عنه ﷺ ، فأتى بأكثر المتعارف ، وأذكر أننى ناقشته نقاشًا جوهريًّا فى ذهابه إلى تصديق ما يروى خطأ عن كسر النبى بعض الأبيات الشعرية فى نطقه ، وذلك فى الفصل الذى تحدثت فيه عن موقفه ﷺ من الشعر والشعراء ، وقد ذهب الكثيرون من الكتاب قديمًا وحديثًا إلى ما ذهب إليه الرافعى فى ذلك ، وما قلته فى مناقشة الرافعى يقال لهم أيضًا ما دامت القضية واحدة لم تتغير ، وما أحب أن أعيد هنا الحديث .

ثم تحدث الأستاذ عن تأثير محمد فى اللغة ، فنص على ألفاظ وجمل وضعها الرسول وضعًا كالمخيلة ، مرادًا بها سبل الإزاء ، وكقوله «مات حتف أنفه» ، وقوله: «حمى الوطيس» «وبعثت فى نفس الساعة» ، ثم تابع القول فيما روى من الغريب فى بعض رسائله ﷺ إلى النازحين من الأعراب ، وقد أسلفنا القول فى ذلك ، ولم يكن الرافعى أبا عذرة هذا الموضوع فقد تابع سابقيه ، وهو مالا بد منه فى مجال التأريخ للبيان النبوى إذ كل لاحق من الكتاب يضع لبنات فوق لبنات وليس فى طوق كاتب معاصر أن ينشئ الصرح المرتفع إنشاء دون أن يستعين .

أما ما ذكره الرافعى عن سمات الأسلوب النبوى من الخلوص والقصد والاستيفاء ، فقد وفق فيه أكبر توفيق ، إذ أصاب الوصف الأدبى إصابة شافية مستوفاة وقد علل اطراد السمة الأولى فى بيانه ﷺ بأنه لم يكن فى العرب من ينفذ فى اللغة وأسرارها وضعًا وتركيبًا ، ويستعد اللفظ الحر ويحيط بالعتيق من الكلام ويبلغ من ذلك إلى الصميم ما يبلغه رسول الله ، إذ تهيأ له الأسلوب العصبى الجامع

المجتمع على توفق السرد وكمال الملاءمة ، وما من فصيح إلا وهو فى إحدى هاتين المنزلتين دون ما يكون فى الأخرى على ما يلحقه من النقص فيها جميعًا[1] .

وأما القصد والإيجاز والاقتصاد على ما هو من طبيعة المعنى فى ألفاظه ومن طبيعة الألفاظ فى معانيها ، ومن طبيعة النفس فى حظها من الكلام وجهتيه: اللفظية والمعنوية فذلك مما امتازت به البلاغة النبوية حتى كان الكلام لا يعدو فيها حركة النفس ، ودانت الجملة تخلق فى منطقه ﷺ خلقًا سويًا ، أو هى تنزع من نفسه انتزاعًا وهذا عجيب حتى ما يمكن أن يعطيه امرؤ حظه من التأمل إلا أعطاه حظ نفسه من العجب .

وأما الاستيفاء فقد جاء به كلام محمد ﷺ على حذف فضوله وإحكامه ووجازته مبسوط المعنى بأجزائه ليس فيها خداج ، ولا إحالة ولا اضطراب حتى كأن تلك الألفاظ القليلة ، إنما ركبت تركيبًا على وجه تقتضيه طبيعة المعنى فى نفسه ، وطبيعته فى النفس ، فمتى وعاها السامع واستوعبها القارئ تمثل المعنى وأتمه فى نفسه حسب ذلك التركيب فوقع إليه تامًّا مبسوط الأجزاء ، وأصاب هو من الكلام معنى جمومًا ، لا ينقطع به ولا يكبو دون الغاية ، كأنما هذا الكلام قد انقلب فى نفسه إحساسًا لنظر معنوى .

قال الأستاذ الرافعى :

«ولاجتماع تلك الثلاثة فى كلامه ﷺ وبناء بعضها على بعض سلم هذا الكلام العظيم من التعقيد والعى والخلط والانتشار ، وسلمت وجوهه من الاستعانة بما لا حقيقة له من أصول البلاغة كالمجاز البعيد الذى يغوص إلى الأعمال الخيالية وضروب الإحالة وفساد الوضع المعنوى وفنون الصنعة ، وما إليها مما هو فاش فى

(١) (٢) (٣) « إعجاز القرآن » ، ص ٣٧٤ .

كلام البلغاء بعين جفاء البداوة على بعضه ، ورقة الحضارة على بعضه وهو فى الجهتين باب واحد[1] .

لقد صور الرافعى بلاغة الرسول كما تراءت له ، فأجاد التصوير على النحو الذى كان ينتظر منه ، وعلى الطريقة التى رضيها لقلمه وارتضته . وإذا كان سعد زغلول قد قال عن كتابه: «إعجاز القرآن» إنه تنزيل من التنزيل أو قبس من نور الذكر الحكيم ، فما أحرى الزعيم الكبير أن يضيف إلى قوله أو شعاع من بيان النبوة أسفره به يراع مبين !

وقد أتى دور العقاد بعد الرافعى فى حديثه عن بلاغة الرسول ، وللأستاذ العقاد أسلوبه المنطقى الرصين الذى ينتظم فحولة الفكرة ، ورصانة التعبير انتظامًا يبرأ من الحشو والفضول ، فأنت حين تقرأ العقاد تقرأ مفكرًا واعيًا مرهف الحس قوى الملاحظة ، يأخذ بمجامع موضوعه أخذًا محكمًا ، فهو يعالجه معالجة الفاحص الملم والخبير المستشف ، ثم لا يترك على إيجاز قوله وصلابة تركيبه وراءه زيادة لمستزيد .

لقد كتب العقاد العظيم كتابه الخالد « عبقرية محمد » لا ليسجل سيرة الرسول الأعظم معددًا وقائعها ومواقفها فى شتى فترات حياته ، بل ليدل على مناحى العبقرية فى سلوكه الإنسانى بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين المسلم وكفى ، ومعنى ذلك أن قارئ «عبقرية محمد» فى كل ملة ولغة ودين إذا رزق محجة الإنصاف ، فإنه يرى شواهد العبقرية النبوية كما وضحها العقاد ساطعة بلألائها الزاهر ، فيدين لمحمد بالحق الذى يثبت له الحب فى قلب كل إنسان ، وليس فى قلب كل مسلم وكفى .

وكان من المتوقع أن يخص الكاتب المبين بيان الرسول ببعض الحديث ، إذ أشاد ببلاغته فى أكثر من موضع ، أشاد بها فى باب (عبقرية الداعى) حيث تحدث

(١) « إعجاز القرآن » ، ص ٢٧٥ .

عن فصاحته ، فرأى أن الفصاحة صفة تجتمع للكلام ، ولهيئة النطق بالكلام ولموضوع الكلام ، فيكون الكلام فصيحًا وهيئة النطق به غير فصيحة ، أو يكون الكلام والنطق به فصيحين ، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب .

ثم جزم العقاد: أن فصاحة محمد قد تكاملت له فى كلامه ، وفى هيئة نطقه بكلامه ، وفى موضوع كلامه فكان أعرب العرب كما قال عليه الصلاة السلام : «أنا قرشى ، واسترضعت فى بنى سعد بن بكر » .

ثم سلك الكاتب طريقته المعروفة فى التحليل الكاشف ، والإقناع الهادف ، فقال :

«ولكن الرجل قد يكون عربيًّا قرشيًّا مسترضعًا فى بنى سعد ، ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم أو يكون صوته غير محبوب ، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل ، أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيِّن فصْل يحفظه من جلس إليه» .

اتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها ، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها ، فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم .

فهذا أيضًا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها ، فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل على أنه قد أوتى حقًّا جوامع الكلم، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء مارزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام[1].

(١) « عبقرية محمد » للعقاد ، ص ٢٩ .

فها أنت ذا ترى العقاد قد سلك سبيل التحليل الفكرى ، حين قلب الأمر فى الفصاحة على أوجهه الثلاثة ليبين كيف تكون الفصاحة صفة فى الكلام دون هيئة النطق ودون موضوع الكلام ، وكيف تكون صفة فى الكلام وهيئة النطق وحدهما ، وكيف تجتمع فى النواحى الثلاث اجتماعًا يلتمس شاهده من حياة الرسول الأعظم، وهو ما عناه من موضوعه. فشفى حاجة النفس فى التحليل الكاشف والإقناع السديد. طيب الله ثراه .

وفى فصل خاص عقده العقاد عن محمد البليغ ، طالعنا الكاتب الكبير رأيه فى البلاغة النبوية حين بدأ الحديث بقوله فى إصابة وتحديد :

«اللهم ، هل بلغت ، هذه هى اللازمة التى رددها النبى فى أطول خطبه الأخيرة وهى خطبة الوداع ، وهى لازمة عظيمة الدلالة فى مقامها ، لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات ، فما كانت حياة النبى كلها بعملها وقولها وحركاتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه الصلاة والسلام ، وهو يجود بنفسه: «جلال ربى الرفيع فقد بلغت» ولصدق هذه الدلالة نرى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الإبداع قبل كل سمة أخرى ، بل هى السمة الجامعة التى لا سمة غيرها لأنها أصل شامل لما تعرف من سمات هى منها بمثابة الفروع»[(1)] .

ومضى الكاتب يستشهد بنماذج مختلفة من آثار الرسول من قصة ، وخطبة ، ورسالة ، ومعاهدة ليثبت أن الإبلاغ هو السمة المشركة فى أفانين هذا الكلام جميعًا ، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرءوسين ، أو مجرى الدعاء الذى يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله ، ثم ختم هذه النماذج المختلفة بتحليل كاشف يوضح السمة البارزة التى رآها الكاتب تطبع أسلوب النبى ﷺ بطابع

(١) « عبقرية محمد » ، ص ٩٥ .

فريد، وهى سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين ، وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين .

قال الأستاذ العقاد بصدد ذلك :

«فليس أقرب من هذا الأسلوب فى إبلاغ الغرض منه ، لا كلفة ولا غموض ولا إغراب ، والغريب بل ندرته فى كلام النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية ، فمحمد القرشى الناشئ فى بنى سعد ، العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبلية نائية الأطراف ، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة ، ومن ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه ، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب ، ومن ذلك ما روى عنه عليه الصلاة والسلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتفهم عنه وأنه يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة ، كما قال: «إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها» وقد عرف عن النبى عليه الصلاة والسلام فى حياته الخاصة والعامة ، أنه كان قليل الكلام معرضًا عن اللغو ، لا يقول إلا الحق ، وإن قاله فى مزاح ، فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة ، فإذا كرر اللفظ ، بعينه فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه ، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه ، فهو أيضًا سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق أو على سبيل الإعادة التى روى أنه كان يتوخاها عليه الصلاة والسلام أحيانًا ليعقل عنه كلامه[(١)] .

ثم تعرض العقاد إلى موقف الرسول من السجع ، فروى أنه كان يكره سجع الكهان إذ يخدعون السامع حين يوهمونه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ، ولا يخلو كلامه مما جاء منه على السجية ويغلب أن

---

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠٠ .

يكون ذلك فيما يرتل علانية كالآذان ، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة ، ثم استشهد الأستاذ على ذلك بقول رسول الله :

«ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله ، ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق» .

وكذلك قوله ﷺ :

«إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات ، ووأد البنات ، ومنعًا وهات ، وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال» .

ثم استشهد بنصوص أخرى من رسائل الرسول ومعاهداته ، وختمها بقوله :

«هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره وما عداه من تجميل الكلام ، فهو تجميل الإبلاغ الذى لا كلفة فيه» بعد أن قال قبيل ذلك عن سجع محمد ﷺ «إن مذهبه فى هذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل ، فحولة فى القول وفحولة فى الزينة ، فسجعه عليه الصلاة والسلام كحلية الذهب التى تليق بالرجل أن يتحلى بها ولا مزيد»[1] .

وخلص الكاتب بعد أن جال بجولة موفقة حول رسائل النبى إلى الملوك والأمراء ، إلى القول بأن أسلوب محمد فى الكتابة والخطاب أسلوب عصرى يقتدى به المعاصرون فى زماننا وفى كل زمان ، لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور ، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطًا للكلام العربى القديم والفصل بينها من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير ، ثم استشهد على ذلك بما يؤيده من البيان الشريف .

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠١ .

ولم يفت الأستاذ العقاد أن يتعرض إلى رأى النبى فى الشعر ، فأوجز ما قيل فى ذلك ، ثم ذهب إلى أن محمدًا كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى؛ لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد ، وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون ، وقد سبق أن خالفنا هذا الرأى ، وجعلنا كلام الرافعى فى ذلك مجال التعقيب والتصحيح ، وإن كانت عبارة العقاد «لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيد» أهون بكثير من قول الرافعى لأنه لو أقام وزن بيت لأمال به عمود الدين .

ثم ختم العقاد هذا الفصل الممتع عن بلاغة الرسول بكلمة عن «جوامع كلمه» ﷺ وقال بصدد هذه الظاهرة النبوية: إن الإبلاغ أقوى الإبلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار ، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد بسطها الشارحون فى مجلدات .

ومن أمثلة ذلك - كما اختار العقاد - فى علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله: «احرث[1] لدنياك كأنك تعيش أبدا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا» .

ومن أمثلة ذلك فى علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله: «كما تكونوا يول عليكم» .

ثم أردف هذا النص بإيضاح ما ينطوى عليه من قواعد أصيلة فى سياسة الأمم، «إذ يدل على أن الأمم مسئولة عن حكوماتها ، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه ، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه، والإكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه» .

---

(١) الرواية المشهورة : اعمل لدنياك . وقد بحثت عن مصدر العقاد فلم أهتد إليه على أن الحديث ينسب للإمام على فى بعض الروايات .

وينطوى فيه أن العبرة بأخلاق الأمم لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومات ، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف بالاستبداد ، ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين ، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال .

وينطوى فيه أن الولاية تبع لا تابع ، وليست بأصل أصيل ، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وأحرى ألا يغير الوالى قومًا حتى يتغيروا هم قبل ذلك .

وينطوى فيها أن الأمة مصدر السلطات على حد التعبير الحديث .

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ، ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال .

وهذا هو الإبلاغ الذى ينفذ فى جهاته كل نفاد[1] .

وهذا التحليل العلمى السياسى لا يدركه غير مفكر كالعقاد؛ إذ استطاع بمجهره الثاقب أن ينفذ إلى ما يغيب عن سواه فى دنيا السياسة والتاريخ ، وإذا جمع العقاد كل هذه الروائع فى فصل كتبه عن بيان محمد ، فأى نفع يتاح للقارئ لو ألهم هذا الكاتب الكبير أن يبدع فى أدب النبى كتابًا متعدد الفصول والأبواب .

بقى أن نشير إلى بعض ما كتبه الأستاذ «أحمد حسن الزيات» صاحب «الرسالة» عن بلاغة محمد ، وأستاذنا الزيات ممن عشقوا البلاغة العربية ، وأبدعوا بعض روائعها الجميلة ودافعوا عنها تعبيرًا وتصويرًا وتفكيرًا ، وأرخوا لأدبائها على مد العصور ، وقد كانت «مجلة الرسالة» التى رأس تحريرها أكثر من عشرين سنة تصدر كل عام عددًا ممتازًا عن محمد والدعوة الإسلامية والتاريخ العربى يشهد بمحاسن العروبة والإسلام ، ويجمع أعلام الفكر فى العالم العربى محللين للكثير عن

(١) « عبقرية محمد » ، ص ١٠٧ .

مفاخر الإسلام وتراث محمد والعروبة.. فإذا كتب الزيات عن بلاغة محمد فقد كتب فى ميدان بيعد أحد أساطينه ، وتحدث عن رجل قد امتلأ ببيانه وهداه .

عقد الأستاذ الزيات فى الجزء الثالث من «وحى الرسالة» فصلاً جميلاً عن بلاغة الرسول ﷺ وذلك عبر ما كتبه عن محمد فى تاريخ الأدب العربى ، وفى نثار متفرقة من كتابه الجليل «دفاع عن البلاغة» فتحدث فى مقال وحى الرسالة عن موقفه الشخصى من بلاغة محمد ، وتساءل هل يستطيع أن يدرك كنهها الحقيقى وهى فى لبابها من صنع الله ، ولعل الأجدر بكلام الزيات أن يتحدث بنفسه لا أن نبتره بالتلخيص والاقتضاب ، فلنسمعه إذ يقول :

«إن بلاغة الرسول من صنع الله ، وما كان من صنع الله تضيق موازين الإنسان عن وزنه ، وتقصر مقاييسه عن مقياسه ، فنحن لا ندرك كنهه ، وإنما ندرك أثره ، ونحن لا نعلم إنشاءه ، وإنما نعلم خبره ، هل يدرك المرء من آثار الشمس غير الضوء والحرارة ، وهل يعلم من أسرار الروض غير العطر والنضارة ، وهل يجد فى نفسه من أغوار البحر غير الشعور بالجلال والروعة؟ إن البلاغة النبوية هى المثل الأعلى للبلاغة العربية ، وإذا كان كلام الله كتاب البيان المعجز ، فإن كلام الرسول سنة هذا البيان ، وإذا كان البلاغ صفة كل رسول ، فإن البلاغة صفة محمد وحده»[1].

تلك مقدمة بليغة مهد بها صاحب الرسالة الحديثة ، ثم أخذ يبين كيف تجمعت فيه ﷺ خصائص البلاغة بالفطرة وتهيأت له أسباب الفصاحة بالضرورة ، إذ ولد فى بنى هاشم ، ونشأ فى قريش ، واسترضع فى بنى سعد ، وتزوج من بنى أسد ، ثم هاجر إلى بنى عمرو من الأوس والخزرج ، وهذه القبائل هى بالإجماع أخلص القبائل لسانًا وأعذبها لهجة ، والوسيلة الطبيعية لاكتساب اللغة والمنطق إنما هى المخالطة والمحاكاة ، ومضى الكاتب يتعرض موجزًا لتاريخ النبى الأعظم من

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٨١ .

تصرفه فى التجارة وضربه فى الآفاق واعتكافه فى غار حراء ، وما اشتهر من إطالة سكوته وإدامة تفكيره ، ثم استشهد بما قاله الجاحظ فى حديثه عن بيان محمد ، وخلص من ذلك كله إلى تحديد خصائص الأسلوب المحمدى فقال :

«إن أخص ما يميز الأسلوب النبوى الأصالة والإيجاز ، فالأصالة هى خصوصية اللفظ وطرافة العبارة ، تتجلى فيما كان ينهجه الرسول من المذاهب البيانية ، ويرتجله من الأوضاع التركيبية ، ويضعه من الألفاظ الاصطلاحية كقوله عليه الصلاة والسلام: (مات حتف أنفه) ، «الآن حمى الوطيس» ، «هدنة على دخن» ، «رويدك رفقًا بالقوارير» وقوله فى يوم بدر ، «هذا يوم له ما بعده ، ولتمكن الأصالة فيه» ، وكان يقتضب ويتجوز ويشتق ويبتدع فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسرًّا من أسرار اللسان ، يزيد فى ميراث اللغة ويرفع من قدر الأدب .

والإيجاز ، وهو تأدية المعانى الكثيرة بالألفاظ القليلة ، غالب على أسلوب الرسول ، لأن الإيجاز قوة فى التعبير ، وامتلاء فى اللفظ ، وشدة فى التماسك ، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح ، وقوة الشعور وقوة الذهن ، وهذه القوى كلها على أكمل ما تكون فى الرسول ، ومن هنا شاعت جوامع الكلم فى خطبه وأحاديثه حتى عدت من خصائصه »[(١)] .

ثم عرج الزيات على ما أطال فيه الرسول من القول ، حين خطب بعد العصر فقال: ألا إن الدنيا خضرة حلوة ، ألا وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، اتقوا الدنيا واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلاً مخافة الناس أن يقول الحق إذا علمه.. قال الراوى: ولم يزل يخطب حتى لم يبق من الشمس إلا حمرة فوق أطراف السعف ، وأشار إلى قدرته ﷺ العجيبة على التشبيه والتمثيل ، وإرسال الحكمة ، وإجادة الحوار ، وضرب الأمثلة الكثيرة على ذلك من البيان المحمدى ثم اختتم الأمثلة

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٧٩ .

المختارة بقوله ﷺ : «إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع، فنقر رجل منهم موضعه بفأس ، فقالوا له: ما تصنع؟ فقال: هو مكانى أصنع فيه ما أشاء ، فإن أخذوا على يده نجا ، وإن تركوه هلك وهلكوا» .

ومن عجائب التمثيل النبوى أن يفتح للبلغاء أبواب التفكير حيث يستطيل ويمتد حتى يشتمل من مجريات الحوادث ، وأعاجيب الزمان فى كل عصر مما يرى فيه البليغ الثاقب موضع التطبيق والاستشهاد ، وقد سبق أن أشرنا إلى تعليق الأستاذ مصطفى صادق الرافعى على هذا الحديث ، حيث قال مصورًا ما يلمسه فى أحداث عصره من تهور أدعياء التجديد وجرأتهم على اختراق الحق بباطل الإفك :

«فكان لهذا الحديث فى نفسى كلام طويل عن هؤلاء الذين يخوضون معنا البحر ، ويسمون أنفسهم بالمجددين ، وينتحلون ضروبًا من الأوصاف كحرية الفكر والغيرة والإصلاح ، ولا يزال أحدهم ينقر موضعه من سفينة ديننا وأخلاقنا، وآدابنا بفأسه أى بقلمه زاعمًا أنه موضعه من الحياة الاجتماعية يصنع فيه ما يشاء ، ويتولاه كيف أراد موجهًا لحماقته وجوهًا من المعاذير والحجج من المدنية والفلسفة ، جاهلاً أن القانون فى السفينة هو قانون العاقبة دون غيرها ، فالحكم لا يكون على العمل بعد وقوعه ، كما يحكم على الأعمال الأخرى بل قبل وقوعه ، والعقاب لا يكون على الجرم يقترفه المجرم كما يعاقب اللص والقاتل وغيرهما ، بل على توجه النية إليه ، فلا حرية هنا فى عمل يفسد خشب السفينة أو يمسه من قرب أو بعد ، مادامت ملججة فى بحرها سائرة إلى غايتها ، إذ كلمة الخرق لا تحمل فى السفينة معناها الأرضى ، وهناك لفظة: (أصغر خرق) ليس لها إلا معنى واحد هو (أوسع قبر) .

هذا ما أوحاه المثل المحمدى للأستاذ الرافعى ، أما ما أوحاه - هو بعينه - للأستاذ الزيات فقد عبر عنه بقوله :

«والسفينة التى ضربها الرسول مثلاً هى اليوم دنيا: الإسلام ، والعروبة تقسمها الإخوان والبنون فى عهود الضعف والانحلال ، فصار لكل منهم وطن ودولة ، ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة ، كما تجمع السفينة مواضع الركاب ، فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره ، فهو حَرِىٌّ ألا يغرق بحريته الجمع ، والوطن الجمع حرى ألا يغرق فى عبابه الوطن الفرد ، وكأن الرسول ﷺ بما آتاه الله من ألمعية الذهن ، وإشراق الروح كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، فضرب هذا المثل لجامعة الدول العربية ، لعلها تتذكر فتتدبر ، وهى بلاغة الإلهام والفيض تكشف الحجب بنور الله ، وتخترق الغيوب بنفاذ البصيرة ، وترسل الكلمة من فيض الخاطر ، وعفو البديهة فتكون حكمة الحاضر ونبوءة المستقبل(١) .

وبالزيات نختم حديثنا عما قاله نفر من أفذاذ الأدب عن بيان محمد فى القديم والحديث ، وهى أقوال دقيقة مشخصة إذا تؤملت أصدق التأمل ، وتدبرت أعمق التدبر كانت فصلاً محكمًا عن سمات الأدب النبوى ، اجتهد فى بنائه صبابة من ذوى الفكر الحرَّ والرأى الأمين .

* * *

(١) « وحى الرسالة » ، ج ٣ ، ص ٨٣ .

محمد فى (كتاب الأبطال)

ألف الكاتب الإنجليزى الكبير (توماس كارليل) كتاب: «الأبطال وعبادة البطولة» حيث اختار من أبطال العالم فى التاريخ الإنسانى من شرّفوا الإنسانية بكفاحهم المناضل فى شتى ميادين الحياة. وكان المثال الأعلى للنبى فى صورة البطل هو: محمد بن عبد الله حيث كشف الكاتب الكبير عن محاسن نادرة لرسول الله ﷺ . كاد التعصب الأعمى فى أوروبا يطمسها طمسًا ؛ كى تنصرف عنها عيون المنصفين ، وأنا لا أعرف فيما قرأتُ من الكُتب الأوروبية من خلع رداء التعصب فى حديثه عن نبى الإسلام قبل (كارليل) إذ كان من سلفه من المفكرين ، وفيهم من نعت بالفيلسوف ، أو بالمؤرخ الحجة ، وبالروائى الطائر الصيت (كدانتى) وغيرهم يشايعون أقوال الموتورين والحقدة دون فحص وتنقيب ، حتى ظهر «كتاب الأبطال» ، فمحى ظلمة الليل بنور الصباح! وأصاب بعض الناس بذهول فى أوروبا ، فحاروا فيما يقولونه عن (كارليل)؛ لأن الرجل مخلص صادق لا يبتغى فيما يقول زلفى من أحد ، وما كتبه فى الأبطال عن أمثال : (شكسبير وچيته وكرومويل) يدل على صدق أمين ، يعترف به قارئه! ولا بد أن يكون هذا الصدق الأمين رائده فيما كتب عن رسول الله ، فكيف يؤمنون بما قال عن هؤلاء ، وتعمى عيونهم عن نور الحقيقة فيما كتب عن محمد!

لقد صدق شوقى أمير الشعراء حين قال :

إنّ الذى جعلَ الحقيقة علقمًا   لم يُخْل من أهل الحقيقة جيلا !

وكارليل أحد طلاب الحقيقة الذى صدع بها فى أسماع الجاحدين .

ولا أطيل الوقوف عند رأى (كارليل) فى البطل ، حين جعله كل شىء فى قيادة الشعب وتوجيهه إلى الارتقاء ، معارضًا من يذهب إلى أن البيئة هى التى أوجدت البطل؛ فهى صاحبة الفضل الأول فى رسالته . لا أطيل الوقوف عند هذا النقاش المشتهر بين المفكرين ، فلكل وجهته التى يؤيدها بما يصطنعه من براهين ، ولكنى أحاول أن أنقل للقارئ العربى بعض هذه النفثات الحارة ، التى صدرت من قلب شجاع أمين ، فشفت صدور قوم مؤمنين . والرجل بما كتبه ليس أديبًا مؤرخًا فقط ، ولكنه صاحب رسالة عظمى فى دنيا الإبداع الفكرى ، تجعل الحقيقة وحدها هى الهدف الذى ينشده صاحب القلم ، وإن تخرص حوله الشانئون بما يأفكون ، فقد أصمّ أذنيه عن كل لغو سفيه! .

أذكر أن الكاتب الكبير الأستاذ «محمد السباعى» رحمه الله قد ترجم «كتاب الأبطال» فى العقد الثانى من القرن العشرين ، فدوّى صداه ، وتعددت طبعاته . ولكن لغة السباعى البيانية وجزالته الأسلوبية التى كانت بعض خصائصه الكتابية ، قد باعدت بينه وبين الأوساط من القراء ، فلم يتابعوه فى أفقه العالى ، وظلّ الكتاب وقفًا على خاصية المتأدبين الذين نهلوا فرائد الأدب من الأئمة المشتهرين فى العصور الزاهرة ، ثم جاء الأستاذ الفاضل (عبد الموجود عبد الحافظ) فنقل ما كتبه (كارليل) بأسلوب رائق شفاف تعجبت به الخاصة والعامة معًا ، ونشر ما ترجمه فى فصول متتابعة بمجلة الرسالة صادفت ارتياح القراء، وقربت الكاتب إلى الكافة من هؤلاء، وقد قرأت ما كتبه الأستاذ مرارًا ، فرأيت أن أعتمد على ترجمته السهلة الوافية ، غير جاحد سبق الأستاذ السباعى أو منتقص جلال أسلوبه وروعة مرتقاه !

بدأ الكاتب حديثه بوصف البيئة العربية ذات الصحراء الممتدة والحر اللافح ، والجدب الموحش ، تعيش بها عرب خفاف الحركة ثاقبو النظر ، أذكياء القلوب ، ولهم أخلاق حازمة تمنعهم من الانحدار النفسى ، وتصل بهم إلى ذروة الفضائل ، وتدفعهم إلى الكرم الفطرى دون افتعال ، فقد يجود العربى بكل ما يملك وفاءً لحق

ضيفه ، مع فصاحة لسان ينثر الحكمة البليغة فتتناقلها الأفواه . وقد نشأ محمد فى البيئة الأمية معتمدًا على فطرته الصافية وعقله المستنير ، ولا ضير عليه إن لم يكن يعرف علوم الأرض ، فقد كان فى غنى من نفسه عن كل معرفة ، وقد كان دائم التفكير فيما حوله ، يتجه ببصره نحو الكون العجيب ، محاولاً أن يستشف أسراره ، وقد ألح عليه التفكير ، فألزمه العزلة عن الناس ليتأمل هذا المحيط الزاخر بالعوالم ، وليعلل ما يهتدى إليه من خواطر تتصل بنشأة الكون ، واختلاف الليل والنهار ، مستمعًا إلى أصوات الكون الغامضة، وما تضم من الأسرار ، حتى انتهى إلى أن هذا الكون المنتظم بنجومه وشموسه وأنهاره وبحاره، وجباله وسهوله وزروعه ورماله، لابدّ أن يصدر عن إله أبدع نظمه وأكمل تدبيره ، وكانت جلسة الغار سبيله الهادى إلى ربه ، لأنها وحدة جياشة بالأحاسيس ، وليست وحدة صمّاء لا تنبض بفكر ثاقب ، أو تهدى إلى طريق مستقيم ، ثم مضى (كارليل) يتحدث عن الوحى الذى هبط مبشرًا بنور السماء ، وعن حيرة محمد ، وموقف زوجته فى رهبته وخوفه بما هو معروف لدى القارئ . ولكنّ تصوير الكاتب له يخلع عليه ثوبًا من الرواء ، يقول الكاتب: لقد عرف محمد لخديجة صنيعها ، فليس أروح لنفس المرء وأثلج لصدره من أن يجد شريكًا ينضم إليه فى اعتقاده ، ويقف بجانبه وقت المحنة . ثم استشهد بقول القائل : «ما رأيت شيئًا قط أوثق لاعتقادى ، وآكد ليقينى من أن ينضم إلىَّ إنسان آخر يوافقنى رأيى ويعتقد عقيدتى» .

ومضى يتحدث عن حلقات الكفاح الأولى وما لاقاه الرسول من متاعب شاقة قد كانت كفيلة بصده عن الدعوة ، لو لم يكن من ذوى العزم الصارم ، والثقة البالغة، حتى انتهى إلى حادث الهجرة ، وما قام به الرسول من كفاح حربى .

فقال فى قوة وحمية ، يردّ على من يأخذون على الإسلام أنه قام برد الاعتداء فى غزوات حامية ، لا مفر منها إزاء ما يتهدده من أخطار :

«لقد كان أمامه سبيل وعْر ، وقوم يملأ العناد قلوبهم ، فإذا لم يجدْ من نفسه قوةً على مجالدتهم كان مصير دعوته الزوال ، لقد كان يريد أن ينشر دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة ، ولكن ماذا يصنع أمام هذه الصعاب التى تعترض طريقه ، لقد عزم ابن الصحراء على أن يدافع عن دينه دفاع رجلٍ عربى كريم ، وكأنى أسمعه يقول: أما وقد أبت قريش إلا الحرب ، فلينظروا أى فتيان نحن؛ لقد استمر قومه فى ضلالتهم يسلبون وينهبون ويقتلون النفس التى حرم الله ، ويستبيحون الحرمات ، ويفاخرون بالمنكر يأتونه دون حياء! فما عليه إلا أن يجعل الفاصل بينهم وبينه حد السيف حتى تلين قناتهم مستسلمين ، وهكذا امتشق السيف ليقود قومه إلى النصر».

لقد تحدث الكثيرون عن انتشار الإسلام بالسيف ، واتخذوا ذلك دليلاً على الجبروت والطغيان ، وقد ردّ عليهم (كارليل) قائلاً: «لقد فات هؤلاء أن قوة هذا الدين هى التى أوجدت السيف ، هذا الدين الذى نشأ فى رأسٍ واحد ، وقد وجد العالم أجمعه يحول دون مبتغاه ، فإذا تناول السيف ليسمع الدنيا صوته القوى ، وحجته الدامغة ، نعتناه بالكذب، وانتقصنا منه دين دعوته!! إن هذا الدين ما انتصر إلا لأنه الحق؛ لأن الحق ينشر نفسه بنفسه دون حجاب! إن النصرانية لم تكن تتوانى فى استخدام السيف ، وحسب هؤلاء ما فعله (شرلمان) بقبائل الساكسون ، فلا ضير على الحق أن ينتشر سواء باللسان أم بالسنان ، لأن الحقائق يجب أن تنتشر ، ويمتد سلطانها سواء تم ذلك باللسان أم بالسنان ! إن الحرب بين الحق والباطل حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ، ونعم الحكم ما أعدله وأقسطه ، ولن نخشى على الحق الانهزام ، لأنه أعمق جذورًا ، وأكثر امتدادًا فى الطبيعة ، والزبدُ يذهب جفاء ويبقى ما ينفع الناس !

وبعد حديث شائق عن الكعبة ومنزلتها فى نفوس المسلمين ، اتجه الكاتب إلى صميم الرسالة الإسلامية ، فتحدث عن الإسلام ، معلنًا أن أكثر الناس فى أوروبا

لا يدركون جوهره الأصيل ، ولذلك يعلن لهم أن مادة الكلمة تدل على أنه هو الإذعان لأمر الله ورسوله ، والخضوع لحكمه . ومهما أصابنا من شيء فعلينا أن نتقبله بنفس راضية ، ووجه باش ، ونعلم أنه الخير ، ولولا ذلك ما اختاره الله ، وقد قال شاعر ألمانيا «جوتة» عندما عرف حقيقة الإسلام: «إذا كان هذا هو الإسلام ، وهذه تعاليمه ، فكلنا إذن مسلمون ، وذلك حقٌّ؛ لأن من كان شريفًا كريم الخلق قويّ اليقين ، فهو مسلم .

إن الإسلام والنصرانية دينان سماويّان ، ويجب علينا أن نفهم : أن الأديان السماوية تأمرنا بالتوكل على الله فى كل شىء ، وتبعاً لذلك يجب أن نزجر النفس عن الشهوات ، وننهى القلب عن الهوى والزيغ .

لقد جاء الإسلام والنصارى فرق وشيع يقيمون أسواق الجدال ، ويخطئ كل فريق منهم الآخر بالحجج الجائرة والبراهين الباطلة ، فكانوا بهذا يطعنون دينهم بأنفسهم من حيث يعلمون أولا يعلمون؛ حبًّا فى شهوة النصر ، كمن يخربون بيوتهم بأيديهم فجاء الإسلام على الملل الباطلة والنحل الكاذبة ،فدحضها وحق له أن يدحضها ، لأنها باطلة ، وهو حقيقة خارجة من قلب الطبيعة الصادقة ، وما كاد يظهر حتى زالت وثنيات العرب واختفت من الوجود ، وذهب كل مالم يكن حقًا ، وصار حطبًا التهمته نار الإسلام .

لقد اشتمل الإسلام على مبادئ عظيمة وقواعد جليلة ، والشىء الوحيد الذى يجب على الإنسان أن يلحظه هو اشتماله على روح الأديان جميعا . هذه الروح التى تلبس أثوابًا مختلفة ، وتتشكل بأشكال متعددة ، ولكنها فى الحقيقة شىء واحد .

أقول : لو كان (كارليل) قرأ قول الله عز وجل ، ﴿ **شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾** ﴾[1] .

(١) سورة الشورة : آية ١٣)

أو كان قرأ قول الله عز وجل: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾(١) لو كان (كارليل) قرأ هذين النصين لاستشهد بهما فيكون استشهاده نورًا ساطعًا يضاف إلى ما ساق من آيات بينات .

وتابع الكاتب العظيم حديثه بقوله: «لا يكون الإنسان مصيبًا إلا إذا سار على منهاج الإسلام ؛ فهو الدين القويم ، وهو منهج الدنيا الذى يتمّ به الفلاح ، وإن من فضائل الإسلام التضحية بالنفس والمال ، وهذا لا شك أعظم وأشرف ما نزل من السماء على بنى البشر فى الأرض ، فالإسلام نور الله قد ظهر فى محمد ، ذلك الرجل العظيم ، فأنار الدنيا وبدد ظلماتها ، تلك الظلمات التى كانت تنذر بالخسران المبين .

وأفاض الكاتب فى حديث القوة والعدل ، وتأكيد ما يربى الناس على الطاعة والنظام والنظافة ، والأخذ بأسباب القوة والمنعة . وإن دينًا فيه الوضوء وإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم والصوم شهرًا كاملاً فى العام ، وتحريم الخمر والميسر ، لا يكون إلا دينًا يعمل لخير البشر جميعًا ، فدخول الناس فى الاسلام لم يكن لسهولته ويسره وقلة تكاليفه ، ومن الخطأ أن يعتقد بعض الكاتبين ذلك ، لأن اعتناق الإسلام لم يكن إلا لما يثير فى نفس المؤمن من عوامل الشرف والعظمة ، ولما يبعث فى نفسه من دواعى الشرف والبطولة فهو دين عزة وتربية ، وقوة ومنعة ، وليس أدلّ على ذلك من سرعة انتشاره فى أكثر بقاع الأرض فى أقل من قرن من الزمان !

وهكذا ، نرى الكاتب لا يفتأ يردّ على من افترى على الإسلام بأنه اشتهر بالسيف لا بمبادئه ، فجاء فى ذلك بالفلق المبين ، لئن أبدع الكاتب فى حديثه عن السرّ فى انتشار الإسلام ، فإن إبداعه فى الحديث عن مزايا القرآن الكريم لا يقلّ روعة عما تحدث به من قبل .

(١) سورة البقرة : آية ١٣٦)

يقول الكاتب بعد تمهيد سديد: لقد ادّعى كثير من الأوروبيين أن القرآن خالٍ من الجمال والروعة ، وفاتهم أن الترجمة هى التى أفقدته روعته ، وذهبت بكثير من حسن صياغته وجمال صنعته ، فإذا وجد غير العربى عناء ومشقة فى فهم أسراره ، فذلك لأن الترجمة لا تصل إلى الأصل فى صفاء تعبيره وروعة تصويره . أما العربى فيحسّ أعظم الإحساس بروعة الأسلوب وعظمة الأداء ، ولذلك قدّر العرب مكانته الأدبية ، وعظموه ، وجعلوه كتابًا مُعجزًا لا يأتى بشر بمثله ، ونال لديهم من التبجيل مالم ينلْه الإنجيل عند أتقى النصارى ، وقد عجزوا عن محاكاته حين تحدّاهم الله بقوله : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾، ومنذ نزل القرآن وهو قاعدة التشريع والعمل ، والقانون المتبع فى شئون الحياة وتشابكها ، وهو مصدر أحكام القضاة يرشدون به ويهتدون بهديه . وما أبعدَ الفرق بين القرآن والكتب الأخرى ، إن تلك الكتب أصبحت كلمات لا صلة لها بالله الذى أنزلها بعد أن شوّهها أهلُها بالتحريف والتزوير .

لقد اتهم بعض الحاقدين محمدًا بأنه هو الذى وضع القرآن ، وأن القرآن ليس إلا بعض الجمل البلاغية وهؤلاء قد أعماهم التعصب البغيض عن التمييز بين الحق والباطل . وقد آن لنا أن نردّ لهؤلاء أقوالهم فى نحورهم ، ليعرفوا أن الحق لابد أن ينتصر يومًا ؛ لأن من كان صادق الحسّ ، ثاقب النظر لن يرى فى القرآن ذلك الرأى الباطل الذى لا يصدر عن عاقل ، إن القرآن لو تدبرتموه لوجدتموه جمرات ذاكية من الحق والصدق ، إنها جمرات قذفت بها فى قلب محمد الكبير ، القوة القاهرة بعد أن أذكت هذه النفس فى الخلوات الصامتات .

ولو عرفنا سيرة محمد ، لوجدنا أن تدفق الأحداث من حوله ، يحول دون التنميق المفتعل ويا لها من خطوب كانت تحدق به من كل مكان ، فقد قضى عمره قطبًا لرحى حوادث ومصادمات قاسية فى عالم كله فتن وأهوال ، وإنى لأتصور هذا

القلب الكبير وهو يتململ ليله ساهرًا ، فإذا ظهرت له بارقة أمل استبشر وفرح بنزول الخير من عند الله . ومحال أن يكون هذا القلب الكبير قلب محتال أو تكون نفسه نفس مشعوذ دجال كما يزعم الجهلة الأفاكون ، لقد كان الكون فى نظره حقيقة كبرى تدل على قدرة الخالق العظيم الذى أحسن كل شىء خلقه .

أما إعجاز القرآن ففى فضائله التى يهتف بها ، وأنا لا أهتم كثيرًا بما جاء به من الصلوات والتحميد.. هكذا يقول (كارليل) ولا نوافقه عليه ولكنى لا أملك نفسى حين أجده ينفذ إلى أسرار الكون وبواطن الأمور فيقول للناس: ﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ انظروا إلى السموات وكيف بناها ورصعها بالنجوم ، وإلى الأرض التى بسطها لتسلكوا فى مناكبها وتأكلوا من رزقه ، وقد جعلها قرارًا ، وجعل خلالها أنهارًا ، وأنبت فيها من كل زوج بهيج ، والنخل باسقات لها طلع نضيد ، ثم هذا السحاب المسخّر بين السماء والأرض ، والمطر الذى ينهمر فيحيى الأرض بعد موتها ، والسفن التى تلوح كأنها الجبال ، والأنعام التى تسقيكم مما فى بطونها من بين فرثٍ ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين ، ومن جلودها بيوت تستخفونها يوم ظعنكم وإقامتكم . لقد أفاض الكاتب فى هذا المنحى إفاضة تدل على أنه استقصى النعم التى سجلها القرآن الكريم استقصاء نيّرًا بصيرًا ، أما خلق الإنسان من سلالة من طين ، وتحوله إلى نطفة فعلقة فمضغة فقد أشار إليه فى روعة ليختم حديثه الجامع قائلا: أليس كلّ هذه آيات ناصعات تدل على قدرة الله ، وعلى أن هذا الكتاب من لدن قوى كبير يدبر الكون وفق نهج قديم! ولا ينكر هذا إلا جاهل متعصب .

ثم أفاض الكاتب فى حديث القرآن الكريم عن الجنة والنار ، فنقل من الآيات الكريمة ما يبدو جديدًا لروعته الخالبة ترهيبًا وترغيبًا للقارئ المسلم وغير المسلم ، ليخلص من ذلك إلى حقيقة عظيمة هى: أن الدار الدنيا دار عمل وكفاح ، وأن الثواب الخالص للمحسنين جزاءً بما كانوا يعملون ، والعقاب الصارم لذوى الآثام

جزاءً بما كانوا يقترفون ، وأن كل هذه الأشياء تبين لنا قيمة الإنسان فى الحياة الدنيا ، وأنه لم يخلق عبثًا ، فقد ألقيت عليه واجبات لابد من أدائها ، كل عمل إنسانى له قيمته مهما صغر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرًّا يره .

ومن دقيق ما أكده الكاتب قوله: يأخذ البعض على الصورة التى رسمها القرآن للجنة والنار ، فغلَّب الحسية والمادية عليها ، ولكن فات هؤلاء أن الصور التى رسمها القرآن ليست حسية مادية ، لأن القرآن روحانى سماوى ، وكل ما جاء فيه بصدد ذلك تلميحٌ وإيحاء والعيب فى ذلك هو عيب المفسرين والشرّاح الذين أطالوا فى تصوير المتع الحسية إطالة تدل على أنها كل شىء فلم يدعوا لشهوة حسية ، ولا لذة جنسية إلا ألحقوها بالجنة ؛ ظنًا منهم أن هذا يجذب الناس للأعمال الصالحة كما لم يتركوا عذابًا بدنيًّا ولا ألمًا حسيًّا إلا حاولوا إسناده إلى النار ، ظنا منهم أنّ هذا هو أشد رادعٍ عن المنكرات . وكان الرجلُ موفقًا كل التوفيق حين استشهد بمثل قول الله تعالى «عن أصحاب الجنة» ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾، وقوله عز وجل: ﴿ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ ، فأى رذيلة أشدّ خبثًا من الغلّ والحسد ؟ فإذا نُزِع ما فى الصدور من الغل والحسد صارت الحياة أهنأ وألذ كأنما هى الجنة التى أرادها الله ، وإن السلام والأمن والتصافى أشياء جليلة حفل بها الكتاب الكريم .

وأحبّ أن أضيف شيئًا يسيرًا حول هذا الاتجاه الخلقى الذى صوره الكاتب الكبير مأخوذًا من كتابنا الكريم ، فأقول: إن تصوير الماديات كما جاءت فى القرآن لا تعنى الانهماك فى اللذائذ والشهوات ، ولكنه يعنى أن للجسم حقه من هذه المتع ، وهو يتطلع إليها بتكوينه الطبيعى ، فلا يحرم من شىء وهو من مقوماته جسميًّا ونفسيًّا ، لذلك عرض الله هذه الصور المادية لأنها حاجات من حاجات الجسم دون مراء ، والعيب كل العيب هو الإفراط فيها ، والمؤمن الذى يرى وجه ربه فى الجنة

لا يأخذ من هذه الأشياء إلا بقدر الحاجة الضرورية ، ولا يحسب أنها باتت شغله الشاغل ، وهنا تتوازى الكفتان !

ومن أروع وأبدع ما خطه الكاتب الكبير : حديثه عن إخلاص رسول الله وصدقه ، فقد هاله أن يفترى أعداؤه الكذب عليه حقدًا وحسدًا ، فجعلوا ينتقصون فضائله اللائحة للعيان ، ولو عقلوا لأراحوا أنفسهم مما يأفكون ، والمتعصبون من أعداء نبيِّ الإسلام يسوؤهم أن تظهر حسناته على وجهها الصحيح ، وقد بهرهم نجاحه فحاولوا أن يطمسوا لألاءه بقولهم: إنه كان يريد المصلحة الشخصية لذاته والوصول إلى قمة الجاه والسلطان وحب السيطرة على النفوس ، وقد غلوا فى ذلك غلوًّا لا يصدّقه عقل ، وقد فاجأهم الكاتب بما عُرِف عنه ﷺ من أنّ قريشًا عرضت عليه الملك فأبى ، وقدمت إليه ما تملك من خزائن المال رجاء أن يتنازل عن دعوته فرفض ، فبينما كان الآخرون يتكالبون على الرئاسة والجاه ، كان ينفرد بنفسه مفكرًا فى حقائق الأشياء ومفاسد البشرية التى يجب القضاء عليها ، وكان سر الوجود يسطع لعينه ، ناظرًا ما يتهدده من المخاوف . ولكن ثقته فى الله تمده بروح من عنده ، لقد ظل قبل البعثة يتفكر فى الحياة وما قيمتها ، وفى الموت وما بعده ، وفى الأصنام الحجرية وما جدوى عبادتها ، فجاءه الجواب الحاسم فى قول الله : ﴿ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ لقد عاش محمد حياته الأولى غاديًا رائحًا ، ولكنه فى الحقيقة كان يعيش فى وادٍ من التفكير المنظم والنظر الثاقب ، وقومه فى ضلالهم يعمهون ، أفبعد هذا يزعم الكاذبون الحاسدون أنه كان يطمع فى الجاه والسلطان ، أى فائدة لرجل مثل محمد فى جميع بلاد العرب من أقصاها إلى أقصاها ! وأى خير له فى تاج كسرى وقيصر ، وجميع ما فى الأرض من عروش وهو يعرف المصير المحتوم لكل إنسان ، إذ إن كل من عليها فان ، لقد أصبح من أكبر عار البشرية أن تصغى لأراجيف

المفترين ، وأصبح من الواجب على أصحاب الحقيقة أن يكشفوا عن حسد من يلصقون التهم الكاذبة بنبى كريم ، وهل يعقل أن رجلاً كاذبًا خادعًا يستطيع أن ينشر دينًا رائعًا بين الناس ويبدع أروع الأحكام ، وأحسن القوانين ، إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يقيم بيتًا من الطوب وهو لا يعرف مواد البناء إذ لا تلبث ريح عاصفة أن تمحقه محقًا ، وبناء الإسلام ثابت كالطود تهب عليه الأعاصير فلا يتزعزع؛ أيكون من بناه كاذبًا خادعًا؟ لقد كتب (كارليل) أبدع السطور فى تحليل رسالة الإسلام ، وتمجيد الرسول الأعظم بما يجب أن يطالعه كل قارئ لأنّ هذه الصفحات القليلة التى أسطرها تلخيصٌ مبتسر بل أخشى أن يكون مشوّهًا لحقائق ساطعة تجلت فى نفثات هذا الكاتب الفياض ذى الحمية الصادقة ، ولعلى أكون قد أفلحت فى شىء واحد ، هو أن أجذب القارئ إلى مطالعة الأصل فى الإنجليزية إذا كان يحذفها ، وفيما ترجمه الأساتذة العرب من صفحاته الخالدات . وأكرر أنى اعتمدت على ترجمة الأستاذ (عبد الموجود عبد الحافظ) ، ولن أوفيه حقه من الثناء ، فهو جدير بكل تقدير ، ومن المناسب أن أختم هذه السطور بقول الأستاذ الكبير (عباس محمود العقاد) :

«لقد كانت كتابة (كارليل) متسمة بسمة الإعجاب والإنصاف ، ولا ينتظر من فيلسوف غير مسلم أن يكتب خيرًا منها عن نبى الإسلام ، ويكفى للدلالة على موقف (كارليل) أنّه أراد أن يختار مثلاً واحدًا للبطولة فى صورة نبى ، فلم يجد أحق بالاختيار فى هذا المجال من نبى الإسلام ، وكان من همه أن يفنّد كل شبهة شائعة عن الإسلام فى مبدئها ، فقال: إن الذين يزعمون أنّ محمدًا نشر دعوته بالسيف لا يتصورون ما يقولون ، إذ كانت دعوة محمد دعوة رجل واحد أمام قوم مجمعين على تكذيبه ، وليس أعجب من صورة رجلٍ واحد ، يحمل السيف ليقنع به كل منكريه !

أذكر أن بعض الناقدين قد أخذ على (كارليل) أنه فى حديثه عن الرسول ﷺ قد أخذ وجهة المحامى الذى يدافع عن إنسان ، ولم يأخذ وجهة القاضى الذى ينظر

إلى جميع الزوايا المختلفة وهو مأخذ فى غير موضعه ؛ لأن (كارليل) قد شاهد ظلمًا فادحًا من كتّاب الغرب يحيق ببطل مرموق كان فى رأيه المثل الأعلى للنبوة فانبرى للحديث عنه ؛ ليكشف ما لحقه من افتراء ، ولو وجد ما يؤاخذه عليه لذكره فى إخلاص كما فعل فى كتابه هذا مع غير رسول الله! كما أن لغة الأدب التى اصطنعها فى حديثه ليست مما ينتقد ؛ فالمؤرخ الأديب له من سعة أفقه ولطافة حسّه ، وروائع تصوره ما ليس لمؤرخ لا هم له إلا ترتيب الوقائع ومراجعة الأسانيد ؛ ليخرج بنتيجة أشبه بالرقم الحسابى الجاف دون أن يترك لدى قارئه صدى قويًّا ينقل إليه إحساس الكاتب ومشاعره فينفعل بها يفتعل به متى وجد لوائح الصدق النزيه ، والصور البيانية فى الأسلوب تقع موقعها إذا كانت لباسًا قويًّا للحقائق الخالدة ، ولم تكن بهرجًا زائفًا ينكشف أمام التفكير كما ينكشف الضباب عن وجه الشمس متى غمره نورها الأخّاذ ، وتتجلى ثقافة الكاتب الرفيعة ، ومعلوماته المتشعبة فى ثنايا أسلوبه بحيث تؤلف نسيجًا محكمًا فى ثوب متصل الخيوط متناسق الألوان ، وهو من المتانة والرصانة بحيث تزيده هذه الظلال الأدبية جمالاً ورونقًا ، وليقرأ القارئ قول (كارليل) فى بعض سبحاته :

«إن سلطان الله وعظمته لا يزالان واضحين لعينى محمد، فكل مكان أمامه مملوءٌ بقوة مجهولة، ورونق باهر أخاذ ؛ لأنّ هذا الكون هو الحقيقة الصادقة، والجوهر القوى وهو ما يسميه علماء العصر الحديث بالقوى والمادة ، ولكنهم لا يرونه شيئًا مقدسًا كما يراه محمد، بل إنهم لا يرونه واحدًا، فى أشياء متعددة، تباع وتشترى بالدرهم والدينار، ولا ينظرون إليه على أنه سرٌّ من أسرار الكون، والعلوم الحديثة من كيماويات وحسابيات قد أنست الناس ما يكمن فى الكائنات من سرٍّ إلهى يدل على عظمة الخالق، فما أشدّ هذه الغفلة لأننا إذا نسينا قوى الله فى العالم فأىُّ الأمور يستحق الذكر، فلولا سرّ الله لما كانت هذه الكائنات إلا خشبًا يابسًا ليست بالشجرة النامية التى لا تبرح تعطينا الثمر . وإذا ابتعد الإنسان عن فهم الأثر الإلهى

فى الكون لوجد العلم شقشقة كاذبة، وبقلة ذابلة ؛ لذلك كان محمد يرى العالم آية منظورة ملموسة تنطق بوجود الله ، بل إن هذا العالم هو ظلّ الله الذى علقه على صدر الفضاء، وكان يقول: إن الجبال هى أوتاد الأرض، وهى رغم عظمتها وشموخها ستصير يوم القيامة كالعهن المنفوش كما يكون الناس كالفراش المبثوث ، وستصدع الأرض وتذهب فى الفضاء هباءً منثورًا ، لقد كان (كارليل) عالمًا فاحصًا بمخبره، قبل أن يكون كاتبًا مبدعًا بيراعه .

* * *